

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة محمد خيضر - بسكرة -
قسم العلوم الإنسانية
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
شعبة التاريخ
رقم التسجيل: 05/PG/D/LMD/HIS/21
الرقم التسلسلي:

العمارة في المغرب الإسلامي في العهدين المرابطي والموحدي
-دراسة مقارنة-

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه ل م د في العلوم الإنسانية -تاريخ-
تخصص: تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي

من إعداد الطالب: سميح موهوبي
إشراف الدكتور: فتيحة شلوق

أعضاء لجنة المناقشة

الأستاذ	جامعة	الرتبة العلمية	الصفة
مغنية غرداين	محمد خيضر بسكرة	أستاذ تعليم العالي	رئيسا
فتيحة شلوق	محمد خيضر بسكرة	أستاذ محاضر أ	مشرفا ومقررا
مسعود كربوع	محمد خيضر بسكرة	أستاذ تعليم العالي	عضوا مناقشا
سالم كربوعة	محمد خيضر بسكرة	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا
صلاح الدين هدوش	الحاج لخضر باتنة 1	أستاذ تعليم العالي	عضوا مناقشا
كريم الطيب	الحاج لخضر باتنة 1	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: (1445-1446هـ / 2024-2025م)

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

شعبة التاريخ

رقم التسجيل: 05/PG/D/LMD/HIS/21

جامعة محمد خيضر - بسكرة -

قسم العلوم الإنسانية

الرقم التسلسلي:

العمارة في المغرب الإسلامي في العهدين المرابطي والموحدي
-دراسة مقارنة-

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه ل م د في العلوم الانسانية -تاريخ-
تخصّص: تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي

إشراف الدكتور:
فتيحة شلوق

من إعداد الطالب:
سميح موهوبي

أعضاء لجنة المناقشة

الأستاذ	جامعة	الرتبة العلمية	الصفة
مغنية غرداين	محمد خيضر بسكرة	أستاذ تعليم العالي	رئيسا
فتيحة شلوق	محمد خيضر بسكرة	أستاذ محاضر أ	مشرفا ومقررا
مسعود كربوع	محمد خيضر بسكرة	أستاذ تعليم العالي	عضوا مناقشا
سالم كربوعة	محمد خيضر بسكرة	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا
صلاح الدين هدوش	الحاج لخضر باتنة	أستاذ تعليم العالي	عضوا مناقشا
كريم الطيب	الحاج لخضر باتنة	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: (1445-1446هـ / 2024-2025م)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{ وَ مَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ }

سورة النحل الآية 53

الإهداء

الإهداء

إلى أمي وأبي

إلى إخوتي وأخواتي وأبنائهم

إلى الزوجة الكريمة وابنتي آلاء ورحيل

إلى جميع الأقارب والأصدقاء

إلى من لقّني حرفاً وأعطاني درسا

شكر و عرفان

شكر و عرفان

الحمد لله ربّ العالمين نحمده و نستعينه فيفضله تتمّ الصّالحات
وتتحقّق الأمنيات والسّلام على المبعوث بالخير والبركات نبينا
محمد عليه الصّلاة وأزكى السّلام، أمّا بعدُ فإنّي أتوجّه بالشّكر لله
تعالى على توفيقه، اللّهم لك الحمد كما يليق بك.

إنّه لمن دواعي العرفان أن أتقدّم بالشّكر والتّقدير إلى
الدّكتورة " شلوق فتية " لإشرافها المتواصل والدّقيق على هذه
الأسطورة عرفانا بجميلها، وما تعلّمته منها، كما يطيب لي أن أوجّه
شكري وامتناني لكلّ طاقم هيئة التّدريس، في جامعة محمد
خير - بسكرة - وأعضاء لجنة المناقشة لمجهوداتهم التّقويمية .

مَقَامَة

تُمثّل العمارة الإسلاميّة وجها للتعبير الحضاري في المجتمع الإسلامي، فهي ليست مجرد بناء ونشاط هدفه التشييد والزّخرفة، بل مثّلت انعكاسا مباشرا لتوجّهات الدول سياسيا وعقائديا، وتعبيرا عن الذّوق الفنّي والثّقافي الذي ساد في كلّ مرحلة، وقد برز المغرب الإسلامي كحاضنة لمجال العمارة وفنونها نتيجة عدة اعتبارات منها موقعه الذي جعله مركزا للتّفاعل بين المشرق وبلاد الأندلس من جهة وبيئته المحليّة الفريدة والمتنوّعة من جهة أخرى.

وقد تجسّد ذلك واضحا وجليّا في عهد دولتين قويتين ظهرتتا بالغرب الإسلامي هما الدّولة المرابطيّة (447هـ-541هـ/1056م-1147م) ثمّ الدّولة التي تلتها وهي دولة الموحّدين (524هـ-668هـ/1130م-1269م) فقد كان لكلّ من الدّولتين رؤية سياسية ودينية اتّضحت في الجانب العمراني الذي خلّفناه، فالمرابطون الذين قدّموا من الجنوب سعوا إلى ترسيخ مذهبهم المالكي فأنشؤوا المساجد الجامعة والأسوار والمدن التي تعكس تأثرهم ببيئتهم من جهة وحرصهم على العمران الوظيفي من جهة أخرى، بينما الموحّدون الذين ظهرت دولتهم من حركة دينية إصلاحية فقد أرادوا من خلال عماراتهم الخروج عن المألوف عن طريق التّجديد ورفض تقليد سابقهم.

وفي هذا السّياق فالعمارة تعكس التّطوّرات السّياسية والدينية والثّقافية حيث خلّف كلّ من المرابطين والموحّدين إرثا وطرزا معماريا من خلال بناء المنشآت الدّينية كالمساجد والمدارس والمرافق العامّة التي لا تزال آثارها قائمة إلى يومنا هذا، وجاءت هذه الدّراسة المُعنّونة بـ: "العمارة في المغرب الإسلامي في العهدين المرابطي والموحّدي -دراسة مقارنة- باعتبارها دراسة لتسليط الأضواء على منجزات الدّولتين الحضارية، مع التّركيز على الجانب العمراني، وتوضيح الفرق بين العمارتين المرابطية والموحّدية كونها شاهدا وبرهانا على مدى قوّة المرابطين والموحّدين وما وصلتا إليه من إنجازات عمرانية التي هي مرآة عاكسة للمستوى الحضاري للدّولتين.

1. أهمية الموضوع:

تكتسي دراسة العمارة في عهد المرابطين والموحدين أهميتها كونها تقدّم صور واضحة عن ملامح الثقافة العمرانية في بلاد المغرب الإسلامي وفهم مدى تأثر العمارة بالتحوّلات السياسية والدينية في فترة المرابطين والموحدين، إضافة إلى إبراز الفروقات بين عمارة الدولتين من حيث إن عمارة المرابطين كانت أكثر بساطة وتقسّفا في حين توجّه الموحّدون نحو عمارة متحضّرة ذات عظمة.

كما أنّ المقارنة بين العمارتين المرابطية والموحّدية تسهم في فهم أعمق لتطوّر العمارة في بلاد المغرب الإسلامي.

2. دواعي اختيار الموضوع:

لقد جاء اختيار موضوع العمارة في المغرب الإسلامي خلال العهدين المرابطي والموحّدي-دراسة مقارنة-عنوانا للأطروحة نتيجة عدّة أسباب نذكر منها:

➤ توجيه "اللجنة المكلفة بتقييم الدكتوراه" للموضوع كون العمران له أهمية في دراسة أسس البناء الحضاري لمجتمع الغرب الإسلامي وتاريخه في جميع المناحي السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية.

➤ سدّ النقص الحاصل في الجانب العمراني كون معظم الدراسات تناولت الجانب السياسي والاجتماعي والثقافي للدولتين.

➤ من أسباب البحث صمود العمارة الدينية المرابطية وتحديد المساجد إلى يومنا هذا في بلادنا الجزائر واندثارها في بقية المناطق.

➤ تسليط الضوء على التراث المعماري لدولتي المرابطين والموحدين وتحليل عناصر التشابه والاختلاف بين العمارتين المرابطية والموحّدية وذلك يعكس مدى التقدّم الحضاري الذي وصلت إليه دولتي المرابطين والموحدين.

➤ دراسة تأثير العمارة في الثقافة والحضارة الإسلامية في بلاد المغرب الإسلامي.

3. إشكالية البحث: يُمثل موضوع العمارة في المغرب الإسلامي في العهد المرابطي والموحدي -

دراسة مقارنة -مجالا خصبا للبحث لما يحمله من أبعاد حضارية، إذ أسهمت العمارة في حفظ

الهوية التاريخية وفهم التطور الحضاري لبلاد المغرب الإسلامي، غير أن تناول الموضوع يثير العديد من التساؤلات يركّز هذا البحث على الإجابة عليها ويتمثل الإشكال الرئيسي في :

عقد مقارنة بين خصائص ومميزات العمارتين المرابطية والموحدية والوقوف على أوجه التشابه والاختلاف في نمط العمارة الدينية، والمدنية والحربية في الدولتين.

وإنطلاقاً من هذه الإشكالية يمكن طرح عدة تساؤلات منها:

كيف أثر المعتقد والمذهب في عملية بناء المنشآت المعمارية عند المرابطين والموحدين ؟

هل يمكن اعتبار العمران كوسيلة لإظهار السلطة السياسية وتثبيتها؟

ما الخصائص المعمارية التي ميّزت عمارة كلّ من المرابطين والموحدين؟

ما أوجه التشابه والاختلاف بين المنشآت الدينية المرابطية والموحدية في المغرب الإسلامي؟

ماهي أهم المنشآت المدنية التي أقامها المرابطون والموحدون، وهل يمكن القول إنّ هناك تصوّراً خاصاً للعمارة المدنية المرابطية والموحدية أم أنّ عمارة الموحدين المدنية تكرر لما كان في العهد المرابطي؟

كيف تطوّرت المنشآت العسكرية المرابطية والموحدية في بلاد المغرب الإسلامي، وهل أدّت هذه المنشآت دورها الدفاعي في الحفاظ على الدولتين، بمعنى آخر هل اعتمد المرابطون والموحدون على استراتيجية لتعزيز دفاعاتهم وتطوير مجالاتهم الدفاعية وهل كانت هذه الاستراتيجية متشابهة في الفترتين كليهما، أم أنّ هناك إضافات وإبتكارات عمرانية جديدة؟.

4. خطة البحث

وللإجابة على هذه التساؤلات وغيرها إعتدنا خطة بحث متكونة مقدمة وأربعة فصول وخاتمة وعدد من الملاحق الموضحة للمتن مرفوقة بقائمة المصادر والمراجع ومجموعة من الفهارس كالتالي:

✓ **الفصل الأوّل** معنون بـ: "مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح إلى بداية المرابطين" تضمّن مصطلحات ومفاهيم العمارة، خصوصياتها ونشأتها كما أشرنا للإرث العمراني في بلاد المغرب إلى غاية القرن الخامس الهجري وأهمّ عناصر العمارة الإسلامية وطرزها.

✓ **واختصّ الفصل الثّاني** بـ العمارة الدّينية في المغرب الإسلامي عهدي المرابطين فالموحّدين ارتأينا تقديم هذا الفصل على العمارة المدنيّة نظرا للأهميّة التّاريخية للعمارة الدّينية وصمود بعض منها المرابطية في بلاد المغرب الأوسط مثل المساجد الثّلاثة ممّا يجعلها مرجعا أساسيا لدراسة العمارة وهي تعكس التّخطيط العمراني كون المدن كانت تؤسّس حول المسجد فأشرنا إلى بناء المساجد وترميمها حيث تناولنا بالدراسة تاريخ بنائها وتوسعتها بالإضافة إلى المؤسّسات كالمدارس والربط والكتاتيب، وخلصنا إلى عقد مقارنة وقفنا فيها على أوجه التّشابه والاختلاف بين العمارة الدّينية المرابطية فالموحّدية.

✓ **الفصل الثّالث** الموسوم بـ : العمارة المدنيّة في المغرب الإسلامي في عهد المرابطين فالموحّدين فقد خصّصناه لأهمّ العماائر المدنيّة في الفترة المدروسة، وقد اخترنا أهمّ المدن والقصور والدّور العامّة والرّئيسية والأسواق والفنادق والقناطر والأبواب، وتمّ في الأخير عقد مقارنة بين المنشآت المرابطين والموحّدين، وقد واجهت صعوبة كبيرة في رصد المرافق العامّة وبالأخصّ في العهد المرابطي لإحجاب المصادر عن ذكرها.

✓ **الفصل الرّابع** بعنوان: العمارة الحربية في المغرب الإسلامي في عهدي المرابطين والموحّدين أوردنا فيه الحديث عن العماائر الحربية المتمثّلة في القلاع والحصون والأسوار والأبراج في كلّ من المغرب الأقصى والأوسط مع ذكر بعض المبتكرات المرابطية والموحّدية والتأثيرات الأندلسية التي شملت تقريبا جميع الفصول والمقارنة بين العمارتين.

وختمنا بحثنا بخاتمة تضمنت مجموع النتائج المتوصل إليها من خلال محاولتنا الإجابة على الإشكالية الرّئيسية التي طرحناها في المقدّمة وعلى جميع التّساؤلات الفرعية، وأرفقنا البحث بملاحق توضيحية تمثلت خاصة في مخططات لبعض المنشآت المعمارية وصور فوتوغرافية لبعض المعالم التي مازالت قائمة وقائمة المصادر والمراجع.

5. الدّراسات السّابقة:

إنّه تحصيل حاصل أن يكون هناك تراكم علمي ومعرفي في ميدان العمارة والعمران في مضمار العلوم الإنسانية والاجتماعية وخاصة تخصص التاريخ والآثار، ولعرض تلك الدراسات من زاوية المقاربات والمناهج والإشكاليات التي اعتمدت لتناول الموضوع حيث نشير إلى أننا نتبع طريقة ملائمة في ذلك والمتمثلة في عرض تلك الأبحاث حسب معيار الموضوع والمقاربات بدءاً بالدراسات العربية، ثم عرض الدراسات الأجنبية المتخصصة في الموضوع. وعلينا أن نشير إلى أنّ السبب وراء ذلك هو أنّ هذه الطريقة تتيح لنا فرصة لعقد مقارنات بين جميع تلك الدراسات ممّا يفتح أمامنا الباب على مصراعيه للاستفادة من التراكبات المعرفية في الموضوع وبالتالي تجنّب تكرار نفس المواضيع.

بعد رصد الدراسات حول العمارة في الكتابات التاريخية الأجنبية، رأينا أن ننقل إلى تلك الدراسات المغربية لكي نستوفي الدراسة حقّها وقد اعتمدنا على مقارنة عرض الدراسات من العام إلى الخاص وهذا هو الخطّ الناظم لتحرير هذه الفقرة.

من بين أولئك الذين أدلوا بدلوهم في الموضوع نذكر: المؤرّخ محمد رابطة الدين، كتاب **مراكش زمن حكم الموحّدين جوانب من تاريخ المجال والإنسان**، الجزء الأول والثاني، حيث يشير الباحث في تقديمه إلى طبيعة الموضوع "وهي منوغرافية حضارية في تاريخ الغرب الإسلامي" وهي مرتبطة بجوانب مجال الإنسان زمن الموحّدين.

لماذا درس الموضوع، لأنّه عرفت الفترة المدروسة تحولات مجالية ذات علاقة بتأسيس مدينة مراكش وتطوّرها، واستفدت منه كثيرا في عمران مدينة مراكش موقعها الجغرافي، مميزات وكيفية أثر الموقع في تأسيس المدينة ولماذا حافظ الموحّدون عليها كما أنه ذكر بعض المؤسسات التي كانت فيها كالمدارس والفنادق وغيرها.

➤ خالد عزب، كتاب **فقه العمارة الإسلامية**، من الدراسات المهمة التي اهتمت بفقه العمارة، أو ما يعرف بنوازل البنين، وحسب ما ورد في مقدمة الباحث فإنّ القصد من هذه الدراسة هو توضيح عمّا وراء العمارة بطرح أسئلة حول المنشأة والخروج عن منهج الدراسات الأثرية التقليدية التي تهتمّ بالتوصيف دون التحليل معتمدا على أبرز المصادر التي اهتمت بفقه العمارة ككتاب "الإعلان بأحكام البنين لابن الرّامي" و "المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب للونشريسسي". وحاول الوقوف على أهمّ الاختلافات بين هذه

المصادر طبقا لظروف المكان والزّمان لاختلاف رؤية الفقهاء لقضايا عصرهم، واختلاف دلالات المصطلح بين مكان وآخر، وكانت استفادتي منه في مجال فقه العمران وشروط المدائن والتنظير لمكونات المدينة وإبراز الخصوصية العمرانية للمدينة الإسلامية .

➤ بن حمو محمد، كتاب "العمران والعمارة من خلال نوازل الونشريسي" وهي في الأصل رسالة لنيل درجة الماجستير تقدم بها لجامعة الجزائر بمعهد الآثار سنة 2005، أشار في تقديمه أنّه تناول نظام عمران المدن وضبط تخطيطه وردع ما يحدث فيه من مضرة للنظام، من خلال مقارنة جديدة واتّجاه جديد يعرف بفقه العمران وهو دراسة العمران من خلال كتب النوازل.

التطرق إلى إشكالية تطبيق الفكر العمراني الإسلامي على المدن، وهل كان الدّين فعلا هو الموجّه في تنظيم المدن، معتمدا على المنهج التاريخي بترتيب النوازل حسب التاريخ والأهمية ومقارنة نوازل المذاهب (المذهب المالكي، الحنفي، الشافعي، الحنبلي) وكتاب واحد في تخصّص العمران في المذهب الإباضي واستقدت منه كثيرا في مجال مكونات الدور والمشاكل الأسرية الناتجة عنها وكيف تعامل الفقهاء معها.

كذلك اهتمت بعض الدّراسات بعمارة المدن والحصون في العصور الإسلامية الوسيطة كما هو الحال مع دراسة:

➤ كتاب المؤرّخ الإسباني باسليو بابون مالدونادو والمعنونة بـ "العمارة في الأندلس عمارة المدن والحصون" التي خصّها بالمدن الأندلسية، وقصباتها وأهمّ قلاعها وحصونها كما تطرّق إلى الأسوار والأبراج والبوابات والقباب والأقبية وموادّ البناء المستعملة وأهمّ التّقنيات وطرق التّشييد.

ويتّضح من مقدّمة الدّراسة أنّه عمل لدراسة نقدية وإحصائية للعمارة الأندلسية ورغم أهمّية هذه الدّراسة في هذا المجال والتي يلمسها كلّ من يتصفّح الكتاب إلّا أنّها ركزت على الشّقّ الأندلسي فقط.

➤ مبارك بوطارن كتاب "العناصر الدينية في المغرب الأوسط" حيث تناول الكتاب أهمّ العناصر الدينية في المغرب الأوسط في الفترة ما بين القرن السادس والثامن الهجري، وكان مرجعا أساسيا عند ذكر المساجد المرابطية في المغرب الأوسط كما استقدت منه في فهم تطوّر العمارة

الإسلامية في بلاد المغرب الإسلامي حيث تناول الباحث العمارة الدّينية خلال فترات متتالية وكانت فترة المرابطين والموحّدين ضمن الدّراسة التي تناولها الكتاب.

➤ ومن الدراسات الجديدة ذات الصلة بالموضوع أطروحة دكتورة حول التراث المعماري لتلمسان في الفترتين الموحدية والزيانية من خلال أعمال الأخوين مارسى للباحثة سيرين تومي تحت إشراف إبراهيم جدلة نوقشت سنة 2025، بجامعة منوبة بدولة تونس باللغة الأجنبية -الفرنسية- لم نتمكن من الحصول عليها.

6. منهج البحث المتّبع: حيث تمّ اتباع كلّ من:

(1) **المنهج التاريخي:** القائم على تحليل التّطورات المعمارية وسرد الأحداث التي مرّت بها العمارة الإسلامية في بلاد المغرب الإسلامي والتي هي جزء لا يتجزأ من تاريخه الإسلامي في الفترة المدروسة وهي فترة المرابطين والموحّدين، البداية بترتيب العمارة الدّينية ثمّ المدنيّة وبعدها العمارة الحربية المرابطية ثمّ الموحدية وهذه الأخيرة كان تشييدها استجابة للتّحوّلات السّياسية والأحداث العسكرية حسب الفترة التّاريخية.

(2) **المنهج الوصفي:** وصف كل من العمارة المرابطية والموحدية من خلال شرح العماائر الدّينية والمدنيّة والعسكريّة، المتمثّلة بالخصوص في المساجد والمدن وتحصيناتها والأسوار وهل تميّزت بعمارة فريدة عن سابقتها من خلال تحليل إضافات الموحّدين وابتكاراتهم الزّخرفية وذلك بتحليل الفرضيات بالنّفي أو الإثبات باستخدام المنهج الاستقرائي التّحليلي.

(3) **المنهج المقارن:** الذي يتّصف بالانطلاق من الجزء إلى الكلّ أو من الخاصّ إلى العامّ وقد فرضه موضوع الدراسة انطلاقاً من وصف مختلف العماائر في الفترتين ثمّ إبراز أوجه التّشابه والاختلاف بينهما.

7. المصادر والمراجع المعتمدة:

❖ المصادر:

المصادر التّاريخية متعدّدة ومتنوّعة وقد حرصنا على الرجوع إلى أهمّها ومنها:

❖ كتاب البكري (ت 487هـ / 1049م) " المغرب في ذكر إفريقية وبلاد المغرب"، استخدمتُ الجزء الثّاني المتعلّق بالمغرب للحديث عن مدن المغرب الإسلامي كالقيروان وتاهرت وفاس

وغيرها، كما أشار إلى دولة المرابطين وبداية ظهور دولتهم خاصّة ماورد فيه من ذكر الرّبط وأعمال عبد الله بن ياسين، الذي وجّه الحركة الدّينية.

❖ كما استفدت من كتاب " البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب " لمؤلّفه ابن عذاري المراكشي الذي كان حيّا سنة (712هـ/1312م) وخاصّة ماتعلق بدولتي المرابطين والموحّدين، حيث أورد معلومات مهمّة عن المدينة العاصمة مراكش وعمرانها خلال الفترة المدروسة.

❖ من مصادر الرّحلات والجغرافيا التي عدنا إليها كتاب " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " لصاحيه محمد الشريف الإدريسي العلوي (ت 562هـ/1166م) وكان معاصرا للدولة الموحّدية فقد أورد في نزّهته الكثير من الأخبار المتعلّقة بالمدن وأحوالها العمرانية كالقيروان وفاس وتلمسان كما تضمّنت نزّهته وصفا دقيقا للمعالم الدّينية وبالأخصّ المساجد، ومما زاد من قيمته أنّه كان معاصرا للفترة المدروسة.

❖ كتاب " الاستبصار في عجائب الأمصار " لمؤلّفه المجهول الذي كتبه حوالي سنة (547هـ/1191م) وعمل في دواوين الموحّدين أمّدا بكثير من المعلومات المتعلّقة بإصلاحات الموحّدين في الجانب العمراني وخصوصا ما تعلّق ببناء المساجد والمدن والمرافق العامّة كالقناطر والفنادق.

❖ كما أفدت من كتاب " الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس " لصاحبه ابن أبي زرع (ت 726/1328م) الذي يتناول تاريخ الدّول الخمس التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب في العصر الإسلامي الوسيط، حيث ورد فيه قيام الدّولة المرابطية إلى جانب الأعمال العمرانية ليوسف بن تاشفين، والتأريخ للمعالم المرابطية كالتّحصينات الدّفاعية والأسوار.

❖ أمّا عبد الواحد المراكشي (ت 699هـ/1070م) في كتابه " المعجب في تلخيص أخبار المغرب " فيعتبر ذا أهميّة ولا يمكن الاستغناء عنه في سرد تفاصيل الدّولتين خاصّة الدّولة الموحّدية التي خصّص معظم كتابه لها، ويلاحظ له دقّته في تسجيل التّواريخ، لكنّه أحيانا يبالغ في مدح أعمال سلاطين الموحّدين ممّا يجعلنا نتوخّى الحذر عند الاعتماد عليه، خاصّة وأنّه كان مقربا منهم، فقد كان يشهد بيعة السّلطان ويشارك في مجالسه مبدّيا رأيه في سياسة الدّولة لذلك كان حكمه قاسيا على دولة المرابطين.

❖ أما كتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" لمؤلفه ابن خلدون (ت 808هـ/1406م) فيعدّ موسوعة علمية استفدنا منها في أغلب فصول الأطروحة بداية بالفصل الأول في التعريف بالعمارة والفصل الثاني متعلّق بالمساجد والفصل الثالث بالمدن والدور والفصل الرابع بالقلاع والحصون وكذلك الأسوار والأبراج ومع ذلك يلاحظ أنّه لم يخصّص للفترة المرابطية إلّا حيزًا قليلًا وإذا كان ابن خلدون قد توحّى الإيجاز في ذكره للمرابطيين فإنّنا نجد عكس ذلك في كتاب "الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى" للسلاوي أبي العباس الناصري (ت 1315هـ/1897م) ورغم بعد الفترة الزمنية لكتابه عن الفترة المدروسة، فإنّه يحتوي على معلومات قيّمة عن الفترتين.

❖ أما كتاب "الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية" لمؤلف مجهول والذي صنّفه سنة (783هـ/1381م)، فهو على صغر حجمه يحتوي على معلومات قيّمة تخصّ قيام دولتي المرابطين والموحّدين و جهادهم في المغرب والأندلس، ممّا يجعله مرجعًا مهمًا للبحث، ولكن نجد بعض التواريخ في الكتاب غير دقيقة كما أنّه لم يقصد به الأخبار عن مدينة مراكش رغم أنّ هذا الكتاب يحمل عنوانًا يجعله يبدو بين الكتب المؤلّفة في تاريخ المدن وقواعدها، إلّا أنّه تناول تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس بشكل عامّ ولم يركّز بشكل خاصّ على تاريخ مدينة مراكش وعن قصورها ومساجدها وحماماتها.

❖ كما اعتمدت في بحثي على كتاب "أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحّدين" لصاحبه أبي بكر الصّنهاجي المعروف بالبيدق (ت 594هـ/1159م) والذي كان من أصحاب المهدي، ومرافقًا له، وما يميّز هذا الكتاب أنّ مؤلّفه كان شاهد عيان للأحداث التي شهدتها دولة الموحّدين، كما أفاد الدّراسة كثيرًا لتناوله لأهمّ الحصون المرابطيّة بشكل دقيق ومفصّل وبناء الحصون والأبراج لدى الموحّدين.

❖ أمّا ابن الخطيب في كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة" فقد خصّص عدّة صفحات لتاريخ المرابطين وبنائهم للأسوار والحصون.

يلاحظ على هذه المصادر بشكل عامّ أنّها متكاملة مع وجود اختلافات في ذكر العمائر حيث ركّز بعضها على المغرب الأقصى والأندلس، كما اهتمّ بعضها بالجانب السياسي وذكر عرضا الجانب العمراني، وقد يعود ذلك إل اختلاف التوجّهات والطّابع الإيديولوجي لكلّ مؤلّف.

المراجع:

- ❖ إبراهيم حركات في كتابه المعنون بـ " المغرب عبر التاريخ والنظام السياسي والحربي للمرابطين " الجزء الأول والثاني ويعدّ من أبرز المؤلفات التي اهتمت بتاريخ المغرب الإسلامي وقد زادت أهميته كونه تناول بالتّحليل دور المرابطين والموحّدين في الجانب العمراني.
- ❖ إسماعيل العربي " المدن المغربية " حيث قدّم وصفا دقيقا لأهمّ المدن في المغرب الإسلامي كمدينة فاس ومراكش وتلمسان وتاهرت وغيرها من مدن المغرب الإسلامي معتمدا على أبرز المصادر التاريخية.
- ❖ أمّا بالنسبة للدراسات المعمارية للمعالم الأثرية فقد اعتمدت على دراسات كمال عناني إسماعيل، " الآثار الإسلامية في المغرب " أفدت منه في ماتعلّق بالمساجد عصري المرابطين والموحّدين.
- كما استعنت بكتب أجنبية كانت لها أهمية خاصّة في دراسة التاريخ والآثار المعمارية للدولة المرابطية مثل دراسات وأبحاث جورج مارسلي في كتابه " المعالم الأثرية بمدينة تلمسان "
- ❖ ومن المراجع التي استفدت منها ليوبولد توريس بالباس (1960/1888م) في كتابه " الفن المرابطي والموحّدي " حيث قدّم تفصيلا مهماً لأهمّ الملامح الفنّية والمعمارية خلال الفترة المدروسة كما قارن الفنون المعمارية خلال العهدين المرابطي والموحّدي ومما زاد من قيمة عمله كونه مهندساً معمارياً وعالم آثار إسباني معروف باهتمامه الكبير بالآثار الإسلامية كما له عديد الإسهامات الفعّالة في ترميم وصيانة العديد من المعالم الإسلامية بما في ذلك قصر الحمراء ومسجد قرطبة.
- ❖ كتاب عثمان عثمان إسماعيل " تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى " وهي سلسلة من خمسة أجزاء بداية من عصر عرب المغرب القدماء ودولة الأشراف الأدارسة وعصر أمراء زناتة إلى عصر الأشراف السّعديين والعلويين ومايهما أكثر هو الجزء الثاني الخاصّ بدولة المرابطين، والجزء الثالث الخاصّ بدولة الموحّدين، ويتّضح من مقدّمة الجزء الأول، أنّ هذه السّلسلة، تهدف إلى حصر وتقييم ماخلفته الحضارة الإسلامية في المغرب الإسلامي في جانب العمارة، وسبب اختياره للموضوع حسب رأيه الكشف عن عبقریات الإسلام وملكات ومواهب المسلمين، للردّ على خصوم الوحدة بين الدّين والدّنيا ومنكري المزوجة بين العلم

والعمل في الإسلام، معتمدا في ذلك على منهج الفكر والمنطق والمناقشة والتحليل، والاعتماد على مظاهر العمران الثابتة التي تشرح مختلف الظواهر الاجتماعية والاقتصادية دون الخضوع لضغوط علماء الاستشراق التي بقيت دراسة الآثار المغرب الإسلامي قاصرة عليهم إلى سنوات متأخرة، وقد تناول الكتاب تطوّر العمارة الإسلامية والفنون العمرانية عبر العصور المختلفة مع النّظر إلى التأثيرات الطّبيعية والتّحوّلات السّياسية والاجتماعية.

8. صعوبات الدّراسة:

انتابت سبيل إعداد هذه الأطروحة صعوبات وعوائق عديدة إلّا أنّها سرعان ما زالت مع بداية التحرير والتعمق في الموضوع ونلخص هذه الصّعوبات في النّقاط التّالية:

- ✓ الموضوع يميل إلى الدّراسات الأثرية أكثر من التّاريخية لذلك وجدت صعوبة مع البداية في فهم الموضوع لكن مع تشجيع أساتذتي المشرفة، وبعد مطالعة معمّقة للأدبيات والنّصوص التّاريخية ظهرت بعض الآفاق.
- ✓ شكّل العمل في الإدارة كمستشار للتّربية صعوبة كبيرة بين التّوفيق بين العمل الإداري والبحث العلمي نظرا لما يتطلّبه هذا المنصب من مسؤولية ووقت كبير في المؤسّسة التّربوية.
- ✓ عدم التّمكّن من الوصول إلى المخلفات المادّية والشّواهد التي خلفها المرابطون والموحدون خاصّة تلك الموجودة خارج التّراب الوطني الجزائري، أمّا ما تعلّق بالآثار الموجودة في بلادنا فوجدنا صعوبة في تحديد مواقعها وبالأخصّ في مدينة هُنين حيث إنّ مدينة تلمسان الواقعة غرب الجزائر العاصمة تزخر بإرث عمراني عريق لكن الكثير من السّكّان يجهلون قيمتها التّاريخية وأسماء مواقعها ولا يدركون أهمّيّتها الثّقافية، وتُعدّ الكتابات على الجدران والأسوار العريقة مظهرا من مظاهر الإهمال ممّا يفقد هذه الآثار جزءا من هيبتها وجمالها، فالحفاظ عليها واجب جماعي ومن الصّروري إسناد مهمّة الإشراف عليها إلى المختصّين في هذا المجال فهي ليست مجرد مبان بل شواهد حضارية لبلادنا.
- ✓ على الرّغم من الجهود المبذولة في دراسة هذه المواضيع المتعلّقة بالعمارة، إلّا أنّها لا تزال تحتلّ المزيد من الأبحاث خاصّة فيما تعلّق بفترة المرابطين والموحّدين نظرا للرّعة الجغرافية الواسعة التي سيطرت عليها الدّولتان وبقاء المعالم الأثرية التي يمكن من خلالها كشف المزيد.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين.

أولاً: تعريف العمارة

ثانياً: العمارة الإسلامية نشأتها وخصائصها.

ثالثاً: عناصر العمارة الإسلامية وطرزها

رابعاً: العمران في الفقه الإسلامي وشروط المدائن

خامساً: الإرث العمراني في المغرب الإسلامي قبل القرن الخامس الهجري

تمهيد

تَنَضَّح مظاهر الحضارة في العُمران، فهو جزء منها ومرآة عاكسة لأحوال المجتمعات وحالاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وهو ما عبّر عنه ابن خلدون بقوله: "غاية العمران هي الحضارة"¹، فالعمارة مرآة للحضارة، حيث تُمثِّل الجانب المادي والمعنوي الذي يُتيح للمجتمع أن يوفر لكلِّ عضو فيه الضمانات الاجتماعية ليعيش حياة كريمة.

فالإنسان منذ أن خُلِق وهو في سعي للتطوُّر والتأقلم مع وسطه²، كما أنَّها تكشف عن مدى التطوُّر الذي وصل إليه الإنسان، وهذا لا يكون إلَّا بنهاية الاضطراب والقلق لأنَّه إذا أَمَّنَ الإنسان واستقرَّ تحرَّرت نفسه وتطلَّع إلى عوامل الإبداع والإنشاء³، فالإنسان جزء لا يتجزأ من المجتمع الذي يمارس فيه مجموعة معقَّدة من العلاقات أساسها الممارسة اليومية في جميع الميادين ويكون العمران إحداها.

وهو من الحقائق الثابتة التي أشار إليها عبد الرحمان ابن خلدون قائلاً: "الاجتماع للبشر ضروري"⁴، فالحضارة هي ما توصَّل إليه مجتمع ما من تقدُّم في جميع المجالات بما فيها البناء والتعمير الذي هو انعكاس لمدى تحضُّر المجتمع ورفيَّه⁵، وبهذا يعدُّ علم العمران بمثابة النافذة المفتوحة على حضارة الشعوب وازدهار الدَّول أو ضعفها.

وقد شهد المغرب الإسلامي أعمالاً عمرانية وفنية منذ الأزل كان نصيبها الوافر قبل وصول الإسلام وبعده إلى المنطقة خاصَّة في عهد الدَّول الكبرى والذي مثَّله دولتي المرابطين والموحَّدين، وسنستعرض في هذا الفصل موجزاً للعناصر الإسلامية مع الإشارة إلى خصوصياتها

1- عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج1، مراجعة، سهيل زكار، ط1، بيروت، دار الفكر، 2004، ص468.

2- مالك بن بني، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1988، ص42.

3- ويل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود وآخرون، بيروت، لبنان، 1423هـ-2002م، ص3.

4- ابن خلدون، ج1، المصدر السابق، ص377.

5- عمر سليمان الأشقر، نحو ثقافة إسلامية أصيلة، ط4، عمان، دار النفائس للنشر والتوزيع، 1994، ص27.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

وموروثها العمراني، الذي خلفته الدّول التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب الإسلامي قبل القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي (5/111م).

أولاً: تعريف العمارة:

أ- لغة: مأخوذة من الفعل عَمَرَ يَعْمُرُ، عَمَرًا: فالعمارة حفظ البناء الذي يعمر به المكان¹، كما عَرَّفَهَا صاحب لسان العرب: العِمْران أو العمارة "ما يعمر به المكان"²، فأصل الكلمة عَمَر فهي إذا تعني إمّا أن يسكن أو يقطن في مكان أو أن يصبح مسكونا.

عَمَر: يعمر، عُمُورًا، وعُمُرَانًا وأصلها عمر، ويقال: عمر الرجل أي عاش طويلا ومنها يُستنتج أنّ العمارة تدوم طويلا، المال أحسن القيام عليه، ويقال أيضا: عَمَرَ ماله أي استدام وبقي وزاد فهو عامر ووفير، عمر: يَعْْمُرُ، عَمْرًا، وَعِمَارَةً الرجل صام وصَلَّى -لِرَبِّهِ وَعَبَدَهُ، عَمَرَ: يَعْْمُرُ، عُمُرَانُ: العُمُران اسم علم مذكر يراد به البنيان، أيما يعمر به البلد ويُحَسِّن حاله بواسطة الفلاحة والصناعة والتجارة، وكثرة الأهالي ونُجْح الأعمال، والتَّمَدُّن وفي هذا يقول البحري:

يُسِرُّ بِعِمْرَانِ الدِّيارِ مُضِلُّ وَعُمُرَانِهَا مُسْتَأْنَفٌ مِنْ خَرَابِهَا³

أما العمارةُ بفتح العين فهي تطلق على الحيِّ العظيم المميّز بصنّعته، مثل: أحياء الحرفيين كحي الصّباغين والدّبّاغين والنّجارين ومنها يقول جرير:

يَحُوسُ عِمَارَةً وَيَكُفُّ أُخْرَى لَنَا حَتَّى بِجَوَازِهَا دَلِيلٌ⁴.

¹ - أحمد رضا، معجم متن اللغة، ج4، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1379هـ-1960م، ج4، ص 215.

² - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ج2، ط1، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، 1993، ص223.

³ - ابن هادية علي وآخرون، القاموس الجديد للطّالِب، ط7، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1991، ص 698.

⁴ - محروق إسماعيل، العمارة الإسلامية في كتب رحالة المغرب الإسلامي من القرن 7هـ حتى القرن 10هـ/13م حتى 16م، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراة علوم، اشراف، أد معروف بالحاج، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2017/2018م ص13.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

يتّضح ممّا سبق أنّ العمارة لغة جاءت بمعاني مختلفة ومتنوعة كإعمار المكان وحفظ البناء وطول البقاء إذ جاءت هذه الكلمة في المعاجم بضمّ العين أو فتحها أو كسرهما وتصبّ هذه المعاني في مدلولات لغوية واحدة مفادها الإكثار والبناء وطول العهد والقوّة والمتانة.

ب- اصطلاحاً:

التّعريف الاصطلاحي للعمارة يقارب التّعريف اللّغوي فجميع التّعريفات متقاربة في المضمون وإن ابتعدت في اللفظ ومن هذه التّعريفات ما يلي:

جزء من أجزاء البناء ومنه اشتقت عمارة، التي تعني إعمار المنزل بالنّاس أي جعله عامراً¹، فالعمارة دلالة على البناء واسم المنازل يختصّ بها العامر وهي عكس الخراب الذي ليس به إقامة فقد شبه النبيّ عليه الصّلاة والسّلام الذي لا يحمل شيئاً من القرآن بالبيت الخرب والمهجور فعن ابن عباس قال: قال رسول الله " إنّ الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب"² وبالتالي فالعمارة تعني الحياة فيقال: عمّر الأرض بمعنى جعلها عامرة، يقال أيضاً: عمرته فعمر فهو معمور، وأعمرته الأرض واستعمرته إذا فوّضت إليه العمارة³.

وقوله تعالى في سورة التّوبة: " إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ"⁴ فهي تحتل معنى حفظ البناء أو من العمرة والتي هي الزيارة وكثرة الاعتقاد عليها وإقامة الشّعائر فيها كالصّلاة والذكر⁵، والعمارة بكسر العين هي فنّ تصميم المباني وفنّ تشكيل البنين والمنشآت⁶، فتكون العمارة طريقة البنين لخدمة

¹-أحلام عابد وبوغواص زبيدة، فنّ العمران بين التّأصيل والتّغريب، تنسيق بشير خلف، الإنسان والعمارة، الوادي، مطبعة سخري، 2013، ص111.

²-محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، ج5، تح محمد شاكر، وآخرون، ط2، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ص 177.

³-أبو المعالي الجويني، نهاية المطلب في دراية المذهب، ج2، ط1، تح، ركن الدين، دار المنهاج، 2008، ص425.

⁴-سورة التّوبة، الآية 18.

⁵-الزّاغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح صفوان عدنان الداودي، ط1، دمشق، دار القلم، 1412هـ، ص 586.

⁶-عفيف البهنسي، معجم العمارة والفن، ط1، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، 1995، ص40.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

الوظائف الاجتماعية كالسكن والتعليم وممارسة العبادات اليومية¹، فهي فن إقامة منشآت تخلق فراغات معمارية انتفاعية بأشكال متباينة تكون على درجات عالية من الجمال، في حين يُعرّف البعض العمارة بأنها: علم وفنّ وفلسفة اجتماع، فالمكان هو المركز الذي يزاول فيه الإنسان حياته اليومية، وعليه فإنّ الشعور الإنساني مرتبط بوقّع وتصاميم المكان، والعمارة بمفهومها الحضاري هي: أكثر النشاطات تجسيدا للواقع الثقافي، إذ هي عبارة عن استلهاً ومشاعر فنية تعبّر عن الخصوصيات المميّزة للعناصر البشرية، فيكون الشكل مشتقاً من عادات وتقاليده ذلك الوضع الحضاري²، وحسب رأي ابن خلدون أنّ العمران هو ضرورة اجتماعية³، وذلك أنّ الإنسان منذ القدم بحث عن مكان قار يحميه من الأخطار والأهوال الخارجية، فيكون سبباً وعاملاً لاستقراره، فالغاية من العمران هي تشييد وبناء الحضارة والثرف وأنّه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ في الانحدار كالإعمار حاله كحالة حياة الإنسان⁴.

في الوقت نفسه يرى ابن خلدون أنّ خاصيّة التّوحّش في البدو تتمثّل في عدم امتلاكهم لوطن ثابت ينتسبون إليه مع اعتمادهم على حياة التّنقّل والترحال، وفي هذا يعبّر ابن خلدون عن هذا الواقع بقوله: "فهؤلاء المتوحّشون ليس لهم وطن يرتأفون منه ولا بلد يجنحون إليه"⁵.

وعليه اعتبر ابن خلدون العرب متوحّشين لكونهم بدواً رَحَلاً بالدرجة الأولى، لا رغبة لهم في التّشييد واختطاط العمران والمكوث في بلد واحد الذي به يستقيم العمران، ثمّ لكونهم بميزتهم بعدم الانقياد لحكّامهم⁶.

¹ - يوسف البرغوثي، العمارة الإسلامية فنّ وإبداع، ط1، عمان، دار أمجد للنشر والتوزيع، 2016، ص13.

² - بلبكاي جمال وبوطي محمد نور الدّين، تأثير العمارة على السلوك الاجتماعي، تنسيق، بشير خلف، الانسان والعمارة، ط20دي13، الوادي مطبعة سخري، ص66.

³ - ابن خلدون، ج1، المصدر السابق، ص 53.

⁴ - ابن خلدون، ج1، المصدر نفسه، ص 465.

⁵ - ابن خلدون، ج1، المصدر نفسه، ص 181.

⁶ - المختار هراس، القبيلة والدورة العصبية-قراءة في التحليل الخلدوني للمجتمع القروي المغربي، الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية، ط2 2008، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص158.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

كما أنّ العمران من العمارة ويقصد به الاجتماع البشري الذي يَتِمُّ به التَّساكن والتَّعاون على شؤون الحياة، ويقصد بالعمران البشري الحياة الاجتماعية وما ينتج عنها من مظاهر اجتماعية سياسية واقتصادية وعلمية، وعلم العمران يدرس كلّ ما يحدث في هذه الحياة من ظواهر وبراهين وقرائن لا مدخل للشكّ فيها¹.

وعلى الرّغم من أنّ هذا المصطلح يعبر عن الحضارة والاجتماع البشري بشكل عامّ، إلّا أنّه يُثير الشكّ بسبب قرب دلالاته اللّغوية واللفظية من مصطلح العمارة، فالعمران هو المفتاح الرئيسي لفهم فكر ابن خلدون الاجتماعي التّاريخي، وهو ما أكّده من خلال منهجه أنّ الإنسان محبّ للاجتماع والتّعاون فإذا كان الاجتماع وبالتالي العمران ضرورة بشرية فإنّ العمارة والمقصود بها البناء والتّشييد تكون أكثر ضرورة لأنّها أساس هذا العمران، فأيّ اجتماع أو وعاء ينظّم هذا التّرابط والتّواصل البشري لابدّ له من حيز جغرافي تتجسّد فيه أنماط العمارة².

أمّا عن تسمية العمارة الإسلامية فهناك تساؤل مهمّ في هذا الأمر، وهو: ما الذي حملته العمارة الإسلامية من خصائص وملامح محدّدة حتّى نطلق عليها العمارة الإسلامية؟ وعلى العموم فهي تُطلق على المباني والمنشآت المتواجدة في مدن الإسلام أو تلك المناطق التي كانت تابعة إلى حاضرة الإسلام ثمّ فقدت كعدوة الأندلس وصقلية³.

وهناك من سمّاها بالعمارة العربية وأنّ لها طابعا خاصا⁴، ومردّد هذا التأويل العامل الجغرافي في حين يحدّدها بعض الباحثين بالعامل التّاريخي، أي أنّه منذ ظهور الإسلام إلى غاية سيطرة النّمودج الغربي على جميع مجالات الحياة (من القرن 13م-19م)، في حين يمكننا التّعبير عن

¹ محمد العبد، البداوة والحضارة، نصوص من مقدّمة ابن خلدون، ط1، المنتدى الإسلامي، لندن، 1413هـ-1993م، ص38.

² -إزاد أحمد علي، حول العمارة والتّشييد عند ابن خلدون، الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية ط2008، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص184.

³ طرشاوي بلحاج، العمارة الإسلامية أصولها الفكرية ودلالاتها الثقافية والبيئية، دار النّشر الجامعي الجديد، تلمسان، 2017، ص15.

⁴ -غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة، عادل زعيتير، مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة، القاهرة، 2012م، ص200.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

مفهوم العمارة الإسلامية من خلال الشكل والخصوصية التي ميّزتها عن غيرها من العمائر الأخرى، إذ نستطيع ملاحظة الاختلاف البارز للعمارة الإسلامية فالمدن بالنسبة للإسلام هي الأماكن الوحيدة التي يستطيع فيها المسلم تحقيق كلّ الفرائض الإسلامية، ولذا حبّذ الإسلام الحياة المدنية وطوّرها، فالمراكز الأساسية للحياة العامّة في المدن الإسلامية هي الجامع وما تميّز به من مآذن ومحاريب ودار الإمارة والتي عرفت شكلا مميزا، والسوق ويظهر هذا واضحا في كافّة المدن الجديدة التي بناها المسلمون¹.

ومنهم من يربط العمران بفنّ البناء بمختلف أنماطه وأشكاله وهندسته، وكلّما تمّ بناؤه يُعدّ عمراناً، ويعتمد البعض على التفسير القرآني أو الإسلامي الدّاعي إلى القيام بأعباء الاستخلاف الإنساني وفق المنهج الرّبّاني، ويشمل ذلك نشاط الإنسان في جميع المجالات الماديّة والفكرية والثقافية².

أمّا فنّ العمارة فهو إبداع في التكوين والزخرفة يعطي للمبنى هويّة وأصالة، ويتّضح هذا الفنّ في وجهين أحدهما خارجي يتمثّل في التركيبة العامّة لعمارة المدينة وتركيباتها المتناغمة وهو من يحدّد هوية عمران المدينة، فالطرّاز المعماري يحدّد سمة العمران فقد يكون أصيلا مبتكرا أو قديما مقلّدا، أمّا الجانب الدّخلي لفنّ العمارة فيرتبط بالجانب الشّخصي والأسري، حيث يسعى لتحقيق السّكينة الأسرية، والعمارة الإسلامية حبّبت الجانب الدّخلي للعمارة على الجانب الخارجيّ، فنجد المبنى زاخرا داخليا بالزّخارف مع وجود الحقائق والأحواض حتّى قيل في الأثر جنة الرّجل داره³، كما ورد في ذلك عديد الأحاديث و الأمثال التي تحبّب في بناء الدّور وفضلها في راحة الإنسان⁴.

¹ - عبد العزيز الدوري، أوراق في التّاريخ والحضارة أوراق في التّاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ط3، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2019، ص243.

² - خالد محمد مصطفى عذب، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، كتاب الأمة، رقم 58، منشورات الفرقان، الدّار البيضاء، 1997، ص17.

³ - يوسف البرغوثي، المرجع السّابق، ص13.

⁴ - من ذلك ماورد عن النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام من سعادة المرء المسكن الواسع والجار الصّالح والمركب الهنيئ كما أخبر النّبيّ أنّ الشّؤم في المرأة والفرس والدّار ومن الأمثال شرف الرجل في بناؤه وهمته في داره وجاره ومنها أيضا إن آثارنا تدلّ علينا...فانظروا بعدنا إلى الآثار، كما يُقال دارك قميصك إن شئت ضيق وإن شئت وسّع وكان

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

ويعتبر التفسير التاريخي والجغرافي للعمارة الأكثر قبولاً، وذلك لأنه مبني على اعتبارات دينية وثقافية وعرقية، ولعلّ هذا الأمر هو الذي دفع الباحثين وخاصّة المستشرقين منهم إلى نسب العمارة الإسلامية إلى ميثولوجيا محدّدة كقولهم على سبيل المثال عن العمارة في مصر بالعمارة القبطية، وفي العراق العمارة الفارسية وقد فرض منهج البحث الأوربي هذه التسميات، إلّا أنّ هذا لا يُعبّر عن الحقيقة التاريخية حيث إنّ البصمة الإسلامية ظاهرة في مختلف تفاصيل أصناف العماائر والمباني المعمارية¹.

وقد أثّرت الحضارة الإسلامية في مظاهر الحياة العمرانية بتأسيس المسجد الجامع كنواة ومركز لجميع المدن الإسلامية، حيث يُعتبر المسجد محور التخطيط والإشعاع وموضع التطوّر والتوسّع يتمشى مع اتّساع المدن وكثرة عمرانها²، وقد تمكّن المسلمون في تكييف العمارة ممّا سمح بالتطوّر المستمرّ للأنماط المعمارية حيث تناسبت عمارة المسلمين مع الزّمان والمكان، فقد اختلفت عمارة المسجد النبوي في عهد عثمان عن عصر عمر بن الخطاب، وهذا يُنمّ على الاستجابة المعمارية للتأثيرات الحضارية، إذ استفاد المسلمون على مرّ العصور من التخطيط العمراني الموجود في الأقاليم المفتوحة التي طالتها أيدي الفاتحين³، وعلى العموم فالعمارة هي كلّ ما بُني وشُيد بشكل عام سواء أكانت عمارة مدنية أم دينية أم حربية كبناء المدن أو عمارة المساجد والأسوار والقلاع والحصون.

السّابقون إذا سئلوا عن الغنى أجابوا بأنّه سعة البيوت ودوام القوت ومن أسباب السّرور دار قوراء، كما قيل أنّ لذة البناء تدوم العمر كلّه وقيل للحجاج إنّ في قتل الأخيّار تعطيل لبناء الدّيار، ويقال لتكن الدّار أوّل ما يشتري وآخر ما يباع، ينظر: محمد الأماسي، روض الأخيّار المنتخب في ربيع الأبرار، ط 1، دار القلم العربي، حلب، 1423، ص 161.

¹ طرشاوي بلحاج، المرجع السّابق، ص 15.

² عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج 1، ط 1، سلسلة حضارة المغرب الإسلامي، 1992، ص 118-119.

³ أحمد عبد الواحد ذنوب، تطوير عمارة المساجد دراسة لدور التّكيف في تطوير مساجد القرن الأوّل الهجري، ط 2014، عمان، دار اليازوري العلمية للنّشر والتّوزيع، 2013، ص 123، 122.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

ثانيا: العمارة الإسلامية نشأتها وخصائصها:

نشأت العمارة الإسلامية في بداية الأمر كحرفة بسيطة، ثم تطوّرت حتّى أصبحت مجموعة من الفنون المعمارية المختلفة، وقد شَيّد المسلمون أنواعا مختلفة من العماائر منها: العمارة الدّينية الّتي تضمّنت المساجد والزّوايا والمدارس كمظهر للوجه العمراني الرّاقى عند المسلمين، كما تميّزت العمارة المدنيّة ببناء المدن والمنازل والحمامات والأسبلّة والقناطر والعمارة الحربية كالقصور والحصون والأسوار والأبواب والربط¹، حيث كان لكلّ نوع من هذه العمارة وظيفة خاصّة بها.

لقد كان لدى العرب الكثير من المعلومات عن المراكز الحضارية، بعضها موروث من تراثهم وخبرتهم في الجزيرة العربية، وبعضها مُستقى من الحواضر المجاورة نتيجة التّأثيرات الحضارية بين الأمم²، ففي المغرب الإسلامي نجد العديد من المدن والحصون والقلاع الّتي ارتبطت نشأتها بالحضارات الّتي سبقت الإسلام، فقد استفاد المسلمون من الفنّ المعماري

¹ - عمرو إسماعيل محمد، تخطيط المدن في العمارة الإسلامية فكر وفنون، مصر، دار الكتب المصرية، 2009م، ص13.

² عبد العزيز الدوري، المرجع السابق، ص243.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

الساساني¹ والبيزنطي² والهلنستي الإغريقي³ والقوطي⁴، فبعد أن استعان العرب ببنايين من الرّوم والفرس في تشييد بناياتهم، استطاعوا بالتّدرّج أن يتحرّروا من التّبعية الأجنبية في فنون العمارة⁵.

مما سمح للعمارة الإسلامية بأن تكتسب شخصية حضارية مميزة وأصيلة تتناسب مع ثقافة المسلمين، وقد تجلّت حكمتهم في تعاملهم مع الفنّين واعترافهم بمهاراتهم، ممّا دفع العديد من الفنّين إلى التّعاون مع العرب، فلقد كان للحضارات والأمم السّالفة قبل الإسلام العديد من الأساليب الفنّية المتطوّرة كالأسلوب المعماري للفرس والمسيحيين في الشّرق الأدنى والذي استفاد منه المسلمون⁶.

¹ - **الفن الساساني**: من الفنون التي عرفت ازدهارا كبيرا في بلاد الفرس، تميّز هذا الفنّ بتمجيد الملوك، وإظهار قوة الفرس، ولا تزال بعض الآثار تدلّ على ذلك مثل القصور الملكية وبالأخصّ قصر أردشير الأول في فيروز آباد بالجنوب الشرقي لشيراز والذي يرجّح أنه بني مابين سنتي (340ق.م/460ق.م) ولا تزال قبته ماثلة إلى اليوم صامدة أمام الظروف الطّبيعية. ينظر: ويليام جيمس ديو رانت، قصّة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود ومحمد بدران، دار الجيل، لبنان، 2002، ج12، ص297.

² - **الفن البيزنطي**: ظهر هذا الفنّ نتيجة تطوّر العمارة الهلينية (الإغريقية) من مميّزاته اعتماده على المبادئ الدّينية فكان من أهم إنجازاته الكنائس، كما كانت العمارة البيزنطية في الشّرق خالية من النّماثيل واللّوحات الزيتية، عكس العمارة البيزنطية في الغرب بسبب الخلاف المذهبي. ينظر: قبيلة المالكي، تاريخ العمارة عبر العصور، عمان، دار المناهج للنّشر والتّوزيع، 2012، ص107.

³ - **الفن الهلنستي الإغريقي**: يشير هذا المصطلح إلى التّفوذ اليوناني وهو عبارة عن أسلوب فنّي منتشر في الشّرق الأدنى يبدأ بوفاة الإسكندر الأكبر سنة 322 قبل الميلاد وينتهي مع غزو الرّومان ليونان وبذلك فقد ظهر قبل ظهور الإسلام بقرون طويلة إذ ازدهرت فيه أعمال النّحت وأصبح الفنّ أكثر تعبيرا وانتشارا بين العامة بعدما كان مخصّصا للملوك و الأغنياء، ينظر: كمال الدين سامح، العمارة في صدر الإسلام، مصر، المؤسسة المصرية العامة، للتأليف والترجمة والطباعة والنّشر، د.ت، ص4.

⁴ - **الفن القوطي**: انتشر في أوروبا طوال ثلاثة قرون من القرن الثّاني عشر وحتى القرن الخامس عشر وأصله من نورماندي حلّ محل الفن الرومانسكي يتميّز بالانسيابية والنّصوّف الرّوحي، كون الرهبان والقدسين هم مصمّمو هذا الفنّ أمّا المعمار القوطي فتميّز بالأبراج المرتفعة، والصّروح الكبيرة ينظر: ول ديورانت، ج16، المرجع السّابق، ص267.

⁵ - **غوستاف لوبون**، المرجع السّابق، ص185.

⁶ - **عبد السلام أحمد نظيف**، دراسات في العمارة الإسلامية، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1989، ص10.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

إنّ الحديث عن نشأة العمارة الإسلامية لابدّ أن يبدأ من المدينة المنورة أوّل مدن الدّولة الإسلامية ومنطلقها، فحين هاجر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إلى يثرب سمّيت بالمدينة إشارة إلى أنّها صارت محلّ حكم القضاء ومكانا للعدل، ومنذ هجرة الرّسول بدأ يتّضح فقه البنّيان في الحضارة الإسلامية كما ظهر جليّاً التّغيير الواضح في المدينة، وكيف حتّ رسول الله على إعمارها من خلال ما قام به من بناء المسجد النّبوي الشّريف الذي كان بمثابة قطب تولّى ضبط امتدادات وشوارع المدينة ومؤاخاته بين الأنصار والمهاجرين، كما أنّ الأوضاع القبلية كان لها أثرها في تنظيم السّكن ساعدها في هذا الدّين الإسلامي وأعطى لهذا التّنظيم السّكاني صبغة حضارية وشجّع على الاستقرار والتّعمير¹.

فالمدينة المنورة كان تأثيرها عميقاً كونها أدّت إلى تحوّل في الفكر العمراني الإسلامي الذي بدأ يستجيب للتّشكيل الحضاري الجديد الذي يدعو إليه الإسلام، وتجسّد هذا في تعمير مواضع معيّنة بمناطق المدينة إذ لم تكن مأهولة من قبل ومن ثمّ أصبحت يثرب مركزاً سياسياً وإدارياً، فاكتملت بذلك صفة المدينة وكان لذلك الأثر المباشر في تكوينها² الذي بدأ يتغيّر، وبذلك اقترن إنشاء المدن الأولى بانتشار الإسلام كما سيأتي ذكره في بعض نماذج العمارة الإسلامية الأولى ببلاد المغرب الإسلامي.

والحاصل أنّ موضع المدينة المنورة لم يكن كافياً لوحده لإحداث التّميّز الذي قدّر لها لولا هجرة الرّسول عليه الصّلاة والسّلام إليها، إذ كان هذا الحدث العظيم سبباً في إعادة التّخطيط العمراني للمدينة وهو لا شكّ ناتج عن روح الشّريعة الإسلامية وتعاليم الدّين الجديد، الذي حرص على التّنظيم المعماري ولم يمنع من التّفات الكتل المعمارية المختلفة حول بناء الجامع، بل كان لهذا التّأطير دور مهمّ في تنشيط الحركة التّجارية والاقتصادية ملهماً بذلك مختلف الحواضر الإسلامية³.

¹ - عبد العزيز الدوري، المرجع السّابق، ص 244-245.

² - محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، الكويت، 1988، ص 47.

³ - طرشاوي بلحاج، المرجع السّابق ص 105.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

لقد كان العامل الديني أحد العوامل التي منحت العمارة الإسلامية طابعها الخاص، حيث كانت المساجد من أهم مباني العمارة الإسلامية إذ تؤدي وظائف عديدة دينية وسياسية وثقافية، ومن هذا المنطلق حرص المسلمون أن يكون أول ما بينونه في المدينة هو المساجد الجامعة.

يُعدّ المسجد الذي بناه الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة في السنة الأولى للهجرة (1هـ/سنة 622م) أحد السمات المعمارية الرئيسية للدولة الإسلامية، وقد كان المسجد الأول جزءاً من بيت النبي في المدينة ثم أصبح قبراً وتمت توسعته عدة مرات لاستيعاب العدد المتزايد من المصلين والحجاج¹، وجعل جدرانه من اللبن وسقفه من الجريد وسواريه من جذوع النخل، فيعتبر النموذج الأول لسائر المساجد الأخرى من حيث عناصر التخطيط، فقد كان الصحن واسعاً ذو الأعمدة المتينة التي تحاذي الصحن مدعمة بذلك السقف الذي وضع لحماية المصلين من لهيب الشمس، كما احتوى المسجد على منبر استحدث منذ عهد النبي الكريم²، وقد شجع رسول الله صلى الله عليه وسلم أي اقتراح معماري جديد يمكن أن يُضاف إلى المسجد ويسهل من أداء وظيفته، فعن أبي سعيد الخدري قال: "أول من أسرج في المساجد تميم الداري"³ فقد أقر فعل تميم الداري حينما أسرج المسجد النبوي بالقناديل مبيناً في ذلك انفتاح النبي الكريم على الأفكار الجديدة التي تركها اختيارية للمسلمين ضمن حدود ما سمح به الشارع الحكيم، ثم باشر الرسول صلى الله عليه وسلم في تحديد وظائف المدينة من الداخل فبنى مساكنه إلى جوار المسجد.

ومما يجدر الإشارة إليه أنّ العمارة في عهد النبي الكريم اتسمت بالبساطة في التخطيط وعدم التكلفة في البناء⁴، إذ اعتبر المسجد أحد أهم المحددات الرئيسية التي تميزت بها المدن الإسلامية عن غيرها.

¹-David Nicolle , The Great islamic conquests ad 632-750.osprey .Publishing.england.2009. P80

²محروق إسماعيل، المرجع السابق ص19.

³-أبو عبد الله ابن ماجه، سنن ابن ماجه، تح محمد فؤاد عبد الباقي، ج1، دار إحياء الكتب العربية، دت، ص 250.

⁴ - خالد مصطفى عزب، المرجع السابق، ص 47.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم انتقلت العمارة إلى مرحلة جديدة، إذ واصل الخلفاء الراشدون نشر الإسلام في الأمصار والأقطار ليصل شرقاً وغرباً في ظاهرة تاريخية المتمثلة في الفتح الإسلامي، حيث شعر المسلمون بالحاجة إلى إنشاء ديار للهجرة على تخوم البلاد المفتوحة، تكون بمثابة المعسكر ومراكز للاستقرار في الوقت نفسه¹، فاحتاج الناس إلى البناء والتشييد، ومن هنا بدأت تتجلى الفلسفة العمرانية التي ارتكزت على تكثير العمارة واختطاط المدن الجديدة، وما يلفت النظر في هذه الفترة أنّ القادة العسكريين تمكّنوا من تأسيس عديد المدن أو القواعد العسكرية التي تحوّلت فيما بعد إلى حواضر إسلامية وكان لتأسيس هذه المراكز أثره في تطور العمارة الإسلامية.

وأوّل هذه المدن هي البصرة التي أسّسها عقبة بن غزوان سنة (12هـ/633م)، والكوفة التي أسّسها سعد بن أبي وقاص سنة (18هـ/638م)، والفسطاط التي أسّسها عمرو بن العاص سنة (21هـ/642م)، وكان ذلك في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، والقيروان التي أسّسها عقبة بن نافع (50هـ/670م)²، وما يلاحظ في عهد الخلفاء أنّه تمّ إقامة المنشآت الحيوية حرصاً على مصالح النّاس كالمساجد والطّرق وغيرها، ولعلّ أبلغ مثال قول عمر بن الخطّاب "لو عثرت بغلة بالعراق لرأيتني مسؤولاً عنها أمام الله تعالى لملم أسو لها الطّريق"³

وفي العصر الأموي (41-132هـ/661-750م) تواصلت استراتيجية بناء المدن الإسلامية الجديدة في البلاد المفتوحة، حيث عرفت طفرة معمارية مقارنة بالعمارة في العهد النّبوي والخلافة الراشدة⁴، إذ تعتبر نقطة تحوّل كبرى وبداية تشكّل الطّراز الإسلامي وانتشاره في سائر البلاد المفتوحة من قبل القادة الفاتحين، وذلك من خلال احتكاك النّقافة الإسلامية مع ثقافات أقطار الشّعوب المفتوحة وامتزجت فيما بينها على مرّ العصور بالحضارات السّامية كالكنعانية، والفينيقية

¹ - هشام جعيط، الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية، ط1، بيروت، دار الطّليعة للطباعة والنشر 1947، ص6.

² - خالد محمد مصطفى عزب، المرجع السّابق ص59.

³ - عبد الرحمان الحجي، السيرة النّبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها، ط1، دمشق، دار ابن كثير، 1999م، ص104.

⁴ - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السّابق، ص67.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

والحضارة الهلنستية ثم الحضارة الرومانية والبيزنطية، فقد تأثرت الحضارة الإسلامية بالكثير من الأفكار والنظريات في ميادين مختلفة، فخلّف هذا الامتزاج تأثيرا واضحا في العمارة الأموية تجلّى في الطراز الفني المعماري الذي اعتمده الأمويون¹.

وقد نتج عن هذا التأثير روائع معمارية منقطعة النظير من خلال ظهور المساجد الجامعة الضخمة، ولعلّ أهمّها مسجد قبة الصخرة في بيت المقدس²، والمسجد الأموي في دمشق³، وجامع حلب وبعض القصور الأموية، أمّا في ناحية الغرب الإسلامي فقد برز كلّ من جامع عقبة بن نافع في القيروان وجامع الزيتونة بتونس كصرح معماري بارز يعكس الثقافة العمرانية العربية الإسلامية⁴.

والواقع أنّ النظام الذي اتّبعه الحُكّام الأمويون والمتمثّل في تطوير اليد العاملة المحليّة مع جلب الصنّاع والفنّانين إلى مركز الخلافة من أجل إنجاز الأعمال المعمارية مكّن من ظهور مرافق فنيّة زخرفية جديدة، وما يلاحظ عليها سرعة انتشارها ومن هذه الملاحق العمرانية المئذنة التي استعملت لأول مرّة في مسجد الكوفة والفسطاط ودمشق، وإذ يرجع إليهم الفضل في إدخال

¹ -توفيق حمد عبد الجواد، العمارة الإسلامية، فكر وحضارة، مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، 1987، ص 125.

² -تعتبر قبة الصخرة من أقدم الآثار في العمارة الإسلامية، وهي من إبداعات الأمويين، شيّدها عبد الملك بن مروان سنة 72هـ، حيث قام ببناء مسجد وقبة فوق الصخرة والتي يُرجّح أنّه قد عرج بالرسول صلى الله عليه وسلم منها إلى السماء وقد بنيت على شكل نصف دائري تقريبا تبلغ أبعادها 52 قدما طولا و 42 قدما عرضا، تعلوها رقبة أسطوانية بها 16 نافذة وقد أوكّل عبد الملك بن مروان عملية البناء إلى خيرة المهندسين والبنائين وأشرف عليهم رجاء بن حيوة الذي عرف عنه صلاحه وعلمه فقد كان ملازما لعمر بن عبد العزيز ينظر: أبو بكر الواسطي، فضائل بيت المقدس، ط 1، قبرص، مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية، 2010، ص 75. - كمال الدين سامح، المرجع السابق، ص 16-20.

³ -يعدّ المسجد الأموي بدمشق من أهمّ العمائر التي بناها الأمويون، شُيّد في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك بين عام (86-96هـ / 705-714م) وقد بذل فيه جهدا كبيرا وسخر له أموالا كبيرة وهو مستطيل الشكل في أركانه أربعة أبراج، وبه صحن واسع وقد بُني على موقع روماني وله ثلاثة مآذن الأولى في الجهة الشماليّة وكانت تسمّى بمئذنة العروس والثانية في الجهة الجنوبيّة الشرقيّة والثالثة تسمّى المئذنة الغربيّة ولم يكن علوّها مرتفعا منها واحدة مازالت موجودة إلى اليوم ينظر: صالح بن قرية، المئذنة المغربية الأندلسية في العصور الوسطى، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص ص 12-13. - كمال الدين سامح، المرجع السابق، ص 21.

⁴ -طرشاي بلحاج، المرجع السابق، ص 147.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

المقصورة التي كانت تؤمّن الخليفة وكذلك أدخلوا المحراب والقباب وغيرها من العناصر المعمارية¹.

إنّ المتمعن في الحضارة الإسلامية في شقّها المعماري يُدرك أنّ هذه الحضارة عالمية، لاستيعابها شعوب وثقافات مختلفة أدّت إلى التأثير والتأثر مع تبادل الخبرات والطرائق، فالإسلام لم يقيم هذه الشعوب بل كان بمثابة الحاضنة الجامعة للأمم تحت مظلة الثقافة الإسلامية.

وبعد عصر الدولة الأموية تلاه العهد العباسي (132-656هـ/749-1258م)، حيث كانت هذه المرحلة امتدادا للمرحلة الأموية، وفي نفس الوقت ثمة خصائص ذاتية وتحولات وتغيّرات مهمّة في الجانب المعماري بخصوص الأساليب المعمارية والزخرفية، فكان التأثير الفارسي واضحا، حيث اتّجه البنّاءون إلى استعمال مادة الآجر بدلا من الحجارة، والدعامات بدلا من الأعمدة، والعقود المدببة وظهور المداخل الملتوية، إذ طوّروا المآذن لتظهر على هيئة أبراج حلزونية مثل: مئذنة سامراء (234هـ-235هـ/848م-849م)، ولعلّ من أفضل الطرز المعمارية جامع أبي دلف وجامع ابن طولون بالقاهرة (263هـ-266هـ/876م-879م)²، والجدير بالذكر أنّ إنشاء العباسيين لمدينة بغداد³ وسامراء دليل على نضج وتطور العمارة، حيث إنّ المدينة أصبحت

¹ يوسف البرغوثي، المرجع السابق، ص 40.

² محروق إسماعيل، المرجع السابق ص 22.

³ بغداد: بدأ في بناء المدينة سنة (145هـ-762م)، في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور وكان إتمام البناء في سنة (148هـ-764م) وكانت في الأصل عبارة عن قرية بها سوق تجاري منذ عهد الساسانيين في حين رجح بعض الباحثين أنّ الموقع أقدم من الفترة الساسانية وأن أصل التسمية يعود إلى اللغة البابلية وبهذا فموضع مدينة بغداد موغل في القدم وقد عُرفت المدينة بعدة أسماء كمدينة السلام فالسلام هو الله فتكون مدينة السلام ومدينة أبي جعفر نسبة لمنشئها، والمدينة المدوّرة لأنها صمّمت على شكل دائرة وهي أول مدينة عربية تُصمّم بهذا الشكل وقد كان اختيار موقعها موقفاً أشاد به المؤرخون كالمقدسي، الذي أعجبه جوّها صيفا وشتاءً، في حين ذهب المستشرق "تول ديكة" أنّها أصبحت مدينة عالمية لم تزاحمها في الأهميّة سوى مدينة القسطنطينية، نظرا لمزايا الموقع الذي تأسست فيه المدينة والذي يجمع بين الخصائص الاقتصادية والمميّزات العسكرية والاستراتيجية ينظر: عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، ط2، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2009، ص 315-323. كمال الدين سامح، المرجع السابق 46-51.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

تكتسي ثوب العظمة والهيبة للحكام والأمراء، فقد كان هدف المنصور من بناء مدينة بغداد إبراز مكانة الدولة العباسية، وترسيخ دعائم حكمها، وكان الهدف من إنشاء مدينة سامراء مرتبطا بالتطورات التي حدثت في البلاط والإدارة، وفي الوقت نفسه ليعظم الحكم والحاكم، فكان من خصائص التخطيط العمراني العباسي أن كثيرا من المدن والحوضر خططها الخلفاء بأنفسهم¹.

وما يستنتج بين كل من العمارة في العصر الأموي ونظيرتها في العصر العباسي أن هناك فوارق معمارية أهمها: أن العباسيين استخدموا اللبن والآجر في عمارتهم تأثرا بالحضارة الفارسية في حين استخدم الأمويون الحجارة، كما استعمل العباسيون الدعامات المبنية بالطوب والآجر على عكس العمارة الأموية التي اعتمدت على الأعمدة الحجرية.

إن اتساع عمران بعض المدن الإسلامية بفضل توافر المقومات الحضارية المصاحبة لزيادة الكثافة السكانية في المدن الإسلامية والتي نتج عنها بالطبع توسعا عمرانيا في المدن الإسلامية، ولعلّ أبلغ مثال على ذلك مدينة البصرة² التي بلغ عدد سكانها في العصر الأموي أزيد من ثلاثمائة ألف نسمة، ويعتقد أنه بلغ الضعف في ولاية الحجاج بن يوسف، أما عن حاضرة قرطبة فقد بلغ سكانها على عهد المنصور نصف مليون نسمة³.

إن هذه الزيادة المعتبرة للسكان في فترة وجيزة قد صاحبه جهدا معماريا كبيرا لمواكبة هذا النمو الديمغرافي، نتيجة وورود القبائل والعشائر للمدن المستحدثة كما حدث في مدينة البصرة وكان

¹ محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 68.

² البصرة : أسسها عتبة بن غزوان وهي أول مدينة أسسها العرب خارج شبه الجزيرة العربية بعد تحريرهم العراق من الحكم الساساني الفارسي في القرن السابع الميلادي وقد أدت دورا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا منذ تأسيسها واستمرت لعدة قرون، وقد أسهم أهلها في مجال الفتوحات الإسلامية وكذلك في مجال الأدب والنحو ويُعدّ المسجد الجامع أول وحدة عمرانية بُنيت في البصرة في ولاية عتبة بن غزوان سنة (14هـ/635م) وقد كان بناءه بالقصب ثم أعيد بناءه بالطين واللبن في عهد ولاية أبي موسى الأشعري (17هـ/638م) وكان بقرب المسجد دار الإمارة والوحدات الإدارية كالديوان والسجن وغيرها من المرافق العامة، ينظر : عبد الجبار ناجي، المرجع السابق، ص 153-162.

³ محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 69.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

لسياسة الحُكَّام الرّامية إلى البناء والتّشييد أثره الواضح في تطوّر العمارة ولا أدلّ من ذلك من بروز الأسواق والمدارس كمؤسّسات تعليمية والخانقات والرّبط والزّوايا كمرافق دينية¹.

وقد انعكست سياسات الحُكَّام على تخطيط المسجد، فكان يميل بعضهم إلى الإبداع العمراني من خلال تشييد الصّحون التي ضمّت أروقة مسقّفة يحتوي بعضها على عدد من القباب والعقود المدبّبة المحمولة على أكتاف الأعمدة مستطيلة الشّكل ومزخرفة بآيات قرآنية، وما يلفت النّظر في هذا العصر النّظرة الشّاملة لتخطيط المدينة بدلا من النّظرة الجزئية، فعاصمة الدّولة خطّطت تخطيطا دائريا حتّى سمّيت المدينة المدوّرة بها أربعة مداخل منها باب خرسان وباب البصرة وباب الكوفة².

وقد بلغت العمارة الإسلامية أوج تطوّرها مع الطّراز المغربي الأندلسي، إذ ساعد استقرار الأوضاع السّياسية بدأ مرحلة جديدة تجسّدت بقيام دولة بني أمية في الأندلس حيث استقرّت دعائم الإسلام ورسّخت قواعد حضارته، ويكاد يجمع مؤرّخو الفنّ الأندلسي على أنّ جميع الصّور المتطوّرة لعناصر البناء في مختلف أبنية الأندلس إنّما انبثقت من المسجد الجامع بقرطبة الذي شرع في بنائه سنة (170هـ - 786م)، ففيه تكمن المنابت الأولى للفنّ الأندلسي والتي أخذت في الظّهور في عصر الخلافة الأموية بالأندلس، ثمّ نمت في عهد ملوك الطّوائف وتفتّحت براعمها في عصر دولتي المرابطين والموحّدين³.

ب- خصائص العمارة الإسلامية:

من أهمّ خصائص العمارة الإسلامية عند نشأة الدّولة الإسلامية تركيزها على الوظيفة الجوهرية الرّوحية أكثر من التّركيز على شكلها ومظهرها الخارجي، ولعلّ هذا الأمر مستمدّ من الطّرح القرآني والهدي النبوي فالله لا ينظر إلى الصّور والأشكال ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال،

¹ - عبد الجبار ناجي، المرجع السابق، ص ص 163-165.

² - عمرو إسماعيل محمد، المرجع السابق، ص 17.

³ - السيد عبد العزيز سالم، "العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها"، ج8، دراسات في التراث عالم الفكر، العدد 01، جوان 1988، وزارة الاعلام، الكويت، (صفحات المقال 89-166)، ص ص 96-99.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

فانصرفت اهتمامات المسلمين إلى الغايات والمقاصد ولم تكن الشكليات والمظاهر تحظى باهتمام كبير خاصة في بداية الدولة الإسلامية¹.

إنّ الباعث الديني والنظام التشريعي المصاحب لتأثير الحضارات والأُمم السابقة والعوامل الدّينية والسّياسية والاقتصاديّة والبيئية كالمناخ مع اختلاف موادّ البناء في مختلف المناطق الإسلامية المفتوحة أسهمت في بناء معالم الحضارة الإسلامية، والتي استطاعت أن تخلق لنفسها طابعا عمرانيا مغايرا عبّر عن خصوصياتها المميّزة لشخصيتها المعماريّة، فكانت الخاصيّة الدّينية أهمّ ميزة للعمران الإسلامي، إذ كان المسجد أوّل بيت أسّس على التقوى يجمع المسلمين تحت قبة واحدة، أمّا بناؤه فكان يخضع لمجموعة شروط أورد بعضها الزّركشي نذكر منها: كراهة اتّخاذ الشّرفات لأنّها تشغل المصلّي وكذلك لايجوز تزويق المسجد وتنقيشه بما لا إحكام فيه وخلق المسجد من الأعمدة التي تكون حائلا بين الصّفوف، وشرط وجود جدار بين الصّحن والحرم، كما يكره غرس الأشجار وحفر الآبار إذا كانت تضيق على المصلّين² وألا يكون الدّخول إلى صحن المسجد مباشرة، كما شكّل الصّحن أهمّ عنصر في المساجد والمباني الإسلامية، حيث يكون منفتحا على السّماء مباشرة تطلّ عليه الأبواب والنّوافذ في طابقين من أجل ضمان حركيّة التّيّارات الهوائية الوافدة ومتّصلة بالباب الخارجيّ الذي يحتوي على دهليز يَمنع عنه الرّيح والدّخان والغبار، فالهواء العلوي لا يؤثّر عليه سواء أكان حارّا أم بارداً نظيفا أم ملوّثا، وهو ما أثبتت نجاعته التّجارب العلميّة، كما تميّزت العمارة الإسلامية بخاصيّة يطلق عليها "الجوانية"، فأيّ مبنى إسلامي يحمل طابعا جوانيا بمعنى أنّ عمارته الخارجيّة أقلّ شأنًا من الدّاخلية، ويمكن ملاحظة ذلك في مساجد الرّعيل الأوّل كالجامع الأموي بدمشق، وجامع القيروان بالمغرب الأدنى، ومسجد قرطبة كما نراه في السّكن والقصور³.

¹-بسيوني محمد الخولي، العمران والمدينة زهرة الحضارة الإسلامية، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر، 2023، ص ص60-61.

²-محمد بن عبد الله الزركشي، إعلام الساجد بأحكام المساجد، تح، أبو الوفا مصطفى المراغي، ط5، القاهرة، 1999م، ص ص 302-400.

³-يوسف البرغوثي، المرجع السابق، ص ص16-22.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

والواقع أنّ الأوضاع المادية المختلفة أثّرت في الجانب العمراني، فعلى سبيل المثال كان لوفرة الحجر الجيري الفريد من نوعه المقاوم للعوامل الجوية في منطقة الشّام دور مهمّ في بقاء وصمود الهياكل العمرانية أمام الظروف الطبيعية المهدّدة للعمران، كما أنّ عنصر الوحدة والتنوّع كان من أبرز خصائص العمارة الإسلامية، إذ تجلّت الوحدة في العمارة الدّينية خاصّة والعمارة المدنيّة عامّة على اختلاف وتنوّع البيئات الإسلامية، في حين أنّ تنوّع العناصر البشرية وأساليبها المعمارية في العالم الإسلامي لم يُزح مظاهر الوحدة، فحيثما وصل الإسلام كانت اللّمسة الإسلامية في فنّ العمارة حاضرة، كما أنّ تنوّع الأساليب المعمارية دليل على قدرة المعماري المسلم على الإبداع، وقد انعكست الخصائص البيئية على العمارة الإسلامية حيث كان امتدادها أفقيا تعبيرا على المكان الواسع والفسيح وهو ما مثله الطّابع الصّحراوي¹.

والحاصل أنّ العمارة الإسلامية استمدّت الكثير من القيم التي رسّخها الإسلام منها: قيمة المساواة بين أفراد الجماعة الإسلامية الذين يقفون في الصّلاة صفوفًا متماثلة أفقيا لا تميز بين غنيهم وفقيرهم كبيرهم أو صغيرهم، وكانت هذه الأفقية في بيت الصّلاة تعبيرا عن البساطة والمساواة².

والجدير بالذّكر الإشارة للمجهودات التي بذلها المستشرقون من خلال اهتمامهم بدراسة العمارة والآثار الإسلامية وإبراز خصائصها، رغم أنّ الكثير من الدّراسات قد عملت على التّقليل والانتقاص من أصالة العمارة الإسلامية بأسلوب حاقّد وغير منصف، فهذا المستشرق كريستوفر عبر عن مبنى قبة الصّخرة وما يشتمل عليه من زخارف حيث نسب 22% للتأثيرات الرّومانية، و22% للتأثيرات البيزنطية، و55% للتأثيرات السّورية المسيحية والباقي وهو 1% غير محدّد الهوية³.

¹ يوسف البرغوثي، المرجع السابق، ص30.

² بيسيوني محمد الخولي، المرجع السّابق، ص ص 63، 62.

³ خالد محمد مصطفى عزب، المرجع السّابق ص43.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

ممّا ذكره كريسيويل في كتابه "العمارة الإسلامية المبكرة" نستشف أنّ البناء لا يمت للمسلمين بصلة وفي هذا استخفاف بقدرة المسلمين على الإبداع والابتكار في مجال البناء والتشييد.

كما اعتبر "سوفاجيه sauvaget" في دراساته للمدن العتيقة كحلب ودمشق أنّ الحضارة الإسلامية لم تضيف شيئاً لها، بل بقيت على حالها وإنّ ما أضافوه من خطط في هذه المدن قد أدّى إلى اضطراب وحدتها وتشويه تركيباتها الداخلية، ليخلص في الأخير أنّ المدينة الإسلامية ما هي إلّا تقليد للمدينة الأوروبية القديمة.

وعلى نفس النهج سار عدد من المستشرقين فهذا "بلا نهول blanchot" يرى أنّ الصفة الرئيسية للمدينة الإسلامية هي الفوضى في التخطيط، وأنّها ضعيفة التماسك عكس المدن الرومانية والأوروبية في العصور الوسطى، ويرى أنّ الإسلام عجز عن الابتكار وأنّ بساطته حملت المسلمين على تقليد المدن الموجودة قبله، وكذلك هو الحال مع "ستيرن sterner" الذي أشار أنّ المدينة الإسلامية اقتبست الكثير من المدينة اليونانية القديمة كالشوارع والأسواق المركزية، وأنّ المدينة الإسلامية تخلو من المؤسسات بدعوى أنّ المجتمع الإسلامي لم يرث شيئاً عن المؤسسات المدنيّة من الحضارات القديمة اليونانية أو الرومانية¹.

أمّا كلود كاهن cahen, c فقد كان أكثر تطرفاً حيث جرّد المدينة الإسلامية من أيّ صفة مدنيّة، إذ يرى أنّ الكثير من الصفات التي تنسب للمدينة الإسلامية يعود أصلها للمدينة البيزنطية الوسيطة وصفات المدن الإيطالية قبل القرن الخامس الهجري الحادي عشر (5/11م)، بل ذهب إلى أكثر من ذلك وقال أنّه من الخطأ تسميتها بالمدينة الإسلامية بل وجب أن تسمّى داراً للإسلام².

وبالمقابل فقد أجاد باحثون آخرون في ذكر دور الإسلام والحضارة الإسلامية في حركة التمدّن وتخطيط المدن نذكر على سبيل المثال موقف الفرنسي موريس لمبارد m.lombard في

¹ محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 32-33.

² خليف مصطفى غرايبة، "منهجية الفكر الإسلامي في تخطيط المدينة العربية الإسلامية (ابن أبي الربيع أنموذجاً)"، المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية العدد، 1 المجلد 8، (صفحات المقال 183-199)، 2015، ص 184.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

كتبه العديدة عن دور الإسلام في حركة العمران حيث خلص إلى أنّ الحضارة الإسلامية عبارة عن بوتقة تاريخية وجغرافية وقد وافقه في هذا الطرح المستشرق بينيت¹.bunet.

ومن خصائص النسيج العمراني في المدينة الإسلامية توفرها على عدد من المنشآت، أهمّها المنشآت الدينية كالزوايا، والمساجد التي تعدّ من أطول المباني عمرا من الناحية العمرانية والمنشآت العسكرية كالقلاع والحصون، والأسوار والأبواب والأبراج، كما جرت العادة أن تكون دار الإمارة مجاورة للمسجد الجامع غير بعيدة عنه وذلك أثمر عن تحقيق انسجام متكامل جمع بين العمران المدني والديني².

وما يستنتج ممّا سبق أنّ وحدة العقيدة الدينية المنتشرة في أصقاع العالم الإسلامي شرقا وغربا بما حوته من روح العدالة والإنصاف، ونبذ فوارق الجنس واللون، أسهمت في دفع عجلة التطور الحضاري من خلال التعبير عن الفن الإسلامي بتشييد المعالم العمرانية الراقية المعبرة عن مشاعر وأحاسيس أبناء الأمة الإسلامية على الرغم من اختلاف أعراقهم، وقد نتج عن هذه التراكمية الفنية نتاجا عمرانيا طُبع بالطبعة الإسلامية، رغم وجود خصائص محلية لكل منطقة جغرافية.

ثالثا: عناصر العمارة الإسلامية وطرزها

تمثّلت في عناصر أساسية مجتمعة تميّزت بطابع جمالي ووظيفي كما لم تخل من الزخرفة، حيث اقتبس المسلمون عناصر معمارية كثيرة عن غيرهم إلا أنّهم تحرّروا من التبعية وتجلّى ذلك في العناصر المعمارية الفريدة التي انعكست فيها القيم الدينية والاجتماعية والثقافية وتمثّلت في العناصر الإنشائية والجمالية وقد أدّت هذه العناصر دورا محوريا في خدمة المجتمع الإسلامي وبروز طرز إسلامية والتي نذكر منها:

أ) عناصر العمارة الإسلامية:

¹ خليف مصطفى غرايبة، المرجع السابق، ص 184.

² محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 105.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

العناصر الإنشائية

➤ **المؤذنة:** هناك تسميات مختلفة شائعة الاستعمال استعملت في اللغة العربية للدلالة على المؤذنة وهي: المؤذنة - المنارة - الصومعة، والمصطلح الأكثر استعمالاً عند المغاربة هو الصومعة¹، المؤذنة كلمة مشتقة من الفعل أذّن والأذان النداء للصلاة والإعلام بدخول وقتها والمؤذنة الموضع الذي ينادى فيه للصلاة كما يقال لها المؤذنة²، وجمعها مأذن³.

وهي بناء رأسي مرتفع يعلو في قمته صوت المؤذن للنداء، فيجتمع المسلمون لتأدية هذه الفريضة والأذان أصل للمؤذنة وهي مكانه ومرتبطة بحاسة السمع⁴، ولقد تعددت الآراء حول ظهور فكرة الأذان فقد أراد رسول الله استعمال بوق اليهود ثم كرهه ثم ظهرت فكرة الناقوس ثم هم عمر على اقتراح فكرة الأذان إلا أنه سمع بلالا الحبشي ينادي للصلاة من أعلى سطح مجاور للمسجد وهو بيت أم المؤمنين حفصة فنال بلال شرف أول مؤذن في الإسلام⁵، فالمؤذنة لم تعرف في عهد النبي عليه السلام وكان مسجده النبوي خاليا منها وكذلك المساجد الأولى لصدر الإسلام كمسجد البصرة (16هـ - 637م) ومسجد الكوفة (18هـ - 641م) بالعراق ومسجد عمرو بن العاص (21هـ - 641م) وظلت المساجد تُبنى دون مأذن حتى زمن معاوية بن أبي سفيان الذي أمر واليه على مصر مسلمة بن مخلد أن يبني لجامع عمرو بن العاص أربعة صوامع للأذان⁶.

وجسدت المؤذنة فكرة الأذان حيث أصبحت منذ ظهورها في العهد الأموي من العناصر المعمارية المهمة التي كان لابد من توفرها واقتترنت بعمارة المساجد واختلفت من عصر إلى عصر

¹ - أحمد تيمور باشا، معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، ج5، ط2، مصر، دار الكتب والوثائق القومية، 2002، ص 304.

² - ابن منظور، ج13، المصدر السابق، ص 12.

³ - صالح بن قرية، المؤذنة، المرجع السابق، ص8، ينظر أيضا: بن حمو محمد، العمران والعمارة من خلال نوازل الوثائقي، دار الكنوز، الجزائر، 2011م، ص 25.

⁴ - عبد الكريم عزوق، تطوّر المأذن في الجزائر، ط2، الجزائر، شركة ابن باديس للكتاب، 2011، ص16.

⁵ - صالح بن قرية، المؤذنة، المرجع السابق، ص 8.

⁶ - محمد عاصم رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ط1، مصر، مكتبة مدبولي، 2000، ص

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

ومن منطقة لأخرى، فهناك المئذنة المربعة، والمئذنة المثلثة، والمئذنة المخروطية الشكل واللولبية، ومنها من تتكوّن بطابق واحد، و منها من تتألف من طابقين أو ثلاثة، وهي بذلك تختلف عن أبراج الكنائس التي عادة ما تكون بشكل مربع، كما لم تكن لها قاعدة ثابتة حيث اختلف موقعها من مسجد إلى آخر، فقد تكون في مقدّمة المسجد أو مؤخرته، وقد تكون على جانب منه، أو ركن من أركانه، وقد تستقل عن صحن المسجد، كما قد تكون ملتصقة بالجدار الخارجي للمسجد، واقتصرت المساجد الأولى على مئذنة واحدة، ثم ظهرت أكثر من مئذنة في المسجد الواحد، كما في جامع عمرو بن العاص الذي كان به أربع مآذن بنيت سنة (53هـ/672م) في فترة ولاية مسلمة بن خالد¹.

وتعود أول مئذنة بنيت في بلاد المغرب إلى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك في فترة حكم والي بشر بن صفوان (105-109هـ/724-729م) في المسجد الكبير بالقيروان، وتتكوّن هذه المنارة من ثلاثة أدوار الأول بارتفاع 18.87م، والثاني 5م والثالث 7.50م، في حين تعود الصومعة الثانية إلى القرن (2هـ -7م) وهي منارة جامع الزيتونة بتونس والتي كان بها طابق علوي مئذنة الشكل².

➤ **العقود:** جمع عقد وعقد اليمين وثقه وعقد البناء جعل له عقداً مُحكما، أما في المصطلح المعماري فإنّ العقد وحدة معمارية ذات شكل مقوس ولها أشكال عديدة نتجت عن نوعين أساسيين من العقود وهما العقد المدبب والعقد النّصف دائري ويتكوّن العقد في الغالب من أحجار تسمّى صنجة وطريقة بناء العقود تكون برفع الفقرات على صقالة خشبية تنزع بعد وضع المفتاح والذي هو عبارة عن صنجة رئيسية علوية، كما يتمّ بناؤه بطريقة المداميك الجدارية بعد البدء من القاعدة وترك فتحة في المدماك الأول للجدار ثمّ تبدأ في التقلّص في المدماك الثاني وهكذا تبرز الأحجار كلما زاد ارتفاع الحائط ويكون العقد منحنيًا حتّى النقاء أحجار مدماك آخر مع رأس العقد وترجع أصول العقود إلى بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين والمادّة الأكثر استعمالاً هي الطين

¹ فكري أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها المدخل، دار المعارف بمصر، 1961، ص315.

² كمال الدين سامح، المرجع السابق، ص168.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

والآجر أمّا العقود الطّولية والعرضية وحدوة الفرس فهي مبتكرات إسلامية ظهرت في العصر الأموي و بلاد المغرب والأندلس¹.

➤ **القباب:** عنصر معماري مميّز محدودب الشّكل اقتبسه المسلمون عن السّاسانيين والبيزنطيين والأقباط و استخدموه للتّغطية وتحديدًا في المسجد والأضرحة وأصبح من إحدى تفاصيله الإنشائية، كما تستخدم لتغطية الفضاء الداخلي ولها عدّة تسميات فهي تعرف في بلاد المغرب الإسلامي بـ "مربوط"² واتّخذت القباب في كل قطر من أقطار العالم الإسلامي طابعا خاصا بها كما تطوّرت من حيث الشّكل والتّكوين المعماري، فمنها الكبير والصّغير وماتمّ بناؤه بالحجر والطّوب³، ومن أهمّ القباب الموجودة في بلاد المغرب الإسلامي قبة العباد السّفلى بالقرب من مدينة تلمسان بالمغرب الأوسط يعود تاريخ بنائها إلى سنة (591هـ-1195م)، مبنية بالطّوب وعقودها تشبه نعل الفرس بعض قبابها مثمّنة، كما توجد في بعض الأضرحة قرب تلمسان كضريح السّلطان في مقبرة سيدي يعقوب ويرجع تاريخه إلى بداية (القرن 7هـ-13م)⁴.

➤ **الصّحن:** من العناصر المعمارية للمسجد وهو عبارة عن فراغ مكشوف يتوسّطه كما أنّه من مميّزاته ومساحته تختلف حسب المساحة الإجمالية للمسجد، وانفرد به الطّراز الإسلامي كونه لم يكن موجودا من قبل، فهو بذلك ابتكار إسلامي له أصالة منذ تأسيس النّبّي الكريم المسجد النّبوي بالمدينة، وقد عرف بعض التّعديلات مثل غراسة الأشجار وتزيينه بها لتلطيف الجوّ⁵.

➤ **الأعمدة:** انتفع المسلمون من الأعمدة والتّيجان في المباني الإغريقية والرّومانية والبيزنطية وتشهد على ذلك المباني التي قاموا ببنائها، ثمّ اضطرّ المسلمون إلى إنشاء ما يحتاجونه بأنفسهم وطبعوا عليه طابعا خاصا بهم⁶، ولها أنواع عديدة منها الأعمدة ذات البدن المربّع، وأعمدة ذات

¹ -عاصم محمد رزق، المرجع السّابق، ص ص 190-191.

² كمال الدين سامح، المرجع السّابق، ص166، ينظر أيضا: محمد عاصم رزق، المرجع السّابق، ص 222.

³ محمد حمزة إسماعيل حداد، القباب في العمارة المصرية الإسلامية، ط1، مصر، مكتبة الثّقافة الدّينية، 1993، ص ص 6-7.

⁴ كمال الدين سامح، المرجع السّابق، ص17.

⁵ بيسيوني محمد الخولي، المرجع السّابق، ص 111. - ينظر أيضا: محمد عاصم رزق، المرجع السّابق، ص 262.

⁶ -غوستاف لوبون، المرجع السّابق، ص 545.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

بدن دائري مبسط وأعمدة بدن مثمن ومنها الأعمدة المثلثة بدنها وتاجها ناقوسي ومنها عمود بدنه مثمن وتاج مقرنصات حطة واحدة وقاعدته مثل العمود¹

➤ **المحراب:** جمع محاريب وهو المكان الذي ينفرد به السلطان بعيدا عن العامة، ومنه محراب المسجد المكان الذي يسبق به الإمام جموع المصلين وقيل أنه من المحاربة لأن المتصدّر للمحارب يحارب كلاً من الشيطان ونفسه بالخشوع وإحضار الجوارح ولهذه الكلمة خصوصية سامية عند المسلمين، أما من الناحية العمرانية فهو تجويف نصف دائري في الجدار المتجه نحو القبلة، كما يستدل به على اتجاهها، لم يُعرف المحراب كعنصر أساسي ضمن طراز المسجد، ولكنه سرعان ما أصبح عنصراً مهماً ضمن الطراز العمراني لرمزيته ودلالته الواضحة كونه يمثل مكاناً مهماً للهيبة والقدسية²، وقد عرفت العمارة الإسلامية نوعين من المحاريب النوع الأول استعمل في الأضرحة وبعض الأبنية المساجدية، أما النوع الثاني المحاريب المجوفة وتميّزت بها المساجد وما يجدر التنويه له أنها تعددت في المسجد الواحد كما حدث في الجامع الأموي بدمشق إذ كان فيه محرابين جانبيين محراب للمذهب الحنفي ومحراب للمذهب الحنبلي³.

➤ **المنبر:** جمع منابر وهو عبارة عن منصة مرتفعة من الخشب أو الحجر تتسع لوقوف الخطيب وموقعه قرب المحراب ولم يُعرف لمسجد رسول الله منبرا فكان إذا وقف للخطبة استند إلى جذع النخل واستمرّ الحال كذلك إلى غاية السنة السابعة عندما اقترح الصحابة أن يصنعوا له منبرا يقف عليه ويمكّنه من الاستراحة بين الخطبتين فتمّ ذلك وكان مصنوعاً من الخشب، وعليه أصبحت المنابر جزءاً من العناصر المعمارية الرئيسية للمسجد⁴.

➤ **الميضأة:** المكان المخصّص للوضوء وهي من العناصر المعمارية المهمة للمسجد وتميّزه عن غيره من دور العبادات في الديانات الأخرى، فالوضوء والتطهّر من شروط الصلاة ولا يعقل أن يؤسس مسجد دون هذا العنصر وغالبا ماكانت تبنى خارج مبنى المسجد تسهيلا بوضوء عامة

¹ - عبد السلام أحمد نظيف، المرجع السابق، ص 60.

² - بيسيوني محمد الخولي، المرجع السابق، ص 111.

³ - عاصم محمد رزق، المرجع السابق، ص ص 262-263.

⁴ - خذير إبراهيم، المنبر وتطوّره في الإسلام، مجلة المداد، العدد 4، المجلد 2، (214-225)، 2014، ص ص

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

المسلمين وعابري السبيل وحفاظا على المسجد من كل درن قد يلحق به جراء الاغتسال، وكانت في بداية الأمر حوضا يغرف منه الماء وسرعان ما تطوّرت ورُودت بالنوافير والمقاعد الحجرية ومن أهم الميضاآت القديمة ميضاة الجامع الأموي بدمشق وميضاة جامع أحمد بن طولون بمصر¹.

العناصر الجمالية: وهي كثيرة وتميّزت بتركيباتها الفنية المتنوعة ومن أبرزها:

➤ **المقرنصات:** حليات معمارية زخرفية توضع مُدلاة في طبقات منتظمة بشكل مصفوف بعضها فوق بعض وتستعمل كعناصر انتقالية للتدرّج بين مختلف الأشكال مثل التمهيد بين المربع إلى محيط القبة ومن المربع إلى الدائرة²، وهي من أكثر الخصائص المعمارية الإسلامية، و من غرائب الأشكال ذات الأبعاد الثلاثة التي ظهرت في الفن الإسلامي سمّيت بالمقرنصات في الشرق، ظهرت في الغرب لأول مرة بقصري زيسا وكوبا بصقلية لا تزال تستعمل في مراكش إلى اليوم تصنع من الجص، أغلب الظنّ أنّ أصلها يعود إلى فارس، استخدمت في المغرب الإسلامي بجامع تلمسان وفي قبة الباروديين بمراكش وبقبة جامع فاس³.

➤ **الفسيفساء:** من العناصر المعمارية الزخرفية وتعتمد على مزج موادّ مختلفة كالزجاج والحجر الملون أو الصّدق لتكوين زخارف هندسية وكانت الفسيفساء توضع على الأرضيات ثمّ تعدّت إلى الجدران والأسقف، وتعود أصولها التاريخية إلى الحضارات القديمة مثل الحضارة السومرية والهلنستية وهناك بقايا لفسيفساء وجدت في صقلية وترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد (3 ق.م) كما وجدت نماذج أخرى في مدينة الإسكندرية ثم شاع استخدامها في الحضارة اليونانية والرومانية ونقلت هذه التقنية إلى العمائر الإسلامية في ظلّ الاحتلال البزنطي لبلاد الشام

¹ فردوس محمد التويجري، فضيلة مصباح إسماعيل، **العناصر المعمارية في العمارة الإسلامية - العمارة الدينية** - مجلة المنتدى الجامعي للدراسات الإنسانية والتطبيقية، طرابلس، 2022 (صفحات المقال 374-389) ص 380.

² عبد السلام نظيف، المرجع السابق، ص 70.

³ ليوبيلدو توريس بالباس، **الفن المرابطي والموحدي**، مصر، دار المعارف، 1981، ص 51. -وليم جورج مارسي، **المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان**، تر: مراد بلعيد، علي محمد بوريبة، قلة عبد مزياط ط1، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، تلمسان، 2011 ص ص 84-85.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

غير أنّ الفسيفساء الإسلامي تميّز بالطابع الديني والجمالي حيث نجد أنّ الفسيفساء في مسجد قبة الصخرة اقتصر على الكتابات القرآنية والتاريخية وتمّ تزيينها بالزخرفة النباتية¹.

➤ **الأرابيسك:** الأرب بفتح الألف واللام وجمعها مآرب وهي الهدف المنشود، والإرب بكسر الهمزة وسكون الراء تعني الدّهاء والمكر والحدق، أمّا من الناحية الأثرية فالمصطلح يطلق على طراز الزخرفة العربية كما يُعرف بالـرّقش، والتّوشيح، والتّوريق، والعربسة، فيكون طرازاً عربياً له خصائص ومميّزات خاصّة كما أنّ زخرفته عبارة عن فروع نباتية تزخرف بالأزهار والغصون لا يعرف النّاظر إليها مبتداها من منتهائها وقد ذاع صيت هذا الفنّ الإسلامي ثمّ انتقل إلى الفنون الغربية والجدير بالذكر أنّ هذا الفنّ لا يزال يُستخدم في إسبانيا ويُسمّى بكلمة عربية خالصة هي التّوريق (tawrik) وهي مصطلح عربي دقيق يعني أنّ الأوراق النباتية لها دور بالغ في تشكيلة هذا الفنّ، ويرى بعض الباحثين أنّ مصطلح أرابيسك لفظ شامل ولا يقتصر على الزخارف النباتية فقط بل يشمل أنواع الزخارف الإسلامية النباتية والكتابية والهندسية وغير الهندسية بالحبر والأصباغ في مختلف الأماكن الزجاج والحجر والخشب وبدأ ظهوره بوضوح خلال العصر العبّاسي في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي (3هـ/9م) وازدهر في القرن الرابع الهجري (4هـ/10م) في عهد الفاطميين والمغاربة وظلّ يتطوّر إلى غاية القرنين الثامن والتاسع الهجريين الرابع عشر والخامس عشر ميلاديين (8-9هـ/14-15م) حيث بلغ درجة عالية في التعبير عن الفنّ والجمال².

كما وجب التّويه أنّ ماتمّ ذكره لا يمثل كلّ العناصر إنّما هي الأكثر شيوعاً فقد اقتصرنا على ذكر ماتمّ تناوله في الدّراسة فهناك أيضاً الشّرفات - المكاسل - المشكايات - المشربيات - التّوافذ - القواطيع - وغيرها وهي في مجملها تشكّل الطّراز الإسلامي.

ب: الطّرز المعمارية الإسلامية:

¹ - طرشاوي بلحاج، المرجع السّابق، ص ص 145-153.

² - عاصم محمد رزق، المرجع السّابق، ص 12. - ينظر أيضاً: وليم وجوج مارسلي، المرجع السّابق، ص 105.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

يُمكن القول إنّ الطّراز المعمارية عند المسلمين كان نتيجة تراكم عدّة عوامل سياسية دينية وثقافية فقد شجّع الدّين الإسلامي على عمارة الأرض وكان لسرعة انتشاره الأثر البالغ في ظهور طرز معمارية مختلفة لكلّ منها مميّزات خاصّة بها نذكر منها:

➤ **الطرّاز الأموي:** مثّل هذا الطّراز دور النّشأة والأساس عند المسلمين كونه أوّل طراز معماري وقد ظهر في عهد الدّولة الأموية (41هـ-132هـ/661م-750م)، ومن خصائصه المعمارية قدرته على المزج بين النّقايد العربية القديمة وتنظيم الإسلام واتّجاهاته في العمارة واحتوائه لعناصر العمارة البيزنطية والسّاسانية والهلنستية وقد عُرف بأربعة عناصر مهمّة هي المنذنة والمنبر والمقصورة والمحراب المجوف وقد خلّف هذا الطّراز أثارا عديدة أبرزها المساجد كالمسجد الأموي في دمشق وقبة الصّخرة ومسجد القيروان والقصور الأموية¹.

➤ **الطرّاز العبّاسي:** خلف العبّاسيون بني أمية وقد كثر اعتمادهم على العنصر الفارسي وكان لنقلهم للعاصمة من مدينة دمشق إلى بغداد أثر كبير في زيادة التّأثيرات الفارسية و السّاسانية وتميّز بالطّابع الفخم و استخدام الاجر في البناء لوفرتة وبالأخصّ في العاصمة بغداد كما عرف بالزّخرفة الجصية وإنشاء العقود والقبوات والقباب والإيوانات الضّخمة ومن أهمّ المعالم العبّاسية مدينة سامراء ومسجدها و مسجد المنصور ببغداد ومسجد الرّقة ومسجد أبي دلف بالجعفرية ومسجد ابن طولون بمصر ومسجد الجامع بسوسة والزّيتونة بالمغرب الأدنى².

➤ **الطرّاز الفاطمي:** ازدهر هذا الطّراز خلال فترة حكم الدولة الفاطمية (297هـ-567هـ/909-1171م) في المغرب الإسلامي واستمرّ بعد انتقال حكم الدولة إلى مصر وقد تميّز هذا الطّراز بتطوّراته الفنّية والتي مزجت بين التّأثير المغاربي والشرقي وأهمّ ما بقي من العمارة الإسلامية في العصر الفاطمي الجامع الأزهر وجامع الأقمر وعديد العماثر والأبنية ذات الطابع الإسلامي في ربوع بلاد المغرب الإسلامي وجزيرة صقلية ومن الخصائص المعمارية لهذا الطّراز كثرة تشييد المدن كمدينة المهدية والقاهرة وكذلك العماثر الدّينية كالمساجد الجامعة ومساجد الفروض ويُعتبر الجامع الأزهر الذي بني سنة (321هـ-972م) من أبرز إنجازاتهم

¹ -عثمان عثمان إسماعيل، ج1، المرجع السّابق، ص ص 156-179.

² - المرجع نفسه ص ص 180-183.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

والمساجد الفاطمية قريبة الشبه لبعض مساجد المغرب الإسلامي فجامع القاهرة وجامع ابن طولون يشابهان مسجد عقبة في بعض التفاصيل المعمارية كالجزء الأوسط الذي يؤدي للمحراب جهة رواق القبلة¹.

➤ **الطراز الأندلسي المغربي:** ويُقصد به كلّ ما أنتجه الإنسان المغربي والأندلسي من فنون العمارة داخل النطاق الجغرافي للمغرب الإسلامي، حيث تطوّر خلال فترات الحكم المتعاقبة والتي بدأت من عصر القادة الفاتحين منذ أيام عقبة بن نافع ثمّ عصر الولاة في عهد الدولة الأموية حتّى تاريخ سقوطها (132هـ/749م) وامتدّ إلى غاية ما بعد سقوط غرناطة (897هـ/1492م)²، ومن خصائص هذا الطراز اتّساع بيوت الصّلاة و استخدام الزّخرفة بشكل واسع والخطّ الكوفي كما امتاز هذا الطّراز بالعقود ذات شكل حدوة الفرس والتي ترتكز على أعمدة لها تاج مُورق وقاعدة بسيطة، أمّا المآذن فتتميّز بطابع خاصّ بنيت أغلبها على شكل مربّع تعلوه شرفات مسنّنة ثمّ يعلوها بدن مربّع ومن أمثلة ذلك منارة جامع القيروان و الكتيبة في مراكش ومن أشهر الآثار المعمارية لهذا الطّراز جامع قرطبة وقصر الزّهراء في الأندلس وجامع القرويين ومسجد الكتبية بالمغرب الإسلامي³، والعمارة في الحضارة الإسلامية لم يكن هدفها التّعبير عن الذّوق والفنّ فقط بل كانت أيضا انعكاس لمقاصد الشّريعة الإسلامية.

رابعا: العمران في الفقه الإسلامي وشروط المدائن

تُعتبر المصادر الفقهية رافدا مهما لفهم تطوّر العمارة الإسلامية، وخاصّة تلك المصادر التي تعالج ما يرتبط بمسألة التّمدين وما يتعلّق به من نظريات وحلّ لمشاكل العمران⁴، حيث قدّم علماء الفقه إلى الأمّة الإسلامية من خلال ما يعرف بنوازل فقهاء المغرب في مجال البنين دليلا

¹- عبد السلام أحمد نظيف، المرجع السابق، ص 16.

²- عثمان عثمان إسماعيل، ج1، المرجع السابق، ص ص 246-247.

³- حسين مؤنس، المساجد، الكويت، عالم المعرفة، 1981، ص 86- ينظر أيضا: ينظر أيضا: عبد السلام

أحمد نظيف، المرجع السابق، ص 26.

⁴- لحسن تاوشخت، عمران سجلماصة دراسة تاريخية وأثرية، ج1، ط1، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، 2008، ص152.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

واضحاً على شمولية الدين الإسلامي واهتمامه بجميع الجوانب بما في ذلك الجانب العمراني¹، حيث إنَّ فقهاء المسلمين اعتمدوا في تناولهم لأحكام البنين على القرآن الكريم والسنة النبوية، أما القرآن الكريم فكان قوله تعالى {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}² ويفسرون العرف بالنسبة لأحكام البنين بما تعارف عليه الناس وارتضوه ولم يعترضوا عليه شرطاً ألا يتعارض العرف مع القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف، أما الحديث الذي اعتمد عليه الفقهاء في أحكام البنين فهو "لا ضرر ولا ضرار"³، وهو أحد الأحاديث الخمسة التي يقوم عليها الفقه الإسلامي⁴.

ويُعتبر مصنف ابن عبد الحكم (ت214هـ-829م) الموسوم بـ "كتاب البنين" أحد أهم وأقدم هذه المصنّفات، كذلك هو الحال مع كتاب ابن الرّامي البّناء "الإعلان بأحكام البنين" من أهم ما كتب في هذا المجال نظراً لتضلّعه في الفقه وخبرته الميدانية في مجال البناء، كما تدخل مصنّفات وتوايف كتب الفتاوى والنّوازل العامّة⁵ ضمن هذا الإطار، إذ هي الأخرى أشارت إلى بعض المسائل الفقهية المتعلّقة بأحكام البناء والتّشييد⁶، ومن الكتب المهمّة في فقه العمارة الإسلامية كتاب القسمة وأصول الأرضين لصاحبه الفرسطائي (ت504هـ/1110م) حيث يحتوي هذا

¹ خالد عزب، فقه العمارة الإسلامية، ط1، دار النّشر للجامعات، مصر، 1997، ص9.

² القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية، 199.

³ ابن دقيق العيد، شرح الأربعين النووية، ط6، مؤسسة الرّيان، لبنان، 2003م، ص 106- ينظر أيضاً: أبو إسحاق الشّاطبي، الموافقات، ج6، ط1، تح أبي عبيدة مشهور، دار ابن عفان، 1997، ص 227.

⁴ خالد عزب، المرجع السّابق، ص ص17-18.

⁵ ومن أمثلة كتب النّوازل الفقهية العامّة كتاب المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب لصاحبه الونشريسي وكتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة لمؤلفه أبي زكريا يحيى بن موسى المغيلي المازوني وغيرها، ينظر: المغيلي المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تح مختار حساني، مراجعة كرشوش الزواوي، الجزائر، دار الكتاب العربي، 2009، ص ص 1-100. ينظر أيضاً: بن حمو محمد، العمران، المرجع السّابق، ص ص 1-128.

⁶ لحسن تاوشتخت، المرجع السّابق، ص148.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

المصدر على معلومات عن العمارة الصحراوية ومعرفة أصول المنازعات المتعلقة بالبناء وحقوق الأجور في بيئة ذات مذهب إباضي¹.

ويوضح ابن أبي الزبيع (ت272هـ-990م) في كتابه "سلوك المالك في تدبير الممالك" الأسس الواجب اعتمادها عند إنشاء المدن وهي: الأول أن يجلب إليها الماء العذب للشرب، والثاني أن يقدّر طرقها وشوارعها، والثالث أن يكون بها جامعا للصلاة، وأن يكون قريبا للجميع، الرابع أن يفرّق بين القبائل الساكنة وألا يجمع أصدادا مختلفة أما الخامس أن يحيط بالمدينة سور من أجل حمايتها، وأخيرا أن ينقل إليها أهل الصنائع².

من جهته يرى الماوردي (ت450هـ-1058م) أنّ إنشاء المدن لابد أن تتوفر فيه ستّة شروط وهي: أحدهما كثرة المياه العذبة، وإمكان الميرة المستمّدة، حيث يكون المكان موافقا لصحة الهواء والتراب، وأن تكون المراعي قريبة إضافة إلى تحصين منازلها من الأعداء واللصوص، وأنّ يحيط به سواد يعين أهله بموادّه³، وهو ما أكّده أحمد بن القاضي في كتابه الموسوم جذوة الاقتباس بقوله: "لا تستوطن إلّا بلدا فيه سلطان حاضر وطبيب ماهر ونهر جار وقاض عدل وعالم عامل وأسواق قائمة"⁴.

ويقسّم الماوردي البلدان إلى نوعين: البلد الزراعي والبلد التجاري، يكون البلد الزراعي أكثر استقرارا واستيطاناً لتوفر المياه والموادّ فيه، ومن شروطه: أن يكون في وسط الأمصار مع تساوي أو تقارب المسافات التي بينه وبين هذه الأمصار، كما يميّزه كثرة العمارة.

¹ - الفرستائي أبو العباس، القسمة وأصول الأرضين كتاب في فقه العمارة الإسلامية، تح بكر بن محمد بلحاج و محمد صالح بن ناصر، ط2، القرارة، الجزائر، جمعية التراث، ص 1-27.

² - ابن أبي الزبيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق ناجي التكريتي، دار الأندلس، بيروت، 1981، ص192.

³ - الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 162-163.

⁴ - ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام بمدينة فاس، ج1، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص42.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

وَأَمَّا الْبَلَدُ التِّجَارِي فَهُوَ يَصْنَفُ ضَمْنَ أَفْضَلِ الْأَقَالِيمِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَتَوَقَّرُ عَلَى مُخْتَلَفِ الضَّرُورِيَّاتِ وَالْمَوَادِّ الْأَوَّلِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ وَالثَّانَوِيَّةِ الْكَمَالِيَّةِ أَمَّا شُرُوطُهُ فَهِيَ ثَلَاثَةٌ:

-أولها: أَنْ يَتِمَّ وَضْعُ فِي وَسْطِ أَمْصَارِ الرِّيفِ وَأَلَّا يَبْعَدَ عَنِ التِّجَارِ فَلَا يَجْدُونَ مَشَقَّةً فِي الْوَصُولِ إِلَيْهِ.

- ثانيها: سَهُولَةُ الطَّرِقاتِ وَالْمَسَالِكِ الْبَرِّيَّةِ وَالْبَحْرِيَّةِ مِمَّا يَشْجَعُ وَيَنْشِطُ الْحَرَكَةَ التِّجَارِيَّةَ كَنْقَلِ الْبَضَائِعِ مِنْهُ وَإِلَيْهِ.

-ثالثها: تَوَقَّرُ الْأَمْنُ فِيهِ وَفِي مَسَالِكِهِ وَطَرِقاتِهِ مِمَّا يَعْطِي رَاحَةً وَحَرِيَّةً لِلْحَرَكَةِ التِّجَارِيَّةِ، وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ هَذَا الشَّرْطَ هُوَ الْأَكْثَرُ أَهْمِيَّةً مِنْ بَاقِي الْأَسْبَابِ وَالشَّرُوطِ¹، وَعَلَيْهِ فَإِذَا تَوَقَّرَتْ هَذِهِ الْأَسْبَابُ وَالشَّرُوطُ أَسهَمَتْ وَسَهَّلَتْ عَمَلِيَّةَ بِنَاءِ الْمَدَنِ وَقِيَامِهَا.

لَقَدْ مَثَّلَ بِنَاءُ الْمَدَنِ وَتَخْطِيطُهَا مَحَوْرًا أَسَاسِيًّا عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ، لِذَلِكَ رُعِيَتْ عِدَّةُ شُرُوطٍ فِي تَشْيِيدِهَا مِنْهَا مَا ذَكَرَهُ ابْنُ خُلْدُونِ (ت808هـ-1406م) مِنْ دَفْعِ الضَّرَرِ وَجَلْبِ الْمَصْلَحَةِ الْمُمْتَنَّةِ فِي الْحِمَايَةِ وَفِي هَذَا السِّيَاقِ يَقُولُ: "وَجِبَ أَنْ يَرَاعَى فِيهِ دَفْعُ الْمَضَارِّ بِالْحِمَايَةِ مِنْ طَوَارِقِهَا وَجَلْبِ الْمَنَافِعِ وَتَسْهِيلِ الْمُرَافِقِ لَهَا فَأَمَّا الْحِمَايَةُ مِنَ الْمَضَارِّ فَيَرَاعَى لَهَا أَنْ يَدَارَ عَلَى مَنَازِلِهَا جَمِيعًا سِيَاحَ الْأَسْوَارِ وَأَنْ يَكُونَ وَضْعُ ذَلِكَ فِي مُمْتَنِّعٍ مِنَ الْأَمْكِنَةِ إِمَّا عَلَى هَضْبَةٍ مُتَوَعَّرَةٍ مِنَ الْجَبَلِ وَإِمَّا بِاسْتِدَارَةِ بَحْرٍ أَوْ نَهْرٍ بِهَا حَتَّى لَا يُوَصَلَ إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ الْعُبُورِ عَلَى جِسْرٍ أَوْ قَنْطَرَةٍ فَيَصْعَبُ مَنَالُهَا عَلَى الْعَدُوِّ وَيَتَضَاعَفُ امْتِنَاعُهَا وَحَصْنُهَا"².

وَفِي الْمَسْأَلَةِ ذَاتِهَا أَشَارَ ابْنُ خُلْدُونِ إِلَى أَسْبَابٍ أُخْرَى مِنْهَا مَا وَصَفَهَا بِالسَّمَاوِيَّةِ وَفِي هَذَا يَقُولُ "وَمِمَّا يَرَاعَى فِي ذَلِكَ لِلْحِمَايَةِ مِنَ الْآفَاتِ السَّمَاوِيَّةِ طَيْبُ الْهَوَاءِ لِلسَّلَامَةِ مِنَ الْأَمْرَاضِ. فَإِنَّ

¹-الماوردي، المصدر السابق، ص ص164-165.

²-عبد الرحمن بن خلدون، ج1، المصدر السابق، ص ص 432-433.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

الهواء إذا كان راكدا خبيثا أو مجاورا للمياه الفاسدة أو منافع، متعفنة أو مروج خبيثة أسرع إليها العفن من مجاورتها فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه¹.

أما عن جلب المنافع والمرافق فيراعى فيه أمور أحدها وفرة المياه وأن يكون البلد على نهر أو به عيون عذبة وذلك لضرورته للسكان، كذلك أكد ابن خلدون على أهمية طيب المراعي للسائمة، إذ لابد لصاحب القرار من دواجن الحيوان لما تنتجه من ضرع وركوب ولابد لها من المرعى لأن الزروع هي الأقوات²، فقد اعتبر ابن خلدون المسكن نواة للمدينة، ويعزى ذلك إلى دوره في دفع المضار الناجمة عن الظروف الطبيعية التي يمكن أن يتعرض لها الإنسان، كما ركز على ضرورة تضمين الحصانة والحماية في تخطيط المدينة كشرط أساسي، نظرا لأن المدن قد تكون معرضة للغزو الأجنبي وبالتالي فإن توفير الحماية يتطلب بناء الأسوار واختيار مواقع طبيعية مثل الجبال.

وهذه الشروط نقلها عنه ابن الأزرقي (ت 897هـ - 1492م) فيرى أن المضار نوعان: "أحدهما أرضية ودفعها بإدارة سياج الأسوار على المدينة ووضعها في مكان ممتنع على هضبة متوعدة من الجبل أو باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف تحصينها، الثاني سماوية ودفعها باختيار المواضع الطيبة الهواء لأن ما خبث منه بركود أو تعفن لمجاورته مياهها فاسدة أو منافع متعفنة أو مروج خبيثة يسرع المرض فيه للحيوان الكائن فيه لا محالة كما هو مشاهد بكثرة³.

مما سبق يتضح أن مفكري العمران الإسلامي يتفقون على مجموعة من الشروط لإنشاء المدن وليكتمل حقوق ساكنيه، وأن العمارة الإسلامية ارتبطت تاريخيا بالتراكمية للشعوب والأقوام التي توالى على الحكم الإسلامي فأصبحت عمارة أموية وعباسية وفاطمية ومرابطية وموحدية وغيرها، كما ارتبطت بالمكان فأطلق عليها عمارة شبه الجزيرة والعمارة المغربية والأندلسية وغيرها

¹ - عبد الرحمان بن خلدون، ج1، المصدر السابق، ص 433.

² - المصدر نفسه، ص ص 433-434.

³ - ابن الأزرقي أبو عبد الله محمد الأندلسي، بدائع السلك في طبائع الملك، ج1، تح، علي سامي النشار، ط1، وزارة الإعلام، العراق، ص 277.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

من الأماكن التي وصل إليها الحكم الإسلامي وسواء ارتبطت بالشعوب أم المكان فجميعها مرتبط بالدين الإسلامي.

خامسا: الإرث العمراني في المغرب الإسلامي قبل القرن الخامس الهجري:

أ- الإرث العمراني في بلاد المغرب قبل عملية الفتح الإسلامي-الخصائص والتطورات-

يبدو أنه لا يمكن إحصاء الإرث العمراني الذي خلّفته الدول والحضارات التي قامت وتعاقت ببلاد المغرب، فقد ورّثت إرثاً عمرانياً كبيراً كمّاً ونوعاً، وعموماً فإننا نجد العديد من المدن التي تأسست على نواة محلية قديمة، أوفينيكية¹ أو رومانية² ثمّ الوندالية والبيزنطية.

¹ -الفينيقيون إخوة العرب، اهتموا بالتجارة، وأسّسوا عديد المراكز بشمال إفريقيا للتجارة، ومن هذه المراكز هبون (عنابة) (جيجل) حضر موت (سوسة) صلداي (بجاية)، وتنسب ثلاثمائة مركز في شمال إفريقيا إليهم، تحوّل بعضها إلى مدن، وقد كان للفينيقيين دراية كبيرة بأساليب العمران اقتبس اليونانيون بعضها منهم، ينظر: مبارك بن محمد الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، 1986م، ج1، ص ص132-133.

² ينسب الرومان إلى عاصمتهم روما التي تنسب عدّة أساطير حول تأسيسها منها أسطورة رومولوس على أساس أنه استوطن إحدى التلال السبع التي أقيمت عليها روما قرب نهر التّيبير الذي يقع وسط إيطاليا قلب العالم القديم سنة 753 ق م، ثم استقرّت حوله عدّة قبائل منهم الإيطاليون الذين تنسب إليهم شبه الجزيرة و اللاتينيون الذين نسبت إليهم اللغة اللاتينية، أخذ نفوذ الرومان يتّسع شيئاً فشيئاً في المناطق المجاورة لروما ثمّ إيطاليا الوسطى ليمتدّ جنوب شبه الجزيرة الإيطالية وواصلو توسّعاتهم الخارجية لتصل إلى أوج عظمتها في عهد الإمبراطور تراجان مع نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الميلادي حيث امتدّت حدودها الجنوبية إلى جبال الأطلس وتلال نهر النيل والصحراء الإفريقية ومن الجهة الشرقية إلى صحراء الشام وفلسطين وبلاد القوقاز أمّا الجهة الشمالية فبلغت نهري الراين والدانوب، أمّا المحيط الأطلسي فكان يحدها من الجهة الغربية، وبرز الرومان في مجال العمارة حتّى أضحت فنّ العمارة الروماني تعبيراً فنياً عن الروح الرومانية لما يمثّله من فخامة ورفعة وصروح لاتزال إلى يومنا هذا شاهدة عن إبداعهم ومن إنجازاتهم المعمارية في بلاد المغرب الأوسط المعابد والمدن والجسور كجسر القنطرة الذي يقع شمال مدينة بسكرة بالجزائر ينظر: ول ديورانت، ج10، المرجع السابق، ص 288-292. - ينظر أيضاً: مبارك الملي، ج1، المرجع السابق، ص ص 243-285. - فتحة شلوق، مساهمة المواقع الأثرية والمعالم التاريخية في تطوير السياحة بمنطقة الزيتان دراسة أثرية تنموية، أطروحة دكتوراة علوم في الآثار، إشراف صالح بن قربة، جامعة الجزائر 02، 2014/2015م، ص 71.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

إذ أنشأت هذه الحضارات العديد من المدن والحصون وركّزت على السواحل، وعلى هذه المنشآت قامت بعض المدن المغربية في المغرب الإسلامي والتي ورثت مميزات عن المدن القديمة وهناك أخرى تأسست في مناطق فارغة لذلك عُرفت بالمدن الناشئة أو المستحدثة ومنها ما تأسس برغبة سلطانية لتكون رمزا للسلطة.

وقد وردت معلومات مهمّة من قبل الرّحالة والجغرافيين والنّصوص الإخبارية عن العمارة القديمة في بلاد المغرب إذ نجد إشارات متعدّدة إلى عدد كبير من مدن الشّمال الإفريقي منذ القرن السادس قبل الميلاد حتّى بداية تأسيس الدّول الإسلامية الأولى كالدّولة الرّستمية ببلاد المغرب الأوسط والدّولة الأغلبية بالمغرب الأدنى والدّولة الإدريسية بالمغرب الأقصى، بالرّغم من ذلك هناك غموض وصعوبة في تحديد البدايات الأولى لنشأة المدن بشمال إفريقيا وكيفية تحوّل النّمو الرّوماني والبيزنطي إلى نموّ إسلامي هذه الصّعوبة لم تقتصر على المدن العتيقة فقط، ولكن تلك الصّعوبة تشمل أيضا بعض المدن والحوضر الإسلامية التي اختلف في تاريخ بنائها مثل مدينة تاهرت ومراكش ووليلي وتلمسان وغيرها¹.

وقد وردت أوصاف متعدّدة للمدن في كتب الجغرافيا منها الأزلية²، والأولية، والمدن اللّطيفة وهذه لوحة لأوصاف بعض مدن المغرب الإسلامي من خلال كتاب الرحلة والجغرافيا "صورة الأرض" لابن حوقل:

الجدول رقم 01: وصف بعض المدن المغربية حسب ابن حوقل

¹ محمد العميم، إشكالية أصل المدينة بشمال إفريقيا، المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات كلّية الآداب والعلوم الاجتماعية، الدّار البيضاء، 1988، ص 62-64.

² -الأزل: دوام الوجود في الماضي والأبد دوامه في المستقبل ومن هنا فهذه المدن قديمة وبقيت ولم تتدنر بعد بنائها، ينظر: محمد بن علي التهانوي، موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج2، تح علي دحروج، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1996 ص 1112.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

المدينة	أزلية	أولية	قديمة
تونس	×		×
باجة	×		×
اشرشال	×		×
مليلة	وكانت أزلية ×		
طنجة	×		
وازيل	×	×	×
سله	×		
سبيبه	×		
طبنة			×
تاهرت			×
تيفاش	×	×	
تتمسان	×		
بنو واريغن	قرية ازلية قرب الشلف ×		
مليانة	×		×
نقاوس	×		

عن: صورة الأرض، ج1، ، بيروت، دار صادر، 1938، ص ص73-93 (بتصرف)

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

من خلال هذا الجدول يتّضح أنّ المدن التي وردت عند ابن حوقل في بلاد المغرب تشمل خمسة عشر مدينة، وقد وصفها جميعاً بأنها أزلية تعبيرا عن وجود آثار كبيرة بها. وجاء وصف لمدينة طنبه ببلاد المغرب الأوسط بالقديمة وبهذا يتّضح أنّ هذه المدن في بلاد المغرب الإسلامي كانت موجودة قبل وصول المسلمين في حين وصفت مدينتا وازيلي وتيفاش فقط بالأولية، بينما جاء ذكر المدن القديمة ثمانى مرات، والمعلومات المتاحة عنها قليلة ولا تتضمن تفاصيل دقيقة عن الموروث السابق لمدن المغرب الإسلامي، ومع ذلك تعتبر هذه المعلومات مهمّة في النصوص الجغرافية كون أنّنا لا نجد لها في النصوص الأخرى، وتزداد أهميتها لأنّ ابن حوقل زار المنطقة بنفسه ممّا أعطى وصفه مصداقية أكبر.

في حين نجد أبا عبيد الله البكري (ت487هـ/1094م) في كتابه المسالك والممالك يغلب على وصفه للمدن بالأولية¹، فهي مدن للأول لكنّها شهدت مراحل للتجديد والتعمير، وبعضها انتقل من قرية إلى حاضرة كبرى كمدينة تونس²، ومدينة تيفاش وهي مدينة أولية شامخة البناء، ومدينة بونة مدينة أولية³.

يبدو جلياً أنّ البكري كان أكثر دقّة من سابقه ابن حوقل وإن لم يزر بلاد المغرب، وذلك راجع ربما لتنوّع مصادره التي اعتمدها عكس ابن حوقل الذي اعتمد في مصنّفه على المعاينة والمشاهدة وهي نظرة أحادية بالرغم من مصداقيتها وقربها للحقيقة.

¹ - أثناء حديث البكري عن الطّرق من مدينة القيروان إلى مدن المغرب الأوسط والأقصى ذكر عديد المدن والقرى والحصون ووصف حصانتها ومتانة عمرانها وقدمها ووجود آثار ترجع إلى الأول أي الحضارات والأمم السابقة للمسلمين مثل مدينة رقادة والمهدية وسوسة وتونس وتيجس التي بها سور صخر رومي، قسطنطينية وهي مدينة أولية، مجانة وهي كبيرة ولها سور وبها الحمامات والجوامع والمعادن الكثيرة وكذلك مدينة ميلة، باغاي، تقاش، جزائر بني مزغناي، المسيلة، تيهرت، أرزاو، طنبه، سطيف، باب أبي قرّة، وارجلن. أنظر: أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص ص 728-750.

² - محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1999، ص56.

³ - أبو عبيد الله البكري، ج2، المصدر السابق، ص ص 715-717.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

في حين ذكر صاحب الاستبصار وهو من أهل القرن السادس الهجري المدن المشهورة من بلاد مصر إلى آخر بلاد المغرب بادئاً بالمدن الساحلية ثم الصحراوية، وأول مدينة إفريقية على الساحل حسبته هي أطرابلس وهي أزلية كبيرة يضرب البحر سورها، كما ذكر مدينة قابس "هي مدينة كبيرة قديمة أزلية"، ومدينة سوسة وهي "مدينة أزلية قديمة فيها آثار للأول ومدينة تونس" قديمة البناء، وتلمسان مدينة عظيمة قديمة فيها آثار كثيرة أزلية¹.

رغم نضج الفكر الجغرافي في القرن السادس فإن وصف الجغرافيين لم يختلف عن السابقين، فقد استعملت المصطلحات نفسها للتعبير عن المدن مثل القديمة أو فيها آثار للأول أو وصفها بالأزل.

إن كتب الرحلة والجغرافيا قد أرجعت أغلب مدن المغرب إلى الرومان والبيزنطيين وحتى الفينيقيين وأهملت إسهام البربر في تعمير بلاد المغرب، ولقد قدم ابن خلدون (ت 1405/808م) إجابة عميقة بخصوص عدم اتخاذ البربر للمدن والعمائر إلى عدة عوامل نذكر منها:

تغلب الطابع القبلي حيث إن هذه الأقطار كانت للبربر منذ آلاف السنين، وكان يغلب على عمرانها الطابع البدوي مع تمتع البربر عن جميع المؤثرات الحضارية للأمم الوافدة². لقد جعل ابن خلدون البداوة سبباً لقلّة العمران، فتأسيس المدن في نظره يكون في المناطق الحضرية.

كما رأى أن خراب المدن سببه عدم تمكّن البدو من الصنائع إذ يقول: "الصنائع بعيدة عن البربر لأنهم أعرق في البدو"، فتوفر المباني يستوجب توفر الصنائع والتي هي من توابع

1- مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، ج1، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986، ص ص110-176.

2- قارن ابن خلدون بلاد البربر وعدم تأثرهم بالحضارات والممالك التي قامت في بلادهم باليهود في الشام، وأيضاً القبط في مصر وكذلك الحضارة بالعراق إذ يقول "اليهود لما طال ملكهم بالشام نحو من ألف وأربعمائة سنة رست حضارتهم وحذقوا في أحوال المعاش وعوائده والتفنن في صناعاته من المطاعم والملابس وسائر أحوال المنزل حتى إنها لتؤخذ عنهم في الغالب إلى اليوم... وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دولة النبط والفرس بها من لدن الكلدانيين والكيانية، والكسروية والعرب بعدهم آلافاً من السنين". ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، ج1، المصدر السابق، ص ص461-462.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

الحضارة، والتي كان البربر بعيدين عنها كونهم أهل بداءة فلم يكن لهم تشوّق إلى المباني وبناء المدن¹.

كما كان للعصبية القبلية² دور في بداءة البربر إذ يقول عنهم: "أهل عصبية وأنساب لا يخلو عن ذلك جمع منهم والأنساب والعصبية أجنح إلى البدو وإنما يدعو إلى المدن الدّعة والسّكون"³ وعليه فإنّ أهل البدو عموماً يبتعدون عن سكن المدن أو الإقامة بها فكان عمران إفريقية والمغرب أكثره بدوياً وذلك لأنّهم أهل خيام وظواعن وقياطين يحبّون سكن الجبال، عكس عمران بلاد العجم الذي كلّه قرى وأمصار.

يتّضح ممّا أورده ابن خلدون أنّ الوضع الاجتماعي للبربر لم يسمح بظهور حواضر كبيرة، وذلك ربّما لكثرة التّرحال حيث إنّّه لم يكن للبربر دور كبير في عمارة بلاد المغرب القديم، وهذا راجع ربّما لعدم ذوبان وانصهار البربر مع النّقافات والعناصر الإثنية الأخرى الذي يؤهّلهم للانتقال من مرحلة البداءة إلى مرحلة الحضر عبر تشييد المدن وهذا حسب نظرية ابن خلدون.

ومع بداية الفتوحات الإسلامية، شهد المغرب الإسلامي حركة عمرانية نشطة، خاصّة مع بداية منتصف القرن الثاني الهجري وقيام الدّول المستقلّة عن الخلافة الإسلامية في المشرق، حيث سعى المسلمون في تلك الفترة إلى إنشاء قواعد ومراكز حضارية وبذلك نشأة المدن الإسلامية الأولى في المغرب الإسلامي، ومن أبرز هذه المدن مدينة القيروان في المغرب الأدنى وتاهرت في المغرب الأوسط وفاس في المغرب الأقصى، وكانت مواقع هذه المدن تتوفّر على الشّروط

¹- ابن خلدون، ج1، المصدر السّابق، ص 446.

²- ارتبطت معظم الحركات الدّينية والإصلاحية التي قامت في بلاد المغرب الإسلامي على العصبية، فالدّولة المرابطية لم تؤسّس الدولة إلّا بعد توحيد عصبية الملتّمين من قبائل صنهاجة، وكذلك الحال بالنّسبة للدّعوة المهديّة التّومرتية فلم تتخلّص من دولة المرابطين إلّا بعد اعتمادها على عصبية مصمودة وهو ما عبّر عنه ابن خلدون بأنّ الدّعوة الدّينية لا تتمّ من غير عصبية، ينظر: محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبية والدّولة معالم نظرية خلدونية في التّاريخ الإسلامي، ط6، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 1994، ص 206.

³- ابن خلدون، ج1، المصدر السّابق، ص 446.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

اللازمة لازدهار والتطوّر مثل الماء والحطب وعدد السكّان وكبر المساحة وغيرها من الشّروط التي سمحت لها بالنّموّ والتّطوّر.

ب - الإرث العمراني للمغرب الأدنى بعد الفتح الإسلامي:

أ: القيروان في المغرب الأدنى

تمثّلت القيروان منذ تاريخ بنائها (50هـ/670م) مركزا عمرانيا وحضاريا مهمّا عندما قام بإنشائها عقبة بن نافع في عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان، وكان هدفه من هذا البناء أن يستقرّ بها المسلمون، إذ كان يخشى إن رجع المسلمون عن أهل إفريقية أن يعودوا إلى دينهم وقد تمّ اختيار موقعها بعد دراسة استراتيجية تمثّلت في حسن اختيار الموضع، حيث كان بعيدا عن البحر في منطقة داخلية وذلك لتجنّب خطر الأساطيل البيزنطية¹، رغم ذلك فقد توسّعت المدينة بسبب التشجيع على البناء والتّعمير من طرف عقبة في السّنوات الخمسة من ولايته الأولى وكان بُعدها عن البحر بمسيرة يومين، حتّى لا تكون في مرمى الأساطيل المعادية خصوصا هجومات البيزنطيين، خاصّة أنّ المسلمين في هذه الفترة لم تكن لهم دراية واسعة بالبحر ممّا يُصعّب عليهم الدّفاع عن المدن الساحلية².

كما يجدر التّويه أنّ البعض من أصحابه قد أشاروا عليه أن تكون المدينة التي يعسكرون بها قريبة للبحر للمرابطة فيها فكان ردّ عقبة بن نافع خوفه من صاحب القسطنطينية أن يطرقها فيهلكها³، فالتّاحون الأوائل ركّزوا على الوصول إلى المناطق الدّاخلية وتجنّبوا المرور بالساحل الشّرقى، وبذلك تجنّبوا البحر والجبال في الغرب التي يُخشى من الكمائن التي تنصب بها⁴.

¹- ابن سعيد، بسط الأرض في الطّول والعرض، تح خوان قرنيط خنيس، معهد مولاي، تطوان، 1958، ص 78- أحمد فكري، المسجد الجامع القيروان مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر، 1355-1936، ص 11.

²- ابن أبي دينار المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط3، بيروت، دار المسيرة، 1993، ص ص 40-42. ينظر أيضا: محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 126.

³أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، المصدر السابق، ص 11.

⁴مارتاين تيودور هوستما، توماس وولكر أرنولد، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج27، إشراف، حسن حبشي، ط1، مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1998، ص 8839.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

وبهذا وقع تحوّل في التّنظيم المجالي من الشّمال إلى الجنوب، ومن السّاحل البحري إلى المناطق الدّاخلية ممّا أدّى إلى ضعف دور تأثير البحر وبروز الدّور التّاريخي للقوافل التّجارية حيث برزت ظاهرة إنشاء المدن والمراكز في المناطق الدّاخلية والصّحراوية¹.

مثّلت القيروان أمّا للأمصار وأعظم مدينة بالمغرب وأكثرها تجارةً وأموالاً وأحسنها بنياناً وأكثرها عمراناً في بلاد المغرب الإسلامية²، ممّا أهلها للعب أدوار رئيسية في القرون الإسلامية الأولى فكانت العاصمة السّياسية للمغرب الإسلامي، ومركز ثقل فيه منذ بداية الفتح، كما أنّ الخلافة العبّاسية ببغداد عند تأسيسها رأت فيها سنداً داعماً لها ببلاد المغرب³، وقد تمثّل الدّور المركزي لها بعد تأسيسها في دورين رئيسيين تجسّداً في الدعوة والجهاد إذ كانت منطلقاً للجيش الفاتحة كما كانت منبعاً للفقهاء الحاملين لرسالة الإسلام عبر نشر هذا الدّين الحنيف ولسانه العربي المبين.

بالمقابل كان اختيار الموقع الذي قامت به القيروان مثاراً للجدل حيث يرى البعض أنّه لم يكن هو الموقع الملائم ومن ثمّ فقد أسئ اختياره، ويأتي على رأس هؤلاء ابن خلدون إذ يقول "وانظر لما اختطّوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها إلّا مراعي إبلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظّعن فكانت بعيدة عن الوضع الطّبيعيّ للمدن ولم تكن لها مادّة تمدّ عمرانها من بعدهم كما قدّمنا أنّه يحتاج إليه في العمران فقد كانت مواطنها غير طبعيّة"⁴

¹-هاشم العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى حتّى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي، ج2، المحمدية، مطبعة فضالة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، 1995، ص23.

²- ابن حوقل، ج1، المصدر السّابق ص 96. - ينظر أيضاً: الإدريسي، المصدر السّابق، ص 284.-أبو عبيد الله الزّهرّي، كتاب الجغرافيا، تح محمد حاج صادق، مكتبة الثّقافة الدّينية، مصر، دت، ص 109.

³-أحمد أرشيد الخالدي، المدن والآثار الإسلامية، ط2، دار المعتر للنّشر والتّوزيع، الأردن، 1436-2010م، ص59.

⁴-ابن خلدون، ج1، المصدر السّابق، ص448.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

صحيح أن المدينة واجهت بعض المشاكل منها مشكلة إمدادها بالمياه، وقد تمكن الرومان¹ من إيجاد حل لها ومن بعدهم العرب²، فإن المنطقة التي بنيت بها القيروان اتخذت شكل رباط فكانت بمثابة قاعدة عسكرية اقتضتها ظروف الفتح التي قام بها المسلمون في القرن الأول الهجري فكانت القيروان منطلقا لجيوش الفتح نحو المغرب الإسلامي، وقد روعي في إنشائها الجانب الاقتصادي فهي ملتقى الطرق التجارية إذ تعتبر حلقة وصل بين الشمال الأوربي والجنوب الإفريقي والشرق العربي نحو الغرب الإسلامي، ساعدها هذا الموقع الاستراتيجي بأن تكون من أهم المراكز الحضارية في منطقة المغرب الإسلامي مع نهاية القرن الأول الهجري³.

وإذا كان عقبة ابن نافع قد قام بإنشاء مدينة القيروان فإنه يصعب تتبع المنجزات المعمارية لفترة حكم الولاة، وعموما فقد اهتم الفاتحون الأوائل بالعمارة الدينية، فبنيت المساجد وجهزت بالمنابر، كما استكملت دولة الاغالبة (184-296هـ/800-909م) أعمال البناء والتشييد في هذه المدينة منها توسيع جامع القيروان، فلما ولي إبراهيم بن الأغلب زاد في طول بلاطات الجامع، وبنى القبة المعروفة بباب البهو⁴، وباستيلاء العبيديين عليها توسعوا في منطقة بلاد المغرب الإسلامي لبسط سيطرتهم، ومع انتقالهم إلى مصر جعلوا القيروان عاصمة إقليمية لنائبهم في إفريقية⁵.

أما عن توزيعها الديمغرافي فقد استوعبت المدينة مزيجا من العناصر البشرية بعضهم قدم مع جيوش الفتح والبعض الآخر من أهل هذه الديار -البربر- ليتم توزيعهم وفق نظام قبلي إذ ضمت نواحي المدينة منطقة للقحطانيين وأخرى لبني ربيع، وثالثة لبني مضر، ورابعة للبربر، أما عن

1- بنيت القيروان على مدينة رومانية قديمة تعرف ب قمونية وكانت بها كنيسة، ينظر: أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسأكلهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ج1، تح، بشير البكوش، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1994، ص 32.

2- مارتاين تيودور هوستماوتوماسولكر أرنولد، المرجع السابق، ص 8843.

3- لحسن تاوشخت، المرجع السابق، ص 161.

4- خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ط2، بيروت، مؤسسة القلم، 1977م، ص 210. - ينظر أيضا: لحسن تاوشخت، المرجع السابق، ص 59-162.

5- أحمد أرشيد الخالدي، المرجع السابق ص 61.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

النّظم والدّواوين الخاصّة بالمدينة فيرجع الفضل إلى خليفة هشام بن عبد الملك في تنظيمها إدارياً عبر نشر الدواوين والنّظم بها¹.

-أسوار وأبواب المدينة:

توفّرت الحجارة بمدينة القيروان ممّا سهّل عملية التّشييد والبناء، ويبدو أنّ سعتها قد قدرت في بداية نشأتها بسبعة ونصف كيلو متر (7.5 كم)، أمّا عن ساكنتها فقد بلغ عدد سكّانها ما يزيد عن خمسين ألف نسمة، اعتمدت مدينة القيروان في تحصيناتها الدّفاعية على قوّة رجالها إذ لم تكن في بداية أمرها مسوّرة إلى غاية عهد أبي جعفر المنصور العبّاسي عام (144هـ/762م) إذ أمر ببناء السّور حيث وجد من الضّرورة أن يكون بها لحمايتها من أعداء النّفوذ العبّاسي ليكون سورها بمقدار عشرة أذرع².

أمّا عن أبوابها فقد كانت أربعة عشر باباً موزعة في مختلف نواحي المدينة، وكان بابها المسمّى بباب الرّبيع الواقع في الجهة الجنوبية يفضي ويربط بين جامعها وسوقها، وكان على طول الطّريق الممتدّ ميل وثلثان العديد من المتاجر والصّناعات والتي كانت منذ زمن حكم هشام بن عبد الملك وكان ذلك في سنة خمس ومائة للهجرة³.

-جامع القيروان:

يعتبر مسجد القيروان من أهمّ وأشهر مساجد المدن الإسلامية في المغرب الإسلامي، حيث ارتبط إنشائه بتأسيس مدينة القيروان في سنة (50هـ/670م) وقد استمرّت عملية بنائه حسب روايات عديد المؤرّخين إلى سنة (55هـ-674م)⁴، وعن مكانه فقد اختط في وسط المدينة وقد تناقلت الذاكرة التّاريخية الشّعبية رواية مفادها أنّ آتياً أتى عقبة في منامه وأنّ صوتاً من عند الله أسمعته أين يضع محرابه من المسجد وعليه فإنّ الفضل في تشييد مسجد القيروان يعود إلى

¹-أحمد فكري، المرجع السّابق، ص 12.

²-أحمد أرشيد الخالدي، المرجع السّابق ص ص62-64.

³-أحمد فكري، المرجع السّابق، ص12.

⁴كمال الدين سامح، المرجع السّابق، ص168.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

عقبة بن نافع كان في بداية الأمر صغير المساحة بسيط الشكل لكن مع مرور الزمن عرف الجامع العديد من الترميمات والتوسيعات التي أضيفت إليه دون المساس بتصميمه الأصلي، وكانت أولى هذه التجديدات على يد الوالي حسان بن النعمان الغساني، الذي أقام مكانه مسجدا جديدا أكبر من الأول وكان ذلك بين سنة ثمان وسبعين للهجرة وسنة ثلاث وثمانين (78هـ-83هـ/693-697م) ولم يلبث أن ضاق بالمصلين فاستشار بشر بن صفوان عامل هشام بن عبد الملك على القيروان¹ بتوسيعه فأذن له فزيدت في مساحته في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، وأضيفت إليه حديقة وصهريج للمياه، كانت الحديقة ملكا لبني فهر فاشتراها بشر وأضافها للمسجد، أما الصهريج يعرف اليوم باسم الماجل القديم².

يذكر البكري أنّ عامل الخليفة هشام قد بنى للمسجد صومعة في بئر الجنان ونصب أساسها على الماء و قدّر طولها بـ ستين ذراعا وعرضها بـ خمس وعشرون ذراعا ولها بابان باب من الجهة الشرقية وباب من الجهة الغربية³ وموقعها شمال المسجد وتتكوّن من برج له ثلاثة طوابق مربّعة الشكل ارتفاع الطابق السفلي يقدر بـ ثمانية عشر فاصل سبعة وثمانون مترا (18.87م)، أما الطابق الثاني فارتفاعه خمسة أمتار (5م)، بينما ارتفاع الطابق الثالث حوالي سبعة أمتار ونصف (7.5م)⁴.

وفي عام (155هـ/724م) أعيد بناء الجامع على يد يزيد بن حاتم والي إفريقية ويذكر البكري أنّه "هدم الجامع كلّ حاشا المحراب وبناه"⁵ وبقي على حاله إلى أن تولّى زيادة الله بن إبراهيم بن الاغلب الحكم سنة (201هـ/817م) فزاد فيه⁶، ويرى الباحث أحمد فكري أنّ الذي ذكره البكري به

¹- أحمد فكري، المرجع السابق، ص ص 11-13.

²- البكري، ج2، المصدر السابق، ص 673. - ينظر أيضا: كمال الدين سامح، المرجع السابق، ص112.

³- البكري، ج2، المصدر السابق، ص 674.

⁴- صالح بن قرية، المئذنة، المرجع السابق، ص 28.

⁵- البكري، ج2، المصدر السابق، ص 674.

⁶- أحمد أرشيد الخالدي، المرجع السابق، ص64

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

الكثير من المغالاة لأنّ مئذنة المسجد بقيت قائمة حيث شهد البكري نفسه بذلك ولعلّ البكري بقوله هدم الجامع كان يقصد التوسعة التي قام بها¹.

وبعد تولّي زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب هدم الجامع كلّهُ لأنّ هذا الأمير الأغلبي كان يريد أن لا يكون في المسجد أثر لغيره، ليقوم بعد ذلك بمجموعة إصلاحات جذرية قدرة ميزانيتها ستّة وثمانين ألف مثقالاً، شملت الزيادة في سعة رواق المحراب وتجديده للمحراب بالرخام وبنائه للقبّة العجيبة الباهرة².

أمّا عن الزّمن الفاطمي فلم تحدث أيّ تعديلات وتغييرات على جامع القيروان وليس ذلك غريباً لاعتنائهم بمقامهم الجديد في المهدية وكانوا عن غيرها معرضين، في حين أضاف الصنهاجيين مُجَنَّبَات الصّحن فقد عُثِر في الجنبات الغربية نقوشاً ترجع إلى عهدهم كما أنّ في المسجد نقوشاً تدلّ على أنّ المعز بن باديس أمر بعمل المقصورة البديعة الملاصقة للمحراب وكان ذلك في سنة (441هـ-1049م)³.

ويُنسب المحراب الحالي لزيادة الله (201هـ-817م) به بلاط من الرّخام أبيض اللون عليه زخارف ونقوش، كما به كتابات تاريخية وزخارف من الأرابيسك وقد أضاف أبو إبراهيم أحمد (248هـ-862م) بلاطات من القشاني ذي البريق المعدني للمحراب وقام بزخرفته ببلاطات من الرّخام، كما بنيت في عهده القبّة التي تعلو المحراب، أمّا عن الوالي إبراهيم الثّاني (221هـ-289هـ/875م-902م) فقد زاد في طول البلاطات المكوّنة لرواق القبلة وأقام مقصورة للنساء وجعل بينها وبين المسجد حاجزاً خشبياً مزخرفاً يعتبر تحفة فنيّة⁴.

والمئذنة (الملحق رقم 01) تعتبر نموذجاً احتذته معظم المآذن الإسلامية ببلاد المغرب والأندلس فهي أقدم المآذن المغربية وقد بنيت عديد المآذن على شاكلتها على غرار مئذنة جامع

¹- أحمد فكري، المرجع السابق ص13

²- البكري، ج2، المصدر السابق، ص 675.

³- أحمد فكري، المرجع السابق، ص 15

⁴ كمال الدين سامح، المرجع السابق، ص128.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

صفاقص والتي شيدت سنة (370هـ-981م) وأن لهذه المئذنة طابقا علويا ينتهي بقبة صغيرة وهي قريبة الشبه للطابق العلوي لمئذنة القيروان¹.

أما عن أصولها المعمارية فقد كان موطنه بلاد الشام فالخليفة الأموي هشام ابن عبد الملك هو من أمر ببنائها لذلك إنعكس على تصميمها التأثير الأموي مع طابع محلي مغربي يتمثل في البساطة والزخرفة، كما أن بوابتها تشابه المدخل الصغير لبرج علي كاسان القريب من مدينة حماة كما أن شكلها يماثل مئذنة الجامع الكبير الموجود بحماة بالإضافة إلى أنخصائصها عربية إسلامية ناضجة من حيث التكوّن المعماري وأسلوب البناء المتبع وتفاصيلها ليست لها علاقة بصوامع المعبد الروماني الموجود في مدينة دمشق²، أما تاريخ بنائها فقد أشار البكري أنه تمّ في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك علي يد واليه في بلاد المغرب بشر بن صفون سنة (105هـ-724م)³، واكتملت بها الأشغال سنة (109هـ-727م)⁴، واستعملت في رفع الأذان كما أدت وظيفة رمزية دفاعية بفضل علوها .

وعموما فمسجد القيروان شكّل مدرسة مبكرة في الفنّ والعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي، استلهمت منه عديد الدّول في تخطيطه ونمطه وعناصره المعمارية، كما شكّلت مئذنة الجامع مصدر إلهام لمآذن المغرب والأندلس .

- الإرث العمراني للمغرب الأوسط بعد الفتح الإسلامي:

شهد المغرب الأوسط حركة عمرانية نشطة بعد الفتح الإسلامي يمكن تقسيمها إلى عدّة مراحل مختلفة أبرزها تأسيس قواعد عسكرية والتي تحوّلت فيما بعد إلى مدن كتلمسان وطبنة وميلة وتاهرت.

¹- أحمد فكري، المرجع السابق، ص ص 108-110.

²- صالح بن قرية، المئذنة، المرجع السابق، ص 31.

³- البكري، ج2، المصدر السابق، ص 673.

⁴- كمال الدين سامح، المرجع السابق، ص 112

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

تاهرت في المغرب الأوسط:

بعد أن يبيع عبد الرحمن بن رستم بالإمامة سنة (160هـ/777م) اجتمع مع جماعة المسلمين وقرروا بناء مدينة تكون حصناً لهم¹، فأرسلوا عرفاء البناء فاستحسنوا موضع تيهرت² وهي غيضة بين ثلاثة أنهار فبنوا مسجداً من أربع بلاطات، واختط الناس مساكنهم وديارهم، وذلك في سنة³ (144هـ-739م) فتمدنت واتسعت خطتها إلى أن مات عبد الرحمن الرّسّمي⁴، وقد كان اختيار عبد الرحمان بن رستم لموقع بناء مدينته جدّ موفق وقد أخذ في حسابانه عدّة اعتبارات منها:

إنّ منطقة تاهرت كانت آهلة بالسكّان حيث يروي البكري أنّ موضع تيهرت كانت ملكاً لبعض القبائل البربرية كمّرّاسه وصنهاجة، فعرض عليهم عبد الرحمان شراءها فأبوا ليتّفق معهم على أن يختطّوا بها المباني والمساكن على شرط تأدية الخراج من الأسواق، فاختطّوا وبنوا وسمّي الموضع معسكر عبد الرحمان بن رستم⁵.

وهذا يدلّ على أنّ المنطقة قد سبقه إليها قوم أسهموا في تعميرها، وتجدر الإشارة أنّ عبد الرحمان ابن رستم لم تستهوه المدينة القديمة والتي كانت في الأصل محصّنة وبها قلعة مسورة بل فضّل الاستقرار في مكان بكر على مسافة ثمانية كيلومترات غربي المدينة القديمة، ولعلّ ذلك رغبةً منه في تخليد ذكره في تأسيس مدينة جديدة، كما صنع عقبة عند بنائه للقيروان، إضافة إلى عدم إهماله أحد أهمّ شروط بناء المدن وهو الماء فالمدينة القديمة لا تتلقّى الماء إلّا من واد صغير إلّا

¹-أبو العباس الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، ج1، تح إبراهيم طلاي، الجزائر، 1974، ص 41.

²أحمد ابن سعيد الشماخي، كتاب السير، ج1، تح أحمد ابن سعود السبّاحي، ط2، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، 1992، ص 125.

³-ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983م، ص197

⁴-عبد الرحمان بن خلدون، ج6، المصدر السابق، ص159.

⁵-أبو عبيد الله البكري، ج2، المصدر السابق، ص736.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

أنَّ عبد الرحمان باختياره الموضع الجديد قد ضمن للمدينة مورداً مائياً مهماً¹ وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمّى مينة وهو في "قيليتها"، ونهر آخر وبها عيون تجتمع تسمّى تاتش².

كما أنَّ المنطقة محاطة بقبائل عرف عنهم انتمائهم القويّ للمذهب الإباضي، فالمكان اختير بعناية في منطقة بها جماعات من الإباضية³ ومنهم لواتة وهوارة في قبلتها وفي غربيها زواغة وجنوبيها مطماطة وزناتة ومكناسة⁴.

كذلك فهي منطقة كبيرة خصبة واسعة البريّة والزّروع والمياه⁵ وتمّ اختطاطها على وادي مينا النّابعة منه عيون بالقبلة، وتمرّ بها وبالبطحاء إلى أن تصبّ في وادي الشلف⁶، فهي تحقّق شرطاً مهماً لبناء المدن أشار إليه ابن خلدون بقوله: "ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهن إذ صاحب كلّ قرار لا بدّ له من دواجن الحيوان للنتاج والضّرع والرّكوب ولا بدّ لها من المرعى ... المزارع فإنّ الزّروع هي الأقوات. فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتّخاذه وأقرب في تحصيله ومن ذلك الشّجر للحطب والبناء"⁷.

لقد كان اختيار موقع تاهرت وليد الظّروف التي قامت في أثنائها الدّولة الرّستمية ومنها الجانب الأمني حيث أحاط بها الأعداء من كلّ جانب ممّا جعل عبد الرحمان يتوجّه إلى منطقة داخلية بعيدة عن خطر العبّاسيين⁸، فقد كان للجانب الأمني والاقتصادي أثر كبير في تشكيل المرافق

¹ -رشيد بورويبة وآخرون، التّاريخ السّياسي في عهد الرّستميين، الجزائر في التّاريخ العهد الإسلامي، المؤسّسة الوطنية للكتاب، 1984، ج3، ص78-79.

² -البكري، ج2، المصدر السّابق، ص733-734.

³ -محمد عيسى الحريري، الدّولة الرّستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقاتها الخارجيّة بالمغرب والأندلس، ط3، الكويت، دار القلم للنّشر والتّوزيع، 1987، ص96.

⁴ -البكري، المصدر السّابق، ج2، ص734، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط2، بيروت، دار صادر، 1995، ج2، ص8، ينظر، محمد عيسى الحريري، المرجع نفسه، ص96.

⁵ -أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري، المسالك والممالك، بيروت، دار صادر، 2004م، ص39.

⁶ -ابن خلدون، ج6، المصدر السّابق، ص159.

⁷ -ابن خلدون، ج1، المصدر السّابق، ص434.

⁸ -محمد عيسى الحريري، المرجع السّابق، ص95.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

المعمارية بمدينة تاهرت الرّسّمية، فقد اعتبر عبد الرحمان بن رستم أنّ المكان يحتوي على الحصانة الطّبيعية والحصانة البشرية.

اتفقت المصادر التّاريخية بأن تاهرت شهدت نشاطا معماريا حيويا وعن اهتمام حكام الدّولة بالطابع المعماري حيث يخبرنا ابن الصّغير أنّ أهل تاهرت في فترة عبد الرحمان بن رستم شرعوا في العمارة والبناء وتعمير المدينة، وأنّ من كان ينزل بينهم من الغرباء إلّا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم، فالمدينة كانت محلّ جذب للسّاكنة ويؤكد هذا المؤرّخ نفسه بقوله: "حتّى لا ترى دارا إلّا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين"¹، وما يدعّم هذا القول رأي المقدسي: "هي اسم القصبة أيضا هي بلخ المغرب... انتعش فيها الغريب واستطابها اللّبيب"².

- الأسوار والأبواب بمدينة تيهرت:

أشار البكري إلى أنّها مسوّرة ولها أربعة أبواب: باب الصّفاء وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن ويبدو أنّ هذه الأبواب الرّئيسية حيث أكّد وجود غيرها لكنّه لم يذكر أسماءها، وهي في سفح جبل يقال له جزول، ولها قصبة مشرفة على السّوق تسمّى المعصومة³، ويؤكد ابن الصّغير اهتمام الرّسّامين بالعمارة بقوله في حقّ الإمام أفلح (207هـ-257هـ/823-871م) ببناء القصور واتّخاذ الأبواب الحديدية وبناء الجفان حتّى عمرت في وقته الدّنيا وكثرت الأموال ممّا دفع بالعمامة إلى التّنافس في البنين حتّى خرج عن نطاق المدينة فعمرت العمارات وانتشرت القبائل⁴.

أمّا المرحلة التي تلت العهد الرّسّمي فتمثّلت في مرحلتين تاريخيتين مهمّتين، وهما العهد الزّيري والعهد الحمّادي، حيث كان لهما دور سياسي ومعماري بارز، ففي العهد الزّيري تمّ تأسيس

¹ ابن الصّغير المالكي، أخبار الأئمة الرّسّامين، تحقيق، إبراهيم بحاز ومحمد ناصر، جمعية التّراث، دت، الجزائر، ص ص 31-32.

² أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، دار صادر، بيروت، 1991، ص 228.

³ أبو عبيد الله البكري، ج2، المصدر السّابق، ص 733.

⁴ ابن الصّغير المالكي، المصدر السّابق، ص ص 50-53.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

المسجد الجامع سيدي أبي مروان ببونة وإنشاء مدن الجزائر ومليانة والمدية وكان بناء مدينة أشير¹ ما بين عام (324-334هـ/935-946م) على يد زيري بن مناد الصنهاجي، حيث أشاد بها الرّحالة والجغرافيون إذ قال عنها البكري: "وهي جليلة حصينة يُذكر أنّه ليس في تلك الأقطار أحسن منها ولا أبعد متاولا ومراما...وهي مع ذلك بين جبال شامخة محيطة بها دائرة عليها"²

حيث عمل على بناء حصن حصين على الجبل، لا يمكن الوصول إليه إلا من جهة واحدة، ونتيجة تحصينه وحمايته قصدها أهل تلك النواحي ممّا جعلها مدينة مشهورة،³ وهذا ما أكّده صاحب الاستبصار بقوله: "مدينة أشير بناها زيري بن مناد الصنهاجي وتعرف بأشير زيري وكانت مدينة قديمة فيها آثار عجيبة وإنّما بنى زيري سورها وحصنها وعمرها فليس في تلك الأقطار أحسن منها وهي بين جبال شامخة محيطة بها"⁴.

فموقع أشير تناسب مع شروط بناء المدن خاصّة مع وجود لمسة للفاطميين في تشييدها، وتقرّق الفاطميين في العمارة معروف فهذا مناد بن زيري حين قرّر بناء أشير في أيّام القائم بأمر الله سنة (324هـ-936م)، بعث إليه يطلبه في الصّناع، ممّا يدلّ على تمكّن الفاطميين في أساليب صناعة البناء، فأرسل إليه مهندساً معمارياً يقال أنّه لم يكن في إفريقية أعلم منه، كما أمّده ببعض موادّ البناء النادرة غير متوقّرة عنده مثل مادّة الحديد⁵، والمدينة عبارة عن ثلاث مدن منفصلة الغربية تعرف اليوم بعين يوسف تسمّى بـ "منزه بنت السلطان" وأمّا المدينتان الشرقيتان فهما

¹- لا تزال بعض آثار مدينة أشير باقية إلى اليوم عند الكاف الأخضر على مسافة حوالي 150 كلم جنوب غرب الجزائر والموقع حالياً يطلق عليه يشير وكان بناء المدينة نظير مشاركة زيري بن مناد في الحرب مع الفاطميين ضد أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي فسمح الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله لمناد بتأسيس أشير مدينة نتيجة الصّلة الوثيقة بين أسرة بني مناد والفاطميين، ينظر: إسماعيل العربي، المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص156.

²- البكري، ج2، المصدر السابق، ص725.

³- ياقوت الحموي، ج1، المصدر السابق، ص203.

⁴- مجهول، الإستبصار، ج1، المصدر السابق، ص170.

⁵- إسماعيل العربي، دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م، ص48.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

"أشير" و "بنية" وقد اكتشفت بقايا مدينة أشير سنة (1268هـ - 1852م) من طرف الكاتب الفرنسي بيربروجيه berbrugger، ليقوم جورج مارسي بزيارة الموقع وكتابة دراسات حوله نشرت في المجلة الإفريقية¹.

-القلعة عاصمة بني حمّاد الأولى:

بلغت قلعة بني حمّاد أوج تطورها وتألقها الحضاري لاسيما بعد انتقال أصحاب الثراء من المغرب الأدنى من التجار والعلماء والحرفيين لضيفوا لها قوة انعكست على جميع المجالات وكان الجانب العمراني إحداها، ويصعب تتبّع النسيج العمراني للقلعة لأنه لم يبق إلا القليل من آثارها، ولم يبق لدارس قلعة بني حمّاد إلا تلك النصوص التاريخية التي أشادت بعمرانها فعبد الرحمان ابن خلدون يصفها في قوله: " واختطّ مدينة القلعة بجبل كتامة سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، وهو جبل عجيسة وبه لهذا العهد قبائل عيّا من عرب هلال، ونقل إليها أهل المسيلة وأهل حمزة وخربهما، ونقل جراويّة من المغرب وأنزلهم بها، وتمّ بناؤها وتمصّرها على رأس المائة الرابعة، وشيّد من بنيانها واستكثر فيها من المساجد والفنادق فاستبحرت في العمارة واتّسعت في التمدّن²

أمّا الجغرافي أبو عبيد الله البكري فيقول عنها: " وهي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة فلمّا كان خراب القيروان انتقل إليها أكثر أهل إفريقية وهي اليوم مقصد التجار وبها تحلّ الرجال من العراق والحجاز ومصر والشّام وسائر بلاد المغرب³ " أمّا الحموي في معجمه فيقول عنها " مدينة متوسطة بين أكم وأقران لها قلعة عظيمة على قلة جبل يسمى تاقربوست تشبه في التّحصين ما يحكى عن قلعة أنطاكية وهي قاعدة ملك بني حمّاد⁴.

وتعدّ مئذنة قلعة بني حمّاد (الملحق رقم 2) من أبرز معالم الإبداع المعماري الحمّادي وهي لاتزال صامدة إلى اليوم ومن أشهر مابقي من آثارهم حيث بُنيت من الحجارة وقاعدتها مربعة

¹-إسماعيل العربي، المدن، المرجع السابق، ص 156.

²-ابن خلدون، ج6، المصدر السابق، ص 227.

³-البكري، ج2 المصدر السابق، ص 710.

⁴-ياقوت الحموي، ج4، المصدر السابق، ص390.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

الشكل طول ضلعها (6.50مترًا) وارتفاعها يقارب (25 مترًا) سقطت قمّتها، وقد رجّح الباحث صالح بن قربة وجود قبة بها، ولها باب عرضه (2.40مترًا) يؤدي إلى المدخل الذي يدور حول نواة مركزية مربعة طول ضلعها (1.50مترًا) والجزء العلوي من المئذنة محلي بالآجر والخزف وهو من الزخرفة التي تميّز الواجهة الجنوبية لها، وتتخلل المئذنة نوافذ ضيقة¹.

ولم يكن تأسيس القلعة من باب الصدفة، إنّما جاء وفق خطة محكمة واختيار دقيق مع مراعاة ما يؤثر بالسلب في المدينة ولحماية الدولة الناشئة من الدولة الزيرية التي لم ترض بهذا الاستقلال، كما اعتبرت نموذجاً للمدينة العاصمة لما توفّرت عليه من شروط بناء مدن العواصم.

ج/فاس في المغرب الأقصى:

مدينة فاس² أحد أعظم مدن المغرب الإسلامي وأجلّها³ إذ تعتبر قاعدة بلاد المغرب، فقد خطّت بين مدينتين مقترنتين يعود تاريخ تأسيسها إلى القرن الثاني الهجري الموافق لــــ الثامن الميلادي، وذلك بعد أن رأى الإدريس المؤسس أنّ مدينة ويلي لم تعد تتسع لملكه بعد أن عظم ملكه وكثر جيشه، فأراد أن يبني مدينة جديدة يتخذها مركزاً لحكمه ولباقي رعاياه وجنده ليختار أحسن البقاع، وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة اثنين وتسعين ومائة الموافق ثمانمائة و تسعة (192هـ/809م).

وقد كانت على الضفة اليمنى لنهر فاس لتكون بديلة للعاصمة القديمة ويلي والتي كانت مزدحمة بالسكان، والجدير بالذكر أنّه سرعان ما تمّ تعمير مدينة فاس إذ وفدت إليها هجرات مختلفة وأقيمت فيها عدّة أحياء منها عدوة الأندلسيين والتي أسست سنة (192هـ/808م) في

¹ - صالح بن قربة، المئذنة، المرجع السابق، ص ص 40-41.

² - مدينة فاس: كان تأسيسها على يد إدريس الأول سنة (172هـ/788م) وكان لإدريس الثاني شرف إكمال عملية البناء فيها، حيث قام بالإشراف على بناء جامع الأشياخ بعدوة الأندلس وكان يتألف من ستّة بلاطات، ثمّ على بناء مسجد الشرفاء بعدوة القرويين وكان يتألف من ثلاث بلاطات، ينظر: عبد الهادي التازي، جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس موسوعة لتاريخها المعماري والفكري، ج1، ط2، الرباط، دار نشر المعرفة، 2000، ص 46.45. - أيضاً: مبارك بوطارن، العماير الدينية في المغرب الأوسط، تلمسان، دار كنوز، 2011، ص 20.

³ - ابن حوقل، ج1، المصدر السابق، ص 90.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

الجهة الشرقية وسكنها أهل الأندلس ثم بعد سنة أي في سنة (193هـ/809م) تم تأسيس عدوة القرويين والتي خصّصت للإمام إدريس ابن إدريس ابن عبد الله مع الذين جاءوا من القيروان، كما كانت هناك أحياء خاصة بأهل الذمة مثل حي الملاح¹.

وسميت بفاس حسب حسن الوزان لأنه عثر عند بداية حفر المدينة كمّية من الذهب تحمل بالعربية اسم فاس²، وقد ذكر ابن سعيد فاس فقال: "هي متوسطة بين مدن الغرب يعني الداخلة من مراكش وسبتة وسجلماسة وتلمسان عشرة أيام ولتوسطها صلحت أن تكون قاعدة الملك ليقرب الملك من جميع نواحيها"³.

بعد وفاة إدريس أسس ابنه إدريس بن إدريس المدينة الثانية على الضفة اليسرى من النهر، وقد ظلت المدينة على حالها إلى أن دخلها المرابطون فأمر يوسف بن تاشفين بتوحيد المدينتين وجعلها مدينة واحدة⁴، وتعتبر من أهم المدن الإسلامية في الفترة الوسيطية نظراً للدور الذي لعبته في جميع المجالات سياسياً واقتصادياً وثقافياً كما تميّزت بمنشآتها العمرانية.

بقيت فاس القديمة مركزاً للنشاط الاقتصادي ومحطة للقوافل التجارية تتوسط طريق الشرق والجنوب، عكس فاس الجديدة التي أصبحت مركزاً للحكم وعاصمة سياسية للدولة الإدريسية، وموقع فاس ذو أهمية خاصة وهي تتميز بغزارة المياه، إذ تمتد قنوات المياه إلى كل الشرايين

¹ - الحميري عبد المنعم، الرّوض المعطار في خبر الأقطار، ط2، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، 1980، ص 434. - ينظر أيضاً: عبد الهادي التّازي، ج1، المرجع السابق، ص 46.

² - وقد ذكر حسن الوزان رأياً آخر وهو أنها سميت نسبة إلى النهر الذي كان يمرّ على المدينة فالنهر بالبربرية يُدعى "ساف"، كما وردت عدّة آراء حول التسمية منها أنّ إدريس لمّا بدأ في حفر سور المدينة كان يحمل فأساً، في حين يذكر البعض أنّه تم العثور على فأس فسميت المدينة نسبة إليه في حين ذكر بعض المؤرخين أنّ المكان الذي أقيمت عليه كانت تتواجد به مدينة قديمة واندرست فقال إدريس أسميها باسم المدينة التي كانت في موضعها في حين يذكر البعض أنه لمّا تمّ الانتهاء من حفر أساس المدينة ألقيت فأساً فسميت المدينة فاس، ينظر: الحسن الوزان، وصف إفريقيا، تر، محمد حجّي و محمد الأخضر، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983، ص ص 218-219. - ينظر أيضاً: السلاوي، ج1، ص ص 220-224. - عبد الأحد السبّتي وحليمة فرحات، المرجع السابق، ص ص 29-31.

³ - عبد الأحد السبّتي وحليمة فرحات، المرجع السابق ص 30.

⁴ - أحمد أرشيد الخالدي، المرجع السابق، ص 279.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

لتصل إلى كلّ مسجد ومدرسة وبيت، وتحوّلت من حاضرة عادية إلى حاضرة فكرية، وأضحت مركزا اقتصاديا مهمّا، وفي هذا يقول الشريف الإدريسي: "وعليها تشدّ الركائب وإليها تقصد القوافل ويجلب إلى حضرته كلّ غريبة من الثّياب والبضائع والأمتعة الحسنة وأهلها مياسير ولها من كلّ شيء حسن أكبر نصيب"¹.

وقد بلغت شأنًا عظيمًا في عهد الدولة الموحدية إذ يقول عنها عبد الواحد المراكشي: "فهو اليوم على غاية الحضارة، وما زلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب، وبحقّ ما قالوا ذلك؛ فإنّه ليس بالمغرب شيء من أنواع الظّرف واللّباقة في كلّ معنى إلّا وهو منسوب إليها وموجود فيها ومأخوذ منها؛ لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب"².

- الأسوار في مدينة فاس:

شكّلت الأسوار في مدينة فاس حلقة عمرانية مهمّة، وكانت من العناصر الأولى التي تمّ تشييدها، حيث سعى إدريس بن إدريس عند تأسيسه المدينة إلى وضع حدود لها على شكل أسوار دفاعية لحماية المدينة، وخلال الفترة الزناتية شهدت تطوّرات عمرانية كان من بينها إعادة بناء أسوارها حيث استغلّ دوناس بن حمّامة فترة الرّخاء الاقتصادي وأدار على أرباضها الأسوار، وذهب الباحث طارق يشي أنّه قام بتوحيد المدينتين وجعلهما مدينة واحدة من خلال وضع أسوار وأبواب موحّدة للمدينة، وبعد القضاء على الحركة الزناتية سنة (462هـ-1070م) ووصول المرابطين شهدت المدينة تغييرات عمرانية في النّسيج العمراني، واصطبغت بالصّبغة العسكرية ولاشكّ أنّ ذلك انعكس على وضعية الأسوار في المدينة إيجاباً³.

- المساجد في مدينة فاس:

¹ - الشريف الإدريسي، ج1، المصدر السّابق، ص 246.

² - عبد الواحد المراكشي، المصدر السّابق، ص 257.

³ طارق يشي، أسوار وأبواب مدينة فاس خلال العصر الوسيط -مقاربة طبونيمية تاريخية -، دار أبي رقرق للطباعة والنّشر، الزّباط، 2019، ص 15-30.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

بنيت في مدينة فاس العديد من المساجد إلا أن أشهرها هو جامع القرويين الذي أسس في العدة الغربية سنة (245هـ/859م)، حيث كانت مساحته صغيرة ثم هدم وقام بتشبيده علي ابن يوسف المرابطي وزاد في مساحته وقام بزخرفته صنّاع أندلسيون أمّا في العدة الشرقية فتمّ بناء جامع الأشياخ أو الأندلس نسبة للمكان الذي شُيّد فيه ¹.

- الأسواق في مدينة فاس:

في مدينة فاس سوق كبير مخصّص للبيع والشراء وهو غير بعيد عن جامع القرويين وبه عديد الأزقة التي تنتشر فيه الحرف كالصّباغين والدّباغين والشّمّاعين وبائعو مصنوعات القنّب كالحبال والجلود والسّيوف وفيه تباع الأقمشة الحريرية ومختلف المأكولات والفواكه ².

من خلال دراستنا للموروث العمراني في المغرب الإسلامي قبل دولة المرابطين، بما في ذلك نماذج للعمارة المدنيّة في المغرب الأدنى والأوسط والأقصى، توصلنا إلى نقطة مهمّة فيما يخصّ العمارة، إذ وجدت الدولة المرابطية الأساس والخلفية التي ستنتقل منها في مرحلة البناء والتّعمير، إضافة إلى ما ستبتكره من إبداعات فنيّة واستراتيجيات عمرانية اتّبعتها خلال مراحل تطوّرها، والتي بدورها ستستفيد منها الدولة الموحدية عبر تطوير هذه البنى والمرافق العمرانية.

د- موادّ البناء والزخرفة في العمارة الإسلامية المغربية بين الوظيفة الجمالية والدلالة الرّمزية:

- موادّ البناء:

¹- أحمد أرشيد الخالدي، المرجع السابق ص 282. ص 169.

²- علي محمود عبد اللّطيف الجندي، مدينة فاس في عصر المرابطين والموحدين، أطروحة دكتوراه، إشراف محمد عبد الوهاب فضل، جامعة الأزهر، قسم التّاريخ والحضارات، 2004، ص 230-231.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

اختلفت موادّ البناء في عمارة المغرب الإسلامي، وتتوّعت استخداماتها بما يتناسب مع البيئة الطّبيعية والموارد المحليّة المتوفّرة فنجد الموادّ الطّينية المتحوّلة كالطّابية والجصّ والطّين الخزفي والفخّاري وموادّ صلبة كالحجارة والمعادن من حديد كما استخدمت مادّة الخشب.

-**الطّابية:** التّراب المصلّب و المدكوك في لوح وقالب يكون غالبا من لوحين من الخشب تربطهما عوارض¹، وقد وردت لفظة الطّابية عند عديد المؤرّخين² منهم عبد الرحمان بن خلدون في حديثه عن صناعة البناء بقوله: "ينتظم الحائط كلّ ملتحما كأنّه قطعة واحدة ويسمّى الطّابية وصانعه الطّواب"³، وهي مادّة متكوّنة من طين كلسي صلصالي تشابه الطّين الفخّارية الخزفية يضاف إليها الحصى والرّمْل وموادّ مثبّطة كالتبّين لتكون أكثر صلابة، وقد انتشرت في بلاد المغرب الإسلامي واتّسع استخدامها⁴، نظرا لميزاتها وخصائصها الطّبيعية من جهة وفعاليتها وقلة تكاليفها من جهة أخرى، كما تعتبر مادّة عازلة وحافظة للبرودة ، وهي ليست مادّة بناء فقط بل لها طريقة وأسلوب⁵، فصّل فيها ابن خلدون بقوله " البناء بالتّراب خاصّة تقام منه حيطان يتّخذ لها لوحان من الخشب مقدّران طولاً وعرضاً باختلاف العادات في التّقدير وأوسطه أربعة أذرع في ذراعين فيُنصّبان على أساس وقد يوعد ما بينهما بما يراه صاحب البناء في عرض الأساس ويوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال والجدر... ويركّز بالمراكز المعدّة حتّى ينعم ركزه وتختلط أجزاؤه"⁶.

ولم تذكر المصادر التّاريخية تاريخ بداية استعمال هذه المادّة والتّقنية غير أنّه من المعلوم قد ازدادت أهمّيّتها أكثر وكثر استعمالها في الفترة المدروسة -العهد المرابطي والعهد الموخّدي-

¹-رينهارتدورزي، **تكملة المعاجم العربية**، ج9، ط1، العراق، وزارة الثّقافة والإعلام، 2000، ص 284.

²-أورد ابن حوقل لفظة الطّابية في عديد المواضع ممّا يدلّ على قدم استخدام هذه التّقنية في بلاد المغرب منها ما ذكره عن مدينة سرت "سور صالح كالمنيع من طين وطابية"، ينظر، ابن حوقل، ج1، المصدر السّابق، ص 68.

³-عبد الرحمان بن خلدون، ج1، المصدر نفسه، ص512.

⁴-يتمّ استخدام الطّابية عن طريق القالب والذي هو عبارة عن صندوق خشبي يتألّف من ألواح أفقية وعمودية تتناسب مع سمك الحائط المرغوب بنائه ويمتاز بالدقّة في المقاس ينظر: عمر بلوط، فنادق مدينة تلمسان الزّيانية، ط1، الجزائر، مؤسسة ضحى للنّشر والتّوزيع، 2011، ص 134.

⁵- عمر بلوط، المرجع نفسه، صص 126-127.

⁶-ابن خلدون، ج1، المصدر السّابق، ص 511.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

وكانت من المواد الأساسية في عملية البناء منذ نهاية القرن (6هـ-12م) وخاصة في مجال العمارة العسكرية والأسوار لتأخذ الحجارة مكانها وأصبحت في عهد الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف مادة ثانوية وقل استعمالها¹.

وقد تم تطوير مادة الطابية في بلاد المغرب وتكييفها مع وسائل الدفاع حتى أصبحت بمثابة الحجر بفضل ما أدخل عليها من تحسينات وتعديلات وفي ذلك يقول العمري عن حصانة مدينة فاس الجديدة "بسورين من الطين المفرغ بال قالب من التراب والرمل والكلس المضروب، وهو أشد من الحجر، لا تعمل فيه المجانيق"²، وقد كانت الطابية شائعة الاستخدام في فترة المرابطين كما بلغت تطورا كبيرا في العهد الموحدي خاصة في أسوار مدينة الرباط³.

-**الآجر:** من أقدم مواد البناء وأكثرها انتشارا في بلاد المغرب الإسلامي وهذا لوفرتة وخفته في الوقت نفسه كما يجد البنّاءون سهولة في استخدامه وتنظيم مظهره كما يعتبر مادة عازلة لحرارة غير مساعدة على الاحتراق، وكان يصنع من مادة طينية حمراء غير مسامية تضاف طابعا جماليا على البناءات التي يبنى بها فكان مادة أساسية خاصة في الأجزاء السفلية من الأسوار كما بنيت به العقود والبواريك والدعامات وغيرها من البناءات⁴، حيث ذكر العمري استخدام الآجر في عمائر مدينة فاس وذكر بعض أنواعه بقوله "الزليخ وهو نوع من الآجر كالعقاشاني بأنواع الألوان البيض والسود والأزرق والأصفر والأخضر وما يتركب من هذه الألوان وغالبه بالأزرق الكحلي ومنهم من يتخذ منه وزرات لحيطان الدور، وأما دور هؤلاء فتقرش بأجر يسمى المزهرى"⁵.

¹- عمر بلوط، المرجع السابق، ص 127.

²- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج4، ط1، أبوظبي، المجمع الثقافي، 1423هـ، ص 179.

³- عمر بلوط، المرجع السابق، ص 127.

⁴- المرجع نفسه، ص 128.

⁵- العمري، ج4، المصدر السابق، ص 180.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

- **الحجر:** من أقدم موادّ البناء على مرّ التّاريخ وأكثرها استعمالاً¹ ومن الموادّ الصّلبة والمقاومة لعوامل الطّبيعة، ومن أهمّ المناطق الّتي كان تجلب منها الحجارة في بلاد المغرب جبل إيجليز وهو جبل صغير بالقرب من مراكش، كانت تقطع منه الأحجار الّتي بنى بها الأمير علي بن يوسف بن تاشفين قصره، كما استخدمه الموحدون في تسوية الأرضية مثل البساتين والطّرق².

- **الجصّ:** الجصّ مادة زخرفية للطّلي فيقال جصّ الحائط أي طلاه بالجصّ³، كما تستعمل هذه المادّة لغرضين أساسيين لتغطية موادّ البناء الخشنة، ولتغطية الجدران لتهيئتها للزّخرفة، ويتحصّل عليه من عدّة موادّ طبيعيّة كالبحر والصّخور والوديان ويتم حرقه في أفران ومن مميّزاته أنّه عازل للحرارة والصّوت ومن سلبيّاته هشاشته لاسيما في الأماكن الرّطبة، ويستخدم بسمك متنوّع على شكل طبقة وحيدة أو أشرطة وأفاريز وأحزمة وما إلى ذلك⁴، وهو ما أشار إليه ابن خلدون بقوله " تجلّ الحيطان بالكلس بعد أن يحلّ بالماء ويخمر أسبوعاً أو أسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه عن إفراط النّاريّة المفسدة للإلحام فإذا تمّ له ما يرضاه من ذلك علاه من فوق الحائط وذلك إلى أن يلتحم"⁵.

وقد استخدم الجصّ في عمارة الأمويين واحتلّ مكانة متميّزة في البنايات و القصور وفنون الزّخرفة المرسومة، كما استعمله العبّاسيون أيضاً، أمّا في المغرب الإسلامي فيعتبر الجصّ مادة أساسية في البناء خلال عصر المرابطين وأهمّ دلائل ذلك مسجد تلمسان وجامع القرويين في فاس كما

¹ يتمّ البناء بالحجارة عبر وضع الحجر بعضه فوق بعض في طريقة منتظمة ومشدّبة تشدّيباً دقيقاً كما تكون الحجارة ذات حجم واحد مع وجود حجارة رقيقة لسدّ الدّخلات والفتحات الّتي تنتج عن اختلاف حجم الحجارة، ينظر: عمر بلوط، المرجع السّابق، ص 138.

² -هنا محمد عبد الحميد الفقي، التّطوّر التّاريخي والسّياسي للصّناعات في المغرب و الأندلس خلال عهدي المرابطين والموحدين (448-668هـ / 1056-1296م)، مصر ، دار العلم والإيمان للنّشر والتّوزيع، 2024 ، ص167.

³ -ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، تح عبد الحميد هنداي، ج7، ط1، بيروت، دار الكتب العلميّة، 2000، ص 176.

⁴ -عمر بلوط، المرجع السّابق، ص 130.

⁵ -ابن خلدون، ج1، المصدر السّابق، ص 512.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

استمرّ استخدامه في عهد الموحّدين بنفس الأهميّة¹، واشتهرت مدينة المرية بأن جصّها يشبهه الدّرّ في رونقه وله ألوان متعدّدة فاتّخذ للرّينة ونظرا لشهرته كان يحمل إلى جميع الأقطار كما استخدم في تزيين حوائط الدّور والمساجد واستعمله الأمراء في قصورهم كما اشتهرت أيضا مدينة متوسّة قرب بجاية، وفي العصر الموحّدي اشتهر جصّ مدينة جيجل ومدينة فاس². وتمكّن المسلمون من تطويره وابتكار نوع جديد للزّخرفة سمّي بالتّوريق أو الأرابسك استعمل في جامع القيروان بالمغرب الأدنى لينتشر بعد ذلك في أنحاء بلاد المغرب الإسلامي³.

- **الخشب:** للخشب أهميّة كبيرة في البناء وأساليب العمران، وكان له دور في مختلف المباني في المغرب الإسلامي وهو ماأكّده عبد الرحمان بن خلدون في حديثه عن صناعة النّجارة بقوله " هذه الصّناعة من ضروريات العمران ومادّتها الخشب... فأما أهل البدو فيتّخذون منها العمد والأوتاد لخيامهم والحدوج لضغائنهم والرّماح والقسي والسّهام لسلّاحهم وأما أهل الحصر فالسّقف لبيوتهم والأغلاق لأبوابهم والكراسي لجلوسهم"⁴.

- **الملاط:** الملاط⁵، ويتكوّن من موادّ طبيعيّة تحضّر بطرق عديدة ومادّته الأساسيّة الطّين توضع في الماء وتستخدم في رفع الحوائط المبنية بالدّبش والكلس يستخرج من الكتل الحجريّة، كما يعتبر الجير مصدرا له وهو المادّة الثّالثة في ترتيب الموادّ اللّاحمة وطريقة صناعته مشابهة لصناعة الجبس⁶.

¹ - عمر بلوط، المرجع السّابق، ص 130-131.

² - هناء محمد عبد الحميد الفّقي، المرجع السّابق، ص 167-167.

³ - ينظر وليم جورج مارسلي، المرجع السّابق، ص 105.

⁴ - ابن خلدون، ج1، المصدر السّابق، ص514.

⁵ - الملاط: الجانب والملاطان جانبا السّنام والجمع ملط وهو العضد والكتف والملاط من الفعل ملط ويعني الطّين فيقال ملطت ملطا أو ملط الحائط أي طلاه، وهو الطّين الذي يُجعل بين حجرتين لزيادة تماسك البناء ينظر: ابن منظور، ج7، ص 406. - ينظر أيضا: أبو علي القيسي، إيضاح شواهد الإيضاح، ج1، تح محمد بن محمود الدّعجاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ص396.

⁶ - عمر بلوط، المرجع السّابق، ص134.

الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين

خلاصة:

في ختام هذا الفصل يُمكن القول إنّ العمارة تعتبر وجها للتعبير الحضاري كما تعكس تطوّر الدّول وقد كانت العمارة الإسلامية في بداياتها الأولى بسيطة وتطوّرت تدريجيا ليصبح للمسلمين طرز وعناصر معمارية خاصّة بهم أسهمت فيها الظروف السّياسية و الجغرافية والتّاريخية كما تجسّدت فيها قيمهم الدّينية والاجتماعية.

إنّ دراسة الإرث العمراني المتمثّل في بناء المدن والدّور والقصور والأسوار ليس فقط من أجل استعادة الماضي و أمجاده بقدر ما هو ذاكرة تعكس الهوية الحضارية والثّقافية للشّعوب والأمم كما يمكن استحضار هذا الإرث في مشاريع الحاضر والمستقبل.

الفصل الثاني: العمارة الدينية في المغرب الإسلامي في عهدي

المرابطين والموحدين

أولاً: الأوضاع العامة في عهدي المرابطين والموحدين

ثانياً: بناء المساجد وترميمها في عهد المرابطين

ثالثاً: بناء المساجد وترميمها عند الموحدين

رابعاً: المدارس في المغرب الإسلامي في عهدي المرابطين والموحدين:

خامساً: الربط والزوايا في عهدي المرابطين والموحدين

سادساً: الكتاتيب

سابعاً: دراسة مقارنة

تمهيد

عُرفت البلاد الإسلامية بالعمارة الدينية المجسدة في المباني والمؤسسات التي تمتلك طابعا دينيا والتي تستعمل لأداء الشعائر الدينية، ومن أهم هذه المباني المساجد التي تعدّ من أبرز عناصر العمارة الإسلامية، إذ قام الفاتحون الأوائل ببناء العديد منها ويُعدّ مسجد القيروان من أبرزها، بالإضافة إلى المساجد تواجدت إلى جانبها المؤسسات الدينية الأخرى كالمدارس والكتاتيب والأربطة والأضرحة، والتي كان لها دور كبير في تقديم المنافع المعرفية والشرعية لعامة المجتمع¹.

ولم تمنع العديد من الصعوبات التي واجهت الفاتحين الأوائل من اهتمامهم بفنّ العمارة والبناء، وخاصة المساجد، ففي بداية الفتوحات كانت بسيطة في إنشائها وبنائها، إلا أنها تعتبر من أكثر العمارات بقاءً وصموداً ليس في عصر المرابطين والموحدين فحسب بل في جميع العصور التي سبقتهم والتي جاءت بعدهم.

وذلك لما لها من عناية وحرمة تمنع الاعتداء عليها وللحثّ على عمارتها بالبناء والعبادة، وهي الغاية التي خلق الله الإنسان من أجلها، خاصة المساجد التي يحتاجها الناس ولهذا وضع الفقهاء مجموعة من الشروط² عند بناء المساجد منها أن يكون في وسط المدينة وأن تكون له طرق ميسورة يسهل الوصول إليها ولا بدّ أن يكون موضع البناء ليس ملكا لأحد أو يتنازل عنه أصحابه ليستمر المسجد ويكون لله دون سواه كما يتوجب الاحتياط في موادّ بنائها وأن تكون هذه الموادّ طاهرة خالية من النجاسة³.

¹ يوسف البرغوثي، المرجع السابق، ص 85.

² يرى ابن حزم أنّه لا يحلّ بناء مسجد عليه بيت مملّك ليس من المسجد ولا بناء مسجد تحته بيت مملّك ليس منه فإن حدث ذلك فإنّه لا يعتبر مسجدا فلا يكون مسجدا إلا إذا كان خارجا عن ملك كلّ أحد دون الله تعالى ينظر: ابن حزم، المحلّى بالآثار، تح عبد الغفار البنداري، ج3، دار الفكر، بيروت، 1988، ص168.

³ إبراهيم الخضير، أحكام المساجد في الشريعة الإسلامية، ج2، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، 1419هـ، ص 9.

وقد حثَّ الشَّرع الحنيف على وجوب تعهدها وإصلاحها وفي ذلك يقول المولى عزَّ وجلَّ {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} ¹ ومعنى ترفع تبنى وتعمر وتعلو وتطهر من الأذى وتصان من المجانين والصبيان، كما وردت أحاديث كثيرة ترغَّب في بناء المساجد وتطبيبيها وتبخيرها ²، وتبيين فضل صفوفها الأولى فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أُولَاهَا، وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أُولَاهَا" ³ ولهذا نجد معظم مخططات المساجد مستطيلة الشكل باتجاه عرضي لإطالة الصفوف الأولى المخصصة للرجال وهو شكل جُلَّ المساجد المرابطية والموحدية في المغرب الإسلامي ⁴.

- المسجد والجامع:

لم تكن لفظة المسجد الجامع معروفة في العصر الجاهلي فالاسم جاء مع ظهور الإسلام، فكلَّ موضع يتعبد فيه هو مسجد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا" ⁵، ثم قيل المسجد الجامع ومسجد الجماعة والمسجد الأعظم ثم ظهر لفظ الجامع وهو صفة للمسجد ووصف بذلك لأنه علامة للاجتماع ⁶، وكان في كلِّ مدينة مسجد جامع واحد تقام فيه صلاة الجمعة فكان كلَّ جامع مسجدا ولم يكن كلَّ مسجد جامعاً، والفرق بينهما أنَّ الجامع تُقام فيه صلاة الجمعة بينما المسجد هو المكان الذي تؤدَّى فيه

¹ القرآن الكريم، سورة النور، الآية 36.

² ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تح سامي بن محمد السلامة، ج6، ط2، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، 1999، ص 62.

³ أبو عبد الرحمن النسائي، سنن النسائي، تح محمد رضوان عرقسوسي وآخرين، ج2، ط1، دار الرسالة العالمية، سوريا، 2018، ص 156.

⁴ كمال عناني إسماعيل، الآثار الإسلامية في المغرب، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2016، ص ص 247-295.

⁵ البخاري، صحيح البخاري، ج1، دار طوق النجاة، بيروت، ص 95.

⁶ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية التي صلى فيها فريضة الجمعة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول، ج1، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1946، ص11، ينظر أيضاً: يوسف البرغوثي، المرجع السابق، ص 86.

الصَّلوات الخمسة، ومع اتّساع رقعة الدّولة الإسلامية وازدياد عدد سكّان المدن جاءت الحاجة إلى إقامة أكثر من مسجد جامع¹.

غير أنّ كتب الفقه والفتاوى وعلماء المذهب المالكي، وهو المذهب الرّسمي لدولة المرابطين لم تسمح بتعدّد جوامع الخطبة في المصر الواحد إلّا عند الضرورة القصوى، فالترخيص في خطبة جديدة لا يكون إلّا لمصلحة عامّة ولصلاح النّاس حتّى يتوقّر للمصلّين الطّروف الملائمة كعدم اتّساع المسجد وضيقه أو بعد المسافة الّذي يترتّب عليه مشقّة كبيرة، أو وجود حاجز يفصله عن السكّان كالسور والخندق والنّهر وغيرها، وهو ما أكّده الإمام القاضي سحنون في فتوى تخصّ قرية فيها مسجد فأراد أهلها بناء آخر فكان ردّه فإن كان فيهما محمل من يعمرهما فحسن وإن قلّ المصلّون، ويخاف من تعطيل أحد المسجدين فلا يُبنى²، والجمعة تجب في الأمصار والقرى الّتي تشبه الأمصار واختلف في ما دون ذلك فقال مالك رحمه الله تقام في القرية المجتمعة الّتي اتّصلت منازلها وفيها السّوق وقال في موضع آخر مرّة المتّصلة البنيان وهو ما ذهب إليه الإمام سحنون في أنّها تقام في المدن وما شابهها وسئل محمد بن سحنون عن القرى الّتي أحدثت فيها المنابر فأجاب بأنّه لا يرى ذلك والأمر مختلف فيه³.

وقد ألقت كتب الفتاوى الصّوء على تنازع المساجد على إقامة صلاة الجمعة فقد سئل ابن رشد الجدّ في نازلة مفادها أنّ أربعة عشرة قرية كانوا يصلّون في جامع قديم اتفقوا على بنيانه والصّلاة فيه لكونه وسطا بينهم ومالهم فيه من المنفعة، وانتقلوا بعدها إلى حصن في أعلى القرى المذكورة ثمّ انتقلوا إلى قرية قريبة من الحصن وبها مسجد يصلّون فيه، وبعد عودة الأمن عاد النّاس إلى منازلهم في القرى المذكورة وبقي بعضهم، فانقسموا إلى فرقتين طائفة تصلّي في المسجد القديم وطائفة تصلّي في المسجد الحديث الّذي في القرية الّتي انتقلوا إليها

¹ يوسف البرغوثي، المرجع السّابق، ص 86.

² ابن أبي زيد القيرواني، النّوادر والزّيادات على ما في المدوّنة من غيرها من الأمّهات، تح، عبد الفتّاح محمد الحلو، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص 535.

³ أبو الحسن اللّخمي، الثّبصرة، تح أحمد عبد الكريم نجيب، ج2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قط، 2001، ص 565.

واحتجّ أهل المسجد الحديث بأنّ قريتهم بها ثلاثون داراً، وأنّ القرية القديمة ليس بها إلا اثنتا عشرة داراً بينما احتجّ أهل سائر القرى بأنّ مسجدهم يقع في وسط القرى والقرية الحديثة بعيدة عنهم وفي تنقلهم مشقة وضّرر عليهم، فأجاب بأنّه لا يراعى قدم الجامع القديم اذ انقطعت عنه الصّلاة لانتقال أهله عنه بالفتنة إلى جامع الحصن فالواجب أن تبقى الجمعة في القرية الحديثة التي انتقلوا إليها، ولا تعود إلى الجامع القديم بعودة النّاس إلى أوطانهم¹.

ويعتبر تشييد المساجد الرّكيزة الأساسيّة التي قامت عليها العمارة في المغرب الإسلامي كونه من أهمّ أجزاء العمارة الإسلاميّة، ومركز المدينة، إذ كان الفاتحون يحرصون على تنظيم المركز، وذلك ببناء المسجد الجامع، الذي تتمركز حوله المدرسة والسّوق اللذان يؤدّيان الوظيفة الثّقافيّة والتّجاريّة، كما أنّ المسجد كان له أدوار عسكريّة إذ تعقد فيه الألوية للجهاد، وتتمّ فيه البيعة للأمرء، وفيه تتمّ شوريّ أمور المسلمين² فالمسجد كان محور حياة المجتمع سياسيّا واقتصاديّا وثّقافيّا ومنه يمكن تتبّع الحركة العمرانيّة واتّجاهاتها للمدن الإسلاميّة كونه عضواً جوهرياً فيها.

أولاً: الأوضاع العامّة في عهدي المرابطين والموحّدين

عرف المغرب الإسلامي منتصف القرن الخامس الهجري تحولات كبرى نتج عنها واقعاً اتّسم بالانقسام وبروز النّزاعات، لكن هذه الظروف لم تستمر بل ستكون دافعا لانطلاق نظام مركزي من أقصى جنوب المغرب الإسلامي، ليصبح الجنوب منذ هذا التّاريخ ولقرون عديدة ولاحقة هو صانع التّاريخ في بلاد المغرب بعدما كان الشّمال هو من يقوم بهذا الدور بظهور دولتي المرابطين والموحّدين، هذا التّحوّل عكس صعود قوى جديدة فرضت هيمنتها على المراكز الكبرى في الشّمال.

¹-أبو الوليد بن رشد القرطبي، مسائل أبي الوليد ابن رشد الجدّ، تح، محمد الحبيب التّجكاني، ج1، ط2، دار الجيل، بيروت 1993، ص 697-698.

²-علي حجيج سعيدة مفتاح، المسار التّاريخي للتّطوّر العمراني لمدينة الجزائر خلال الفترة 1251/1830-1999، مؤسّسة كنوز الحكمة، الجزائر، 2011، ص8-9.

أ. الأوضاع العامة في العهد المرابطي:

دولة المرابطين عمّرت ما يقارب اثنتي عشرة سنة (448هـ-541هـ/1056م-1147م)، إذ يعود الأساس البشري لهذه الدولة إلى قبيلة صنهاجة¹ الذين يُقال لهم لمتونه والملثّمون²، الذين يعتبرون أحد قبائل البرانس من البربر، وأنهم أعظم قبائلها بالمغرب فلا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو سهل حتّى زعم البعض أنّهم ثلث البربر³. كما أكّد ابن خلدون أنّهم أوفر القبائل بالغرب الإسلامي من خلال قوله: " لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط"⁴، وتحت صنهاجة قبائل كثيرة⁵، ولهذه القبائل بطون وأفخاذ تفوق الحصر⁶، وكان مجالها فقير صعب صحراوي فرض على هذه القبائل التّنقّل والتّرحال المستمرّ بحثاً عن الكلأ، كما وجب التّنويه أنّ هذا المجال يحتوي على مؤهّلات من نوع آخر تتمثّل في وجود مادّة الملح التي كان لها قيمة كبيرة في ذلك الوقت⁷.

¹ قبيلة صنهاجة: بطن من البرانس ويطونهم تنتهي إلى سبعين بطناً أشهرها لمتونه، كدالة، مسوفة، لمطة، وموطنهم الصحراء ومنهم من موطنه بين المغرب الأوسط وإفريقية، ويقال لهم بنو صنهاجة بن أوريج بن برنس، ينظر: ابن خلدون، ج6، المصدر السابق، ص 202.

² محمد ابن يوسف الزّيّاني، دليل الحيران وأنيس السّهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتّوزيع، 1987، ص 99.

³ النّاصري أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصاء لدول المغرب الأقصى، ج2، تح، جعفر ومحمد النّاصري، المغرب، دار الكتاب، الدّار البيضاء، دت، ص3. - ينظر أيضاً: مبارك بن محمد الملي، المرجع السابق، ص102.

⁴ عبد الرحمان بن خلدون، ج6، المصدر السابق، ص 201.

⁵ ذكر بعض الباحثين أنّها تنتهي إلى السّبعين منهم لمتونه وجدالة وجزولة ومزغنة ولمطة وبنو وارث وبنو مسفير وبنو دخيرن وبنو زياد وبنو موسى وبنو قشتال وغير ذلك، وصنهاجة المدر سكنوا المناطق الشّمالية وبنو البيوت والمنازل، قي حين صنهاجة الوبر هم قبائل الملثّمين الرّحل وسكنوا الخيام بأقصى الجنوب محمد سليمان الطّيّب، موسوعة القبائل العربية، ج3، ط3، دار الفكر العربي، مصر، 2010، ص 827.

⁶ وهذه القبائل كلّها صحراوية، وكانت لهم بالمغرب دولتان عظيمتان إحداهما دولة بني زيري بن مئاد الصّنهاجيين بإفريقية والمغرب الأوسط، ورثوا ملكها من يد الشّعبة العبيدين، والأخرى دولة الملثّمين بالمغرب والأندلس وموطنهم أرض الصحراء والرّمال الجنوبية فيما بين غدامس شرقاً إلى البحر المحيط غرباً ومن جبال درن شمالاً إلى تخوم بلاد السّودان جنوباً، ومساحة أرضهم نحو سبعة أشهر طولاً في أربعة عرضاً، ينظر، ابن خلدون، ج6، المصدر السابق، ص 201. - ينظر أيضاً: النّاصري، ج2، المرجع السابق، ص3.

⁷ محمد سليمان الطّيّب، ج3، المرجع السابق، ص 828.

استقرت فروع كثيرة من صنهاجة بالمغربين الأوسط والأقصى¹. ويرى الباحثون أن الملتّمين ينتسبون إلى قبيلة لمتونة إحدى بطون صنهاجة وكانت لمتونة تتولى رئاسة سائر قبائل مسوفة ومسرّات ومداسة وجدالة ولمطة وغيرها، ثم آلت الرئاسة إلى قبيلة جدالة على عهد الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، وذلك لأن جدالة وملتونة قبيلتان تشتركان في جد واحد، ويبدو أن إطلاق اسم الملتّمين كان في البداية خاصاً بقبيلة لمتونة، وأصبح فيما بعد شعاراً لكل من حالفهم ودخل تحت سيادتهم من القبائل²، وأزهى فترة لدولة المرابطين هي الربع الأول من القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي (6هـ/12م) أي فترة حكم يوسف بن تاشفين (400هـ-500هـ/1009م-1106م) وابنه علي (500/537هـ-1106م/1143م)³

وتعددت الروايات حول أصل تسميتهم منها ما ذكره ابن خلكان: " أن أسلافهم من حمير كانوا يتلثمون لشدة الحرّ والبرد يفعلونه الخواصّ منهم، فكثر ذلك حتى صار يفعلونه عامتهم"⁴، ومنها أيضاً: أنهم عرفوا بالملتّمين لاتخاذهم لثاماً داكن اللون، كما عرفوا بالملتّونيين نسبة إلى قبيلة

¹ -واستوطن بعضها الأطلس المتوسط والساحل الأطلسي، كما ضربت في الصحراء الكبرى حتى نهر النيجر ونهر السنغال حيث أقام الملتّمون رباطهم، واشتهرت القبائل الصنهاجية في التاريخ باسم الملتّمين، وأصبح اللّثام شعارهم إلى أن لقّبوا بالمرابطين ينظر، إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج1، الدار البيضاء، د ط، دار الرّشاد الحديثة، 2000، ص 154-156.

² - عبد المنعم حمدي محمد حسين، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، (د ط)، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1997، ص 37. - ينظر أيضاً: إبراهيم حركات، ج1، المرجع السابق، ص 154.

³ -ليوبولد تورس بالباس، المرجع السابق، ص10.

⁴ -ويذكر أيضاً أن أجدادهم كانوا يتلثمون لشدة الحرّ، وأنهم آمنوا بالرسول عليه الصلاة والسلام وكانوا قلة فاضطّروا للهروب لما غلب عليهم العدو فتلثموا بقصد التّمويه، وبعد أن ظفروا على عدوهم لزموه تبرّكاً بما حصل لهم⁴، لقد لقّبوا بألقاب عديدة، ولكن هناك لقب يتعلّق باسمهم وهو الملتّمون، وكانوا مثل أحفادهم الحاليين المعروفين بالطّوارق⁴، الذين يضعون اللّثام وهو قطعة من القماش يغطّي بها الرّجال وجوههم من الأسفل إلى الأعلا بن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء الزّمان، ج 7، تح: إحسان عبّاس، ط1، بيروت، دار صادر، 1994، ص 129. - جورج مارسويه، بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق في العصور الوسطى، تر، محمود عبد الصّمد هيكل، شبكة المعارف بالإسكندرية للنشر، مصر، ص 265.

لمتونه التي كانت تتولى الرئاسة على سائر القبائل الموجودة بين الصحراء الغربية وموريتانيا الإسلامية¹.

مرّ بنا للآن أسماء لمتونه وصنهاجة والملثمين، ويغلب اسم المرابطين على هذه الدولة منذ أن أسس عبد الله ابن ياسين² رباطه بجزيرة تقع في السنغال الأدنى³، وقد مرّت هذه الدولة بثلاث مراحل: مرحلة الدعوة والنشأة والتكوين والتي انطلقت من الصحراء برحلة يحيى ابن إبراهيم الجدالي إلى المشرق، ومرحلة العظمة والمجد والتوسع نحو الشمال وتوحيد بلاد المغرب، ومرحلة المرور إلى الأندلس وضمّها⁴.

أما من الناحية العسكرية، فقد حقق المرابطون انتصارات باهرة أبرزها معركة الزلاقة سنة (479هـ/1086م) ضد القوي المسيحية في الأندلس وكانت انتصاراتهم بفضل انضباطهم وقوة فرسانهم واعتمادهم على الجهاد في مواجهة التمرد الداخلي و التهديدات الخارجية، كما عُرف عنهم السرعة الخاطفة⁵.

¹ محمد الأمين بلغيث، الربط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحدين، القافلة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2014، ص 163.

² عبد الله ابن ياسين: أحد أبرز شخصيات دولة المرابطين، والداعي الروحي للدولة ارتبط قيام الدولة به، عرف عنه حسن سيرته ووزارة علمه حيث طلب العلم عند فقيه السوس الأقصى وجاج بن زلوا للمطي وقد تمكّن بفضل شخصيته القويّة التي جمعت بين الصرامة و العلم والحكمة السياسية من تكوين مجموعة من الأفراد كان لهم الفضل الكبير في تأسيس النواة الأولى لدولة الملثمين توفي سنة (451هـ-1059م) بعد أن أعدّ رجالاً حملوا المشعل بعده أبرزهم أبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين . ينظر: القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ج8، تحقيق أحمد أعراب، ط1، المغرب، مطبعة فضالة، 1983، ص 81-النويري، ج24، المصدر السابق، ص 255.

³ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مصر، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، 1999م، ص 607.

⁴ للتفصيل في مرحلة أصل ونشوء دولة المرابطين نحيل القارئ إلى أهم المصادر والمراجع التي تناولت دولة المرابطين ينظر: ابن خلدون، ج6، المصدر السابق، ص 242-252. ابن خلكان، المصدر السابق، ج 7، ص 112-130، عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عهد الموحدين، تحقيق عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، ط1، بيروت، المكتبة العصرية، 2002، ص 122-135. محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج3، ط2، القاهرة، مكتبة 1990، ص 3-36. السيد عبد العزيز سالم، المغرب، المرجع السابق، ص 604-663.

أما من الناحية الاقتصادية فقد عرفت نهضة كبيرة إذ حرص أمراء المرابطين على استغلال الأراضي الخصبة وخاصة في الأندلس لانتاج الحبوب والتجارية و استفادوا من الموقع الاستراتيجي بين الصحراء وبلاد المغرب والأندلس فسيطروا على التجارة الصحراوية من خلال تحكمهم في الطرق الصحراوية مما وفر لهم موارد ضخمة أدت إلى تطور الصناعات التي أسهمت بدورها في تشييد العمران وتعزيز السلطة¹.

ب-الأوضاع العامة في العهد الموحد:

شهد التاريخ قيام دولة الموحدين على أنقاض دولة المرابطين، والتي وحدت الغرب الإسلامي إذ كان قيامها أحد أهم أسباب سقوط دولة الملثمين، وقد عمّرت قرنا ونصف قرن من الزمان (541هـ-668هـ/1146-1269م).

إنّ هذه الإرهاصات العامة لظهور دولة الموحدين مرتبطة بالمشاكل الخارجية والداخلية التي عانت منها الدولة المرابطية، حيث امتدّ سلطان الدولة الموحدية من المحيط الأطلسي غربا إلى طرابلس شرقا ومن الأندلس شمالا إلى تخوم الصحراء الكبرى جنوبا.

¹ - عيسى بن ذيب، المغرب والأندلس في عصر المرابطين دراسة اجتماعية اقتصادية 480هـ/540هـ-1056-1145م، رسالة دكتوراة، إشراف أحمد شريقي، جامعة الجزائر، 2009/2008، ص ص 25-200.

حكمها ما يزيد عن أربع عشر حاكماً¹، شهد الغرب الإسلامي استقراراً في الأوضاع بالمغرب والأندلس، ما مكّن من ازدهار وتطوّر العمارة والعلوم والفنون²، وقد استندت في قيامها على دعوة دينية إصلاحية قادها أبو عبد الله محمد بن تومرت الملقّب بالمهدي³، الذي ينتمي إلى قبيلة هرغة المصمودية⁴، إلّا أنّ المؤسّس الحقيقي للدولة هو عبد المؤمن بن علي الكومي⁵ ومن معه من قادة الموحّدين، وكان لسقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحّدين سنة (541هـ -

¹ تمّت مبايعة المهدي بن تومرت سنة (515هـ - 1121م) وهو المؤسّس الروحي للدولة وواضع أسسها أعلن نفسه بأنّه " المهدي المنتظر" ثمّ خلفه عبد المؤمن بن علي الكومي الذي حكم (524هـ - 558م/1130-1163م) ولقّب بالخليفة وبالإضافة إلى المهدي وعبد المؤمن بن علي يعتبر أبو يوسف يعقوب المنصور (580- 595هـ/1184-1199م) أحد أبرز حكام الدولة الموحّدية قائد معركة الأرك الشهيرة ضد النصارى (591هـ/1195م) كما يعتبر باني الموحّدين لما عُرف عن عصره من كثرة البناء والتشييد وكانت وفاة آخر حكام الدولة أبي العلا الواثق في العشر الأخير من ربيع الآخر خمس وستين وست مئة في موضع كتامة الذي يبعد عن مراكش بحوالي ثلاثة أيام وبهذا انقضت بعده دولة الموحّدين، أنظر: العمري، المصدر السابق، ج 27، ص 268. - عبد المجيد النّجار، المهدي بن تومرت أبو عبد الله محمد بن عبد الله المغربي السّوسي المتوفى سنة 1129/524 حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، ط 1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983م، ص 378.

² - عثمان عثمان إسماعيل، ج 3، المرجع السابق، ص 52.

³ - هناك اختلاف في تاريخ ولادة محمد بن تومرت والذي لقّب نفسه بالمهدي فقد ذكر المؤرخون سنة (470هـ/1077، سنة 490هـ/1097، 491هـ/1098م) بمنطقة السّوس جنوب المغرب الأقصى بمنطقة تسمى إيجليز وقد ارتبط اسم دولة الموحّدين به وهي تختلف عن دولة المرابطين من حيث النّشأة والتأسيس حيث كان منطلق المرابطين من مبدأ الجماعة عكس دولة الموحّدين والتي كانت فكرة شخص يحمل فكرة وعقيدة وتكوناً فكرياً عالياً مكنه من تأسيس دولة من أعظم دول العالم الإسلامي. ينظر: محمد بن إبراهيم الزركشي، تاريخ الدولتين الموحّدية والحفصية، تح محمد ماضود. - ط 2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966 ص 4. - روجر لي تورنو، حركة الموحّدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تعريب أمين الطيّبي، ط 3، الدار البيضاء، شركة النشر والتوزيع، 1998، ص 13.

⁴ - من قبائل المصامدة وهي قبيلة المهدي التي بايعته على الإيجار والحماية بالإضافة إلى قبيلة نفيسة وهزرجة ووريكة وكديموة، وكوميه وهي القبائل التي نالت مزية السّبق في مبايعة المهدي. ينظر: ابن خلدون، العبر ج 6، ص 359.

⁵ عبد المؤمن بن علي: بن يعلى بن مروان بن ناصر من قبيلة كومية نسبة لقرية كومية القريبة من مدينة تلمسان بالمغرب الأوسط وكان النّسابون ينسبونه لقيس بن عيلان بن مضر كنيته أبو محمد وهو زناتي الأصل من موضع يقال له تاجرا بالقرب من مرسى هنين بتلمسان وكان حازماً وله صفات الرّياسة مما دفع بالمهدي بن تومرت أن يضمّه إليه عند لقائهما في قرية ملالة قرب بجاية، ينظر، أحمد بن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام في مدينة فاس، الرباط، دار المنصور، 1973، ص 446.

1146م) تداعيات خطيرة على المغرب والأندلس، حيث سقطت ألمرية في يد النصارى ثم طرطوشة لتعرف الأندلس بعدها حالة من التفكك السياسي، كما حاول النصارى احتلال بلاد المغرب الإسلامي، وكانت الأوضاع الداخلية متفككة لصراعات القبائل الهلالية، كما أن جزيرة صقلية قد ضاعت من المسلمين ووصل النورماند إلى إفريقية واحتلوا المهديّة هذا في الجهة الغربية للعالم الإسلامي، أمّا جناحه الشرقي فلم يكن أسعد حظا فالخلافة العبّاسية (132هـ-656هـ-749م-1258م) قد تهاوت أمام المغول وسقطت بغداد عاصمة الخلافة في يد التتار¹.

في هذه الظروف ظهرت دولة الموحّدين التي جمعت شتات الغرب الإسلامي، وغدت من أعظم دول المغرب الإسلامي، إذ كانت نشأتها بعد رجوع محمد بن تومرت من بلاد المشرق التي انطلقت سنة (501هـ-1107م) جاب خلالها أغلب حواضر العالم الإسلامي فمرّ على كلّ من بغداد والشّام ومصر، أين أقام بالإسكندرية والمهديّة وبجاية حيث كان لقاءه مع عبد المؤمن ابن علي الكومي، ثم اتّجه إلى مدينة فاس حيث عمل على تكوين أتباع له يعتمد عليهم في إصلاح مافسد من بلاد المغرب وإسقاط خصومه المرابطين، وأنكر على من يستعمل حوانيتا للآلات الموسيقية والمزامير والعيّدان وغيرها من آلات اللّهُو، ولمّا بلغ خبره والي المدينة عقد له مناظرة مع فقهاء المدينة فظهر عليهم ليثيروا على والي المدينة بطرده، إذ توجّه هو وأتباعه إلى مدينة مراكش سنة (514هـ-1120م)، ليعمد على محاربة المناكر بناحية مراكش خاصّة بعد أن ظهرت في هذه المدينة مظاهر الفساد والانحلال الخلقي كبيع الخمر والبعد عن تعاليم الدّين الإسلامي²، وفي هذا يقول عبد الواحد المراكشي: "واختلّت حال أمير المسلمين رحمه الله بعد الخمسمائة اختلالا شديدا فظهرت في البلاد مناكر كبيرة... واستولت النّساء على الأحوال وأسندت إليهنّ الأمور وصارت كلّ امرأة من أكابر لمتونه ومسوفة مشتملة على كلّ مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور"³.

¹ -عثمان إسماعيل، المرجع السابق، ج3، ص 49.

² -ابن الكردبوس، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تح صالح بن عبد الله الغامدي، ج1، ط1، تونس، الدّار التّونسية، 2008، ص 24. - محمد عبد الله عنان، ج3، المرجع السابق، ص 170-180.

³ -عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 135.

تبنّى المهدي بن تومرت قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأنكر الممارسات العامة كالاختلاط وبيع الخمر وسفور النساء، ودخل مع الفقهاء في مساجلات عقائدية¹، فذاع صيته لما رأت الجموع من تبصره في العلم وصبره على المعيشة حيث كان يقيم في مسجد مهجور هو وبعض أصحابه².

طرد ابن تومرت للمرة الثانية من المدينة فخرج إلى إقليم السّوس واستقر بمنطقة تنمل³، وأثناء فترة مكوثه سعى إلى نشر أفكاره⁴. ومع حلول سنة (517هـ-1123م) كان قد أعد جيشاً معظمه من قبيلة مصمودة من أهل تنمل وأهل السّوس، حيث أمرهم باجتثاث المرابطين بدعوى أنهم زنادقة مارقين عن الدين، مخيراً إياهم بالتوبة والرجوع إلى الحق حسب زعمه فإن تابوا حقن دماءهم وإن رفضوا استباحها⁵.

والواضح من هذا الخطاب أنه يدعو للحرب والجهاد ضدّ دولة المرابطين؛ إذ تمّ تولية عبد المؤمن ابن علي الكومي من طرف المهدي على قيادة الجيش لينطلقوا صوب مدينة مراكش

¹ -وحسب ما أفادت المصادر التاريخية أثبت محمد بن تومرت علو كعبه في فنّ المناظرات على فقهاء المرابطين لاعتماده على الدعاية وساعده في ذلك تعدّد مناهله فقد أخذ عن الشيعة فكرة المهدوية ونهل من الأشاعرة تأويل الآيات والأحاديث كما اعتمد على المعتزلة في إثبات الذات واتهم خصومه بالتجسيم والمروق عن الدين والتشبيه لأخذهم النصوص على ظاهرها ليخلص إلى تكفيرهم على طريقة الخوارج، ينظر: أبو بكر بن العربي الإشبيلي المالكي، المسالك في شرح موطأ مالك، ج1، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2008، ص، 49. -عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص141.

² - تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج6، ط2، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، 1992، ص 111.

³ -تنمل: مدينة صغيرة في السّوس الأقصى موقعها جنوب شرق مدينة مراكش، وهي موطن محمد بن تومرت وكانت مركزاً للدعوة والعقيدة الموحّدية وبنى فيها المهدي حصناً ومسجداً ينظر: صلاح أحمد البهنسي، عمارة بلاد المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، ط1، الإسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطباعة، 2023، ص 142.

⁴ - ليقوم بتعليم البربر فلاقت أفكاره رواجاً بينهم، إذ جعلها داراً للهجرة مدّعياً المهدوية عاملاً في ذلك على تنظيم أتباعه مصنفاً إياهم إلى مجموعتين الأولى هي: العشرة أو الجماعة وهم من أخلص أنصاره المقربين ومستشاريه، والثانية هم: القبائل وأبرزهم هرغة وتينمل هنتاتة وقبيلة كدميوة وتنفيسة وهسكورة ينظر، شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج24، ط1، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، 2002، ص 280. - ينظر أيضاً: ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 286. - القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج5، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1987، ص 186.

⁵ -عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق ص 144

فكان اللقاء في موضع البحيرة¹، ليتمكن المرابطون من حسم هذه المعركة لصالحهم ولمّا عاد جيش عبد المؤمن إلى تتملّ هون عليهم المهدي الهزيمة ورفع من حماسهم، وفي سنة (524 هـ -1130م) مرض ابن تومرت ولمّا أحس بدنوّ أجله نصّح أتباعه وأعلن عن اختياره لخليفته عبد المؤمن وطلب مبايعتهم له وقال لهم: "اخترنا لكم رجلاً منكم وجعلناه أميراً عليكم هذا بعد أن بلّوناه"². وتوفيّ محمد بن تومرت في رمضان عام 524 هـ بعد مرض أصابه، وتولّى عبد المؤمن الكومي خلافة الموحّدين بعد وفاة ابن تومرت³ لتبدأ المرحلة الحقيقية لتأسيس دولة الموحّدين⁴.

اعتمدت دولة الموحدين على قوة عسكرية منظمة في قيام دولتها وكان الجيش يضم الفرسان المدربين والقبائل البربرية المتحالفة مامكنها من بسط نفوذها على كامل بلاد المغرب وأراض واسعة في بلاد الأندلس وتعتبر معركة الأرك من المعارك الكبرى التي انتصر فيها الموحدون ضد ألفونسو الثامن سنة (591 هـ/1195م) غير أن هزيمتها في معركة العقاب سنة (609 هـ/1212م) شكلت بداية تراجع وزوال الدولة⁵.

أما من الناحية الاقتصادية فقد حرص الموحدون على ضمان التوازن بين المداخل والنفقات للنهوض بالاقتصاد فقاموا بتخفيض الضرائب وتأمين الطرق فنشطت التجارة الداخلية

¹ معركة البحيرة: من أشهر المعارك التي جرت بين المرابطين والموحدين يوم الجمعة من ربيع الآخر سنة (524 هـ -1130م) تفوق فيها المرابطون وكانت خسائر الموحّدين عظيمة فلمّا وصل الخبر إلى عبد المؤمن سأل عن عبد المؤمن وهل ما يزال حيّاً فلمّا اطمئنّ أنّه على جواده قال قد بقي أمركم ولم يهلك أحد وسيكون للموحّدين شأن **ينظر:** ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 167. -ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج8، تح، عمر عبد السلام التدمري، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1997م، ص 660.

² -عبد الواحد المراكشي، المعجب، المصدر السابق، ص147.

³ -النويري، المصدر السابق، ج24، ص 289.

⁴ -للتفصيل في مرحلة تأسيس دولة الموحّدين نحيل القارئ إلى أهمّ المصادر والمراجع التي تناولت بالتدقيق التعريف بالموحّدين ودولتهم، **ينظر:** ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج6، ص 301-350. -النويري، المصدر السابق، ص 277-289. - ينظر، عبد الله عنان، ج3، المرجع السابق، ص 177-289. -عبد العزيز سالم، المغرب، المرجع السابق، ص 683-778.

⁵ -داود عمر سلامة عبيدات، الموحدون في الأندلس، دار الوضاح للنشر والتوزيع، الأردن، 2005، ص ص

والخارجية عبر الموانئ الكبرى وطرق القوافل الصحراوية وازدهرت الزراعة والصناعة وبهذا مثل الجيش القوي والاقتصاد المزدهر دعامة أساسية لحضارة الموحدين¹.

ثانيا: بناء المساجد وترميمها في عهد المرابطين:

حرص المرابطون على بناء العمارات الدينية والمساجد لإقامة الشعائر الدينية، إضافة إلى تشييدهم الكثير من المساجد الجامعة بمختلف المدن التي وصلوا إليها، وهو ما أشار إليه ابن أبي زرع الفاسي أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين لما وصل إلى مدينة فاس سنة (462هـ-1060م) أمر بهدم الأسوار التي كانت تفصل بين العدوتين، عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين، وجعلها مدينة واحدة، كما أمر ببناء المساجد بكثرة في الأحواز والشوارع بل ذهب إلى معاقبة كل زقاق تقاعس أهله عن بناء مسجد فيه وأجبرهم على تشييد مسجد فيه²، ولم يكن هذا في بلاد المغرب فقط فإن يوسف لما جاز إلى بلاد الأندلس أمر بتوسعة مسجد سبتة حتى أصبح يُشرف على البحر³، فكان بناء المساجد من أجل الأعمال التي ركّز عليها حكّام هذه الدولة⁴، كونها البيوت التي تسهم في الإصلاح الديني والاجتماعي وإذا كان كثير من تلك المؤسسات قد اختفت

¹ -صديقي عبد الجبار ، سقوط الدولة الموحدية دراسة تحليلية في الأسباب والتداعيات رسالة ماجستير ، إشراف مكوي محمد ، جامعة تلمسان، 2014/2013، ص ص 74-84.

² -ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في ذكر ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص 141.

³ - مجهول، الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، تح سهيل زكار و عبد القادر زمانة، ط1، الدار البيضاء دار الرشاد الحديثة، 1979م، ص 72.

⁴ -دليل ذلك ما قام به يوسف بن تاشفين فقد كانت المساجد من أولى اهتماماته وقد بلغ عدد المساجد حسب ابن أبي زرع في عهده ما يزيد عن الألف وتسعمائة في كل من المغرب والأندلس بقوله: "خطب له بالأندلس والمغرب على ألف منبر وتسعمئة" وهو رقم كبير استغلّه في تقوية بنية المجتمع حيث أمر ولّاته بالإشراف عليها، سواء في فاس أم مراكش أم تلمسان أم الجزائر، وتميّزت المساجد المرابطية الأولى بالبساطة في تخطيطها، وهو ما كانت عليه المساجد الإسلامية الأولى، يذكر ابن خلدون في مقدّمته أن المباني والصناعات في الملة الإسلامية قليلة مقارنة بقدرتها والسبب حسبه يعود في ذلك أن العرب أكثر بداوة وأقل إماما بالصنائع، بالإضافة إلى ذلك، فقد كان الدين أول الأمر سببا في هذه البساطة لمنعه المغالاة في البنين والإسراف فيه في غير القصد، بناء على ذلك نلاحظ المسحة البسيطة في بناء المساجد الأولى في الإسلام، ينظر: ابن خلدون، ج1، المصدر السابق، ص 447. -ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 136. -سنا عطاوي، الفقه وتنظيم المجال الحضري في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع الهجري/الثالث عشر -الخامس عشر الميلادي تلمسان نموذجا، أطروحة دكتوراه، إشراف علاوة عمارة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، 2017-2018، ص 218.

واندثرت سواء بسبب الحروب أو الكوارث الطبيعية فقد بقي من عصرهم عديد المساجد في المغرب الإسلامي قائما إلى يومنا هذا، منها جامع تلمسان والمسجد الجامع بمدينة الجزائر، وكذلك المسجد الجامع بمدينة ندرومة وجامع القرويين بفاس¹، ويمكن تقسيم المساجد إلى صنفين مساجد جامعة تقام فيها صلاة الجمعة ومساجد أحياء تقام فيها الصلوات الخمس دون صلاة الجمعة، ويبدو أن المساجد الجامعة كانت تقام في وسط المدينة وكان عددها قليلا لكبر حجمها وقدرتها على استيعاب عدد كبير من المصلين، أما المساجد الصغيرة فكانت تبعا لحجم المدينة وسعة كثافتها السكانية² ولم تشر المصادر التاريخية كثيرا للمساجد الصغيرة سواء في المدن أم الأرياف³.

أ- مسجد القرويين بمدينة فاس:

يعود بناء مسجد القرويين الذي يقع في وسط المدينة القديمة بفاس إلى فترة حكم الأدارسة، وتحديدا في عهد الأمير يحيى بن محمد بن إدريس الذي وفدت في عهده عديد الأسر العربية والبربرية من المغرب والأندلس وكان بينها أسرة محمد بن عبد الله الفهري القروي وكان نزوله بعدوة القرويين مع أهل بلده، وعندما أدركه أجله خلف بنتين هما مريم وفاطمة الملقبة بأم

¹-ليويولدو توريس بالباس، المرجع السابق ص16.

²-عبد العزيز لعرج وآخرون، مساهمة الجزائر في الحضارة العربية الإسلامية، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 69.

³-يواجه الباحث عن المنشآت المعمارية في العصر المرابطي صعوبة كبيرة لتتبعها وذلك لندرة المصادر والوثائق التي وصلت إلينا أو تم طمسها للخلافات المذهبية مع الموحدين مثل ظاهرة إحراق الكتب ككتاب الإحياء للإمام الغزالي، كما أن بعض المصادر لم تزد عن إخبارنا بـ وبنوا واختطوا وشيدوا مثال ذلك ما ذكره الإدريسي عند حديثه عن جامع خطبة مدينة مراكش بقوله وبنى بها جامع بناه يوسف بن تاشفين، ينظر: الإدريسي، ج1، المصدر السابق، ص 234، الحميري، الروض المعطار، المصدر السابق، ص 540.-أحمد بابا التنبكتي، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، تح عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط2، طرابلس، دار الكاتب، 2000م، ص 311.

البنين¹، وهذه الأخيرة هي التي يعود إليها فضل تشييده بعدما رأت أنّ جامع الأشياخ² بالعدوة الشرقية ومسجد الشرفاء بالعدوة الغربية كليهما قد ضاقتا بالمصلّين وأصبحتا لا يفيان بحاجة المصلّين، حيث أمرت بمباشرة بناء جامع جديد سنة (245هـ-859م) وقد اختارت فضاء فسيحا به بعض الأشجار مملوكة لرجل من هواره فاشتريته منه بستّين أوقية وأمرت بتسوية أرضيته وتنقيتها من الحجر والتراب وحرصت على إتمام بنائه وتوفير الماء عبر حفر الآبار من نفقتها الخاصة³.

وأشارت المصادر التاريخية إلى تفاصيل مهمّة عن بداية عمارته وتخطيطه الأوّل في عهد السيّدة فاطمة سنة (245هـ/859م) حيث كان تصميمه العامّ على نحو ما عرف بالمسجد الأموي الكبير بدمشق وجامع القيروان، فقد جاء مربّعا إلّا أنّ تربيعة لم يكن تامّا فقد كان عرضه أكبر من طوله تبلغ أبعاده ما يقارب (150 شبرا) أي نحو (32م) ومن الشّمال إلى الجنوب (39م) أي ما يقارب (39×32مترا) بمساحة تقارب (1300م) من الشّرق إلى الغرب، ويتكوّن من اثنتي عشرة بلاطة على جانبيه أكبرها البلاط الأوسط⁴، به مئذنة صغيرة بنيت في الضّلع الشّمالي من المسجد على نفس محور المحراب وهي بذلك على نمط مئذنة جامعي القيروان وقرطبة⁵.

¹-هي فاطمة بنت الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد الله الفهري القيرواني، هاجرت أسرتها إلى مدينة فاس مع عديد الأسر القيروانية في عهد الإمام محي الدين يحيى الأوّل حفيد إدريس (234-249هـ/848-863م)، وقد قامت هذه الفتاة المسلمة المعروفة بأمر البنين بتكريس ثروتها التي ورثتها عن والدها لبناء جامع القرويين بالقرب من مكان سكنها، فدخلت التاريخ بصفتها من أوائل السيّدات اللواتي بنين مسجدا من مالها الخاص إذ كان المتعارف عليه حتّى ذلك التاريخ أنّ الدولة هي من تقوم ببناء المساجد ينظر: ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 54، _ عبد الهادي التّازي، ج1، المرجع السابق، ص 47-48.

²-جامع الأشياخ: يعتبر أقدم مسجد في منطقة فاس اختطّه إدريس الأوّل ثمّ بُني على أنقاضه جامع الأندلس على يد مريم الفهرية شقيقة فاطمة الفهرية الشهيرة سنة 245هـ ينظر: الناصري، ج1، المرجع السابق، ص 222.

³-الجزنائي، جني زهرة الاس في بناء مدينة فاس، تح، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1991، ص 45-46، ينظر أيضا: كمال عناني إسماعيل، المرجع السابق، ص 225-226.-عبد الهادي التّازي، ج1، المرجع السابق، ص 46.

⁴- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 54.- ينظر أيضا:الجزنائي، المصدر السابق، ص 45.-عبد الهادي التّازي، ج1، المرجع السابق، ص 48، ينظر، صلاح أحمد البهنسي، المرجع السابق، ص 124.

⁵-كمال عناني إسماعيل، المرجع السابق، ص 227-228.

وقد زادت شهرة مسجد القرويين على جامع الأندلس بعد أن نقلت إليه خطبة الجمعة في سنة (307هـ/920م) في فترة تغلب بربر زناتة وحكمهم لمدينة فاس إذ تحوّل إلى مسجد جامع بعد أن ألحّ الفقهاء والعلماء على والي المدينة إلى نقلها من مسجد الشّرفاء إلى جامع القرويين وحسب روايات المؤرّخين فإنّ سبب هذا التّحويل ليس سياسيا إنّما كان الدّافع الأساسي وراء ذلك في صغر مساحة مسجد الشّرفاء وسعة مساحة القرويين¹ كما تجدر الإشارة إلى أهميّة عدوة القرويين على عدوة الأندلسيين نظير الكثافة السّكانية العالية التي تميّزت بها ممّا دفع بالعمامة إلى المطالبة باستبدال المسجد العتيق بجامع فاطمة وهو ما رآه فقهاء المدينة².

وبعد أن تولّى أمراء زناتة الحكم بمدينة فاس، بايعوا مع أميرهم أبي العبّاس أحمد ابن أبي بكر الزناتي الخليفة عبد الرحمن النّاصر لدين الله الأموي ملك الأندلس³ هذا الأخير الذي كان كثير العطايا والهدايا لكبراء زناتة ورؤسائهم، وفي سنة (345هـ/958م) بعث معونة مالية لتوسعة المسجد بها كثير من أخماس غنائم الرّوم وأمر بزيادة مساحة المسجد لحاجة النّاس إليه، وقد شمل هذا التّرميم توسعة من جهاته الثلاث الشّرق والغرب والشّمال مع الحفاظ على تخطيطه العامّ بالإضافة لهدم صومعته القديمة وبنى مكانها المئذنة الجديدة⁴، كما أضاف له أربع بلاطات من الغرب وخمس من الشرق وثلاثة من الجوف بعد أن كان به بلاط واحد وبنيت ثلاثة أساكيب

¹ - الجزنائي، المصدر السّابق، ص 46.

² - استفتي فقهاء المغرب الأوسط في أحقية صلاة الجمعة بين جامع الأندلس وجامع القرويين ليفتي الإمام الونشريسي بأولوية إقامة صلاة الجمعة في جامع الأندلس لقدمه على جامع القرويين وأنّه لايجوز تعدّد إقامة صلاة الجمعة في بلد واحد حسب ما هو معروف عند فقهاء المالكية مع ذكره للأقوال المخالفة، أمّا عن الإمام السنوسي فقد أجاب باحتمالين أي جواز كلاهما في أحقية الصّلاة فتعدّد إقامة الجمعة لا يجوز عند فقهاء المالكية ولكن هناك ضروريات كعدم كفاية المسجد للمصلّين أو وجود مشقّة في الوصول إليه ينظر: الونشريسي، أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والمغرب، ج1، المغرب، وزارة الأوقاف، 1981، ص 252، - حميدي مصطفى، العلماء والسّجل العلمي في المغرب الأوسط ما بين القرنين 07-09هـ/13م-15م، أطروحة دكتوراه، إشراف، حميدي مليكة، جامعة لونييسي علي- البليدة-، 2024م، ص 135.

³ - عبد الرحمن بن محمد النّاصر لدين الله : تولّى الخلافة بعد موت جدّه عبد الله ابن محمد في مدينة قرطبة سنة 300، وكان فيه شهامة وعقل سديد وهو أطول من حكم من بني أميّة توقّي ليلة الأربعاء 350هـ / 961م، فولّي نحو خمسين سنة، ينظر: ابن أبي زرع، المصدر السّابق، ص56. - بدر الدّين العيني، عقد الجمان في

تاريخ أهل الزّمان، ج4، تح، محمود رزق محمود، القاهرة، دار الكتب والوثائق، 2010، ص 116.

⁴ - الجزنائي، المصدر السّابق، ص 47، ينظر أيضا: عبد الهادي النّازي، ج1، المرجع السّابق، ص 52.

موازية لجدار القبلة مكان الصحن، فأصبحت ظلّة القبلة متكوّنة من سبعة أساكيب بدلا من أربعة بينها بائكات تحجز بينها، تتكوّن الواحدة منها من واحد وعشرين عقدا كما أضيفت قبتان قبة فوق تربيعية المحراب وقبة فوق البهو وكلاهما مزخرفتان بخطوط متعرجة وتمّ الانتهاء من التوسعة سنة (345هـ/956م) وكتب ذلك في لوحة تأسيسية¹.

شملت الزيادة هدم الصومعة لأنها متطاولة أو مستطيلة وإعادة بناءها التي جاءت على شاكلة منارة جامع القيروان، التي امتازت بطابع مغربي خاص، وهو التربع أي لها جهات أربع كما اكتسب المسجد أربعة أبواب جديدة بابين غربيين محلّ باب العدول وباب الصالحين وبابين شرقيين أحدهما محلّ باب حيوان وثانيهما محلّ باب السبع ونظرا للزيادات الكبيرة للجامع فقد اتّسعت مساحته لتبلغ أربعة آلاف متر مربع².

ومع وصول المرابطين إلى الحكم زادت شهرة هذا الجامع خاصّة مع تزايد اهتمام حكام المرابطين بتزويد خزانته بنقائس المخطوطات واستتساخها، أشهرها أجزاء من موطأ مالك أهديت لخزانة علي بن يوسف بن تاشفين حيث كتبت له على ورق من جلد غزال³، وهذا ليس غريبا لكونه أصبح أهمّ جامع في العاصمة الأولى للمغرب الأقصى مع تراجع مكانة مسجد الأندلس فتوافد عليه طلاب العلم من كلّ حدب وصوب فذاع صيت القرويين في الأقطار، كما كثر البناء والتعمير بالمدينة ممّا جعله يضيق بالمصلّين وكانوا يجدون مشقة كبيرة في تأدية الصلوات فاجتمع الفقهاء والأشياخ في بداية سنة (528هـ/1134م) وتوصّلوا إلى نتيجة أبلغوها إلى أبي عبد الله محمد بن داود⁴، قاضي قضاة فاس، تضمّنت النتيجة وصفا وشروحا شاملة لأحوال المصلّين وما يعانونه من ضيق في المسجد، مؤكّدين على ضرورة توسيعه وإجراء زيادة وإصلاحات بالجامع لاستيعاب زيادة عدد المصلّين.

¹ - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 56. - ينظر أيضا: صلاح أحمد البهنسي، المرجع السابق، ص 125-126.

² - عبد الهادي التّازي، ج1، المرجع السابق، ص 57.

³ - كمال عناني إسماعيل، المرجع السابق، ص 224-225.

⁴ - هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن داود، قاضي الجماعة بمدينة فاس في فترة علي بن يوسف الذي استأمنه على أموال نفقة زيادة المسجد نظير ما عرف عنه من فضل وورع وتقوى، ينظر: ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 59.

كما نظر القاضي في بعض المصادر التي يمكن اعتمادها لتمويل هذه التوسعة، والتي كانت من أموال الأوقاف والأحباس¹ وبناءً على هذه الشروحات استأذن القاضي أمير المسلمين علي بن يوسف في إجراء التوسعة فكان ردّه بقبول الاقتراح، وأصدر أوامر بشراء الدور المحاذية للجامع وإعطاء أهلها ثمنها وزيادة، غير أنّ هذا الأمر لم يرق بعض ملاك اليهود الذين رفضوا البيع، ممّا استدعى تقويمه للموضع ودفع أموال مضاعفة لهم اقتداءً بعمل عمر بن الخطّاب في زيادته للمسجد الحرام فلمّا أتمّ القاضي شراء العدد الكافي من المنازل لإجراء تلك الزيادة، بدأ في هدمها وشرع في البناء فجاءت هذه الزيادة خالية من الشوائب والشبه².

وقد نالت الجهة الجنوبية القسط الكبير من هذه الزيادة التي شملت التخطيط والعناصر المعمارية الزخرفية وحتى الوظيفية، فهُدم جدار القبلة وأضيف ثلاثة بلاطات إلى بيت الصلاة فأصبح يتكوّن من واحد وعشرين بلاطة موازية لجدار القبلة، كما تمّ بناء فوّارة غرب الصحن لتقابل الفوّارة القديمة التي تتموضع في الجهة الشرقية³.

أمّا عن الأبواب فتّم إعادة بناءها وبالأخصّ باب الجهة الغربية الكبير المسمّى باب الفخّارين المعروف باباب الشّماعين حالياً، وأقيم عليه قبة تمّ زخرفتها ببعض النصوص التأسيسية مثل النصّ التأسيسي الذي نستشفّ منه تاريخ التأسيس، وقد جاء نصّه على النحو التّالي: "صنع هذا الباب والقبة وكَملاً بالبناء والتركيّب في شهر ذي الحجة سنة ثمان وعشرين وخمسائة"⁴ وقد أشار ابن أبي زرع أنّ القاضي كان يباشر عملية البناء بنفسه فجاءت هذه الزيادة في غاية السمو والإبداع⁵، وتجدر الإشارة أنّ التصميم الذي اعتمده المرابطون كان بنفس الخصائص التي كانت

¹بسمّة حسام أبو المعاطي منصور، توسعات المساجد الجامعة الألفية بالمدن الإسلامية شبه الجزيرة العربية والعراق والشّام ومصر وبلاد المغرب والأندلس، ط 1، مصر دار الوفاء لدنيا الطّباعة، 2025، ص 253.

²-ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 59، ينظر، عبد الهادي التّازي، ج 1، المرجع السابق، ص 66، ينظر أيضاً: حمدي عبد المنعم محمد حسين، التّاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1997م، ص 364-365.

³-صلاح أحمد البهنسي، المرجع السابق، ص 127.

⁴-ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 60، ينظر أيضاً: كمال عناني إسماعيل، المرجع السابق، ص 230.

⁵-ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 60.

في العهد الإدريسي ثم الزناتي حيث نجد عدم التّساوي في عدد الأقواس الموجودة في غرب البلاطة الوسطى والشرقية.

كما يمكن ملاحظة الفرق بين البلاطات السبعة الزناتية والثلاثة التي أضافها المرابطون إذ تمتاز الزناتية بقصر السّواري في حين جاءت البلاطات المرابطية ذات طول واضح كما قدّرت المسافة بين السّواري بثلاثة أمتار وسبعين سنتيما بالنسبة للأسكوب الأول والثاني في حين جاء الأسكوب الثالث المجاور للقبلة بثلاثة أمتار وتسعين سنتيما، وكانت جوانب السّواري المربعة تقدّر ب سبعين سنتيما لتكون المساحة الإجمالية بعد زيادات المرابطين ما يقارب نصف هكتار¹، ونظرا لأضافه ثلاثة أسايب في الجهة القبليّة أصبح عدد الأسايب عشرة ممّا استدعى عمل جدار للقبلة ومحراب جديد أضيفت حوله قبة مربعة زخرفت بالمقرنصات وزخارف ذات ألوان بهيئة وأصبغة متعدّدة اشترك في زخرفتها صنّاع من الأندلس، وحتّى القباب الستّة التي أضيفت على امتداد البلاط الأوسط يتّضح فيها اللّمسة والزخرفة الأندلسية.

وعلى العموم فقد حرص المرابطون من خلال تغييرهم للمسجد في إكساب المحراب منظرا جميلا من خلال زيادة ارتفاع وطول البلاط كما أبدعوا في القباب المجاورة له من خلال زخرفتها بالذهب واللّآزورد² ومختلف الأصبغة³، ويعتبر منبر المسجد أبرز ما تركه المرابطون وقد جاء صنعه من خشب الأبنوس والصنّدل والعاج وله تسع درجات وريشتاه مزدانتان بزخارف ذات شكل هندسي⁴.

كما عزم المرابطون على إلحاق المسجد بمرافق مهمّة وضرورية بمبادرة القاضي عبد الحق بن معيشة الذي طلب الإذن من الأمير علي بن يوسف فأذن له فقام ببناء ملحقة بالمسجد في الجهة الجنوبية خاصّة بالجناز⁵، ولعلّ سبب بنائها الخروج من الخلاف حول نجاسة الآدمي

¹ - عبد الهادي التّازي، ج1، المرجع السّابق، ص 66.

² - اللّآزورد: هو عبارة عن معدن يتّخذ للزينة وأجوده الصّافي الشّفاف الأزرق الميّل إلى اللون الأحمر والأخضر، ينظر: أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، ج3، ط1، عالم الكتب، 2008، ص 1986.

³ - صلاح أجمد البهنسي، المرجع السّابق، ص 127، _ عبد الهادي التّازي، ج1، المرجع السّابق، ص 67.

⁴ - كمال عناني إسماعيل، المرجع السّابق، ص 230.

⁵ - ابن أبي زرع، المصدر السّابق، ص 61، ينظر أيضا: عبد الهادي التّازي، ج1، المرجع السّابق، ص 74.

الميت¹، كما أنّ القاضي ابتغى بناء مقصورة للإمام في مقدّمة القبلة تخصّص لراحة الإمام واستعداده للصلاة، كما كان يأمل بتخصيص مكان لمجلس القاضي بالقرب من المقصورة لكنّه أبعد عن القضاء في سنة (533هـ-1138م) قبل إنهاء مخطّطاته ولم يكمل القاضي الذي خلفه أعماله فبقيت موقوفة إلى غاية سنة (538هـ-1143م) وهي السنة التي ولى فيها القضاء أبو مروان عبد الملك بن بيضاء القيسي فاستأنف ما كان ينوي ابن معيشة إنجازه².

وعندما دخل الموحّدون مدينة فاس يوم الخميس من شهر ربيع الأول سنة أربعين وخمس مائة (540هـ-1145م)، خاف فقهاء المدينة وأشياخها من انتقادات عبد المؤمن وغضبه الذي عزم على تأدية صلاة الجمعة مع أشياخ الموحّدين فعمدوا إلى الحماّمين الذين قاموا بتغطية المحراب والزخارف التي تكسوه بالكاغد والجص وأطبقوا على تلك الزخارف التي أصبحت بياضا³، ولعلّ سبب محو تلك الزخارف وكسفها هو نزوع الموحّدين في بداية أمرهم إلى التّشّف والتّقليل من الإسراف.

كما لم يشهد المسجد إضافات كبرى في عهدهم باستثناء إضافة مجموعة من الثّريات أهمّها الثّريا الكبرى والتي كان أصلها ناقوسا نقل من بعض الكنائس في الأندلس وقد نصبت في المسجد بدقّة عالية حيث تُرى من جميع أبواب الجامع البالغ عددها في الفترة الموحّدية سبعة عشر بابا⁴، كما تم إنشاء خصّة حسنة من النّحاس الأحمر أقيمت في النّاحية الشّرقية من صحن الجامع ويبدو أنّ المكان الذي أقيمت فيه هو نفسه مكان البئر الذي حفر في أيّام السيّدة فاطمة الفهرية⁵.

ب-جامع ندرومة:

¹ يرى فقهاء المالكية أنّ في نجاسة الأدمي الميت قولين فابن سحنون وابن القصار والقاضي عيّاض رأوا بنجاسة الكافر بخلاف المسلم ويرى الفريق الثّاني الذي تزعمه ابن القاسم وابن شعبان النّجاسة على العموم ينظر: خليل ابن إسحاق المالكي المصري، التّوضيح في شرح المختصر الفرعي لابن الحاجب، تح أحمد بن عبد الكريم نجيب، ج1، ط1، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة الثّراث، قطر، 2008، ص 24.

² عبد الهادي التّازي، ج1، المرجع السّابق، ص 74.

³ المرجع نفسه، ص 68.

⁴ كمال عناني إسماعيل، المرجع السّابق، ص 231.

⁵ صلاح أحمد البهنسي، المرجع السّابق، ص 128.

يقع جامع ندرومة في الجهة الجنوبية للمدينة و يعود تأسيسه إلى الفترة المرابطية وتحديدا فترة حكم يوسف بن تاشفين¹، استنادا إلى ماورد في النقيشة الكتابية المزخرفة الموجودة على المنبر والذي يتواجد جزء منه حاليا في المتحف الوطني للآثار بالعاصمة (الملحق رقم 04)² حيث كتب فيه بعد البسملة والصلاة على الرسول الكريم ما يلي:

" هذا مما أنعم به الأمير السيد يوسف بن تاشفين أدام الله توفيقه وأجزل...كان الفراغ منه على يد الفقيه القاضي أبي محمد عبد الله بن سعيد يوم الخميس السابع عشر من شهر ... "يتبين من خلال الكتابة أنّ التأسيس كان في فترة المرابطين إلا أنّ الباحثين لم يتفقوا أنّ المؤسس هو يوسف ابن تاشفين⁴، حيث يرى البعض أنّ البناء تمّ في فترة أحد أبناء يوسف بن تاشفين⁵ ومع ذلك فإنّ الغموض يكمن في تلف أجزاء معتبرة من الكتابة حيث لم يتبقّ تاريخ البناء، والذي يرجّح أنّه كان في سنة (474هـ/1082م)⁶.

أمّا عن تخطيط المسجد (شكل رقم 01) فيتخذ شكلا مستطيلا يمتدّ من الشرق إلى الغرب طوله 28,60 متر وعرضه 20 متر وبوسطه صحن مكشوف أقلّ حجما من بيت الصلاة على نمط المساجد المغربية كمسجد القيروان، وهو الآخر مستطيل الشكل وبهذا فالصحن قريب الشبه لصحن مسجد الجزائر، يضمّ بيتاً للصلاة به تسعة بلاطات ممتدة على جدار القبلة تقدّر مساحة البلاطة الوسطى بـ 2,59 متر وبذلك فهي أكبر البلاطات، كما يتواجد به حوالي سبعة وثلاثون دعامة أغلبها مربعة الشكل بالإضافة إلى وجود البعض منها على شكل حرف T، كما نجد فيها

¹Basset,R.nedrouma et les traras, Ernest leroux, Paris,1901, p22.

²- تمّ إعاره التّحفة إلى المتحف العمومي للآثار الإسلامية بتملسان بمناسبة تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية منذ سنة 2011، نقلا عن لوحة الإرشادات الموجودة داخل المتحف.

³-رشيد بورويبة، الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979، ص 55.

⁴MarcaisG, la chaire de la grande mosquee de nedrouma, ALGER, p 321.

⁵-يرى جورج مارسي أنّ المسجد قد بناه أحد أبناء يوسف بن تاشفين الذي لم يتولّ الحكم مثل ابنه العزيز الذي تنطبق عليه صفة الأمير، في حين يؤكّد باسي أنّ المؤسس هو يوسف بن تاشفين نفسه وهو مذهب إلبه الباحث الجزائري رشيد بورويبة، ينظر، رشيد بورويبة، الكتابات المرجع السابق، ص 54.

⁶محمد رابح فيسة، المنشآت المرابطية في مدينة ندرومة دراسة تاريخية أثرية، دار السيل للنشر و التوزيع، الجزائر، دت، ص 109.

الشكل المصلَّب والمستطيل على شكل حرف ¹ L، ومحاربه مجوّف وغائر في جدار القبلة كما تجدر الإشارة أنّه قريب الشّبه لمحراب جامع تلمسان الكبير وجامع الجزائر المرابطي وموقعه في وسط جدار القبلة، والمسجد اليوم يُزيّن مدينة ندرومة العريقة ويقع في وسطها ويسمّى الشّارع حاليا بحي التّربية²، وقد حافظ المسجد الجامع على معظم أجزائه المعمارية التي بُنيت في الفترة المرابطية من صحن وجدران وأقواس ومداخل، وأهل ندرومة شديدا حرص على عمارته لما رأينا من نظافة سواء محيطه الخارجي أم أجزائه الدّاخلية من الصّحن والجدران والأقواس والمداخل و تمّ بناؤه بطريقة الطّابية مع استعمال مادّة الخشب³، وقد أُجريت عليه بعض التّرميمات كتغطية جدرانه حفاظا عليها من الرّطوبة والأمطار.

ج- جامع تلمسان الكبير:

يعتبر الجامع المرابطي في مدينة تلمسان من أجمل ما بقي من آثار المرابطين وتبدأ قصّة بناء هذا المسجد بعد بلوغ يوسف بن تاشفين (453-500هـ/1061-1107م) مدينة تلمسان مع عساكره المرابطين سنة (473هـ/1080م) واختطّ مدينة جديدة سمّاها ب تآكرارت⁴، وسرعان ما أنشأ بها مسجدا (الملحق رقم: 05) جامعا بالقرب من القصر نظرا لاتّساعها وحاجة النّاس إلى إقامة صلاة الجمعة⁵.

أمّا عن تاريخ بداية بنائه فلم تحدّد المصادر التّاريخية ذلك ومع غياب النّصوص التّأسيسية بسبب إحجام المرابطين عن كتابتها أو نظرا لطمسها بسبب فعل الإنسان أو تدهورها نتيجة العوامل الطّبيعية أدّى ذلك إلى اختلاف الآراء حول تاريخ بناء المسجد⁶، فذهب الباحث الفرنسي

¹ مبارك بوطارن، المرجع السّابق، ص 67-72.

² ينظر الصّورة رقم 03، ص 260.

³ لوحة إرشادات وزارة الثّقافة الواقعة عند مدخل المسجد الكبير -ندرومة -ولاية تلمسان، الجزائر، (03-شوال-1446هـ/01-أفريل-2025).

⁴ يعني اسم تآكرارت المحلّة أو المعسكر عند البربر، ينظر: ابن خلدون، ج6، المصدر السّابق، ص 247.

⁵ -وليم وجورج مارسى، المرجع السّابق، ص 30.

⁶ مبارك بوطارن، المرجع السّابق، ص 88. - ينظر أيضا: سميح موهوبي، شلوق فتيحة، الحركة العمرانية ودلالاتها الحضارية بمدينة تلمسان خلال الفترة المرابطية (473-542هـ/1079-1048م)، عصور، العدد 03، (ص 133-149)، 2023، ص 140.

جورج مارسي أنّ المسجد بني في عهد يوسف بن تاشفين مستندا في ذلك على مجموعة من الحجج منها أنّه لا يمكن ليوسف بن تاشفين أن يبني مسجدا في مدينة جزائر بني مزغنة سنة (475هـ/1086م)، ويؤسس مدينة تآكرارت بتلمسان (475هـ/1082م) ويتركها بدون مسجد خاصة وأنّه جعل منها عاصمة إقليمية لدولته¹، وهو رأي منطقي جدّا في نظرنا.

في حين رجّح بعض الباحثين تاريخ بنائه إلى فترة علي بن يوسف بن تاشفين (500-537هـ/1107-1135م) وحجّتهم في ذلك ما كتب في النقيشة التي وجدت أسفل المحراب في القرن التاسع عشر الميلادي بعد عملية تنقيب ترأسها العالم الفرنسي بارجيس ممّا جاء فيها "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وسلّم تسليما، هذا ممّا أمر بعمله الأمير الأجلّ، أيّد الله أمره وأعزّ وأدام دولته وكان إتمامه على يد الفقيه الأجلّ القاضي الأوصل، ابن الحسن بن علي بن عبد الرحمن بن علي، أدام الله عزّه ثمّ انتهى في جمادى الأخرى عام ثلاثين وخمس مائة"².

وهذه الكتابة تشير إلى تاريخ الانتهاء من الأعمال والتي تمّت في يوم جمادى الثّانية (530هـ-1136م) وهي فترة حكم علي بن يوسف، ويبدو أنّ المسجد قد مرّ بعدّة مراحل في تشييده فلا يُستبعد أنّ يوسف ابن تاشفين هو من بنى المسجد سنة (475هـ/1083م) نظرا لاهتمامه ومبادرته لبناء المساجد وأنّ ابنه علي بن يوسف قد أتمّ أعمال الصّيانة والتّرميم سنة (500هـ/1107م) وأيّّا من كان الذي شيّد المسجد فإنّه يعتبر واحد من أهمّ ثلاثة جوامع جامعة شيّدها المرابطون بالمغرب الأوسط³.

أمّا تخطيطه العامّ (شكل رقم 02) فهو ذو بناء مستطيل الشّكل يبلغ طول ضلعه حوالي 60 مترا وعرضه 50 مترا بمساحة إجمالية تقدّر ب 3000م²، وهو بذلك أكبر المساجد المرابطية في المغرب الأوسط، ويتكوّن من صحن في الوسط يحيط به جناحان من الشّرق والغرب، يتألّف

1- جورج مارسي ووليام، المرجع السّابق، ص 30. - ينظر أيضا: محمد بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور دورها في سياسة وحضارة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 44.

2- إبراهيم حركات، ج 1، المرجع السّابق، ص 224، ينظر أيضا: عبد العزيز لعرج وآخرون، المرجع السّابق، ص 74-75.

3 - محمد الطّمار، المرجع السّابق، ص 44.

الجناح الشرقي من ثلاثة بلاطات والجناح الغربي من أربعة بلاطات وهذه البلاطات تشكّل امتداداً لقاعة الصلاة¹.

اتّبع بناء جامع تلمسان في سنة (530هـ/1136م) بشكل كبير تخطيط جامع قرطبة وكلاهما يشبه تخطيط جامع القيروان فبيت الصلاة مستطيل يتكوّن من ثلاثة عشرة بلاطة تتّجه عمودياً على جدار القبلة، تشكّل البلاطة المركزية المساحة الكبرى، ونظراً لأهمية المحراب الدينية تميّزت هذه البلاطة بوجود قبتين، واحدة أمام المحراب، والأخرى فوق منتصف البلاطة الوسطى، في نفس وضعية قبة جامع تلمسان، ولم يقتصر التقليد على ذلك فحسب وإنّما نجده يمتدّ إلى صفوف العقود الفاصلة بين بيت الصلاة القديم وبين الزيادة، حيث أصبح هناك صفّ من العقود القائمة على دعائم ضخمة تقطع البلاطات الطولية عرضياً وتقسم بيت الصلاة في مسجد تلمسان إلى قسمين كلّ منهما يشمل ثلاثة أساكيب مطابقة في ذلك للعقود القائمة على الدعائم بمسجد قرطبة².

وتتميّز بيت الصلاة بظواهر جديدة على بلاد المغرب وفدت من الأندلس، مثل البائكة الثالثة ذات العقود الموازية لحائط القبلة، حيث وجد مثلها في الجامع الأموي بقرطبة والبائكة المميّزة جاءت نتيجة الزيادات التي حصلت في المسجد في مراحل متتالية، وتمّ نقل هذه الظواهر المعمارية على شكل مؤثرات فنيّة ومعمارية في فترات مختلفة أهمّها الفترة المرابطية حيث شهدت العودة الأندلسية والمغربية وحدة سياسية، وينكسر ضلعه الجنوبي الغربي من نقطة تقابل الصّحن حتّى الضلع الشمالي الغربي، وهذا الانحراف يشغله الجدار الشرقي للقصر البالي المرابطي، وللجامع ثمانية أبواب اثنتان جهة القبلة على يمين المحراب ويساره، وأربعة بالجدار الجنوبي الغربي وباب يفتح على الجدار الشمالي الجنوبي مقابل المئذنة، والباب الثامن مفتوح على بيت الوضوء³.

استخدم المرابطون الرّخام في المعمار كالقصور والدّور وخاصّة أعمدة المساجد التي ترتكز عليها العقود التي تؤدّي الي المحراب⁴، كما استخدم الرّخام في نافورة الجامع ذات الحوض

¹ - مبارك بوطارن، المرجع السابق، ص ص 97-98.

² - السيّد عبد العزيز سالم، العمارة، المرجع السابق، ص 94.

³ - عبد العزيز لعرج وآخرون، المرجع السابق، ص 79، 81.

⁴ - هناء محمد عبد الحميد الفقّي، المرجع السابق، ص ص 164-166.

المستطيل الشكل وهو حديث من حيث البلاط طوله 3,10 سم وعرضه 2,08 م وارتفاعه 52 سم أما سمكه فقدّر ب 27 سم، وهي نافورة بسيطة ارتفاع قاعدتها السفلى 1,50 سم وعرضها 12 سم ارتفاع بدنها الأسطواني 74 سم وجذعها اسطواني بسيط موالى للقاعدة الأسطوانية¹ والنافورة محفوظة في صحن الجامع الكبير بتلمسان وهي لا تعمل حاليا وليس بها المياه في القنوات والأحواض ربّما بسبب الجفاف أو أسباب أخرى لا نعرفها (الملحق رقم: 05).

اندثرت المعالم الأثرية في مدينة تلمسان مثل القصور والأسوار والأبواب لكنّ المسجد الكبير بتلمسان لم يتعرّض لتغييرات كبيرة منذ تشييده²، وهو البناء الوحيد الذي لا يزال محافظا على شكله الأصلي (الملحق رقم: 06) من آثار المرابطين رغم تعرّضه للعديد من الإضافات منذ تأسيسه حتّى اليوم.

حظي المسجد بمكانة كبيرة بعد فترة المرابطين والموحدين إذ اعتبر منارة للعلم والعلماء في العهد الزيّاني وكان السلاطين يؤدّون فيه صلاة الجمعة والعيد وقد دُفن بجانبه العالم الجليل ابن مرزوق الحفيد³.

د- المسجد الجامع بالجزائر:

شَيّد مسجد الجامع الكبير يوسف بن تاشفين فيما بين سنتي (473هـ-475هـ/1081م-1083م)، وهناك من يرى أنّه شَيّد بعد هذا التاريخ وتحديدا في سنة (490هـ/1097م)، وذلك بناءً على الكتابة المنقوشة على منبر المسجد الواقع بالقرب من البحر⁴، وقد ذكر الباحث عبد

¹ يمينة تسكورت، النافورات وأحواضها بالمغرب الأوسط من القرن 5هـ/11م إلى نهاية القرن 8هـ/14م دراسة فنية أثرية، أطروحة دكتوراه، إشراف عائشة حنفي، جامعة الجزائر 2، 2018-2019، (غير منشورة)، ص 163.

² -وليم وجورج مارسلي، المرجع السابق، ص 53.

³ -ابن مرزوق الحفيد: وُلد شيخ الإسلام أبو عبد الله محمد ابن أحمد ابن محمد ابن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني الشهير بالحفيد يوم الإثنين من ربيع الأول سنة (766هـ/1364م) في تلمسان ولُقّب بالحفيد تمييزا له عنجده الشهير الخطيب بن مرزوق، وكان من أبرز علماء عصره حيث كان حجة في عدّة فنون من العلوم منها الفقه المالكي والحديث والتفسير توفّي رحمه الله في شهر شعبان سنة (842هـ/1438م)، ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر-من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر، ط2، بيروت، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، 1980، ص 290.

⁴ كمال عناني إسماعيل، المرجع السابق، ص 247.

الرحمن الجليلي أنّ له نافذة تطلّ على البحر، وموقعه ليس ببعيد عن ساحة الشّهداء (الملحق رقم: 07) حيث يعتبر أحد المساجد الأثرية الثلاثة التي تعود للعصر المرابطي، وهذه المساجد هي بتلمسان والجزائر وندرومة التابعة إداريا لتلمسان والتي كانت عبارة عن عاصمة إقليمية للمرابطين في المغرب الأوسط¹.

وقد حافظت هذه المساجد على نموذجها المعماري المرابطي وتختلف فقط من حيث المساحة والسّعة، ويحقّ للجزائر أن تفتخر على باقي البلاد الإسلامية بالحفاظ على هذه المجموعة الأثرية الثّمينة والفريدة التي مازالت بهيئتها الأصلية والتي لم يبق منها أثر سوى هذه المساجد الثلاثة في الجزائر التي تُمكن علماء الآثار من تتبّع العمارة المرابطية ولا يُستثنى من ذلك سوى الجزء الشّمالي الذي يشمل محراب مسجد القرويين في مدينة فاس، الذي شيد في عهد الأمير علي بن يوسف بن تاشفين، ولكنّ أثره ضئيل بالمقارنة مع ما بقي من آثار المرابطين بالجزائر ولعلّ مسجد الجزائر المرابطي أبلغ مثال على رقي الإنشاء والتّعمير لدولة الملثّمين في ذلك العصر والذي لا يزال قائما في غاية الإحكام والثّمين².

إذ يشغل مساحة مستطيلة طولها أكبر من عرضها، فطولها حوالي 48 مترا أمّا عرضه فلا يزيد عن 40 مترا بمساحة إجمالية تقدر ب 2000م²، أمّا واجهته التي تطلّ على شارع باب الجزيرة فتبلغ حوالي 18م³، ومنبره لا يزال إلى يومنا هذا محفوظا في متحف البارود بالجزائر العاصمة (الملحق رقم: 08) وهو في هيئة جيدة ممّا يدلّ على مدى الدّقة والإتقان وحرص صانعه على الجودة ويشتمل على صحن مكشوف وبيت صلاة، ويتكوّن من ثلاث مجنّبات ومدخل في الواجهة الشّمالية يتّصل برواق يؤدّي إلى الصّحن، ويشمل بيت الصّلاة إحدى عشرة بلاطة عمودية على جدار القبلة، تقطعها خمسة أروقة، وبلاطته الوسطى هي الأوسع، كما هو الحال في جامع قرطبة والقيروان وتلمسان وأغلب مساجد المغرب والأندلس، حيث نجد أنّ بلاطة المحراب

¹ - عبد الرحمن الجليلي، الجامع الكبير بمدينة الجزائر معماريا وتاريخيا، مجلّة الأصالة، العدد 8، 1972، الجزائر، صفحات المقال 113-127، ص 115.

² - كمال عناني إسماعيل، المرجع السابق، ص 247-عبد الرحمن الجليلي، المرجع السابق، ص 115.

³ - مصطفى بن حموش، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني من خلال مخطوط ديفولكس، الوثائق العثمانية، الجزائر، دار الأمانة للطباعة والنّشر والتّوزيع، 2010، ص 49، ينظر أيضا: عبد الرحمن الجليلي، المرجع السابق، ص 116.

العمودية على جدار القبلة والأسكوب الموازي لهذا الجدار أكثر اتساعاً من جميع البلاطات، أما في ما يخصّ الدّعائم فقد بنيت من الحجارة بقاعدة مطوّلة وصلبة في أعلاها أقواس تشبه حدوة الفرس ويعتبر المرابطون من أوائل من استخدم هذا النوع من العقود المفصّصة (الملحق رقم: 09) بالمغرب الإسلامي، ويبلغ عدد الدعائم 72 سارية كلها في قائمة زاوية تبعد عن بعضها بمسافة قدرها 3,40م، وهي شبيهة لدعائم مسجد تلمسان الكبير، وله مئذنة تقع في الجانب الجنوبي كتب على أحد جدرانها تاريخ شروع بنائها وهو يوم الأحد 27 ذو القعدة سنة (722هـ/1322م) وانتهى منها في رجب (723هـ/1323م) وكان ذلك من طرف الحاكم أبي تاشفين خامس سلاطين الدولة الزيانية (718هـ - 737م/1318-1337م)¹. (الملحق رقم: 10).

أما عن طرازه المعماري، فهو مرتبط على فنّ العمارة الأموي والأندلسي، أو يمكن القول إنّه في هندسته وتخطيطه يرجع إلى الطّابع الأندلسي المغربي كما تظهر عليه لمسة من جامع قرطبة، سواء من حيث تخطيطه أم نظام التّغطية فهو مغطّى بسقف من الخشب الرّفيع وفوقه طبقة من القرميد المسنّم، ماعدا فناء المسجد فيه فهو مكشوف وغير مغطّى يشبه جامع القيروان بصفة مصغّرة، ويعود ذلك إلى تمازج بلاد المغرب والأندلس سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا في تلك الحقبة والذي شمل نهضة علمية وفنّية².

هذه الوحدة التي يرى كثير من المستشرقين أنّها كانت ذات تأثير واحد وهو التّأثير الأندلسي حيث يقول جورج مارسلي في هذا الصّدد أنّ المغرب أخضع الأندلس سياسيا لكنّ الأندلس أخضع المغرب ثقافيا³.

ولا شكّ أنّ الأندلس قد أثّرت ثقافيا وفنّيا بشكل كبير ويمكن رؤية ذلك بوضوح في العديد من المساجد المرابطية والموحّدية، لكن لا يمكن إنكار ما قدّمه المرابطون والموحّدون وما نقلوه من تأثيرات معمارية من المغرب إلى الأندلس مثل استخدام الأقواس الحديّة والزّخرفة وغيرها،

1- كمال عناني إسماعيل، المرجع السابق، ص 247-248.

2- عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص 119.

3- Marçais.g, les arabes en berberie du xl au xlv siecles, constontine, paris, 1913, p 189.

وعموماً فقد كان هناك تفاعل وتبادل مستمر بين المنطقتين أدى إلى تطوّر طراز معماري مشترك بين المغرب الإسلامي والأندلس.

ثالثاً: بناء المساجد وترميمها عند الموحّدين

لم يتبقّ في المغرب الأوسط والأدنى مساجد موحّدية إذ تعرّضت للاندثار على عكس بلاد الأندلس والمغرب الأقصى، رغم أنّ المساجد الموحّدية احتفظت بالنمط التقليدي للتخطيط، المتميّز باتّساع مساحة المحراب والبلاط الأوسط مع ارتفاعه عن باقي البلاطات الأخرى، كما اتّسمت بعض مساجدهم بقلة عمق ظلّة القبلة كما سنرى ذلك في جامع تازة وجامع الكتيبة بمراكش الأوّل والثاني وجامع تينمل.

أ- المسجد الجامع بتازة:

وصل عبد المؤمن ابن علي إلى مدينة تازة سنة (527هـ/1133م)، حيث وجد استجابة من طرف قبائل المدينة فشرع في سنة (529هـ/1133م) في إنشاء رباط بها عرف برباط تازة، الذي أصبح بمثابة مدينة كبيرة توفّر وسائل دفاعية طبيعية بفضل موقعها على سفوح الجبال المطلّة على السّهل، ممّا زاد من إعجاب عبد المؤمن بموقع المدينة توفّر المياه العذبة التي تخترقها وسيطرتها على أهمّ الطرق التجارية المؤدّية إلى المغرب الأوسط التي كانت تحت سيطرة المرابطين، فقام بإحاطة مدينة رباط تازة بسور كبير من الحجر ثمّ بنى في المدينة جامع تازة في الجهة الشماليّة الغربيّة¹.

بالنسبة للتّخطيط جامع تازة في عهد عبد المؤمن فكان على النمط التقليدي إذ يتكوّن من مساحة مستطيلة يتوسّطها صحن مكشوف بطول (14,30م) وعرض (21,5م)، محاط بثلاث ظلّات أكبرها ظلّة القبلة، يتكوّن من تسع بلاطات تمتدّ عقودها المدعومة بالآجر عمودياً على جدار القبلة، يتوسّط بيت الصّلاة بلاط أكبر من بقية البلاطات التسعة، ويمتدّ عبر البلاطات كما كان يقطعها أربعة أروقة موازية لجدار القبلة، أولها من جهة جدار القبلة وهو الأوسع، وتعلو هذه القباب، واحدة فوق المحراب مباشرة والأخرى على يمين المحراب، أمّا الظلّتان الجانبيتان

¹ -صلاح أحمد البهنسي، المرجع السابق، ص 137.

فموقعهما في جهة الجنوب الغربي والشمال الشرقي، وكلّ منهما يتكوّن من بلاطتين تتّجه عقودهما في اتجاه عمودي ومواز لجدار القبلة، وتطلّ الظلّتان على الصّحن ببائكة مدعومة بثلاث دعائم¹.

تعرّض المسجد في عام (691هـ/1269م) في عهد أبي يعقوب المريني لتجديدات وإضافات غيّرت من شكله داخليا وخارجيا، فمن الدّاخل تمّ توسعة بيت الصّلاة من خلال هدم جدار القبلة ممّا أدّى إلى اختفاء القباب الثلاثة التي كانت قرب بلاطة المحراب وبناء جدار قبلة ومحراب جديد، كما تمّ زيادة طول البلاطات في بيت الصّلاة بتسع بلاطات نحو الجهة الجنوبية وإضافة أربع أساكيب عرضية، ورغم هذه التّغييرات يمكن تمييز المخطّط الأصلي للمسجد الموحّدي عن الزّیادات والتّعدیلات المرینيّة، حيث نلاحظ أنّ العناصر الجديدة تختلف عن نظيرتها الموحّدية فالأروقة في الزّیادة المرینية أوسع من الأروقة الموحّدية، التي تنتهي عند الأسكوب الزّابع وتغطّيها أسقف منشورية بالإضافة إلى أنّ معظم عقود الزّیادة المرینية هي من النّوع النّصف دائري، في حين أنّ عقود المسجد الموحّدي هي من النّوع المنكسر أو المدبب أو ذات الحافّة المفصّصة².

ب- مسجد الكتّيبَة بمراكش:

يقع مسجد الكتّيبَة في مدينة مراكش عاصمة دولتي المرابطين والموحّدين، وعندما قام يوسف بن تاشفين بتخطيط المدينة سنة (454هـ/1062م) بنى فيها مسجدا جامعاً، وذكر صاحب الحلّ الموشية أنّ المهدي دخل المسجد وصلى فيه الجمعة وقام على أمير المرابطين علي بن يوسف بعد الصّلاة وأمره بتغيير المنكر كونه المسؤول عن ذلك إلّا أنّ علي بن يوسف لم يجبه وأمر الفقهاء أن يمتحنوه ويختبروه³ و مع سقوط المدينة في أيدي الموحّدين سنة (541هـ/1146م)، بدأت قصّة هذا المسجد، حيث شرع عبد المؤمن بن علي في بناء مسجد جديد عملاً بوصيّة المهدي بن تومرت الذي أوصى بعدم الصّلاة في جوامع المدينة التي بنيت في عهد المرابطين إلى غاية تطهيرها معتبراً إيّاها نجسة، وبناءً على هذه الوصيّة فقد أفتى فقهاء

¹ كمال عناني إسماعيل، المرجع السّابق، ص 250-251.

² صلاح أحمد البهنسي، المرجع السّابق، ص 140.

³ -مجهول، الحلّ، المصدر السّابق، ص 100-101.

الموحدين بهدم المساجد المرابطية¹، لتشريق مساجدها عن القبلة وتحريفها، فأشار فقهاء الموحدين بوجود بناء مسجد دقيق الاتجاه صحيح القبلة²، ونصحوا بهدم جوامعها القائمة وهكذا تركوا جامع يوسف بن تاشفين معطلاً مغلق الأبواب، وهدموا جامع علي بن يوسف هدمًا جزئيًا، وهدمت الجوامع الأخرى³. ومن الغريب أن المهدي كان يصلي في المساجد المرابطية وفي صفوفها الأولى ولم يثر قضية انحرافها عن القبلة لكنه أوصى بعدم الصلاة فيها وهدمها.

والرّاجح عندنا أن سياسة هدم المساجد المرابطية تأتي ضمن الصراع المذهبي القائم بين المدرسة السلفية المالكية والمدرسة النُومرتية⁴ لسان حالها، فكلما جاءت أمة لعنت أختها، وهذا يأتي ضمن استراتيجية طمس وتقزيم المعالم الحضارية للدولة المرابطية، مما يعكس حجم العداوة العقائدية التي كانت بين الدولتين.

مرت عمارة جامع الكتبية بعدة مراحل، مما أكسب كل مرحلة سمات مميزة، ويعتبر ثالث أثر معماري كبير للموحدين بعد جامع رباط تازي الذي بني سنة (527هـ/1133م) وجامع تينمل الذي أنشئ سنة (541هـ/1146م)، الذي أشرف على بنائه كل من أبي الليث الصّفار، وأبي الحسن علي ابن أبي حفص، وعمر ابن عبد المؤمن، ما تبقى من الجامع الأول هو أجزاء من جدار القبلة والجدار الشمالي الشرقي، وقد أقيمت في المسجد عدة حفريات منها ما قام به ج.موني (g.munie) الذي توصّل إلى وجود أربعة مداخل موزعة على امتداد الجدار الشمالي الشرقي، ثلاثة منها تفتح على ظلّة القبلة والزّابح يفتح على الظلّة الشمالية الشرقية، ووفقا لما هو معمول به في مساجد الموحدين من الحفاظ على التّماثل في توزيع الفتحات والأبواب كما في

¹-الإدريسي، ج1، المصدر السابق، ص 234، ينظر، كمال عناني إسماعيل، المرجع السابق، ص 255.

²-كان للفقهاء مكانة مميزة في عصر الموحدين إلا أن حضورهم كان بصورة أقل من عهد المرابطين ومن فقهاء الموحدين طاهر ابن الحسين ابن واهب، ينظر: ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، الرّباط، دار المنصور للطباعة، 1972، ص 16.

³محمد عبد الله عنان، ج3، المرجع السابق، ص 266.

⁴-المدرسة النُومرتية: هي عقيدة تنسب إلى محمد بن تومرت المشهور بالمهدي تقوم على المزج بين عدد من عقائد المسلمين، كما أن هذه المدرسة لاتعترف بأصول العقيدة والشريعة فلم تأخذ بالقياس ولا الإجماع وكانت أحد محاور الصراع مع المرابطين، ينظر: أحمد زكي صفوت، **جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة**، ج3، المكتبة العلمية، بيروت، دت، ص 180،- حيدر علي حول، المرجع السابق، ص 146.

مسجد تازي وجامع تينمل، يرجح أنّ هذه المداخل الأربعة كانت موجودة، وأنّه كان يوجد باب في منتصف الجدار الشمالي الغربي يقابل المحراب¹.

وأجمل ما يميّز جامع الكتيبة مؤنذته (الملحق رقم: 11) التي تعتبر من أغنى و أجمل المآذن الموحّدية شُرع في بنائها في فترة حكم عبد المؤمن واستمرّت الأشغال بها إلى غاية فترة حكم الخليفة الثالث يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن الذي أتمّ بناء القسم العلوي لها وارتفاعها 67.5مترًا وموقعها في الركن الشمالي الشرقي من المسجد ومن مميّزاتها مقاساتها الضخمة وزخارفها البديعة موقعها في الجانب الشمالي الشرقي للجامع وتعتبر أعلى مؤذنة في المغرب الإسلامي بارتفاع يقدر بـ 67.50مترًا وضلع قاعدتها 12.50مترًا².

ج-مسجد الكتّيبَة الثاني:

بعد فترة قصيرة لا تتجاوز الاثنتي عشرة سنة من بناء مسجد الكتيبة الأول بدأ الخليفة عبد المؤمن بن علي في تشييد مسجد عظيم جديد يماثل المسجد القديم من حيث المساحة والتّصميم، وفي ذلك يقول صاحب الاستبصار بنى فيها أي مراكش جامعا عظيما يقصد هنا الجامع الأول ثمّ زاد فيه مثله أو أكثر في قبلته حيث كان قصراً، ورفع بينهما المنار العظيم الذي لم يشيّد في الإسلام مثله وقد أتمّ البناء ابنه وخليفته أبو يعقوب³.

وقد ذكر صاحب كتاب "نفح الطّيب" أنّ الدافع وراء بناء عبد المؤمن للجامع الثاني هو رغبته في الاحتفال بنقل المصحف الشّهير المنسوب إلى الخليفة عثمان بن عفان من جامع الأعظم لقرطبة إلى مراكش حيث كان ذلك في ليلة السّبت الحادي عشر من شوال سنة (552هـ-1157م)⁴، إذا كان هذا الدّليل صحيحا فإنّ المسجد يكون قد بني في تلك السّنة أو قبلها بفترة قصيرة.

¹ -صلاح أحمد البهنسي، المرجع السابق، ص 146.

² -صالح بن قربة، المؤذنة، المرجع السابق، ص 50 -51. ينظر أيضا: حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 190.

³ -مجهول، الاستبصار، ج1، المصدر السابق، ص 209.

⁴ -المقري التلمساني، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب وذكر وزيرها لسان الدّين بن الخطيب، ج1، ط3، بيروت، دار صادر، 1998، ص 605.

ومع ذلك هنالك رواية أخرى لصاحب كتاب الاستقصاء حيث يرى أنه بني بعد وصول المصحف إلى عبد المؤمن عن طريق ابنه، أبي سعيد وأبي يعقوب القادمين من الأندلس ومعهما مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث استقبل عبد المؤمن المصحف بالإجلال والإعظام واهتمام واحترام كبيرين، ذلك أن عبد المؤمن كانت تخاطره فكرة إحضار مصحف عثمان منذ مدة، فلما حصل له ذلك قرّر تكريم المصحف الكريم وبدأ في اختيار كسوته وزينته فجمع أفضل الحرفيين المتقنين من مراكش وسائر بلاد المغرب والأندلس، بما في ذلك المهندسون وعرفاء البنّائين¹، في حين يرى بعض الباحثين أن الأسباب التي دفعت عبد المؤمن لبناء المسجد الثاني تشمل زيادة عدد سكان مدينة مراكش، ممّا دعا إلى توسعة الجامع، والجدير بالذكر أنه عندما بنى الموحّدون مسجد الكتبية الأول وقعوا في نفس خطأ المرابطين بعدم توجيه المسجد بدقّة نحو القبلة ممّا دفعهم لبناء جامع آخر بجواره بمحراب دقيق الاتجاه²، ولهذا يعتقد أن جامع الكتبية بُني مرتين وليس مرّة واحدة، وهذا ينمّ على اهتمام خلفاء الموحّدين بالعمارة والبناء مع حرصهم الدقيق على التقيّد بالضوابط والمعايير الشرعية لبناء المساجد، وقد أمر عبد المؤمن ببداية بناء المسجد الجامع الجديد وتحديد القبلة في العاشر من ربيع الآخر سنة (553هـ-1158م) وأكمل في منتصف شعبان من نفس السنة بأعلى مستويات الإتقان وأكمل الوجوه، وممّا تميّز به مساحته الواسعة وإحكام بنائه إذ وجد به الزّجاج الملون ودرجات المنبر وسياج المقصورة³.

كما أن مدة الإنجاز أذهلت الصّناع الذين لم يتوقّعوا أن يتمّ تخطيطه وبنائه في هذا الوقت القياسي وقد تمتّ به صلاة الجمعة في منتصف شعبان من سنة (553هـ/1158م)⁴، وهذا يدلّ على مدى تخطيط الأمراء الموحّدين في استغلال الجانب العمراني وربطه بالمناسبات الدّينية كترغبة السلاطين في إمامة المسلمين لصلاة الجامعة يوم العيد ممّا يعطي بعداً للسلطة الرّوحية السّياسية، وهذا ما عكسه سرعة إنجاز هذه المؤسسات قبل المناسبة الدّينية.

¹- النّاصري، ج2، المرجع السابق، ص 128.

²- كمال عناني إسماعيل، المرجع السابق، ص 257.

³- النّاصري، ج2، المرجع السابق، ص 128. - أبو جعفر الجذامي، الانتخاب في شرح أدب الكتاب، ج1، ط1،

الجزائر مركز الامام الثعالبي للدراسات، 2009، ص 34.

⁴- النّاصري، ج2، المرجع السابق، ص 128.

أمّا عن تخطيط المسجد فإنّ شكله قريب من المستطيل ومساحته غير منتظمة، يتوسطها صحن مستطيل يبلغ حوالي (45م×18م)، يحتوي على نافورة تحيط بها أربع ظلال أكبرها ظلّة بيت الصّلاة التي تتكوّن من مساحة مستطيلة قدرها حوالي (95م×30م)، مقسّمة إلى سبعة عشرة بلاطة، بواسطة ستّة عشرة بائكة تسير عقود البائكة عموديا على جدار المحراب، ويتميّز بلاطها الأوسط كونه أوسع من باقي البلاطات، كما يتخلّله سبعة أروقة عرضية، الرّواق الأول الموازي لجدار القبلة هو الأوسع، ويَتَوَجَّح بخمسة قباب، قبة أمام المحراب وقبتان على جانبي البلاطين من كلّ جهة، وقبتان في نهاية البلاطين المتطرفين، أمّا البلاط الأوسط العمودي على جدار القبلة فيتوجّح بخمسة قباب إضافية، وما يلاحظ أنّ المهندس المعماري حرص على تمييز الرّواق الموازي لجدار القبلة بجعله أوسع من بقية الأروقة، وكذلك البلاطات العمودية على جدار القبلة حيث يشكّل الهيكل العامّ حرف "تي" ¹T.

أمّا الظلّتان الجانبيتان فتقعان إلى جهة الجنوب الغربي والشّمال الشرقي، تتكوّن الظلّة الجنوبية الغربية من أربع بلاطات عمودية على الرّواق العرضي الذي يفصل بين هذه الظلّة وبيت الصّلاة، أمّا الظلّة الشّمالية الشرقية فتتكوّن من أربع بلاطات عمودية من نفس امتداد بلاطات بيت الصّلاة، ما يلاحظ أنّ البلاطة الأولى يتمّ الوصول إليها عبر الضلع الشّمالي، أمّا مؤخّر الجامع فيتكوّن من بائكة من رواق واحد ونلاحظ فيها انحرافا من الشّرق إلى الغرب²، وللمسجد مرافق وملاحق أبرزها المئذنة التي شرع في بنائها عبد المؤمن وأكملها ابنه المنصور، وكانت عظمة البناء على نسق صومعة جامع إشبيلية³، إذ هي من النوع البرجي المربّع بارتفاع يبلغ حوالي (56.5م) من الأرض إلى نهاية الشّرفات وباحتساب تغافيج السّفود يبلغ ارتفاعها الإجمالي (67.50م)، ينتهي طابقها الثّاني بشرفات مسنّنة، يتمّ الوصول إلى المئذنة عبر مجنّبات شمالية شرقية من خلال باب مفتوح في الضلع الجنوبي الغربي، ويغلق مدخل المئذنة بباب خشبي، أمّا عن الطّابق الثّاني فيتمّ الوصول إليه من خلال باب معقود يؤدّي إلى درج يصل إلى قمة المئذنة بينما يتمّ الوصول إلى القسم الثّالث والأخير عبر فتحة تؤدّي إلى سلّم

¹ كمال عناني إسماعيل، المرجع السّابق، ص 258-259.

² المرجع نفسه، ص 259.

³ محمد عبد الله عنان، ج4، المرجع السّابق، ص 246.

يصل إلى غرفة مربعة مغطاة بقبة مضلعة، والمئذنة مبنية بالحجارة سمك جدارها حوالي متران أما من الداخل فأقل من متر تعتمد في الإضاءة على فتحات عريضة من الداخل تشبه فتحات السهام¹، أما عن الميضأة فهي لا تتوسط صحن المسجد، بل تقع على بعد حوالي 76م من الواجهة الشمالية، وهي عبارة عن حجرة كبيرة مربعة الشكل مقسمة إلى قسمين، يحتوي القسم الأول على غرف صغيرة تستعمل كمراحيض، وتتصل هذه المراحيض عن طريق أنابيب بالقسم الثاني حيث توجد حجرة لتسخين المياه الخاصة بالوضوء في أوقات البرد، وجدرا ن هذه القاعة مبنية من الأجر المخلوط بالدبش والجير².

د-جامع تينمل:

أمر الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي بتشيد هذا الجامع في سنة (548هـ- 1153م) حسب رواية ابن أبي زرع التي ورد فيها أنه في السنة المذكورة رجع عبد المؤمن من رحلته إلى بجاية ثم قصد تينمل لزيارة قبر المهدي ووزع على أهلها أموالا كبيرة، وأمر ببناء المسجد³، تجدر الإشارة أن هذا الجامع أقيم في نفس الموضع الذي أقام فيه المهدي بن تومرت مسجده القديم بمدينة تينمل، وهو موضع مرتفع يجعل الوصول إليه صعبا بسبب صعوبة تضاريس المنطقة⁴.

أما عن تخطيط المسجد فهو يتألف من مساحة مستطيلة أبعادها (48م×63,60م)، تقع واجهته الرئيسية في الجهة الجنوبية الشرقية، على خلاف المعتاد بأن تكون الواجهة الرئيسية مقابلة لجدار القبلة، تحتوي هذه الواجهة على ست فتحات مقوسة للإضاءة والتهوية لظلة القبلة، ويؤدي إلى داخل المسجد من هذه الجهة مدخل منكسر يمر داخل الصومعة، كما يفضي إلى فتحة الباب الواقعة يسار المحراب من الداخل، وقد خصص هذا الباب لدخول الخطيب والسلطان، أما الواجهة الشمالية الغربية فيتوسطها مدخل بارز من الآخر به فتحة باب مقوسة بعقد مدبب تؤدي إلى صحن المسجد، كما توجد في الجهة الشمالية الشرقية ثلاثة مداخل مستطيلة بارزة من

¹ كمال عناني إسماعيل، المرجع السابق، ص ص 261-262.

² - كمال عناني إسماعيل، المرجع نفسه، ص 261.

³ - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 194.

⁴ كمال عناني إسماعيل، المرجع السابق، ص 266.

الطَّوب، يفتح كلّ منها على فتحة باب مقوّسة، يؤدّي المدخل الأوّل إلى الظلّة الشماليّة الشرقيّة، بينما يفتح المدخلان الثاني والثالث على ظلّة القبلة¹.

أمّا عن بيت الصّلاة يتكوّن من تسع بلاطات تتّجه عقودها عموديا على جدار القبلة البلاطتان الجانبيتان والبلاط الأوسط أوسع من بقية البلاطات، وكلّ بلاطة تحتوي على خمسة صفوف من الدّعائم تكون أربعة أروقة متساوية العرض يسبقها رواق مواز لجدار القبلة، وهو الأكثر اتّساعا، وقد أدّى التقاء الرّواقين الموازي لجدار القبلة العمودي إلى تشكّل مستطيل تقام عليه قبة أمام المحراب الذي يقع في وسط جدار القبلة، ممّا يقسم بيت الصّلاة إلى قسمين متساويين، وهو نمط جديد في العمارة المغربيّة، ويدلّ هذا على مدى تأثير العمارة الإسلاميّة المشرقيّة على هذه الدّيار، وبالأخصّ العمارة الفاطميّة التي ازدهرت في القرن (4-5هـ/10-11م) في بلاد المغرب الإسلاميّ ثمّ مصر كما هو الحال في عمارة المساجد التي بنيت في فترة حكم الحاكم بأمر الله².

أمّا عن المحراب فيمتاز بروعة مقرنصاته تجسّدت فيه روائع الفنّ الموحّدي، لا يتجاوز عدد بلاطاته تسعا، فهو يتوسّط جدار القبلة وتجويفه يشكّل غرفة صغيرة ذات شكل خماسي الأضلاع، أمّا عن عقد المحراب فهو حدويّ يحمل سنّة أعمدة، ثلاثة على كلّ جانب تعلوها تيجان مزينة بتوريقات نباتيّة، كما يبلغ ارتفاعه من بداية عقده إلى الأسفل حوالي (2.85م)، واجهة المحراب مزينة بأفاريز مستطيلة تحتوي على زخارف هندسيّة بسيطة تتكوّن من مربّعات ومستطيلات برؤوس نجمية وأشكال مختلفة، تقلّ كلما ارتفعت إلى قاعدة القبة، وعلى يمين المحراب توجد غرفة المنبر وعلى يساره غرفة الإمام التي تحتوي على باب داخليّ يؤدّي إلى ممرّ منكسر مربع، كما يؤدّي إلى باب خارج المسجد، وهو الباب الذي يمثّل المئذنة التي تلتصق بالمحراب من الخارج³.

أمّا عن المئذنة فهي من أقدم المآذن التي شيّدها الموحّدون في بلاد المغرب والأندلس، تقع خلف المحراب مباشرة، ملتصقة به من الخارج، ومنتصفة الواجهة الجنوبيّة الشرقيّة للمسجد، تتكوّن من

¹ صلاح أحمد البهنسي، المرجع السابق، ص 142.

² كمال عناني إسماعيل، المرجع السابق، ص 267.

³ حسين مؤنس، المساجد، ج1، الكويت، عالم المعرفة، 1981، ص 189. -ينظر أيضا: إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 344. -كمال عناني إسماعيل، المرجع السابق ص 269.

قاعدة مستطيلة الشكل طول ضلعها (5.50م) وارتفاعه (9.50م)، هذا الوضع للمئذنة يعدّ من الأمور النادرة في عمارة بلاد المغرب وحتى الأندلس، فشكلها المستطيل وموقعها يختلفان عما كان سائدا في عصر الموحّدين حيث الغالب أن تكون المئذنة مربعة وموقعها في الجهة الشمالية الغربية مقابلة المحراب، أو عند إحدى نهايات تلك الجهة، ومن الأمثلة القليلة المشابهة لأسلوب بنائها إلى حدّ ما مئذنة صغيرة بمدينة سلا¹.

و-جامع القصبه بمراكش:

تاريخياً أشارت المصادر إلى أنّ تشييد هذا المسجد يعود إلى يعقوب المنصور، الذي أمر في سنة (585هـ/1189م) قبل خروجه إلى الأندلس لغزو قشتالة سنة (591هـ/1195م)² ببناء قصبه بمراكش كمدينة ملكية بجانب الحاضرة مراكش، وعند عودته إليها عام (594هـ-1198م) كانت القصبه وجامعها وجميع المنشآت السلطانية بها قد اكتملت بما في ذلك القصور الملكية والمدارس والقيصرية وغيرها، وقد أنفق على هذه المنشآت خمس غنائم هذه الغزوة³، أمّا عن تاريخ بناء الجامع فغير معروف بدقّة، لكن يعتقد أنّه بدأ العمل فيه قبل عام (585هـ/1189م)، واكتمل إمّا سنة (593هـ/1197م) حسب رواية صاحب كتاب الاستبصار⁴ أو في عام (594هـ/1198م) حسب رواية ابن أبي زرع الذي أمّدنا بمعلومات مهمّة تؤكّد حجم الأموال الكبيرة المخصّصة له، إذ وصلت أخبار للخليفة مفادها أنّ عرفاء البناء الذين أوكلت لهم مهمّة إتمام المسجد قد أكلوا أمواله وجعلوا له سبعة أبواب على مقدار عدد أبواب جهنّم فاستشاط غضبا، فلمّا كان وصوله للمسجد سأل عن عدد أبوابه ف قيل له سبعة والثامن يدخل منه أمير المؤمنين فسُرّ بذلك كون عدد أبواب الجنّة ثمانية ، وقال لا بأس بالغالي إذ قيل حسن وقد زاد من إعجابه ما رآه من إتقان وأساليب لم يرها من قبل⁵.

1- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 229. ينظر أيضا: صالح بن قرية، المئذنة، المرجع السابق، ص 48-49.

2- تويريس بالباس، المرجع السابق، ص 28.

3- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 229.

4- مجهول، الاستبصار، ج1، المصدر السابق، ص 181، ينظر أيضا: كمال عناني إسماعيل، المرجع السابق، ص 273.

5- ابن أبي زرع المصدر السابق، ص 230.

كان النّظام التّخطيطي لجامع قصبة مراكش مختلفا عن جميع المساجد الإسلامية المعاصرة له في شرق العالم الإسلامي وغربه، يتجلّى هذا الاختلاف بصورة رئيسية في ابتكار أسلوب جديد يتمثّل في فكرة تعدّد الصّحن بالمسجد، الّذي يشغل مساحة مستطيلة يتوسّطها صحن مركزي رئيسي مستطيل الشّكل، تتوسّطه نافورة مصنوعة من الرّخام، ويحيط بهذا الصّحن أربعة صحنون متوسّطة الشّكل بمعدّل صحنين في الجانبين الشّرقي والغربي، وتحيط بهذه الصّحنون أربع ظلال أكبرها ظلّة بيت الصّلاة تتكوّن من إحدى عشرة بلاطة بعقود تسير عموديا اتّجاه القبلة¹.

فيما يتعلّق بصومعته فهي أقلّ ضخامة من صومعة جامع الكتبية، وقاعدتها مصنوعة من الحجر الابد، فيما باقي أجزائها مبنية من الآجر، تتميز ببساطتها مقارنة بصومعة قرطبة وصومعة جامع الكتبيين، وكلّ جانب من جوانبها يحتوي على شريط عريض في الجانب العلوي تمّ تزيينه بزخارف هندسية من الخرف بالإضافة إلى مساحة كبيرة من الشّبكات المتفرّعة من ثلاثة عقود مصمّمة، وقد أصبحت هذه الصّومعة نموذجا للعديد من الصّوامع الّتي شيّدت في القرنين (7-8هـ/13-14م)².

و-جامع حسان برباط الفتح:

ذكرت المصادر التاريخية منشأ جامع حسان في رباط الفتح منها ما أورده صاحب كتاب المعجب من أنّ أبا يعقوب المنصور بنى مسجدا كبيرا واسع المساحة والفناء، لا يعلم بوجود مسجد أكبر منه في بلاد المغرب الإسلامي، وقد بُنيت له مئذنة في نهاية العلوّ كانت لتكون أعظم منارة لو تمّ إنهاء بنائها، على هيئة منارة الإسكندرية، يمكن الصّعود إليها بدون درج، كما يمكن أن تصعد الدّواب مُحمّلة بالطّين والجصّ والطّوب، وكلّ ما يحتاج إليه في عملية البناء ولم يتمّ بناء هذا الجامع لأنّ العمل توقّف بوفاة أبي يوسف، ولم يعمل خلفاؤه شيئا بعده³.

¹ كمال عناني إسماعيل المرجع السّابق، ص 274.

² توريس بالباس، المرجع السّابق ص 28.

³ عبد الواحد المراكشي، المصدر السّابق، ص 195، ينظرأيضا: إبراهيم حركات، ج1، المرجع السّابق، ص 343.

أما نسبة الجامع إلى حسان فمحاطة بالغموض، ففي حين أكدت بعض الدراسات أنه اسم لقبيلة سكنت مكان المسجد، أو أنه مشتق من كلمة الحُسن، أو قد يكون حسان هو اسم المهندس الذي أشرف على المسجد وبنائه، لكن لا يوجد دليل تاريخي أو أثري يدعم هذا الطرح، فالجوامع الموحّدية في بلاد المغرب والأندلس لا يوجد من بينها اسم لمهندس يدعى حسان فكان من المنطق أن يتسمّى باسم الخليفة الذي أمر ببنائه، أو باسم المدينة التي شيد بها.

وقد حظي بأهمية كبيرة وشهرة واسعة كما ورد في مختلف المصادر التاريخية، وعلى الرغم من كلّ هذه الأوصاف العظيمة لهذا الجامع، إلّا أنّ عملية البناء لم تكتمل في عهد الخليفة أبي يعقوب المنصور المعروف بحبه للبناء بعد وفاته في سنة (596هـ/1199م)، ولم يكمله أي من الخلفاء الموحّدين الذين تعاقبوا على الحكم بعده، وذلك راجع إلى عدّة أسباب منها، عدم حماس الخلفاء الموحّدين لإتمام هذا الجامع الذي رغب المنصور في جعله أكبر مساجد المغرب مساحة، فكان هذا المشروع سيستنفذ موارد الدولة، إضافة أنّ مدينة الرباط التي بذل أبو يعقوب جهودا مضنية لبنائها، لم تعمّر بمقدار ما كان يأمله الخليفة بعد وفاته، فتوجّهت عناية الخلفاء الموحّدين نحو بناء مدن جديدة لاسيما بمدينة سلا، حيث بني جامع يعرف بجامع الطالعة، وكانت هذه المدينة محببة للخلفاء الموحّدين، حيث كانوا يقيمون بها أثناء تنقلهم إلى الأندلس لجمالها وحدائقها التي غرسها المهاجرون من بني يفرن¹.

بالإضافة إلى ذلك تعرّض هذا الجامع للهدم والتدمير والسّرقة في نهاية عصر الدولة الموحّدية، فبدلاً من المحافظة على المسجد قام الخليفة الموحّدي السعيد بتفكيك أبواب الجامع وأسقفه الخشبية ليصنع منها مراكبا في عام (641هـ/1243م) والتي ما لبثت أن احترقت في نهر أم الربيع، ليقوم الغوغاء واللصوص بنهب ما تبقى من أخشاب المسجد في العهد المريني ثم السّعدي، وحتى في أيام العلويين حيث صنع السلطان عبد الله ابن إسماعيل سفينة ممّا تبقى من أخشاب الجامع وسمّاها سفينة الكراكيجية².

¹ كمال عناني إسماعيل، المرجع السابق، ص 281.

² إبراهيم حركات، ج1، المرجع السابق، ص 343.

هذا يسمح لنا بالقول أنّ الدول الإسلامية في منطقة المغرب الإسلامي عانت من انحدار فكري وثقافي يعكس ضيق أفق بعض الأمراء غير الأكفاء، ففي حين نجد خلفاء لهم بعد نظر مثل الخليفة أبو يعقوب الذي أراد تعمير الرباط وبناء أكبر مسجد بها نجد أنّ الخليفة السعيد كان سببا في تفكيك عمارة المسجد وخرابها.

بالنسبة لتخطيط المسجد وتصميمه فهو غريب ولا يوجد في أيّ مسجد آخر بالمغرب الإسلامي إذ يشغل مساحة مستطيلة من الشمال إلى الجنوب (180م) وعرضه من الشرق إلى الغرب (140م) أي ما يقارب من (25200م)، أمّا مساحة قاعة الصّلاة فتقدّر بحوالي (19321م) وارتفاع جدرانه ما يقارب تسعة أمتار ويعبّر هذا عن العظمة في البناء والإسراف في الفخامة، وبذلك فهو من أكبر مساجد المغرب مساحة، فبيت الصّلاة يشغل مساحة كبيرة تشمل أكثر من ثلثي مساحة المسجد كلّ حيث تبلغ نحو (1932م) وهذا غير مألوف في بيوت الصّلاة بمساجد المغرب وبه واحد وعشرون بلاطة عمودية على جدار القبلة تتميز البلاطة الوسطى والبلاطتان الجانبيتين منهما أكثر اتساعا من البلاطات الأخرى¹.

أمّا عن المئذنة (الملحق رقم: 12) فقد أقيمت في الجهة الشمالية الغربية لبيت الصّلاة على نفس محور المحراب وهي الوحيدة التي تمّ تصميمها بهذا الشكل في مآذن مساجد بلاد المغرب حيث العادة أن تبنى في الركن المقابل للمحراب فتكون مقابلة لجدار القبلة، وهي مربّعة الشكل على نمط النّموذج الغالب في المغرب والأندلس² وتترجع جدرانها إلى الدّاخل بشكل بسيط كلّما ارتفعت إلى أعلى ممّا أكسبها قوّة ومتانة وهي مبنية بالحجر المصقول وسمك جدارها حوالي (2.50م) وطول كلّ ضلع من أضلاعها (16م)، يقدّر ارتفاعها ما يقارب (55م) وكان ارتفاعها الأصلي حوالي (65م) لكنّ جزءها العلوي يكون قد سقط نتيجة الزلزال الذي تعرضت له المنطقة سنة (1169هـ/1770م)، وأهمّ ما يميّز هذه المئذنة تشكّلاتها الزخرفية المتنوّعة على كلّ وجه من أوجهها الأربعة، بالإضافة إلى أشكال الفتحات والنوافذ الموزّعة فوق بعضها على بعض لإضاءة السّلم الدّخلي للمئذنة، تعتبر هذه النوافذ عقودا مغلقة حدوية الشكل مزخرفة بتصاميم تشبه اتّحاد السّهام، وهذه الزّخارف تشابه النّمط الأندلسي المغربي المألوف في زخرفة واجهات

¹ - السيد عبد العزيز سالم، المغرب، المرجع السابق، ص 763.

² - صالح بن قربة، المئذنة، المرجع السابق، ص 68-69.

المآذن، وهو النموذج الذي بدأ في العصر المرابطي وتطور أكثر في العصر الموحدى وبلغ ذروته في عصر دويلات ما بعد الموحدين¹.

- رابعا: المدارس في المغرب الإسلامي في عهدي المرابطين والموحدين:

شهد المغرب الإسلامي حركة تعليمية نشطة منذ قيام دولة المرابطين وحتى عصر الموحدين، كون قيام الدولتين أساسه العلم فنشطت العلوم الدينية²، وقد انعكس ذلك على بناء المنشآت التعليمية في ربوع مدن المغرب الإسلامي كفاس ومراكش وتلمسان وسبتة وغيرها من حواضر بلاد المغرب وقد تضافرت عدة عوامل في الدفع بالحركة التعليمية كتشجيع الحكام للعلم واستقرار الأوضاع فضلا عن حرص المغاربة على حب العلم وتعلمه³.

أمّا عن ظهور المدارس في بلاد المغرب الإسلامي فهناك من يرى أنها انتشرت منذ عصر المرابطين وتحديدا في نهاية القرن الخامس الهجري حيث قام وجاج بن زلو ببناء دار في السّوس الأقصى بعد عودته من القيروان وسماها بدار المرابطين واختصت بالعلوم النّقلية⁴، كما لا يستبعد وجودها في فاس وسبتة وتلمسان كما انتشرت أيضا في الأندلس في قرطبة وغرناطة وغيرها من المدن، ومردّد ذلك تنافس القبائل المرابطية حيث كان لكل قبيلة مدرسة أو مدرستان

¹ كمال عناني إسماعيل، المرجع السابق، ص 290.

² قاد الدعوة الدينية لدولة المرابطين عبد الله بن ياسين وكان للفقهاء مكانة مرموقة وحظوة عند سلطان المرابطين حتى لُقبت هذه الدولة بدولة الفقهاء أمّا دعوة الموحدين فقادها محمد بن تومرت والذي بدوره كان فقيها عالمًا لهداية بالكثير من العلوم الشرعية والدنيوية وكان يُؤثر أهل العلم ويجري عليهم الزّواجب وكذلك سار خلفاؤه من بعده وقد أدى هذا الاهتمام بالجانب العلمي لنشاط وصراع فكري بين الدولتين تجسّد في المناظرات العلمية نذكر منها مناظرة محمد بن تومرت لعلماء دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين أين استطاع ابن تومرت أن يُحاجج جميع علماء المرابطين في مختلف القضايا التي أثّرت بينهم وبعد ما رأوا منه قوّة حججه نصحو الخليفة علي بن يوسف بسجنه أو قتله لما قد يشكّله من خطر على الدولة إلّا أنّ الخليفة صرفه وسأله الدّعاء، ينظر: محمد بن تومرت، أعزّ ما يطلب، الجزائر، وزارة الثقافة، 2007، ص 5-16. -عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ط2، مركز النّخب العلمية، الرياض، 1380هـ، ص 391، ينظر، شوقي ضيف، ج8، المرجع السابق، ص 69.

³ منير شواكري، أسس قيام الدولة في المغرب الإسلامي وفق نظرية ابن خلدون، النّشر الجامعي الجديد، تلمسان، 2016م، ص 179.

⁴ -مجهول الحل الموشية، المصدر السابق، ص 20.

مخصّصة للتعليم، ومن العلماء البارزين الذين تخرّجوا من هذه المدارس القاضي عيّاظ، وأبو الوليد بن رشد صاحب كتب 'الأوائل' و'المدوّنة' و'البيان والتّحصيل'¹.

وبالرجوع إلى المصادر التاريخية لبلاد المغرب والأندلس لا نجد إشارات واضحة إلى وجود مدارس بالمعنى الحقيقي قبل عصر الموحّدين وبالتالي يعتبر الموحّدون أوّل من شيّد المدارس ببلاد المغرب والأندلس منذ عهد الخليفة الأوّل عبد المؤمن بن علي(524-558هـ/1130-1163م)، وإذا لم يبق أثر لهذه المدارس التي تؤكّد وجودها²، فإنّه يستفاد من إشارات المصادر التاريخية إلى بناء الموحّدين لهذا النوع من المؤسّسات وتداول مصطلح مدرسة خلال فترة القرن السابع الهجري الموافق لـ الثالث عشر الميلادي من حكم الموحّدين ممّا يفيد وجود مؤسّسة معمارية خاصّة لطلبة العلم³، تجمع بين الدّراسة والإيواء⁴.

كما أشارت المصادر إلى وجود أربع مدارس، إحداها في سبتة وثلاثة في العاصمة مراكش، بينما لم يتمّ ذكر أيّ منها في مدن المغرب الأوسط، وهناك نقاط التقاء واختلاف بين مدرسة سبتة ومدارس مراكش، فمن قواسمها المشتركة اهتمامها بالعلم واستهدافها للطلّاب الذين يرغبون في التعلّم بالإضافة إلى حدّثة المدرسة، ومن بين عناصر الاختلاف تباين مصدر الإنشاء والتّمويل والرّعاية، حيث كان الإنشاء في الحالة الأولى خارج إطار المخزن من طرف عالم سبتة أبي الحسن الشّاري، فهي مؤسّسة ذات بُعد اجتماعي يكون الوقف وتبرّعات المحسنين أهمّ مصادر دخلها، وكانت كتبها وقفا للطلّبة أمّا مدارس مراكش فيعود تأسيسها والإنفاق عليها إلى السّلطة الحاكمة وهذا لا يخلو من مقاصد وغايات تكوين رجال علم لهم ولاء للسّلطة⁵.

-خامسا: الرّبط والزوايا في عهدي المرابطين والموحّدين

¹ كمال عناني إسماعيل، المرجع السّابق، ص 302.

² محمد السيد محمد أبو رحاب، ملاحح تخطيط العمارات الدّينية المرينية بالمغرب الأقصى ومدينة تلمسان بالمغرب الأوسط دراسة أثرية مقارنة، مجلّة دراسات تراثية، الجزائر، العدد 1، 2011، (ص 123-186) ص 137.

³ محمد رابطة الدّين، مراكش زمن حكم الموحّدين جوانب من تاريخ المجال والإنسان، ج2، ط2، مراكش، مؤسّسة آفاق للدراسات والنّشر والاتّصال، 2016، ص 198.

⁴ الحسن الوزان، المصدر السّابق، ص 227، ينظر أيضا: محمد رابطة الدّين، ج2، المرجع السّابق، ص 189.

⁵ محمد رابطة الدّين، ج2، المرجع السّابق، ص 189.

شهد العصر المرابطي ظهور التّصوّف خاصّة في أواخر عهدهم سواءً في المغرب أم الأندلس، لاسيما بعد دخول كتاب الإحياء للغزالي لبلاد المغرب، فقد لاقت أفكاره انتشارا واسعا على الرّغم من معاقبة من وجد عنده وإفتاء فقهاء المالكية بإحراقه وتحريم قراءته سواءً في المغرب أم الأندلس¹، على أنّ التّصوّف كان في العصر المرابطي أقرب منه إلى التّصوّف الأثري، على طريقة التّابعين الأوائل كتصوّف حسن البصري منه إلى حالات الجذب التي وصل إليها فيما بعد، فلم تكن هناك طقوس وأمور خارجة عن السّنة، بل كان تصوّفا سنّيا إن صحّ التعبير ولم تكن له طرق أو مذاهب ومراتب عكس بلاد المشرق والأندلس التي ظهرت بها مدارس واضحة المعالم، ومن أعلام التّصوّف في عهدهم أبو يعزى يلنور، و ابن العريف وعليّ ابن حزرهم².

وفي العهد الموحّدي أصبح المتصوّفة قوّة اجتماعية ضاغطة حيث تجاوزت الجانب الفردي إلى التّصوّف الجماعي وأصبحوا الكثرة الغالبة في ميدان الفكر والتّعليم³، وظهرت كتب ذات قيمة كبيرة عكست ذلك ككتاب التّشوّف⁴، وقد ورد في المصادر التاريخية خاصّة كتب المناقب منشآت عمرانية خاصّة بالأولياء والمتصوّفة تمثّلت في الرّبط⁵ والزّوايا.

¹ كان أساس دعوة الموحّدين الاهتمام بالعلم وعليه قامت دولتهم لكن في أواخر عهد الدّولة تدهورت الحياة الفكرية نظرا للتّعبّص الكبير لبعض الولاة واضطهادهم للعلماء كاضطهاد الخليفة المنصور الموحّدي للفقهاء ابن رشد، ينظر: عبد الله كنون، المرجع السّابق، ص 67.

² إبراهيم حركات، ج 1، المرجع السّابق، ص 180-183.

³ محمد عبد الله عنان، ج 4، المرجع السّابق، ص 682.

⁴ وردت عديد التّسميات التي تدلّ على التّصوّف الجماعي منها مصطلح " الإخوان " المريدون " الزّوّار " وقد انتهى صاحبه من تأليفه سنة (617هـ/1220م) ينظر: التادلي، التّشوّف إلى رجال التّصوّف وأخبار أبي العباس السّبّتي، تح أحمد التّوفيق، ط 1، منشورات كلّية الآداب والعلوم الإنسانية، 1984م، الدّار البيضاء، ص 219-221.

⁵ الرّباط: مصدر رابط يربط ربطا والرّباط ما ربط به والجمع ربط ورباط الخيل مرابطتها والمرابطة الإقامة على ثغر العدو والأصل ربط كلا الفريقين خيله في ثغر كلّ منهما ، حتى صار لزوم الثّغر رباطا ، والرّباط أصلا جهاد العدو بالحرب وإعداد العدة له، والرّباط من حيث المدلول المعماري هو منشأة حربية دفاعية تقام عند السّواحل أو الشّواطئ أو حدّ الصحاري قصد الدّفاع عن الثّغور وقد انتشرت منذ الفتح الإسلامي في بلاد المغرب الإسلامي؛ والجدير بالذّكر أنّ مصطلح الرّباط ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا "

وإن كان ظهور الزوايا بعد ظهور الرباط فقد كانت هذه الأخيرة منشأة ضرورية بعد الفتح الإسلامي لحماية السواحل قبل أن يتمكن المسلمون من إنشاء وسائل الدفاع فوق الماء لذا كان بنيان الربط في المناظر والمحارس المرتفعة لمراقبة السفن قبل اقترابها من الساحل ووصول الخطر إلى البر ومنه تعطى الإشارة إلى جنود الربط بالتأهب والسّير نحو الخطر فكان الرباط مركز دفاع قوي وليس برج مراقبة فقط¹.

وقد زادت أهمية الربط بالمدن الساحلية مع وجود الخطر الداهم وظاهرة القرصنة التي وجدت منذ أقدم العصور في منطقة البحر المتوسط ويعتبر رباط سوسة نموذجا للرباط الذي تتوفر فيه متطلبات الحياة بشكل يوحي عن عبقرية إسلامية في الفن المعماري فهناك غرف للنوم الخاصة بالمنقطعين والمرابطين وتتم الإنارة ليلا عن طريق مصابيح زيتية، وأما وفرة الماء للشرب والطهي فموجود تحت السلم المؤدي إلى الرباط وأما المؤن والأسلحة الاحتياطية فمكانها في الغرف الجنوبية للرباط وعن قدرة استيعابه فهي لا تتجاوز الخمسين مرابطا باستطاعتهم صدّ الهجومات المفاجئة، وهو نموذج للرباط في نهاية القرن الثامن الميلادي وبعد تسوير مدينة سوسة تراجعت أهميته الحربية فإنه عرف تطورا عمرانيا بعد تأسيس المسجد كما تعرّض للحريق أثناء ثورة أبي يزيد بن مخلد الكيداد اليفرنى²، وفي القرن الخامس صمد ضدّ تخريب الأعراب للمدينة وحسب الباحث بلغيث فإنّ الرباط في صورته اليوم لا يعبر عن صورته في العهد الأغلبى نظرا للإصلاحات الكثيرة التي أجريت عليه³.

وَرَابِطُوا وَانْقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (الآية 200، سورة آل عمران)، ينظر: ابن منظور، ج7، المصدر السابق، ص 302. - محمد الأمين بلغيث، المرجع السابق، ص 38.

¹ محمد الأمين بلغيث، المرجع السابق، ص 38-40.

² أبو يزيد بن مخلد الكيداد اليفرنى: هو نائر خارجي وأحد كبار أئمة الإباضية النكارية نزل من جبال الأوراس بالمغرب الأوسط خرج على الشيعة ودخل إفريقية وقام بتخريب مدنها وقتل أهلها يلقب بصاحب الحمار قام بثورة (334هـ/ 947م) كادت تقضي على الدولة الفاطمية، تمكّن من إطباق الحصار على المهديّة وقد ناصره الفقهاء لإظهاره الخير وترحمه على أبي بكر وعمر ودعوته للقضاء على الشيعة إلا أنّ ثورته فشلت وتمت تصفيته من قبل الأمراء الفاطميين، ينظر، ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 217، ينظر ابن الأبار، الحلة السيرة، تح، حسين مؤنس، ج2، ط2، دار المعارف، 1985م، القاهرة، ص 387.

³ محمد الأمين بلغيث، إشكالية المدينة، المرجع السابق، ص 111-112.

ومن ناحية التصميم المعماري يشكّل رباط المنستير¹ أقدم المعالم في إفريقية، والذي بقي على هيئته الأصلية والتي اتخذت منه الرّباطات الأغلبية نموذجا²، وهناك نماذج للرّباطات في تازة ورباط الفتح إلا أنها تقتقد لبعض خصائص الرّباطات الإفريقية فرباط تيط على ساحل المحيط الأطلسي بمنطقة دكالة وعلى بعد اثني عشر كيلومترا من مزغان في مولاي عبد الله اليوم وهو يعود الى القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي والذي كان مكانا خاليا لا عمارة فيه سرعان ما تحوّل بعد نزول الشيخ إسماعيل الأمغاري الذي وضع اللبنة الأولى لعمارة المكان وذلك قبيل ظهور الدولة المرابطية وقد تزوّج الشيخ من أحد القبائل المنتشرة في مضارب الرّباط والتي يعود نسبها إلى صنهاجة والتي ستعاون مع عبد الله بن ياسين وخلفائه من المرابطين على نشر المذهب المالكي والتّضييق على المذاهب المخالفة له، كما خصّ المرابطون امتيازات كبيرة لأهل تيط منها أنّ علي بن يوسف المرابطي استشار شيخ هذه القبيلة أبا عبد الله أمغار لما أراد بناء سور مراكش³.

ويتكوّن هذا الرّباط من ثلاثة أبواب وستّ قلاع عظيمة مبنية من الحجر الصّلد وقد بقي صامدا فقد استخدمه الموحّدون حيث أنّ المهدي بن تومرت زعيم الموحّدين قد لجأ إليه لما انهزم أمام المرابطين، كما شهد حركة عمرانية نشطة في عهدهم حيث تمّ بناء سور حول الرّباط حتّى أصبح شبيه قلعة محصّنة⁴ وقد لاحظ الأستاذ جورج مارسلي أنّ هناك تشابه واتّصال بين فنّ المغرب الأدنى والهندسة الحربية المرابطية من خلال قلعة ترغيموت، فهي نموذج للهندسة الحربية التي تربط بين صنهاجة الشرق وصنهاجة الغرب هذه القلعة التي أسّسها المرابطون لردّ الموحّدين، أقامت بها حامية مرابطية تكوّنت من مائتي فارس وخمسمائة من المشاة لحراسة هرغة، وتقع جنوب شرق مراكش وعلى بعد عشرة كيلومترات من أغمات ولذلك برز الفرق بين

¹-المنستير: مدينة قديمة بها رباط مشهور على ساحل البحر بينها وبين القيروان ستّة مراحل ورد فضلها في الأثر كما تمّ تصنيف عديد الكتب في فضل رباطها وقيل عنه أنّه لم يقصدها أحد من النّصارى للقتال إلاّ وانهزم ينظر: أبو العرب التّميمي، طبقات علماء إفريقية وكتاب طبقات علماء تونس، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، دت، ص 6-4، ينظر، ياقوت الحموي، ج5، المصدر السّابق، ص 210.

²-محمد الأمين بلغيث، إشكالية المدينة، المرجع السّابق، ص 111-112.

³-أحمد الوارث، رباط تيط في دكالة تاريخ وعمارة، مجلّة رواق، العدد 10، 2021، (ص 48-75)، ص 52-55.

⁴-أحمد الوارث، المرجع نفسه، ص 60.

بناء المساجد والزوايا بين الفن العسكري في اتخاذ القلاع والحصون والرباطات وهو ما نتج عنه ثروة فنية إسلامية وإبداع معماري إسلامي¹.

ومن خلال دراسة الرباطات في المغرب الأقصى فهي قريبة الشبه حسب إبراهيم حركات للرباطات في إفريقية، فهي عبارة عن حصون مربعة تتكوّن من طابقين يصعد إليها عن طريق سلم ويحتوي كلّ منها على غرف تطلّ على صحن تحيط به أقواس وفي كلّ من زوايا الحصن أبراج للمراقبة والإضاءة ويبدو أنّ هذه الهندسة مستوحاة من التأثير البيزنطي فرباط السنينغال كان بهذا الطراز ولم يكن مجرد مسجد تُقام فيه الصلاة².

ويتجلى الدور العمراني للربط في مدينة سوسة بوضوح حيث إنّها كانت مدينة فينيقية تسمّى بحدرومات فإن سوسة في العهد الإسلامي يعود تطورها العمراني إلى مكانتها الحربية كثغر من الثغور الإسلامية في العهد الأغربي، فمنذ أن أنشأ أبو هارون موسى حصن سوسة مكان قصر الرباط الحالي بقصد تأمين الساحل، تواصلت الجهود بعدها دون انقطاع لتمصير سوسة وتعميرها بالمعالم سواء الدينية أم الحربية فاتسعت رقعة المدينة وازداد عدد سكّانها³.

أمّا في المغرب الأوسط فهناك شحّ كبير في المصادر لذكر الرباط الذي أحاطت به المساكن، مع العلم أنّ بونة ورباط أبي مروان الشهير ومرس الخرز وشرشال وهنين ووهران بها رباطات واضحة المعالم أمّا المدينة التي يتّضح فيها دور الرباط العمراني فهي تلمسان حيث عند وصول المرابطين أنشأوا تاقارارت وهي المحلّة أو المعسكر وضمت تاقارارت إلى أغادير النواة الأولى للمدينة فتشكّلت مدينة تلمسان وعرفت المدينة في العهد الموحدّي تحصينات ومعازل حتّى أصبحت من أعزّ معازل المغرب الإسلامي وأحصن أمصاره⁴، أمّا المغرب الأقصى فالدور العمراني يتّضح في كلّ من رباط ماسة في السّوس الأقصى⁵، واشتهر رباط واجاج بن زلوا

¹ محمد الأمين بلغيث، إشكالية المدينة والنّمدن، المرجع السابق، ص 115-119.

² إبراهيم حركات، ج1، المرجع السابق، ص 175.

³ محمد الأمين بلغيث، إشكالية المدينة والنّمدن، المرجع السابق، ص 116-117.

⁴ المرجع نفسه، ص 119-122.

⁵ ماسة: اسم نهر ينبع من الأطلس الصغير قامت حوله عديد القرى والربط منها رباط ماسة الشهير عرف بتردد الأولياء عليه حكيت عدّة أساطير حوله منها خروج المهدي منه ينظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 369، وأيضا: الحموي، ج1، المصدر السابق، ص 125.

اللمطي(ت بعد 429هـ/1038م)¹، ورباط عبد الله بن ياسين في أقصى جنوب المغرب الإسلامي الذي كان يتنسك فيه مع رفاقه ومنه بدأ عبد الله بن ياسين دعوته²، حتى أضحى المرابطون قوة سياسية عظيمة كما اشتهر رباط الفتح ورباط تازة، وهي أول مدينة أنشأها عبد المؤمن نظرا لمكانتها المهمة خاصة من الناحية الحربية فعمد إلى إنشاء رباط الجيش، ثم شيد مسجدا وأقام على المدينة سورا في سنة (529هـ/1135م)، وخير مثال على ذلك رباط الفتح الشاهد على الدور العمراني للربط في المغرب الأقصى في عهد الموحدين، حيث اتخذ عبد المؤمن دارا وأدار عليها الأسوار وبنى مسجدا ومدرسة، وأجرى اليهما الماء بعد عودته من فاس سنة (540هـ/1146م) غير أن رباط الفتح كمدينة بأسوارها الحالية أسسها يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحدين³.

وقد كثر بناء الربط في بلاد المغرب الإسلامي ولاسيما في الجزء الشمالي وتحديدًا بمحاذاة السواحل، إلى أن صارت تعدّ بالعشرات وهو ما أشار إليه التادلي في كتابه التّشوّف بوجود عديد الأربطة كرباط آسفي ورباط العباد قرب تلمسان في المغرب الأوسط⁴، وعلى أيّ حال لم تتبقّ أية نماذج كاملة سواءً في المغرب الأوسط أم الأقصى كما هو الحال بالمغرب الأدنى حيث لايزال رباط المنستير ورباط سوسة.

ورد في بعض المصادر التاريخية مصطلح رابطة بمعنى الرباط حيث ذكر صاحب الاستقصا أنّ الرباط الذي أقامه عبد الله بن ياسين المرابطي بقوله: " وابتنى رابطة " وهو الرباط الذي أقام به وأصحابه للتعبّد والتّعلّم والجهاد وترغيبهم في ثواب الله وتحذيرهم من عقابه، حتى

¹ -واجاج بن زلوا لللمطي: من أهل السّوس الأقصى، أخذ العلم عن أبي عمران الفاسي رحل إلى القيروان وبعد عودته بنى دارا سماها دار المرابطين لطلّاب العلم وقراءة القرآن، وكان من رجال التّشوّف وفقهيا صالحا وله مكانة كبيرة عند المصامدة، حيث كان يزار ويأخذ منه العلم وهو من أشار على يحيى ابن إبراهيم باستقدام العالم عبد الله بن ياسين الزّعيم الرّوحي لدولة المرابطين، ومن هذا انطلق عبد الله بن ياسين في دعوته لدى الملتّمين، ينظر: النّاصري، ج2، المرجع السّابق، ص 7.

² -شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج10، ط1، مصر، دار المعارف، 1990م، ص 333.

³ -محمد الأمين بلغيث، تاريخ المدينة، المرجع السّابق، ص 122.

⁴ -التادلي، التّشوّف إلى رجال التّصوّف، تح أحمد التوفيق، ط2، الرباط، منشورات كلّية الآداب، 1997، ص 41. -محمد بن القاسم السّبتّي، اختصار الأخبار عما كان يعرف بثغر سبتة من سنّي الآثار، ط2، تح، عبد الوهّاب بن منصور، 1983، ص 30-31.

بلغ عددهم نحو الألف وقد سمّاهم المرابطين للزومهم رابطته¹، ورغم وجود بعض التّمايز في بعض المصادر إلّا أنّه يبدو أنّه لا فرق بين الرّباط والرّابطة من حيث الوظيفة وهي التّفرّع للعبادة وإطعام الطّعام ومساعدة المحتاجين ومجاهدة العدو.

أمّا الرّوايا فهي عبارة عن تطوّر للرّباط من حيث إنّ كليهما مأوى لإقامة الفقراء وعابري السّبيل، ولكنّها يختلفان في الموقع الجغرافي حيث كانت الرّبط تقع على جانب النّغور ومراكز الحدود في حين أقيمت الرّوايا داخل المدن أو بجانبها².

سادسا: الكتاتيب

عرفت بلاد المغرب الإسلامي منذ فترة مبكّرة الكتاتيب أو المساجد كمكان لتعليم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، وفي القرنين (3-4هـ/9-10م) شهد هذا النّوع من المنشآت اهتماما واسعا من طرف الفقهاء المغاربة وخاصّة في المغرب الأدنى حيث ظهر علماء نظّروا لأمر التّربية والتّعليم وأبرزهم القاضي سحنون (ت 240هـ/754م)³، وابنه محمد بن سحنون التنوخي (ت 252هـ-769م)⁴، ثمّ جاء من بعدهم علي ابن خلف القابسي (ت 421هـ/1030م)⁵.

تناول هؤلاء العلماء الآراء التّربوية وتكلّموا عن تعليم الصّبيان والمناهج وطرائق التّدريس وأماكن التّعلّم ومراحله وشروط المعلّم، وفضل تعلّم القرآن وتعليمه والغرض من التّعليم، وتذليل

¹ - النّاصري، ج2، المرجع السّابق، ص9.

² محمد أبو رحاب، المرجع السّابق، ص 161.

³ - الإمام سحنون: من كبار فقهاء المالكية عمر ما يزيد عن ثمانين سنة وكان فقيها بارعا، وورعا صادقا وقاضيا صارما وظلّ طيلة مدّة قضائه رافضا لهبة وهدايا السّلطان وقيل عنه أنّه لم يكن بين مالك وسحنون أحد أفقه منه، ينظر: شمس الدّين الذّهبي، سير أعلام النّبلاء، تح، جسين أسد وآخرون، ج12، ط3، دمشق، مؤسّسة الرّسالة، 1985، ص 69.

⁴ - أبو بكر المالكي، ج2، المصدر السّابق، ص 153.

⁵ - ولد القابسي بالقيروان وفيها طلب العلم وبها مات ودفن ويرجع نسبه إلى مدينة قابس ضاحية من ضواحي تونس، له ما يزيد عن خمسة عشر مؤلّف أفرد واحدا منها للتّربية والتّعليم وهي رسالة لأحوال المتعلّمين وأحكام المعلّمين والمتعلّمين صنّفها في النّصف الثّاني من القرن الرّابع، ينظر: ابن ناصر الدّين الدّمشقي، توضيح المشتبه بضبط أسماء الرّواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تح، محمد نعيم العرقسوسي، ج7، ط1، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، 1993م، ص 30.

صعوباته ومشروعية أخذ الأجرة عن التّعليم، وآراؤهم الفقهية هي الأسس الأولى التي قامت عليها حركة التّعليم في بلاد المغرب والأندلس¹.

كما ظهرت العديد من المصنّفات في المغرب والأندلس اهتمّت بعملية التّعليم وضوابطه الشرعية والعلمية، ولكن لم تخرج مصنّفات هؤلاء العلماء عمّا رَسَمه العلماء الأوائل سحنون وابنه محمد والقاسبي، وقد فصّل ابن خلدون في طرائق التّعليم وأمكنته وبين الطّرائق المتّبعة في المغرب والأندلس وبلاد المشرق، واتّسمت رؤيته للتّعليم بالعمق والشّمولية، فقد تحدّث عن المسائل الأولى المتعلّقة بالتّعليم الأوّلي وأفرد فصولاً له وبين أهمّية التّعليم في الصّغر، وأنّ الشّدّة على المتعلّمين والعقوبات اللفظية والبدنية مضرة لهم، وأنّها مدعاة لتدمير الملكة وبين فضل الرّحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة، وكونها مزيد كمال لطالب العلم فعلى قدر كثرة الشّيوخ يكون حصول الملكات²، وفي العصر المرابطي لا يمكن تتبّع ما شيّد من مكاتب الصّبيان نظراً لشحّ المعلومات وقلة المصادر التي وصلت إلينا من هذا العصر.

أمّا في العهد الموحدّي فإنّها انتشرت بكثرة سواء في مراكش أم فاس، وقد كانت سبباً في نضوج الحركة العلمية في المغرب على عهد الموحّدين لما لاقاه المعلّمون من حظوة ومكانة جليلة عند السّلاطان، فقد جلب الموحّدون كلّ من اشتهر أمره من العلماء حتّى اجتمع في فاس علم القيروان وعلم قرطبة، وكان ملوك المغرب يجلّون الوافدين عليهم من المدرّسين والعلماء³، ويبدو من خلال الرّوايات التّاريخية أنّ الوظيفة التّعليمية لهذه المكاتب في أنّ القرآن احتلّ مكانة الصّدارة حتّى يحفظه الصّبيان عن ظهر قلب وبعد أن يختم الصّبيّ تقام له مأدبة يدعى إليها أقران الصّبيّ تكريماً له وتشجيعاً وتحفيزاً لأقرانه.

أ- خزانات الكتب:

¹ محمد منير مرسى، التّربية الإسلامية أصولها وتطوّرها في البلاد العربية، ط1، عالم الكتب، الرّياض، 2005، ص314.

² ابن خلدون، ج1، المصدر السّابق، ص 740-747.

³ ابن القطان، إحكام النّظر في أحكام النّظر بحاسة البصر، تح إدريس الصّمدي، ط1، دار القلم، 2012 دمشق، ص 19.

عرفت خزائن الكتب في بلاد المغرب الإسلامي منذ القدم وهي على نوعين مكتبات خاصة وأخرى عامة، ويرجع عهد المكتبات إلى عهد الرّستميّين في المغرب الأوسط¹ والأدارسة والمرابطين فعلي بن يوسف بن تاشفين لما أشار عليه الفقهاء²، بضرورة إتلاف كتاب الإحياء وإحراقه نزل برأيهم وأصدر أمرا بمصادرته وإحراقه وأمر بتفتيش المكتبات العامة والخاصة³، وقد اشتهر عديد العلماء الذين امتلكوا مكتبات خاصة أبرزهم عبد الله ابن غلندة الكاتب السّرقسطي والطّبيب الشّاعر الذي توفي بمراكش سنة (581هـ/1191م) وقد كان له حظوة عند عبد المؤمن بن علي وابنه أبي سعيد⁴، ومكتبة عبد الرّحيم ابن عيسى ابن الملقوم (ت 604هـ/1207م) بفاس العالم المحدث قال عنه الإمام الذهبي امتلك من الدّواوين والدّفاتر الشّيء الكثير وأخذ عنه النّاس من الأفاصي⁵، ومكتبة أبي زيد ابن عبد الرحمان ابن محمد ابن يوسف ابن الملقوم (ت 605/1208) المعروف بابن رقية بالمدينة نفسها، حيث كانت له كتب عظيمة فقد جمع الدّواوين العتيقة والدّفاتر النّفيسة، فاجتمع لديه ما لم يكن عند أحد من أهل المغرب، وبيعت خزانته بعد وفاته بأربعة آلاف دينار⁶، وقد اشتهرت في العهد الموحّدي مكتبة أبي الحسن الغافقي الشّاري (ت 649هـ/1251م) حيث بذل في سبيل الكتب أموالا طائلة زوّد بها مدرسته التي ابتناها بسبّطة⁷.

-سابعاً: دراسة مقارنة

¹ كان بتيهرت عاصمة الدولة الرّستمية مكتبة تدعى المعصومة احتوت آلاف من الكتب أحرقها الشّيعّة الفاطميون لما دخلوا إليها، ينظر: مبارك بن محمد الملي، ج2، المرجع السّابق، ص 77.

² أبرزهم قاضي الجماعة محمد علي بن حمدين (ت 508هـ) من أوائل من اطلّع على الإحياء وأنكر ما فيه وتوجّس من أفكاره، ينظر: أبو بكر بن العربي، قانون التّأويل، تح محمد السّليمان، مؤسّسة علوم القرآن، بيروت، 1986م، ص 55

³ -المصدر نفسه، ص 55-56.

⁴ -ابن الابار، تحفة القادم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص94، ينظر أيضاً: خير الدّين الزّركلي، الأعلام، ج4، ط 15، دار العلم للملايين، لبنان، 2002، ص 195.

⁵ شمس الدّين الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح عمر عبد السلام التدمري، ج43، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1993، ص 151.

⁶ -المصدر نفسه، ج13، ص 113.

⁷ خير الدّين الزّركلي، ج 4، المصدر السّابق، ص 333.

العمارة الدينية في العهدين المرابطي والموحدي مثلت فترات مهمة في تاريخ الفن المعماري الإسلامي في بلاد المغرب الإسلامي، وكان لهذه المنشآت بتعددتها سواء المساجد أم المدارس أم المكتاتيب إسهامات كبيرة في جميع مناحي الحياة وتجلّى ذلك في الاهتمام بتشبيدها فيما يلي مقارنة لأوجه التشابه والاختلاف بين العمارة الدينية المرابطية والموحدية:

أ- أوجه التشابه:

1- المساجد:

احتلّ بناء المساجد مكانة مهمة في كلّ من الفترتين المرابطية والموحدية باعتباره أول مؤسسة بنيت في الإسلام، وأنّ الدّعتين كلتيهما قامتتا على أسس دينية كما كان موضعه نقطة البدء في تركيب المدينة حيث كان مركزا روحيا وعلميا للعبادة والتّعلّم ونظرا لهذه المكانة فقد اهتمّ حكام الدولتين بتشبيد العديد من المساجد.

اهتمّ المرابطون ببناء المساجد بشكل كبير، حيث كانت المساجد تلعب دورا مركزيا في المجتمع المرابطي لما تقدّمه من دور ديني ونشر للقيم الإسلامية، كما كانت عاملا لتعزيز هبة وسلطة الحكّام ومن المساجد التي بناها المرابطون نذكر:

- بناء يوسف بن تاشفين مسجد مراكش في وسط المدينة فقد أشارت المصادر التاريخية أنّه من الأعمال الأولى التي قام بها وكان يحترم ويخلط الطّين بيده تواضعا منه ومحسبا للأجر ومشجّعا العمل في تشبيد المساجد كما أنّ المسجد كان داخل السّور وبالقرب من القصبة التي احتوت على مخزن الأموال والسّلاح¹، ولا شكّ في أنّ اختيار الموضع لم يكن اعتباطيا بل للمكانة الاستراتيجية حيث يؤكّد ذلك قربه من دار الإمارة و المخزن الذي احتوى على السّلاح والمؤونة.

وما يؤكّد اهتمام المرابطين بالمساجد استحضار استتجاد المعتمد ابن عباد ملك إشبيلية بيوسف بن تاشفين واستعطافه بأنّ عدوّه الأذفنش بن شانجة ملك النّصارى يقوم بتهديم المساجد وأنّ

¹ ابن الصّيرفي، الأنوار الجليّة في أخبار الدّولة المرابطية، تح محمد علي دبور، ط1، مصر، دار النّابغة للنّشر والتّوزيع، 2018، ص 139-140. -ينظر أيضا: ابن خلدون، المصدر السّابق، ج6، ص 245، ينظر، النّاصري، المرجع السّابق، ج 2، ص 25.

انتصاره يعني تسليم المنابر والصوامع والمحارب التي يريد استبدالها بالصليب¹، يفهم منه استحضار رمزية المسجد كرمز للدين والوحدة وكأن ابن عباد أراد إيصال فكرة أن تهديم المساجد هو تهديد للإسلام والمساس به مساسًا بالمقدس فما كان من يوسف بن تاشفين إلا أن استجاب لنصرته وحمايته.

- وواصل أمير المسلمين علي بن يوسف الاهتمام بالمساجد كاهتمامه بترميم مسجد تلمسان²، هذا ولا تزال المساجد التي بناها المرابطون في المغرب الأوسط ماثلة إلى اليوم وهي مسجد ندرومة ومسجد تلمسان ومسجد الكبير بالجزائر العاصمة وقد بنى المرابطون عديد المساجد في مدن مراكش وفاس.

- مسجد القرويين بفاس : رغم أن المسجد تأسس قبل فترة المرابطين، إلا أنهم لعبوا دورا مهما في تطويره خاصة في فترتي حكم يوسف ابن تاشفين وابنه علي بن يوسف حيث شهد توسعات كبيرة بسبب ضيق المسجد بالناس فأضاف المرابطون أقساما جديدة إلى المسجد بما في ذلك زيادة حجم المصلى وتوسيع فناءه الداخلي الذي احتوى على زخارف فنية كما تم تزين محرابه وقبته بأنواع مختلفة من الزخارف.

وردت في كتب النوازل إشارات تفيد بإسهام النساء المرابطيات في بناء المساجد وتوسيعها حيث جاء في نازلة لابن رشد أن سيّدة من نساء المرابطين أخرجت من مالها للزيادة في توسعة مسجد مرسية فأجاب رحمه الله بجواز ذلك شرط أن يكون المال طيبا حلالا وإن لم يكن كذلك ففيه اختلاف بين أهل العلم³، وفي هذا دليل على عناية النساء بالإنفاق على المنشآت الدينية والحرص على الإسهام فيها لما في ذلك من الأجر والمثوبة.

ولم يختلف الموحّدون في هذا الأمر فقد أولو عنايتهم ببناء المساجد والعمل على إبراز جمالية البنية العمرانية الخاصة بها داخليا وخارجيا، فاتّسمت المساجد بحسن تخطيطها وقوة

¹- مجهول، الحل، المصدر السابق، ص 47.

² الحسن علي حسن، المرجع السابق، ص 383-384.

³- ابن رشد الجد، ج2، المصدر السابق، ص 948.

ومتانة بُنيانها، وفيما يلي نماذج لبعض هذه المساجد التي قاموا ببنائها أو بترميمها وإضافة بعض التعديلات والزّادات عليها.

بداية بناء المساجد كانت مُبكرة في العهد الموحّدي حيث إنّ محمد بن تومرت صاحب دعوة الموحّدين عند إقامته بمدينة ملالة بنى بها مسجدا عُرف باسمه¹، استغلّه في نشر دعوته وتسفيّحه لحكام المرابطين محاولا جذب العامة وكسبهم.

مسجد تازا: وهو أول أعمال الخليفة عبد المؤمن بن علي حيث تمّ بناؤه سنة (529هـ/1134م) مسجد الكتبية بمراكش: يعدّ من أبرز المساجد التي بنيت في عهد عبد المؤمن بن علي سنة (553هـ/1158م) وكان بديع الصّناعة والتّجهيز، وهو رمز للعمارة الموحّدية.

جامع القصبة بمراكش: وشيّد هذا المسجد في عهد الخليفة المنصور سنة (585هـ/1190م)

تشكّلت المساجد في الفترتين المرابطية والموحّدية من عناصر رئيسية تتمثّل في بيت الصّلاة وهو الجزء المغطّى والصّحن وهو الجزء غير المسقوف إضافة إلى المحراب والمنبر فهذه هي العناصر الأساسية المكوّنة لعمارة المساجد.

ومن نقاط النّشابه بين النّظام المرابطي والموحّدي في بناء المساجد هو إسناد عملية البناء إلى القضاة حيث نجد أنّ يوسف بن تاشفين أمر القاضي محمد بن عيسى ببناء جامع سبتة سنة (491هـ/1097م)، كما أنّ علي بن يوسف أوكل عمليّة توسعة جامع القرويين إلى القاضي أبي عبد الله محمد بن دواد²، أمّا عن الموحّدين فقد تمّ تكليف القضاة في عديد المرات حيث أمر يوسف بن عبد المؤمن القاضي أبا القاسم أحمد بن محمد الكوفي أن يخطّ له مباني مدينة إشبيلية والتي من دون شك أنّ من بينها المساجد³.

- التفصيل العمرانية المشتركة للمساجد المرابطية و الموحّدية:

¹-المراكشي، المصدر السّابق، ص 137.

²-ابن أبي زرع، المصدر السّابق، ص 59.

³-ابن صاحب الصّلاة، المصدر السّابق، ص 465-466.

فيما يخص تصاميم المساجد فإنّ الموحّدين لم يحدثوا تغييرات كبيرة بالنسبة لما كانت عليه في عهد المرابطين، كما تميّزت مساجدهم باتّساع البلاط الأوسط والبلاطين المتطرّفين على سائر البلاطات، وقد كانت للتأثيرات الوافدة من الشّرق والغرب الأندلسي مع وجود اللّمسة المحليّة دور في تطوير الطّراز المعماري للمساجد في كليّ الدّولتين¹.

كان من الطّبيعي أن يتّجه الحكّام وأصحاب الرّأي والشّورى إلى الزّيادة والسّماح بتوسعة المساجد الجامعة إذا ضاق المسجد بالمصلّين، وهو ما حدث في الفترة المرابطية والموحّدية حيث تمّت توسعة مسجد القرويين في العهد المرابطي ومسجد الكتبية في العهد الموحّدي وذلك أحد العناصر المهمّة التي تشير إلى ظاهرة النّموّ العمراني والديمغرافي في المدن الإسلاميّة².

كما تميّزت كلّ من المساجد المرابطية والموحّدية بالبناء البسيط والواضح الغالب عليه الشّكل المستطيل وهذا في بداية أمر الدّولتين ثمّ تطوّر الشّكل الهندسي المعماري بوجود صحن واسع ومفتوح في وسط المسجد، ممّا سمح بوجود مساحات واسعة للصّلاة بهدف احتواء أكبر عدد من المصلّين، كما أنّ اتّساع الصّحن يعطي هيبة والرّونق الجمالي للمسجد.

والجدير بالذّكر أنّ المادّة المستخدمة في عملية البناء الخاصّة بتشييد الأعمدة كانت عبارة عن الحجر والرّخام التي تتركز عليها العقود المؤدّية الى المحاريب، وهو ما يتجسّد في المساجد المرابطية المتواجدة في المغرب الأوسط، كما هو الحال مع أغلب المساجد الموحّدية³.

كما استخدم الخليفة الموحّدي المنصور (580-595هـ/1184-1199م) الرّخام الأبيض في نافورات المياه التي شرق المسجد، واعتمد الخليفة يعقوب المنصور عليه في بناء جامع حسان في الأعمدة حيث كان به مائتي سارية من عمد الرّخام محيط العمود به أربعة عشر شبرا وطوله يزيد عن عشرين شبرا ومنارة المسجد مبنية بالصّخور انتهى من بنائه عام 593هـ/1196م كما أنّ الخليفة أوصى عند مماته أن يوضع في قبره شاهدان من الرّخام ، الذي اشتهرت به عديد المدن

¹ ليوبولد توريس بالباس، المرجع السّابق، ص 24-48.

² Basset.h.et terrasse.h ,sanctuaires et forteresses al mohadeshesperis,tom 12 , librairie,paris,1927 ,p 308.

³ ليوليدو توريس بالباس، المرجع السّابق، ص 19.

المغربية منها مدينة تونس الذي عرفت برخامها ومرمرها خاصة في العصر الموحدى والذي كان يصدر إلى جميع الجهات¹.

كذلك عرفت المساجد المرابطية والموحدية باستخدام الأقواس المحدودة بشكل واسع في المداخل والنوافذ مما يضفي تناسقا جماليا عمرانيا للمسجد، أما عن الزخارف فقد مرت بمجموعة مراحل عند كلي الدولتين، حيث إن المرابطين ومن بعدهم الموحدين لم يسمحوا بالزخرفة في بدايات دولتهما، ومرد ذلك يعود إلى أسباب دينية منها، عدم إشغال المصلين بالزخارف المزوقة تجنبا للإسراف والمباهاة، إلا أن هذا الحظر لم يستمر، خاصة بعدما تصادمت كلا الدولتين بالحضارة الأندلسية المرموقة، والتي كان لها الأثر الواضح في تغيير نظرة الدولتين البدييتين مما دفعهما إلى الانفتاح على الجانب الجمالي الزخرفي للمؤسسات الدينية، لتستخدم كل من الأرابيسك والزليج بشكل واسع في فن الزخرفة، وعلى سبيل المثال زخرفة محاريب المساجد التي كانت بارزة مع استخدام الأنماط الهندسية المختلفة، وخير مثال على ذلك ما قام به المرابطون بزخرفتهم للمسجد الجامع بالجزائر، الذي عرف بمنبره الخشبي المزوق بزخرفة نباتية أندلسية الطابع تشبه الزخارف الجصية في قصر الجعفرية بسرقسطة، وقصبة مألقة، وقد كثر استعمال الزخارف الجصية ذات الأصل الأندلسي مع بداية القرن 6هـ / 12م في عهد علي بن يوسف.

أما عن مسجد القرويين فقد رُيِّنَ بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وبعض النصوص التأسيسية منها ما نقش على الأقواس بداخل قبة المحراب منها قوله تعالى: " وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ "2، كما تضمّنت واجهة المحراب النص التأسيسي له: "مما أمر بعمله عن أمر الملك العادل الأمر بالخير والفضل أمير المسلمين وناصر الدين علي بن يوسف بن تاشفين أدام الله له أسباب التأييد والتّمكن الفقيه المشاور الأجل الإمام القاضي الأفضل أبو محمد عبد الحق ابن عبد الله ابن معيشة الكناني أدام الله توفيقه فعمل ابتغاء وجه الله العظيم وثوابه الجسيم وعنده تعالى وجلّ حسن الثواب وكريم المثاب فرحم الله من قرأه ودعاه إلى الله سبحانه في عاجل القبول وإعظام الأجر والمجازاة له يوم النّشر والحشر وكان إتمام ذلك كلّ بحمد الله وعونه في سنة إحدى

¹ -هنا محمد عبد الحميد الفقي، المرجع السابق، ص 165.

² -سورة الإسراء، الآية 80.

وثلاثين وخمس مائة¹، وقد شكّلت هذه الآيات والنصوص التأسيسية لوحات فنية رائعة زادها الخط الكوفي المرصع باللون الأبيض جمالا.

أما في فترة الموحّدين فنجد منبر جامع الكتبية بمراكش ومنارة حسان برباط الفتح حيث كانا نموذجين للفنون الزخرفية المبهرة ولا تزال هذه الزخارف تعكس روعة ما وصلت إليه أسرار العمارة والفن الموحّدي من روعة وإتقان وعبقريّة².

لقد استخدم كلّ من المرابطين والموحّدين مواد البناء الأولية المتوفرة والمتمثلة في الطين الذي تم استعماله في تقنية الطابية، كما تم الاستعانة بالحجر والأجر غالبا كمادة أساسية، أما عن الأسقف فقد كانت تشيّد باستخدام الأخشاب المتوفرة في منطقة بلاد المغرب الإسلامي كجذوع النخيل وأشجار الصنوبر والزّان وهذا ما يعبر عن مدى انعكاس التأثير البيئي المحلي والوافد.

2- المدارس:

أ- أوجه التشابه:

اتّفقت كلّ من المدارس المرابطية والموحّدية على أداء الدور التعلّمي في منطقة المغرب الإسلامي، على أساس أنّ دعوة الدولتين كليهما قائمة على نبذ الجهل والتّخلف والاهتمام بالعلوم والمعارف، خاصّة تلك العلوم الشرعية الدينية مع وجود اختلاف في الطرائق التعلّمية والحقول العلمية نظرا للاختلاف المذهبي للدولتين.

أما تصميم المدارس المغربية فتميّز بوضوح عناصره المعمارية والتي كانت غالبا تتكوّن من صحن مكشوف وإيوان وقاعة للتّدرّيس وغرف لإقامة الطّلاب والمدرّسين وكانت تتكوّن من طابقين يتوسطها صحن مكشوف³.

3- الرّبط:

¹ - عبد الهادي التّازي، ج1، المرجع السّابق، ص 71.

² - عثمان عثمان إسماعيل، ج3، المرجع السّابق، ص 190.

³ - محمد حسن زكي، فنون الإسلام، ط1، مصر، مكتبة النهضة المصرية، 1948، ص ص 23-24.

-أوجه التشابه:

تشابهت ربط المرابطين مع الموحدين على اعتبار أنّ هذا النوع من المؤسسات يعتبر إرثاً تاريخياً موروثاً من الدول الإسلامية السالفة، والتي استعانت بهذه الرّباطات بغرض القيام بالأدوار العسكرية، والتي كانت في أساس عبارة عن مساحة مستطيلة مقسّمة إلى صحن أوسط بجانبه مسجد يحيط به مجموعة من الحجرات الخاصّة بسكن المرابطين فيه، كما احتوى على ملاحق ومرافق عديدة أبرزها مكان للخيل وصهريج لتخزين المياه، وغالباً ما يكون الرّباط مسوّراً بالحجارة وبه أبراج في الزوايا يستعمل للمراقبة وله مدخل واحد عند محور الجدار الجنوبي، أمّا عن الأدوار التي أدّتها الرّبط المرابطية والموحّدية فقد غلب عليها الدور الدّيني والتّعليمي، على اعتبار أنّها كانت معقلاً للتّعبّد ومجاهدة النّفس وتعلّم العلوم الدّينية خاصّة مع فقدانها للأدوار الجهادية العسكرية، وذلك بسبب توسّع البلاد الإسلامية في النّاحية الشّمالية الغربية -الأندلس- ممّا جعل رباطات المغرب الإسلامي بعيدة كلّ البعد عن الثّغور المحادية للأعداء، وما يستتني من ذلك بعض رُبط الدّولة المرابطية في بداية أمرها كرّباط عبد الله ابن ياسين في منطقة نهر السّنيغال والذي كان نواة ومنطلقاً للدّعوة المرابطية، كما شكّل بتنظيمه وتشكيله منارة للرّبط التي بنيت بعده¹، أمّا عن الدّولة الموحّدية فإنّ الرّباط الوحيد الذي اتخذ صيغة عسكرية هي المنطقة الشّمالية المشرفة على البحر ناحية المغرب الأقصى والمعروفة حالياً بالرّباط، والتي اتّخذها الموحّدون منطلقاً لجيوشهم وأساطيلهم الحربية المتوجّهة صوب البلاد الأندلسية ومنطقة المغربين الأدنى والأوسط.

-ب-أوجه الاختلاف:

1-المساجد:

حكم الموحّدون كامل منطقة بلاد المغرب الإسلامي، إذ كانت رقعة حكمهم واسعة جدّاً ممّا جعل من الصّعب عليهم توجيه الموارد وتشديد العنصر في جميع المناطق التي سيطرت عليها الدّولة بشكل متساو إذ لم ينل المغرّبان الأدنى والأوسط حظّاً كبيراً من اهتمام هؤلاء الحكّام بسبب أنّ

¹ كمال عنان إسماعيل، المرجع السّابق، ص 345-346.

قاعدة حكمهم كانت في المغرب الأقصى وتحديدا مراكش وبالتالي ركّزا جهديهما وموارديهما على المغرب الأقصى.

كما أنّ الظروف السياسية في المغربين الأدنى والأوسط جعلت التركيز على البناء أقلّ أولوية مقارنة بالتحديات العسكرية، وهذا بسبب كثرة الاضطرابات الأمنية، وهذه الظروف كانت سببا في عدم بقاء المنشآت الموحّدية ذات القيمة المعمارية في بلاد المغرب الأدنى والأوسط مقارنة بالمغرب الأقصى والأندلس فعلى الرّغم من اندثار بعض مساجد الموحّدين في المغرب الأقصى، مثل جامع الكتبية الأوّل بمراكش، وجامع حسان برباط الفتح فقد بقيت عديد المساجد يمكن من خلالها التّعرف على خصائصها ولامحها المعمارية من بين هذه المساجد جامع تازة، جامع الكتبية الثاني بمراكش، وجامع المنصور بقصبة مراكش وجامع حسان برباط الفتح، وصومعة جامع إشبيلية الكبيرة الجيرالدا ومنذنة بالقرب من إشبيلية.

في المقابل توقّفت سيطرة الدولة المرابطية عند منطقة جزائر بني مزغنة ولم تشمل كلّ أجزاء بلاد المغرب الإسلامي، وبالتالي لم تصل إلى نفس الامتداد الجغرافي الكبير الذي وصلت إليه الدولة الموحّدية، ومع ذلك بقيت العديد من المساجد في المغربين الأوسط والأقصى من عصرهما، مثل جامع تلمسان والجزائر ومسجد القرويين في المغرب الأقصى أمّا في الأندلس فلم يبق أي أثر للمساجد المرابطية¹.

والجدير بالذكر أنّ المساجد المرابطية كانت خالية من الأضرحة، وهذا ما يعكس الشّخصية العقائدية لدولة الملثّمين بدليل أنّ الخليفة الموحّدي عبد المؤمن بن علي لما استولى على مدينة مراكش بحث عن قبر الأمير يوسف بن تاشفين فلم يجده²، وهذا ما ينمّ على المنهج السّني الأثري في دفن موتى المسلمين مهما كانت رتبهم السّلطوية.

¹ ليوبولدو توريس بالباس، المرجع السّابق، ص 16

² أشار صاحب الحل الموشية إلى تاريخ و مكان دفن يوسف بن تاشفين حيث إنّ وفاته كانت في شهر محرّم سنة خمسائة ودفن بقصره بحضرة مراكش وحضر وفاته أبناه الأمير أبو الطّاهر تميم و أبو الحسن علي وعدد من أفراد قبيلته اللّمتونية، ينظر: مجهول، الحل، المصدر السّابق، ص 83.

أما عن الأضرحة الموحّدية فقد كان تصميمها فاعرا يضمّ مختلف الأشكال الزّخرفية والتي كانت في الغالب عبارة عن آيات قرآنية، كما عكست فخامة الأضرحة الموحّدية المكانة والأهمّية الدّينية والسّياسية للشّخص المدفون فيه، وتميّزت بالتّصميم الفاخر.

أما على الصّعيد الفقهي فقد اتّفق علماء المالكية على عدم تعدّد مساجد جوامع الخطبة إلّا للضرورة القصوى، متّبعين في ذلك ما ورد عن الإمام مالك وتلامذته من أمثال أبي القاسم والقاضي سحنون، غير أنّ الموحّدين لم يتقيّدوا بالشّروط نفسها التي وضعها المرابطون كونهم أهملوا علم الفروع وركّزوا على استحضار القرآن الكريم والسّنة المطهّرة على طريقة المذهب الظّاهري الذي كان يغلب على دولتهم¹، فزوّد الموحّدون معظم مدنهم بجوامع جديدة للخطبة، مع وجوب التّنويه لمحاربة الموحّدين المذهب المالكي ففي عهد أبي عبد الله محمد ابن أبي يوسف أمير المؤمنين انقطع علم الفروع وأحرقت أمّهات كتب المالكية بعد تجريدتها من الآيات والأحاديث النبوية كمدونة الإمام سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر أبي زيد القيرواني ومختصره وكتاب التّهذيب للبرادعي وواضحة بن حبيب وغيرها من الكتب المالكية حيث كانت تحرق بالأحمال²، كما شيّد الموحّدون عدّة جوامع للخطبة بمراكش رغم اشتغالها على مسجد جامع من العصر المرابطي، فشيد جامع الكتبيين سنة (558هـ/1162م) والذي لا يزال قائما إلى اليوم وجامع المنصور بالقصبة (591هـ/1196م) كما بني مسجد تينمل في جبال الأطلس وأقيم مسجد في سلا سنة (572هـ/1176م)³.

والجدير بالذّكر أنّ الصّراع الإيديولوجي بين الدّولتين تَمَظَهَرَ في عملية التّخريب الممنهج التي طالت المنشآت الدّينية المرابطية من طرف دولة الموحّدين وخاصّة المساجد، فبعد استشارة الفقهاء في رأيهم اتّجاه مساجد المرابطين أفتوا بهدمها لأنّها بزعمهم منحرفة عن القبلة والتّشريق والتّحريف لا يكون إلّا لليهود وأمروا ببناء جوامع أخرى مكانها⁴، وخير مثال على ذلك مسجد

¹ -الحجوي محمد الفاسي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ج2، دار الكتب العلمية، 1990م، بيروت، ص 199.

² -عبد الواحد المراكشي، المصدر السّابق، ص 202-203.

³ -ليوبولدو توريس بالباس، المرجع السّابق، ص 16-17.

⁴ -البندق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحّدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971، ص 66.

مراكش¹، إذ ذكرت المصادر التاريخية أنه تم تعطيله وغلق أبوابه وهدم صومعته² وتم بناء مسجد آخر لما وصل الملك للمصامدة³، واستثنى من ذلك جامع علي بن يوسف ولم يهدموه كله ما عدا بعض الأجزاء⁴ والتي قد تكون بها بقايا ورسومات أثرية تدلّ على بناء المرابطين للمسجد.

امتازت المساجد الموحّدية بمساحتها الكبيرة مقارنة بالمساجد المرابطية يعود ذلك إلى أنّ الموحّدين حرصوا على إظهار القوّة الشرعية والدينية ولعلّ أيضاً أنّ المدن الموحّدية كانت أكثر عدداً وكثافة سكانية.

لم يكن يسمح آنذاك بتشيد أكثر من جامع واحد للخطبة في المدينة الواحدة، لذا كان المسجد الجامع يتّسع لعموم المصلّين بالمدينة، خاصّة يوم الجمعة كما كان يلجأ إلى توسعة وزيادة المسجد الجامع، كما هو الحال في الكثير من المساجد المرابطية والموحّدية فقد سمح الفقهاء منذ القرن (7هـ - 13 م) بتعدّد المساجد في المدينة الواحدة مراعاة للمصلحة العامّة، بعد أن أصبح جمهور المصلّين في تزايد مستمرّ بسبب ازدياد الكثافة السكانية ممّا جعل المسجد الواحد غير كافٍ، والجدول التالي يوضّح مساحة بعض المساجد المرابطية والموحّدية.

الجدول رقم (02): مساحة بعض المساجد المرابطية والموحّدية

¹- أمّا عن مسجد مراكش نجد تضارب في الآراء حول مشيده ومصيره إذ يرى كلّ من الإدريسي والحميري أنّه ينسب إلى يوسف بن تاشفين وذكر أنّ الموحّدين تركوه مغلقاً ولم يصلّوا فيه، بينما ذهب البيهقي وصاحب الحلّ الموشية أنّه يعود إلى علي بن يوسف وأنّهم هدموا بعض أجزائه ويتّفق معهم ليون الإفريقي في أنّ منشئ الجامع هو علي بن يوسف في حين يشير أنّ عبد المؤمن هدمه وأعاد بناءه من جديد لسبب واحد وهو طمس اسم علي واستبداله باسمه لكن شاء الله أن يجري على ألسنة الناس تسمية جامع علي بن يوسف المرابطي وتم تجديد المسجد في عهد الخليفة المرتضى الموحّدي آخر ملوك الموحّدين، وسَمّي بجامع السّقاية، ينظر: الإدريسي، ج1، المصدر السّابق، ص 234. - البيهقي، المصدر السّابق، ص 66. - مجهول، الحلّ، المصدر السّابق، ص 97. - الحميري، الرّوض المعطار، المصدر السّابق، ص 540، حسن الوزّان، المصدر السّابق، ص 127.

²- شَيِّدَتْ هذه الصومعة من الحجر المنجد تحدها أربعة أضلاع عرض كلّ ضلع منها 10م، وبها درجان داخليان متماثلان وهي مثيلة لصومعة قرطبة التي أمر ببنائها عبد الرّحمان النّاصر سنة 951م/340هـ، ينظر، ليوليدو توريس بالباس، المرجع السّابق، ص 24.

³- الإدريسي، ج1، المصدر السّابق، ص 234، وينظر أيضاً: الحميري، الرّوض المعطار، المصدر السّابق، ص

العصر	المسجد	المساحة م ²
المرابطي	القرويون بفاس	5846
/	مسجد تلمسان	3000م
/	مسجد الجزائر	2000م
/	مسجد ندرومة	572م
الموحدى	تينملل	2373
/	الكتيبة الأولى بمراكش	6864
/	الكتيبة الثانية بمراكش	7592
/	المنصور بقصبة مراكش	6205
/	حسان بالرباط	25200

عن: محمد السيد محمد أبو رحاب، المرجع السابق ص 140.

تُعَدُّ مساجد الموحّدين من أكبر مساجد المغرب الإسلامي وهي أكثر مساحة من مساجد المرابطين بفارق كبير، إذ تميّز الجامع الموحّدي بأنّه مبنى يضمّ مجموعة معمارية من المرافق والملاحق كالميضأة والكتاتيب والمقصورة مثال ذلك ما قام به عبد المؤمن بمسجد دار الحجر بمراكش فبعد اكتمال عملية البناء أمر عبد المؤمن البنّائين بصنع صباط يدخل من القصر إليها ومنها إلى الجامع لا يراه خلالها أحد¹، كما اشتهر الموحّدون ببناء المآذن ذات الأشكال المختلفة كالمنازل الأسطوانية، والتي تميّزت بطولها الدالّ على القوّة والعظمة ولعلّ أبلغ مثال على ذلك منئذنة جامع الكتبيين ومنئذنة جامع حسان برباط الفتح من بين أروع الأمثلة على جلال وعظمة العمارة التي رعاها الموحّدون، وهاتان المنئذنتان باقيتان من تلك الحقبة العظيمة، حيث تعتبر منئذنة جامع

¹ ابن الخطيب، الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ط، تونس، مطبعة التقدّم الإسلامية، 1911، ص 108-109.

الكتبيين في مراكش واحدة من أقدم الصوامع، إذ بدأ الخليفة عبد المؤمن ببنائها ما بين سنتي (592-593هـ/1197-1198م)¹.

على العكس من ذلك نجد أنّ المرابطين تخلّوا عن المئذنة وذلك لتقيدهم بحياة السلف، إذ لم تكن المئذنة في الزّمن النبوي أو الأزمنة القريبة منه، وبذلك لم ير المرابطون سنداً شرعياً يدعو إلى تشييدها، خاصّة وأنّ أقوال المالكية جاءت متضاربة في مسألة بناء المئذنة، وإن كان يرى بعض الباحثين أنّ سبب عزوف المرابطين عن تشييد المآذن يعود بشكل أساسي لانصراف أمراء المرابطين بهموم وأعباء الدولة الإسلامية وعلى رأسها مجاهدة النّصارى وتقوية دعائم الدولة².

كما تجدر الإشارة أنّ التّجديد الرئيسيّ الذي أدخل على المساجد خلال فترة حكم الموحّدين في تغيير الأعمدة الحجرية أو الرّخامية التي يرتكز عليها السّقف بدعائم من الحجر، مربّعة أو مستطيلة على شكل حرف "ت" ممّا أضفى ثباتاً أكثر على البلاطات المتعدّدة ممّا وفّرت أعمدة الحجر أو الرّخام، وتمّ الاستغناء عن الأوتار الخشبية التي تدعّم الأعمدة، على أنّ هذا التّجديد قلّص من المساحة التي يشغلها المصلّون، وتعدّر رؤية الإمام الذي يؤمّ الناس³.

وقد تخلّى الموحّدون كلياً في مساجدهم بمراكش عن الورقة المرابطية ذات الأصابع الصّغيرة، فحذفوا التفاصيل واكتفوا بالحدود الخارجية، ومدّوا بداخلها عروق طويلة ذات خطوط محفورة، وأدخلوا نوعاً من الجرائد باطنها معطّل من الزّينة، كلّ جريدة في شكل ورقة وبعض هذه الجرائد لا يزال حتّى اليوم في الرّخارف الجصّية بجامع تلمسان والرّخارف الخشبية بجامع الكتبيين بمراكش⁴.

كما يلاحظ أنّ المساجد الموحّدية كانت أكثر عمقا منها اتّساعاً، حيث إنّ المحراب لم يعد يتوسّط الضّلعين الطويلين للمسجد، وقد بدأت إرهاصات هذا التّغيير في جامع تازة الموحّدي، وجامع حسان برباط الفتح والذي اشتمل تخطيطه على ثلاثة صحنون مكشوفة، وبخلاف هذين المسجدين

¹ ليوبولدو توريس بالباس، المرجع السّابق، ص 24.

² مبارك بوطارن، العمائر الدّينية، المرجع السّابق، ص 40.

³ ليوبولدو توريس بالباس، المرجع السّابق، ص 17.

⁴ - المرجع نفسه، ص 49.

فإن المساجد الموحّدية الأخرى كجامع تينملل والكتيبة الأولى المندثر والكتيبة الثاني بمراكش وجامع الاندلس بفاس وجامع القرويين أيضا بفاس، جميعها مستطيلة الشكل أكثر اتساعا منها عمقا، أي أنّ المحراب يتوسّط أحد الضلعين الطويلين للمسجد، كما تميّز رواق القبلة بكثرة عدد بلاطاته والذي وزّع في مساحات مستطيلة، في حين كان الصحن في مساحة مستطيلة صغيرة إذا ما قورنت بالمساحة التي يشغلها رواق القبلة، وذلك لتعدّد الأروقة الجانبية المحيطة بصحن المسجد، زيادة للمساحة المسقوفة بالجامع ووضع المصلّي في راحة تامّة، وحمايته من شمس الصيف ومطر الشتاء وبرده فهذه المساجد كلّ منها كان يقام بها خطبة الجمعة كونها الوحيدة بالمدينة¹، والعنصر الأساسي اللازم بكلّ مسجد هو قاعة الصلّاة وكوّة المحراب².

أمّا النظام الذي اتّبعه المرابطون لتغطية السّقف وزيادة المساحة المغطّاة في المسجد كانت الصحن تغطّى بسحابة من القماش لحماية المصلّين شتاءً وصيفاً، وهي ظاهرة معروفة في المساجد الجامعة في المغرب الإسلامي خلال الفترة المرابطية بقوله "جعل له مظالّ من شقق الكتان تنتشر عليه كلّ يوم جمعة زمن القيظ، تحجب بها الشّمس عن المصلّين العاجزين عن الرّواح البعداء المنازل الذين لا يجدون محيصا عنه لتضايق الجامع"³، كما يضيف أنّها تحطّ وتزال وقت الحاجة عن طريق تقنية البكرات عبر سحبها بالحبال، كما جعل لها مواضع يدخل منها الهواء للتّنفّس، وبقيت أعواما حتّى بليت ولم يعد ينظر إليها⁴.

هذه الرّواية توضّح أحد الحلول التي استعملت بالإضافة إلى عملية توسعة المساجد، لزيادة حجم المساحة المسقوفة حماية للمصلّين في هذه الفترة من الفترات الإسلامية وهذا ينمّ على الاهتمام والرّمزية التي كانت تحظى بها المؤسسات الدّينية.

2-المدارس:

¹ محمد السيّد محمد أبو رحاب، المرجع السابق، ص 142

² -وليم وجورج مارسي، المرجع السابق، ص 67.

³ -الجزنائي، المصدر السابق، ص 67.

⁴ محمد السيّد محمد أبو رحاب، المرجع السابق، ص 143.

ظهرت المدارس في منطقة المغرب الإسلامي على العهد المرابطي غير أنّ المصادر لم تذكر عنها الكثير ماعدا مدرسة الصّابرين التي بُنيت في عهد يوسف بن تاشفين كما لم تذكر المصادر مكان وتاريخ بنائها بالضبط¹ ويبدو أنّها لم تكن منتشرة في كامل المناطق، كما تميّزت ببساطة تصميمها كونها لا تعدو أن تكون عبارة عن قاعة متوسطة الحجم مستطيلة الشكل تتسع لعدد من الطلبة على أنّ أغلب هذه المدارس تتّصل بشكل مباشر بالمساجد والجوامع.

أمّا في الزّمن الموحّدي فقد اختلف الأمر على اعتبار أنّ الدّولة الموحّدية أولت اهتماما بالغا لعملية التّعليم، وذلك راجع لعدّة أسباب منها تتلمذ الأب الروحي لدولة الموحّدين المهدي بن تومرت في المدارس النّظامية ببغداد، أمّا عن المؤسّس عبد المؤمن بن علي فقد أقرّ إجبارية التّعليم، وقام ببناء مدرسة ملحقة بقصره، ومدرسة الأواذية التي كان نظامها شديدا واهتمّت بتخريج ضباط البحرية² مع حبّه الشّديد لتشييد المنشآت العمرانية التّعليمية والاجتماعية كبنائه لبيمارستان العجيب، والذي أثار إعجاب المؤرّخين من حيث فخامته الهندسية وموقعه الجغرافي، إذ كان في موضع يصنّف ضمن الأحسن في مدينة مراكش، حتّى قال فيه صاحب المعجب (ليس له مثل في الدّنيا)³، ومن هذا يستشفّ أنّ العمارة الهندسية التّعليمية والاجتماعية كانت مزدهرة ومتطوّرة، وما يدعّم هذا الرّأي هو ظهور المدارس التي شيّدت بعد العهد الموحّدي والتي عرفت بزخرفتها وهندستها المعقّدة والجميلة، وما كان لهذه المدارس أن تكون بهذا الحسن لولا مرورها بمرحلة النّضج العمراني الموحّدي⁴.

نصل إلى القول أنّ العمارة الدّينية في العهدين المرابطي والموحّدي شهدت تطوّرا تاريخيا للهندسة المعمارية الإسلامية، إذ نلاحظ عملية التّطوّر المعماري من حقبة إلى أخرى وهذا ما انعكس على واقع البناء الإسلامي في منطقة المغرب والأندلس، حيث نجد أنّ عمارة المرابطين تميّزت بالبساطة والوظيفية، في حين كانت عمارة الموحّدين أكثر تطوّرا خاصّة فيما يخصّ الجانب الزّخرفي والتّصاميمي، ممّا أضفى عليها الطّابع الجمالي مع وجود تعقيدات هندسية دقيقة

¹ -الحسن علي حسن، المرجع السّابق، ص 401.

² -المرجع نفسه، ص 401.

³ -عبد الواحد المراكشي، المصدر السّابق، ص 209.

⁴ - صلاح أحمد بهنسي، المرجع السّابق، ص 163-164.

لا تكاد توجد في العمارة الدينية المرابطية، وهو ما يعكس التفاعل مع الثقافة المحلية وما قدّمته الثقافة الوافدة خاصّة خلال الفترة الموحدية ونقصد بها الانفتاح على التأثيرات الأندلسي

خلاصة:

يستنتج من خلال هذا الفصل أهميّة المنشآت الدينية في المغرب الإسلامي عهدي المرابطين والموحدين لما لها من أهميّة كبيرة على الحياة الدينية والثقافية وتأثيرها الاجتماعي لذلك لاحظنا ازدهارا معماريا ملحوظا في فترة المرابطين مثّلته بناء المساجد والتي عبّرت عن القيم الروحية والثقافية للدولة، أمّا في الفترة الموحدية فقد بلغت العمارة الدينية أوجّ زروتها من حيث الإتّساع والنّاسق والزّيادات في المرافق كالمآذن والزّخارف المتنوّعة.

الفصل الثالث: العمارة المدنيّة في المغرب الإسلامي في عهد

المرابطين والموحّدين

أولاً: العمارة المدنيّة في عهد المرابطين

ثانياً: العمارة المدنيّة في عهد الموحّدين

ثالثاً: المرافق العامّة في المغرب

الإسلامي في عهدي المرابطين

والموحّدين

رابعاً: دراسة مقارنة

-تمهيد:

إهتمَّ كلٌّ من المرابطين والموحدين بحركة البناء والتشييد وحرصوا على استخدام المواد التي تُحقّق الصّلاية وتقاوم مختلف العوامل الطّبيعية والمناخية فانعكس ذلك على عمارتهم المدنيّة بشكل واضح وجليّ كما أسهم ذلك في تجسيد مظاهر الهويّة الحضارية والسياسية للدّولتين وأكّد على سلطتهم التي شملت مناطق واسعة في بلاد المغرب الإسلامي، فالعمران دليل مادّي وشاهد أثري على آثار السّابقين وقد عمّرت العمارة المدنيّة المرابطية والموحّدية قرونا من الزّمن وهو خير دليل على ما بلغته الدّولتين من نبوغ في فنون العمران.

ويُقصّد بالعمارة المدنية تشييد المدن والمباني والسّكنات والقصور والدّور وغيرها من المنشآت التي كانت تمارس فيها الحياة اليومية، حيث حرص الحكّام على العمارة المدنيّة كبناء المدن وبالأخصّ العاصمة وتعميرها مادّيًا وبشريًا بمختلف المرافق والملاحق التي تتعلّق بالأمرء وحاشيتهم وجذب العناصر السّكانية إليها، والتي كانت لها إسهام في تشييد هذه المنشآت مثل المنازل والحمامات والبيمارستان والتي تعرف اليوم بالمستشفيات وغيرها من المرافق لإعطاء صورة للتّمدّن والحضارة.

وكان تشييد هذه المنشآت له أهداف وغايات إجتماعية وسياسية، ذلك أنّ الحكّام لا يبنون عبثًا فالملوك تبني على قدرها من الأقدار¹ فغالبًا ما كان القصد وراء التّشييد والتّعمير هو رغبة السّلطان في ترسيخ سلطته وإظهار هيبة دولته وكسب دعم العامّة وإظهار الحاكم كراعٍ ومسؤول عن رعيّته، سنحاول في هذا الفصل إبراز ذلك مع تفصيلٍ لأوجه التّشابه والاختلاف بين العمارة المدنيّة المرابطية والموحّدية.

أولاً: العمارة المدنيّة في عهد المرابطين:

أشرنا في الفصل الأوّل إلى سبب قصور البربر في بناء المدن والعمائر حسب نظرية ابن خلدون وسننطلق من هذه الفرضية بخصوص قلّة المدن عند البربر ونحاول أن نفكّ لغز هذه الإشكالية وأنّ عكس النّظرية الممارسة تُثبت أنّ المرابطين والموحّدين كانوا بُناة مُدن.

¹ -ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، 86.

أ: بناء المدن في المغرب الأقصى:

-مدينة أرتنني:

كان بناء مدينة أرتنني بأمر من عبد الله بن ياسين بعد غزو الملتّمين لقبيلة لمتونة وتوقّهم عليها، حيث أمرهم ببناء مدينة لهم سُمّيت أرتنني كما حرص أن لا يشف بناء بعضهم على بعض¹، فقد سعى عبد الله بن ياسين على تحقيق المساواة بينهم عن طريق تنبّع عملية البناء، وأمر أن تكون أسُفّ البيوت متساوية في العلوّ وأن لا يكشف بناء بعضهم على بعض وبهذا فقد قام بدور الإشراف على البناء، ولم تكن مهمّته سهلة خاصّة وأنّ هذه القبائل الصّحراوية لم تتعمّق في فهم الإسلام، لكنّه استطاع بدهائه إثبات نفسه وساعده في ذلك صلاحه وابتعاده عن ملذّات الدّنيا وإسهاماته الفعّالة في حلّ مشاكلهم² التي واجهتهم فقد أورد البكري أنّه سافر مرة فانقطع عنهم الماء فشكوا ذلك إليه فقال: بأنّ الله سيجعل لهم من أمرهم فرجا وبعد مدّة قصيرة أمرهم بحفر بئر فلمّا فعلوا وجدوا الماء بأدنى حفر فشربوا واستقوا³، فزادت مكانة عبد الله بن ياسين في أنفسهم، غير أنّ البعض لم يُرقه الأمر وخاصة أولي الأمر منهم⁴، الذين أصبح يُشكّل خطراً على مصالحهم فقد اشتدّ في الوعظ وإقامة حدود الشّرع لذلك تمّ إلصاق بعض التّهم إليه ومضايقته وهدم داره ونهبها من الأثاث فقرّر الخروج من المدينة غير أنّ أجاج بن زلو منعه ووعدّه بنصرته وأمره بالرجوع إليهم⁵، ليتوجّه بعهدا رفقّه أتباعه الذين بلغ عددهم حوالي ألف رجل إلى

¹-البكري، ج2، المصدر السابق، ص 859.

²-الناصرى، ج2، المرجع السابق، ص 11.

³-البكري، ج2، المصدر السابق، ص 863.

⁴-منهم الجوهر ابن سكم ورجلين من أهل الرّأي والمشورة أحدهما يُسمّى أيار والآخر اينتگوا ينظر: البكري، ج2، المصدر السابق، ص 859.

⁵-البكري، ج2، المصدر نفسه، ص 860. ينظر أيضا:خير الدّين الزّركلي، ج4، المصدر السابق، ص 144.

جزيرة صغيرة ومهجورة يُرَجَّح أنها في منحى نهر النّيجر بالقرب من تمبكتو¹، وبهذا كانت عمارة مدينة أرتنتي أول خطوة لعمارة المدن عند المرابطين.

-مدينة أزوكي :

يعود إنشاء هذا الموقع إلى أبي بكر ابن عمر الذي جعله قاعدة ومركزا له بعد عودته من غزواته التي غزاها ضد المصامدة وبلاد السّوس في ربيع الثاني سنة (448هـ/1156م) حيث تمكّن من فتح مدينة ماسة ورودانة وجعل في مقدّمة جيشه ابن عمّه يوسف بن تاشفين الذي استطاع القضاء على مخالفيهم من الشّيعية البجليين²، وانتقلا بعدها إلى أغمات وضيقا عليها الحصار فوقعت تحت حكمهم سنة (449هـ/1157م)، بعد فرار حاكمها لقوط ابن يوسف المغراوي إلى تادالا فتتبّعه يوسف بن تاشفين بأمر من أبي بكر واستطاع فتح مدينة تادالا والقضاء على قبائل بني يفرن وظفر بلقوط المغراوي وقتله³.

تقع هذه المدينة بالقرب من جبل لمتونة، تحديدا على بعد حوالي ثمانية كيلومتر من مدينة أطار بدولة موريتانيا الحالية، وقد لعبت دورا كبيرا من النّاحية السّياسية والاقتصادية في بداية حركة المرابطين نظرا لموقعها الاستراتيجي حتّى أطلق عليها قلعة المرابطين، كما استخدمها المرابطون كقاعدة لتحسين توسّعاتهم نحو جنوب الصحراء وتعزيز علاقاتهم التّجارية، وهناك بقايا أسوار للمدينة اكتشفها الباحث موني (mauny) سنة (1374هـ/1955م)، وتقع تحديدا في

¹ -عبد الله عنان، ج2، المرجع السّابق، ص 302.

² -البجليين: وهم الشّيعية الرّافضة وكان موطنهم مدينة تارودانت قاعدة السّوس ويطلق عليهم البجلية نسبة إلى عبد الله البجلي الرّافضي الذي تمكّن من نشر المذهب الشّيعي في بلاد السّوس أيّام حكم العبيديين ثمّ توارثوا هذا المذهب إلى أن تمّ القضاء عليهم من طرف المرابطين، ينظر: لسان الدّين بن الخطيب، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثّالث من كتاب أعمال الأعلام، تح، أحمد المختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، الدّار البيضاء، 1964، ص 229.

³ -ابن أبي زرع، المصدر السّابق، ص 129.

السَّهل وهو مستطيل الشَّكل مع وجود أبراج موزَّعة على طول السَّور على شكل نصف دائرة ويبدو أنَّ لهذا السَّور مدخلا من الجهة الشرقيَّة يتَّصل ببعض المباني كما توجد به نقاط للمراقبة¹.

-مدينة تلبالة:

تقع مدينة تلبالة في الصَّحراء جنوب حاسي تاشنغيت، وكانت تتوسَّط أهمَّ المدن حيث يحدها شرقا توات وتمنطيط أمَّا غربا فتحدها مدينة فجيح وسجلماسة ومن ناحية الجنوب مدينة تغازي وتاوديني، تحديد تاريخ تأسيس المدينة يكتنفه الغموض لعدَّة أسباب منها غموض تاريخها وعدم تعمق المصادر التَّاريخية التي تناولت تأسيسها إلَّا عرضًا، ومن جهة أخرى قلة الدَّراسات الحديثة التي اهتمَّت بتاريخ المدينة ويشير الباحث صالح بن قربة أنَّ أقدم النصوص التَّاريخية حول المدينة تُرجع تشييدها إلى القرن الثالث الهجري وتحديدًا في فترة الأمير محمد ابن ميمون ابن تقيَّة الذي حكم دولة بني مدرار²، كما أشار إليها حسن الوزان باختصار عند حديثه عن المدن التي ينمو فيها النَّخيل، حيث ذكر مدينة تلبالت وأنَّ أهلها يملكون واحات كثيرة ممَّا جعلهم في رغد من العيش³، ممَّا لا يدع مجالًا للشكَّ أنَّها مدينة صحراوية غير أنَّه لم يحدِّد تاريخ بنائها إطلاقًا.

غير أنَّ بعض الباحثين يرجع تأسيسها إلى الصَّراع المرابطي مع قبائل زناتة حيث جعلوها قاعدة لهم في فتح بلاد المغرب⁴، كما أنَّ السَّبب الاقتصادي لعب دورًا مهمًّا في تأسيس المدينة كونه قبيلة زناتة كانت تحتكر تجارة بلاد المغرب وتتحكَّم في طرق القوافل التَّجارية المارة إلى

¹-عبدوني حسينة، الحياة العمرانية في عهد الدَّولة المرابطية خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، رسالة ماجستير، إشراف لقبال موسى، جامعة الجزائر، قسم التَّاريخ، 2002/2003، ص 82.

²-صالح بن قربة، "أهميَّة تلبالة في تجارة المغرب وبلاد السُّودان خلال العصر الوسيط"، مجلَّة دراسات إنسانية، الجزائر، العدد الأوَّل، 2001، (91-111)، ص 97-100.

³-الحسن الوزان، المصدر السَّابق، ص 32-54.

⁴-حسن أحمد محمود، المرجع السَّابق، ص 170.

الجنوب¹، فَعَمَدَ المرابطون إلى انتزاع إقليم الواحات من زناتة حتّى تعود فوائد التّجارة الصّحراوية إلى الملتّمين، وفي فترة وجيزة أصبحت هذه المدينة من أهمّ الموانئ الصّحراوية التي تُنقل إليها التّجارة القادمة من بلاد المغرب إلى السّودان وكذلك صادرات السّودان نحو موانئ البحر الأبيض المتوسط، وقد أضحت في فترة وجيزة نقطة ارتكاز بين بلاد السّودان والمغرب كما زادت أهميّتها بعد الغزو الهلالي للمنطقة الشّرقية للمغرب، حيث تدهورت الطّرق التّجارية للنّاحية الشّرقية فقد دمر العرب الهلاليون أهمّ المراكز الحضارية وأصبحت الطّرق التّجارية تعاني من الفوضى واللّصوصية، وكنّيجة لذلك تحوّلت التّجارة و الطّرق الصّحراوية نحو الجهة الغربيّة ممّا انعكس إيجابا على المرابطين الذين سعوا إلى الدّفع بالحركة التّجارية، فقد تحوّلت أغمات إلى عاصمة تجارية مع بلاد السّودان وقد استفادت مدينة تلبالة من هذه الحركة التّجارية فأصبحت مركزا عمرانيا له دور في التّحكّم في تجارة المغرب نحو السّودان، وقد استمرّ ذلك حتّى الفترة الموحدية الذين ضمنوا سير التّجارة على هذا المحور².

أسهمت القوافل التّجارية في ظهور مدينة تلبالة وكنّيجة للدّور الاقتصادي الذي أدّته المدينة لا يُستبعد وجود عمارة المنازل والقصور والفنادق، وذلك نتيجة ازدهار الحركة التّجارية التي شهدتها المنطقة إلى جانب العمارة الحربية بحكم قربها من القبائل الصّحراوية التي عاها عبد الله ابن ياسين وبالتالي لا يستبعد وجود عمارة الأسوار التي فرضته المعطيات السّياسية غير أنّ قلة المصادر والمراجع التي اهتمّت بهذه المدينة يجعل من الصّعب تتبّع مراحل تطوّرها العمراني.

– المرابطون واختيار العاصمة مراكش:

اختار المرابطون موقع مراكش³، لتأسيس مدينة تكون عاصمة لدولتهم، وقد تتوّعت أسباب بناء المدينة ولعلّ من أبرزها رغبة المرابطين في حماية كيانهم حديث التأسيس من المخاوف التي قد

¹ صالح بن قرية، تلبالة، المرجع السّابق، ص 99.

² صالح بن قرية، المرجع السّابق، ص 94.

³ مراكش: كلمة مركّبة تتكوّن من كلمتين هما "مر" وكلمة "كش" واختلف المؤرّخون في معناها وأرجعها البعض إلى لغة قبائل المصامدة وتعني " مرّ وانصرف مسرعا" أو " اعبّر مسرعا وانتبه " لأنّ المنطقة كانت معروفة باللّصوصية وقطّاع الطّرق على القوافل التّجارية المارة كما قيل أنّ مراكش يقصد بها " أمور آكوش " والتي تنطق

تصدر عن أهل الأطلس الكبير الغربي، فالمنطقة قريبة من قبائل المصامدة وهو ما أكدّه ابن خلدون في قوله: " جعل يوسف مدينة مراكش لنزله ولعسكره وللتّمرّس بقبائل المصامدة"¹، لذلك تمّ اختيار المكان بجوارهم لسهولة مراقبة تحرّكاتهم وفي نفس الوقت قربها من صحراء لمتونة ممّا يُسهّل وصول الإمدادات العسكرية، وهو سبب رئيسي حسب صاحب كتاب المعجب فهي ليست خيرا من فاس في شيء، ولكن سبب اختيارها كعاصمة قربها من جبال المصامدة وصحراء لمتونة، وهما السببان اللذان أهّلاها لتكون كرسي المملكة حسب وصفه².

وهناك من يُرجع سبب بناء مدينة مراكش إلى ازدحام مدينة أغمات³، بقبائل المرابطين النازلين بها من الأعيان والتّجار كونها دار تجهيز للصحراء وما تميّزت به من الاتّساع والرّخاء⁴، في حين يذكر السلاوي أنّ سبب بناء مدينة مراكش يعود إلى استفحال أمر يوسف بن تاشفين ورسوخ قدمه في الملك وكثرة جنوده وعبيده فسّمت همّته لبناء مدينة تكون حصنا له ولأهل دولته⁵،

بالأمازيغية "أموراكش" وتعني أرض الله، في حين ذهب البعض أنّها مشتقة من اسم قديم يدعى آكش، الذي يطلق على الرّبّ عند الأمازيغ وذهب البعض أنّها تخفيف لكلمة مراكس من فعل أركس والتي تعني المهالك اشتقاق مراكش، بناها يوسف بن تاشفين سنة (459هـ-1067م) وقيل سنة (470هـ-1077م) وجعلها عاصمة للدولة المرابطية ينظر: مجهول، الاستبصار، ج1، المصدر السابق ص 210. - الحميري، الرّوض المعطار، المصدر السابق، ص 540. - محمد رابطة الدّين، ج1، المرجع السابق، ص 33.

¹ - ابن خلدون، ج6، المصدر السابق، ص 245.

² - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 257.

³ - أغمات: بفتح الألف وسكون الغين وتعني أغ بلسان قبائل مصمودة اتّخذها الملثمون قاعدة لهم قبل بناء مدينة مراكش وكان في عهد الموحدين بها ستّة آلاف كانون وتقع بميل عن شرقها وهما مدينتان سهيلتان إحداهما تُسمى بأغمات إيلان تقع في أسفل جبل درن والأخرى تُعرف ب أغمات وريكة وبينهما ثمانية أميال ولهما نهر لطيف تلقّهُ الزّروع والبساتين، وفي عهد يوسف بن تاشفين اتّخذت مقرا لإقامة ملوك الطّوائف ونفيهم بعد توحيد عدوة الأندلس وأشهرهم المعتمد بن عباد وبها كانت وفاته، لقّبت بمراكش الثّانية في عهد الموحّدين نظرا للتّحصّن الذي بلغته ينظر: البكري، ج2، المصدر السابق، ص 843. - الفتح بن خاقان، قلائد العقيان في محاسن الأعيان، تح حسين يوسف خربوش، ط1، الأردن، مكتبة المنار، 1989م، ص 94-96. - أبو الفدا عماد الدّين، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت دت، ص 135. - القلقشندي، المصدر السابق، ج2، ص 166. - أبو العبّاس السّمالي، الإعلام بمن حلّ بمراكش وأغمات من الأعلام، ج1، ط2، الرّباط، المطبعة الملكية، 1993، ص 100. - ابن دحية، المطرب في أشعار أهل المغرب، تح إبراهيم الأبياري و آخرون، دار العلم للجميع، بيروت، دت، ص 119.

⁴ - مجهول، الاستبصار، ج1، ص 207.

⁵ - السلاوي، ج2، المرجع السابق، ص 24.

بالإضافة إلى وجود المؤشرات الاقتصادية التي اشتهرت بها المنطقة كنطاق رعي¹، يتناسب مع قبائل الملتّمين، غير أنّه في الواقع تتكامل جميع هذه الأسباب وتتّخص في حاجة المرابطين لإنشاء مدينة جديدة، يعود ذلك لازدحام مدينة أغمات، وتزايد نفوذ يوسف بن تاشفين، إضافة إلى رغبتهم في مراقبة قبائل المصامدة، بناءً على ذلك نشأة فكرة البحث عن مدينة تكون عاصمة للدولة.

وتختلف المصادر في تحديد السنة التي بدأ فيها المرابطون تأسيس عاصمتهم، حيث يرى البعض أنّ الأمير أبا بكر بن عمر الممتوني هو من بدأ في بنائها عام (461هـ/1079م)²، من جهة أخرى يرى صاحب الحل الموشية أنّ ذلك كان في سنة (462هـ/1080م)³، في حين يرى البعض أنّ يوسف بن تاشفين هو من أمر بتخطيط المدينة واتخاذها دارا لملكه ومقرّ سكنه⁴ في سنة (465هـ/1087م)، وكانت قبل ذلك مكانا للصّوص وحولها جبال على فراسخ منها⁵، بالمقابل ذكر ياقوت الحموي أنّ بناءها كان في سنة (470هـ/1077م)⁶، بينما حدّد أغلب المؤرخين سنة (454هـ/1062م)⁷ أي السنة الثانية من تولية يوسف بن تاشفين أمور بلاد المغرب لتكون قاعدة لملكه ومنطلقا لفتوحاته وأتمّ بناءها في حوالي سنة (459هـ/1066م)، وهو التاريخ الذي أورده صاحب كتاب الاستبصار⁸، وقد كان بناؤها في أرض صحراوية داخلية ممّا ترتّب عنه مضاعفات سلبية على الساكنة، أبرزها اختلال التوازن بين السهل والجبل⁹، فحاجيات

¹ محمد رابطة الدين، ج1، المرجع السابق، ص 26.

² ابن عذاري، ج1، المصدر السابق، ص 300.

³ مجهول، الحل الموشية، المصدر السابق، ص 15-16.

⁴ النويري، ج24، المصدر السابق، ص 262.

⁵ الذّهبي، ج34، المصدر السابق، ص 331.

⁶ ياقوت الحموي، ج5، المصدر السابق، ص 94.

⁷ ابن خلدون، ج6، المصدر السابق، ص 245. ينظر أيضا: السلاوي، ج2، المرجع السابق، ص 24.

⁸ مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص 208.

⁹ لعبت الثنائية الجغرافية (السهل والجبل) والقبلية (صنهاجة ومصمودة) دورا في تصعيد الخلاف السياسي المرابطي الموحدي، فقد استولى المرابطون على المجال الخصب لمصمودة وبالتالي كان هناك تصادم بين القبائل الوافدة ضد القبائل المستقرة وهو ماركز عليه ابن تومرت كون المصامدة كانوا يتحيتون الفرصة للقضاء على المرابطين ينظر: حديدي الحسين، دور الثنائية الجغرافية والقبلية في تأجيج الصراع المرابطي الموحدي، دورية كان التاريخية، 2020، ص 71-80. - حيدر علي حول، المرجع السابق، ص 153.

سكّان الجبل كان قسم منها يؤمّنه سهل الحوز كونه مجالا حيويا لسكّان الواجهة الشماليّة من الأطلس الغربي¹.

من جانب آخر فهذا الإنجاز العمراني كان قرارا سياسيا له غايات أمنية ووسيلة للتوسّع والتعمير وهو ما يؤكّده لنا صاحب الاستبصار بقوله: "وإنّما بناها واضعها ليمك منها جبل درن وذلك لكثرة من يعمره"²، فالجوانب الأمنية كانت حاضرة بشكل جليّ جعل الوظيفة الاستراتيجية تغطّي على الوظيفة السياسيّة كعاصمة، واختيار كان مكلفا لأنّه أسهم في تقوية عناصر التّشويش الذي حاول المرابطون تجنّبه قبل وقوعه³.

وما يهمّنا هنا أنّ بناء المدينة العاصمة وتعميرها كان بناءً على عدّة مؤشّرات أمنية وأخرى اقتصادية، وبشرية فصاحب قرار اختيار موقع التأسيس، أخذ في حسابه القيمة الاقتصادية أيضا، وهو ما أشارت إليه المصادر التاريخيّة رغم وجود مشكلة المياه والتي عمل المرابطون على إيجاد حلول لها ذكرها الشّريف الإدريسي بقوله: " وماؤها الذي تسقى به البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة"⁴.

ويضيف الإدريسي أنّ صاحب هذه الطّريقة البارة هو المهندس عبيد الله ابن يونس الذي قدّم إلى مراكش مع بداية بنائها وليس بها إلّا بستان واحد كان لأبي الفضل أمير المسلمين، فحفر بئرا مربّعة كبيرة التّربيع ثمّ احتقر ساقية متّصلة الحفر من أعلى إلى أخفض منطقة حتّى وصل الماء إلى البساتين فاستعمل في مصادر السّقي مع عدم توقّفه وضياعه⁵، وعرفت هذه الآلية باسم الخطارة⁶، وإن لم يذكرها الإدريسي بهذا الاسم فقد أشار إليها صاحب نفح الطّيب⁷، وقد

¹ محمد رابطة الدّين، المرجع السّابق، ج1، ص25.

² الاستبصار، المصدر السابق، ج1، ص 209.

³ محمد رابطة الدين، المرجع السابق، ج1، ص 37.

⁴ الشّريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، ط1، بيروت، عالم الكتب، 1409هـ، ص233.

⁵ الإدريسي، المصدر نفسه، ج1، ص 233

⁶ محمد رابطة الدين، المرجع السابق، ج1، ص184.

⁷ الخطارة: دولاّب خفيف يستعمل للسّقي استعان به أهل المغرب والأندلس في رفع الماء من الأودية وأكثرها في واد اشبيلية، ينظر: المقرئ التلمساني، ج3، المصدر السابق، ص 454.

أسهمت هذه التقنية بحل مشكلة المياه وإيصالها من مصدرها إلى قلب المدينة وبذلك كانت سببا في اتساع عمران المدينة.

يتبين إذاً من خلال ما سبق استفادة المرابطين من العنصر الأجنبي في حركة التعمير ونقصه به المهندس عبيد الله ابن يونس، وهو من الخبراء الذين استعانت بهم السلطة المرابطية، وحسب جورج كولان georges colin وبول بسكون Paul pascon أن دخول هذا المهندس إلى مراكش تم في زمن حكم علي ابن يوسف، خالفهما الباحث محمد رابطة الدين كون أن النصّ لإدريسي الذي استخلص منه الباحثان دخول المهندس المذكور لا يدلُّ بصراحة عن الإطار الزمني، كما يلتبس حضور الخبرات الأجنبية عن صنهاجة والتي لها دراية وخبرة في صناعة البناء في بناء سور مراكش¹، حيث كان من تأشير ومبادرة ابن رشد الجدّ وتحديدًا سنة (523هـ/1129م) فبناه علي ابن يوسف وأنفق فيه سبعين ألف دينار².

وقد أسندت عملية تصميم بناء مراكش لمهندسين بارعين وصنّاع ماهرين في وسط إقليم خال فبُنيت المساجد والقصور الحصينة و أبنية أخرى وسرعان ما زاد عدد سكّانها إذ بلغ في عهد يوسف بن تاشفين مايزيد عن مائة ألف كانون³، كما وجب التّويه أن المصادر التاريخية تنسب إلى كل سلطان ما أنجز في عصره دون ذكر مُفَصَّل لأهل البناء والصنّاع ومهندسي التعمير⁴، لا من حيث علاقتهم بالسلطان ولا أجورهم ولا طرق معاملاتهم، اللهمّ إلا بعض الشذرات والتي لا تكفي لإزالة الغموض عن هذه الفئة التي كان لها دور كبير في العمارة.

¹ -محمد رابطة الدين، المرجع السابق، ص 184-187.

² -ابن عذاري، ج1، المصدر السابق، ص 310.

³ -حسن الوزان، المصدر السابق، ص 127. - ينظر أيضا: يوسف أشياخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين

والموحدين، ج1، تر وتع محمد عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1996، ص 71.

⁴ -حسب الباحث إبراهيم القادري بوتشيش أن سبب ذلك هو عجز مؤرخي العصر الوسيط عن رؤيتهم الواقعية لحركة مسار التاريخ الاجتماعي، والنظر للتاريخ أنه تراكم للأشخاص والدول دون إدراكهم للتفاعلات المتبادلة لذلك تم إهمال دور العوالم في عملية بناء مدينة مراكش والذين كان لهم الدور الطلائعي فيه وأطلق عليهم اسم الخّمة في المقابل نجد حضور إسهامات الأمراء المرابطين حاضرة كإسهام يوسف بن تاشفين في عملية خلط الطين وتم تسجيلها حسنة من حسناته. ينظر: إبراهيم القادري بوتشيش، المهتمشون في تاريخ الغرب الإسلامي إشكاليات نظرية تطبيقية في التاريخ المنظور من أسفل، ط1، القاهرة، 2014، ص 230-231.

-مدينة بني تاود :

لم يتوقف النشاط العمراني للمرابطين على مدينة مراكش فقط، بل امتد اهتمامهم إلى مدن أخرى شهدت توسّعا وتجديداً، مثل مدينة بني تاود الواقعة على طريق فاس حيث تبعد عنها مرحلتان وقد أكد الإدريسي أنّ المثلّم بناها وأنها مدينة قائمة بذاتها لما عُرف عنها من كثرة الزروع والمحاصيل وكثرة الأسواق جعل منها مدينة غزيرة الخيرات، وقد أسهم موقعها القريب من جبل غمارة في جعلها شبه ثغر وسداً مانعاً ضد القبائل المعارضة الساكنة بهذه المنطقة¹، كما وصفها صاحب كتاب الاستبصار بالمدينة الكبيرة وقد سكنها ولّاة المرابطين وجنودهم فعرفت تعميراً وتتوّعا في المباني الحسان من قصور ودور وقد ساعدها في ذلك وجود قبائل حوالها²، ممّا يزيد من فرضية الهجرة إليها وتعميرها لما عُرفت به من بسط في الخيرات، غير أنّه لم يبق من آثارها إلا أجزاء قليلة لما عرفته من تخريب وتدمير من قبل قبائل المصامدة فقد هدموا الأسوار وصيّروها أرضاً ولم يبق منها إلا مكانها حتّى سكنها نحو مئة رجل فأعادوا تعميرها وزراعتها لطيب تربتها وجودة زروعها³.

ب: بناء المدن المرابطية في المغرب الأوسط:

-مدينة تاقمرت:

يبدأ تاريخ هذه المدينة عندما أرسل يوسف بن تاشفين قائده مزدلي بجيش كبير نحو تلمسان سنة (472هـ/1080م) وكان أمير تلمسان آنذاك بختي من ولد يعلي، ولما وصل المرابطون أحواز تلمسان وقعت بين الطرفان معارك عاد الانتصار فيها للملثمين وقتل مزدلي أمير تلمسان وعاد إلى حضرة مراكش مبشّراً يوسف بن تاشفين⁴، ويتّضح من خلال عودة المرابطين السريعة إلى بلاد المغرب الأقصى أنّه لم يكن الهدف منها التّمرّكز بقدر ما هو تأديب

¹-الإدريسي، ج1، المصدر السابق، ص 249.- ينظر أيضاً: عبدوني حسينة، المرجع السابق، ص 97.

²-مجهول، ج1، الاستبصار، المصدر السابق، ص 190.

³-الإدريسي، ج1، المصدر السابق، ص 249.

⁴-ابن خلدون، ج7، المصدر السابق، ص 62.- ينظر أيضاً: عبدوني حسينة، المرجع السابق، ص 99

للقبائل الزناتية¹، التي كانت تهدّد الوجود المرابطي ولها عداء تاريخي لقبائل صنهاجة وبتونها كقبائل مغراوة² وبني يفرن³، لذلك لم يقيم المرابطون بأيّ أعمال عمرانية كون هذه الحملة كانت استطلاعية وتأديبية للقبائل المعارضة.

غير أنّ يوسف بن تاشفين وبعد أشهر قليلة قاد حملة جديدة بنفسه نحو تلمسان سنة (473هـ/1081م) فافتتحها وملك أمصارها وعيّن عليها عامله محمد ابن تين عمر المسوفي⁴، وأمر ببناء معسكر كبير سمّاه تاقراوت والتي تعني المحلّة أو المعسكر، كان بنائها إيذانا باستقرار المرابطين بالمدينة وجعلها عاصمة إقليمية للدولة⁵، ويشير بعض الباحثين إلى أنّ مدينة تاقراوت قد أقيمت على أنقاض الموقع الرّوماني بوماريا⁶ ومع ذلك فقد اختلفت المصادر في هذا الشّأن ولم تحسم النّصوص التّاريخية هذا الأمر بشكل قاطع، ما يهمّنا في هذا السّياق هو أنّ مدينة

¹ قبيلة زناتة: لم يعرف اشتقاق الكلمة عند المؤرّخين القدماء من يونان ورومان وبيزنطيين، أمّا في العهد الإسلامي فقد أصبح هذا اللفظ معروفا وحسب ابن خلدون فأصل الكلمة تعود إلى زانا ابن جانا وهو الجدّ الأوّل للقبيلة وقد أطلقت هذه التسمية على الجيل كله، كما أنّها واحدة من أكثر القبائل البربرية عددا وهي من فرع البتر أسهمت في بناء المغرب الإسلامي تتواجد أكثر بطونها في بلاد المغرب الأوسط وتحديدا القبائل ووادي الشلف ونهر ملوية ولها حضور كبير حتّى أنّه لينتسب إليهم فيقال بلاد زناتة أو وطن زناتة ينظر: ابن خلدون، ج7، المصدر السّابق، ص 10، ينظر محمد بن عميرة، دور زناتة في الحركة المذهبية، الجزائر، المؤسّسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 15-16، ينظر، مبارك الملي، ج1، المرجع السّابق، ص 109.

² مغراوة: من أكثر بطون زناتة عددا وينسبون إلى مغراو بن يصلتين وموطنهم شمال واتشريس ووادي الشلف إلى البحر وينتهي وجودهم من النّاحية الشرّقية عند وادي السّبت بالقرب من متّيجة ومن النّاحية الغربيّة عند البطحاء، كما ينتشرون بقسنطينة وجبل عياض شرق مدينة المسيلة ولهم فروع عديدة أبرزها بنو سنجاس وبنو غيار وبنو ريغة. ينظر: محمد بن عميرة المرجع السّابق، ص 19، - مبارك الملي، ج2، المرجع السّابق، ص 467.

³ بنو يفرن: من بطون زناتة أيضا وهم عند نسابة قبائل زناتة بنو يفرن بن يصلتين بن مسرا وحسب الباحث محمد بن عميرة أنّ يفرى قد يكون جدّهم الأوّل الذي ترأس قبيلتهم ويفرن في لغة أهل البربر تعني الاستقرار وكانوا بعد الفتح الإسلامي يتواجدون بإفريقية وجبل أوراس بالمغرب الأوسط ثمّ انتشروا في النّاحية الغربيّة من بلاد المغرب بسبب زحف القبائل الطّرابلسية لواتة وهوارة المنتشرة بجنوب المغرب الأدنى وضواحي منطقة الأوراس ينظر: ابن خلدون، ج7، المصدر السّابق، ص 15، محمد بن عميرة، المرجع السّابق، ص 18.

⁴ ابن خلدون، ج7، المصدر السّابق، ص 75.

⁵ مبارك الملي، ج2، المرجع السّابق، ص 293.

⁶ عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزّياتي دراسة سياسية عمرانية اجتماعية وثقافية، الجزائر، ج1، موفم للنّشر والتّوزيع، 2002، ص ص 88-89.

تأقررت وتلمسان القديمة التي تعرف بأكادير أصبحتا فيما بعد تشكّان مدينة تلمسان¹، وباستقرار المرابطين بالمدينة اتسع نطاق الحركة العمرانية نتيجة الازدهار الاقتصادي وزيادة النمو الديموغرافي بالمدينة حيث شيّد المرابطون الدّور والمنازل والمساجد²، كما أكّد بعض الباحثين قيام يوسف بن تاشفين ببناء السّور حول المدينة، والتي كانت مقرّاً وسكناً لأصحاب السّلطان والجند والعامة³.

-مدينة القصر:

وهي مدينة صغيرة تقع مابين طريق تأقررت والسّوق القديمة على رميتي سهم، بناها أحد أمراء المرابطين وقام بتسويرها وبناء قصر بها لتكون له مقرّاً وسكناً ولم تكن بها أسواق كثيرة⁴، يُرجّح ذلك لكونها مدينة أميرية أي كانت مخصّصة للأمير وبني عمومته ولم يكن يُسمح لأيّ كان بالدّخول إليها خاصّة مع تأكيد الإدريسي بأنّ لها سورا.

-مدينة مشتى غانم:

وهي مدينة مستغانم وتتكوّن من كلمتين مشته ومعناها مرسى السّفن⁵ وغانم وتعني الغنى وتُسمّى بالعربية مشتى غانم وهي مدينة ساحلية، أمّا عن تاريخ بناء المدينة وتعميرها فلم تردّ إشارات واضحة في المصادر التاريخية، إلّا أنّ تأسيسها يعود إلى الوجود الروماني في المنطقة⁶، أمّا في الفترة الإسلامية فقد أشار إليها ابن خلدون إلى تبعيتها لقبيلة مغراوة البربرية⁷ التي سيطرت على أجزاء واسعة من السّاحل ووادي الشلف إلى حدود مناطق شرشال وماجاورها⁸، وحسب الباحث

¹ - ابن خلدون، ج 7، المصدر السابق، ص 62.

² - بورويبة رشيد وآخرون، الحياة الفنّية في عهد المرابطين والموحدين، الجزائر في التّاريخ، ج 3، تع محمد بلقراد، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 349.

³ - محمد الطمار، المرجع السابق، ص 44.

⁴ - الإدريسي، ج 6، المصدر السابق، ص 86.

⁵ - رينهاردتوزي، ج 6، المرجع السابق، ص 249.

⁶ - Belhamisi moulay, Historie de mostaganem des origines a nos jours, 2 edition, s n e d ,Alger 1982,p 15.

⁷ - ابن خلدون، ج 7، المصدر السابق، ص 62.

⁸ - عبدوني حسينة، المرجع السابق، ص 103.

هاينريش فون مالتسان أنها لم تؤسس إلا في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي (12/هـ) ¹، من طرف المرابطين وقد بنى فيها يوسف بن تاشفين حصنا منيعا عُرف بمشتى غانم أو برج الأمحال، حوله نشأت المدينة التي كانت في بدايتها عبارة عن حصن عسكري ثم تحولت إلى مدينة كبيرة استقطبت قبائل المنطقة ².

تمكن المرابطون من بناء بعض المدن أبرزها العاصمة مراكش قاعدة دولتهم بالمغرب الأقصى وتكررت بالمغرب الأوسط والتي لم تخل من القصور فقد كانت جزء لا يتجزأ من تخطيط المدن ونموها.

ج: بناء القصور:

كانت القصور ³، سمة من سمات الحكم لمختلف الملوك وأمراء الدول التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب الإسلامي لما تعكسه من هيبة للسلطان، فقد كانت مقرا لإقامتهم وفيها يستقبل السفراء والوزراء كما تُعقد فيها المعاهدات والاتفاقيات، وكان بناؤها في مختلف المدن وخاصة الحواضر الكبرى أو المدينة العاصمة، فقصر الحكم أو دار الإمارة غالبا ما يتم تخطيطه قرب المسجد الجامع، وقد ورث المرابطون عن ملوك الطوائف قصورا باذخة أثناء توحيدهم للعدوتين منها قصرا الزهراء والزاهرة المنتهيان في الجلالة والفخامة ⁴، كما أن قصور الحكام كانت مركزا

¹ -هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في غربي شمال افريقيا، ج 1، ط1، الجزائر، دار الأمانة للنشر والطباعة، 2008، ص 253.

² -عبد الرحمان الجبالي، تاريخ الجزائر العام، ج 1، ط2، الجزائر، مكتبة الشركة الجزائرية، 1965، ص 411.

³ -عرفت القصور قبل الإسلام في حضارات الشرق واليمن كقصر غمدان وعرف المسلمون ظهور القصور في الكوفة حيث بنى سعد بن أبي وقاص قصر الإمارة لتعرف رواجاً في عهد الخلافة الأموية أما في بلاد المغرب الإسلامي فليس من السهل تحديد تاريخ واضح لظهورها وذلك لقلة المصادر التي تناولت الموضوع وقد أرجع الباحث مارتان martin، أنها تعود إلى القرن الأول الهجري السابع الميلادي أي مع بداية الفتح الإسلامي ينظر: صلاح الدين هدوش وعبد الكامل عطية، قراءة تحليلية في تشييد القصر من خلال كتاب "القسم وأصول الأرضين" لأبي العباس أحمد الفرستائي، مجلة العلوم الإنسانية الاجتماعية، العدد 01، 2021، ص 369.

Alfred Georges Paul Martin, Quatre siècles d'histoire marocaine au Sahara de 1504 à 1902 au Maroc de 1894 à 1912, paris, Librairie Felix alcan, 1923, pp80-83.

⁴ -المقري، ج1، المصدر السابق، ص 526.

لتجميع السلاح وتخزينه وكان ذلك بالأخص بعد احتكاك المرابطين بالأندلسيين¹ كقصور بني عباد بإشبيلية حيث اشتهر قصر الإمارة وهو قصر المبارك وقصر الزاهي وغيرها من القصور التي خلّدها التاريخ².

والجدير بالذكر أنّ قصور المرابطين كانت قريبة الشّبه للمدن الصّغرى حيث اشتملت على المسجد و مجموعة من الدّور والسّكنات فقد اشتمل قصر مقرار التحتاني قلعة الشّيخ بوعمامة حاليا³ والذي تمّ بناؤه قبل تسعة قرون ممّا يجعله معاصرا لفترة المرابطين على ما يقارب ستّين مسكنا وكان كلّ سكن يتواجد به حوالي خمسة وعشرون فردا فيكون العدد الإجمالي لسكّان القصر مايزيد عن ألف وخمسمائة شخص وتتكوّن القصور من مجموعة من الأبواب ويحيط جهاتها الأربعة الشّرقية والغربية أبوابا خلفية للنّجدة، كما نجد بها عدّة دروب وأزقة سُمّيت باسم أشهر الأسر أو النّشاط الممارس فيها⁴ (الملحق رقم 13) كما تتوفّر على مرافق منها البساتين والحمامات وإسطبلات والمياه وغيرها من المرافق التي يُحتاج إليها⁵، فعلى سبيل المثال مثّل قصر الحجر الذي ابتناه علي بن يوسف قرب المسجد الجامع بمراكش مدينة صغيرة للأمراء وذوي الوجاهة من الأسرة الحاكمة⁶، وقد أكّد الإدريسي بأنّ المرابطين قد شيّدوا عديد القصور فيذكر أنّ مدينة مراكش لوحدها احتوت على أعداد من القصور للكثير من الأمراء وخاصّة القوم⁷، كما لا يستبعد أن يكون المرابطون ونسأؤهم قد أوقفوا قصورا في العاصمة مراكش أو في أحوازها، وأنّ الموحّدين قد قاموا بمصادرتها لاعتبارات سياسية ومذهبية⁸، رغم عدم وجود عقود ملكية أو وقفية تثبت ذلك على حدّ علمنا ولعلّ ذلك كون المرابطين منذ أن عاشوا في الصّحراء

¹ خميسي بولعراس، فنّ الحرب بالغرب الإسلامي خلال عصري المرابطين والموحّدين، الجزائر، النّشر الجامعي الجديد، 2018، ص 51.

² عبد الله عنان، ج2، المرجع السّابق، ص 55.

³ يقع قصر الشّيخ بوعمامة في الجنوب الغربي الجزائري ببلدية مغرار ولاية النّعامة الجزائرية

⁴ لوحة إرشادات وزارة الثقافة، قصر مغرار، النّعامة، الجزائر، يوم 03، أفريل، 2025.

⁵ ابن فضل الله العمري، ج4، المصدر السّابق، ص 198.

⁶ محمد عبد الله عنان، ج4، المرجع السّابق، ص 143.

⁷ الإدريسي، ج1، المصدر السّابق، ص 234.

⁸ محمد ولد عمر، العمران الوقفي في الغرب الإسلامي بين القرنين (5-9هـ/11-15م) دراسة من خلال النّوازل والشّواهد الأثرية، أطروحة دكتوراه، إشراف البشير غانية، جامعة حمة لخضر، الوادي، 2023، ص 167.

كانوا أهل ترحال وبدواة ولم تكن لديهم تعقيدات المدينة لذا اكتفوا غالباً إلى العرف الذي ضمن لهم حقوقهم.

ومن المهم الإشارة إلى أنّ القصور التي أنشئت خلال العهد المرابطي كانت دون مستوى قصور الموحدين و ملوك الطوائف، فعلى الرغم من اهتمام المرابطين بتشييدها إلا أنّ اهتمامهم بزخرفة القصور وتزيينها لم يرق لمستوى قصور ملوك الطوائف التي عرفت بالفخامة والدقة والإسراف حدّ التبذير، ممّا جعل الباحث الإسباني توريس بالباس يرى أنّ القصور في هذه الفترة افتقدت إلى المتانة والصّخامة ولعلّ رأيّه هذا بسبب استعمال الطّابية والآجر في القصور المرابطية، في حين استعملت مادّة الحجر والرّخام في قصور الأندلس¹، ومن وجهة نظرنا أنّ هذا الرّأي فيه تحامل كبير على عمارة القصور سواء في العهد المرابطي أمالموحي لما يحمله من تصغير للإرث العمراني الذي خلّفته الدولتان.

ومن الملفت أن نُشير إلى التّجديد الذي عرفته خاصّة في تخطيط الأبنية التي تحمل أبهة كونها اختصّت بالأمرأ خاصّة في الأندلس والتي اقتبست من بلاد المغرب، حيث نجدها واضحة المعالم في جامع القرويين بفاس، وفي بعض قصور بني مرين بمراكش ويتمثّل هذا التّجديد في البهو المستطيل الشّكل يحيط بجانبه جَوْسَقان مربّعان بارزان، وداخل المستطيلات الأربعة أشجار البرتقال والليمون، وقد كانت الأبنية قبل عهد المرابطين تتوسّطها برك تنتصب في أركانها أسود معدنية، أو نافورة تحيط بها تماثيل للحيوانات كالطيور فتتساب المياه من أفواهها كما هو الحال في قصري طليطلة وقصر الزّهراء².

د: المنازل:

عرف الإنسان السّكن منذ العهد القديم كونها من حاجياته الصّرفية فهي التي توفّر له السّكن والهدوء، كما أنّها دليل مادّي على الاستبحار في العمران وقد كانت متعدّدة منها المنازل البسيطة والقصور التي اختصّت بالأمرأ والمباني العظيمة التي شيّدها بعض الخلفاء، وقد وجدت هذه الدّور في المدن المرابطية والموحّدية على اختلاف أنواعها.

¹ ليوبولدو توريس بالباس، المرجع السابق، ص 28

² -السّيّد عبد العزيز سالم، العمارة، المرجع السابق، ص 101-102.

-أنواع المنازل:

-الدور العامة: تُشكّل هذه الدور غالبية الوحدات المكوّنة للنسيج العمراني¹، أعدت للسكن كما هو معلوم وقد أوضحت كتب التّوازل أنّه كان منها المخصّص لعائلة واحدة أو لساكنين يتقاسمانها الأوّل له الطّابق السّفلي والآخر يسكن الطّابق العلوي ولكلّ مدخله وأحيانا يكون مشتركا²، كما أنّ المنطق التاريخي يجعلنا نسلّم أنّ هناك فرق بين الدور الخاصّة بالتّجار وخاصّة المجتمع والطّبقّة العامّة، إلّا أنّها في جميعها تسهم في تشكيل تصوّر للحواضر الإسلامية وقد بلغ عدد الدور السّكنية في مدينة فاس خلال الفترة المدروسة ما يزيد عن تسعة وثمانين ألف ومئتين وستة وثلاثين دارا³.

ومن المنازل الباقية إلى اليوم التي تعود لفترة المرابطين منزّلين بمدينة ندرومة بتلمسان ويقعان في الجهة الشّرقية من المدينة وتحديدا بحي الخربة وحسب الباحث محمد رابح فيسة فإنّ منزل دار زرهوني (الملحق رقم 14) ومنزل دار الفتوح(الملحق رقم 15) ، يعود بناؤهما إلى فترة المرابطين استنادا إلى موادّ البناء المتمثّلة في الحجارة والخشب ومادّة الطّابية التي غلبت على جُلّ المسكنين⁴.

ب المنزل الريفي:

ويتواجد غالبا بالقرى التي تعرف بصغر مساحتها وقلة المنازل الموجودة بها، حيث كان يتراوح عدد المنازل بين اثني عشر وثلاثين منزلا، فكثيرا ما كانت ترد أسئلة في كتب التّوازل عن القرى التي تجب فيها صلاة الجمعة منها ما ورد عن ابن رشد الجدّ عن عدد من تجب عليهم الجمعة، هل يكون عدد البيوت أم عدد الرّجال، وهل غياب بعض أهل البيوت يوجب الجمعة على من بقي وهل تكون الجمعة مخصصة على عدد معيّن من الرّجال ولا معنى للبيوت، إذ المراد من البيوت الرّجال فأجاب ابن رشد إلى أنّ هناك من أوجب وجود ثلاثين رجلا حتّى تجب عليهم

¹ -محمّد ولد عمر، المرجع السّابق، ص 153.

² -الونشريسي، ج8، المصدر السّابق، ص 440.

³ -الجزنائي، المصدر السّابق، ص 44.

⁴ -محمد رابح فيسة، المرجع السّابق، ص ص 178.190.

الصَّلاة، كما أشار إلى أنَّ مالك رحمه الله لم يحد في ذلك حدًّا وإنَّما أجاب أنَّ الجمعة لا تجب إلَّا في القرية الكبيرة المتَّصلة بالبنيان التي فيها الأسواق وقد سكت مرَّة عن شرط وجود الأسواق¹.

-أماكنها:

بُنيت المنازل داخل سور المدينة كما وُجد بعضها خارج السور والبعض منها كان مُعدًّا للكرء ومنها ما استعمل كفنادق وهذا لا يكون إلَّا في المدن الكبرى كثيرة السكَّان المزدهرة كمراكش وفاس وتلمسان، وأخرى مخصَّصة للحبس وهي متعلَّقة بالمساجد حيث خصَّصت للإمام ومساعدته القيم أو كانت تكرى للضعفاء، وقد عُرف عنها الانتظام في شوارع ودروب².

كما بيَّنت كتب النوازل أنَّ العامَّة كانت تلجأ إلى ترميم المنازل وصيانتها وإن تطلَّب الأمر اللجوء إلى الاستدانة، فقد وردت عند الفقيه المازري نازلة حول شخص اشترى منزلا لزوجته وأخيه واستدان من صهره مالا لترميم هذا المنزل، كما كان يلجأ إلى الاستدانة بالتقسيط في بعض الحالات لشراء المنازل، حيث أشارت بعض النوازل أنَّ رجلا اشترى منزلا بثمن مُقسط على أن تتم عملية التسديد على مدار ثلاث سنوات³.

-بيع الدور وكراؤها:

عرفت أسعار العقَّار في الفترة المرابطية تزايداً مُستمراً ووفقاً لأجوبة أبي إسحاق اليهودي تراوح ثمن شراء منزل ما بين 160 و 280 ديناراً، بينما تمَّ شراء المنازل صغيرة المساحة ب 50 إلى 60 ديناراً، أمَّا بالنسبة للإيجار فكانت قيمته دوماً في تصاعد حيث اُكترى ابن قزمان دويرة صغيرة بربع مثقال مرابطي، وطلب منه مالك الدَّار زيادة ثلاثة أثمان مثقال، وقد اُكترى أحد العلماء منزلاً بعشرة أواق للسنة الواحدة حتَّى بلغ مجموع ما أنفقه على الكراء مائتي أوقية في مدَّة

¹-ابن رشد الجدّ ج2، المصدر السَّابق، ص 895.

²- الوئشريسبي، ج8، المصدر السَّابق، ص 267-268. ينظر أيضاً: بن حمو محمد، العمران، المرجع السَّابق، صص 45-46.

³-إبراهيم القادري بوتشيش، حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 2006، ص 36-38.

عشرين سنة، بالمقابل كانت تعرف إنخفاضا كبيرا في أوقات الأزمات الاقتصادية كالمجاعات والحروب حيث وصلت إلى 80 دينارا في فترات المجاعة¹.

- مشاكل أسرية بسبب الدور:

وقعت عديد المشاكل بسبب الأبواب وذلك لأن فتحها وغلقها يؤدي إلى ضرر ويؤدي إلى كشف العورات وتأذي الجيران لذلك كان يتدخل القضاة لفك النزاع² كما أن عرفاء البناء منعوا تقابل الأبواب وأمروا باستخدام التكيب³، ويكون ذلك أكثر في الأربعة الضيقة التي لا منفذ فيها بخلاف إذا كان الزقاق واسعا فإن الأبواب المتقابلة لا ضرر فيها لاتساع الشارع وقد فصل العلماء في هذا الأمر حيث سئل ابن الحاج عن شارع نافذ أراد أحدهم أن يفتح فيه بابا يقابل باب جاره فأجاب بأن يفتح في الزقاق النافذ ما شاء بخلاف إذا كان الزقاق ضيقا فليس له ذلك⁴.

- مكونات المنازل:

- الحجرات:

تختلف عدد حجرات المنازل تبعا للوضعية الاقتصادية لمالكها وكانت في العموم تتكون من أربع غرف إلى ثمان كما هو حال دار الفتوح بمدينة ندرومة التي يعود بناؤها للفترة المرابطية حيث تتوزع غرف المنزل حول فناء من جهاته الأربعة وبه ستة غرف، الغرفة الأولى تقع في

¹ - إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1998، ص 212.

² عيسى بن سهل، وثائق في شؤون العمران في الأندلس المساجد والدور، تح محمد عبد الوهاب خلاف، ط1، القاهرة، المركز العربي الدولي للإعلام، 1983م، ص 24.

³ - التكيب: يقال نكبه أي عدل عنه والمقصود هنا تجنب مقابلة باب الجار لمن أراد أن يفتح بابا في زقاق ضيق فيعمد إلى التكيب إن أمكنه ذلك وإن تعذر التكيب لم يمنع من الفتح وإن تأذى جاره. ينظر: عيسى بن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الأحكام، القاهرة، دار الحديث، 2007، ص 659. - الحميري، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، ج 10، ط1، بيروت، دار الفكر المعاصر، 1999، ص 6752، - بن حمو محمد، المرجع السابق، ص 46.

⁴ - الونشريسي، ج 9، المصدر السابق، ص 20-21. - ينظر أيضا: بن حمو محمد، العمران، المرجع السابق، ص 47.

الجهة الغربية محاذية للمرحاض، أما عن الغرفة الثانية والثالثة فلهما ممر واحد أي أن الداخل الثالثة لابد وأن يمر على الغرفة الثانية ومقاسهما 2.40م × 1.44م.

والغرفة الرابعة تقع في الجهة الجنوبية للمنزل ومقاسها هو الأكبر في حين احتلت الغرفة الخامسة الناحية الشرقية للمنزل، وفي الجهة الشمالية نجد الغرفة السادسة ولها مدخل خاص اتساع فتحته 1.00م ويُعتقد أنها خصّصت للضيوف¹.

-السطوح:

تعتبر من العناصر المهمة في البيوت لإمكانية استغلالها في أغراض متعددة كنشر الزرع، والجلوس في المساء خاصة في الأماكن الحارة كما تقي في فصل الشتاء من الأمطار كما كانت تُبنى عليها أمكنة للتخزين، ونظرا لأن السطح قد يكشف عن الجيران فيتسبب في ضرر يستلزم بناء السُتر²، وقد أورد الونشريسي أنه إذا كان بناؤها ينتفع به كلا الجارين فتصبح واجبة على كليهما ويجبر من أبى على ذلك، وذلك كون المنفعة مشتركة بينهما ولو أدى ذلك إلى منع ضوء الشمس والرياح، لأن تقدير الفقهاء منع كشف الضرر والسُتر أولى من منفعة الشمس، وقد ذهب بعض الفقهاء أن الجار إذا لم يسهم في عملية البناء فإنه يُمنع من الصعود إلى السطح³، ويبدو أنها كانت تصنع من الطين والخشب لتوفير البرودة كما كانت تعزل مياه الأمطار.

-المرحاض:

اختلفت أشكالها حسب الطبقة الاجتماعية ومكان تواجدها بالريف والمدينة حيث كانت تبنى في الأرياف منفصلة عن المنزل بينما في المدينة نجد تواجد أكثر من مرحاض في بيت واحد مثل دار زرهوني بمدينة ندرومة التي يعود بناؤها لفترة المرابطين حيث كشفت الأبحاث

¹ محمد رابح فيسة، المرجع السابق، ص 193-197.

² -السُتر: ستر يستر فهو سائر مفردها ستر يُقال ستر الشيء أي غطاه أو حجه واستتر الإنسان أي أخفى أثره واختبأ والمقصود هنا بستر السطح أي تغطيته عبر بناء جدار يحيط به فيصبح متوارياً، ينظر: ابن الرامي، المصدر السابق، ص 39-أحمد مختار عمر، ج2، المرجع السابق، ص 1032. -

³ ينظر: الونشريسي، ج8، المصدر السابق، ص 444. - ينظر أيضاً: بن حمو محمد، العمران، المرجع السابق، ص 55.

الأثرية أنه تم تخصيص مرحاض للطابق السفلي وآخر للطابق العلوي وتصل بينهما قناة¹ وغالبا ما كانت متصلة بالمياه الجارية وقد بين فقهاء المالكية حكمها فقد وردت نازلة للإمام المازري أن رجلا اشترى دارا بشرط عدم وجود مرحاض الجار فيها، فلما تم البيع وجد أن فيه ضررا فكان يرجع ما يخرج من المرحاض فأنكر الجار على المشتري، فأجاب أن البائع إذا ملك المرحاض ملكا تاما فمن حقه على المشتري فعله وإذا لم يملكه فإن كان في بقائه ضرر على رب الدار لرائحته وقذارته وجب إزالته²، وما يستنتج أنه إذا كان الحق للمنتفع فإنه يزول ما لم يكن له ملكا خاصة مع وجود الضرر.

ومن الأضرار التي أحدثتها المراحيض ببنائها خارج الحائط تضيق الطريق خاصة إذا كان الزقاق غير متسع، أما إذا كانت في شارع واسع حيث إن خروج بنائها لا يضر بالسكانين فلا حرج في ذلك، أما المياه القذرة للمراحيض فقد كانت توجه إلى بئر تحفر داخل الدار، وإما عبر ربطها بنظام الصرف الصحي، والذي هو عبارة عن مجرى كبير خارج الدار مخصص لهذا الغرض³.

-المطامير:

مكان مخصص لحفظ الحبوب والميرة، وقد تتابع استعمالها إلى عهد قريب، وقد ورد في كتاب المعيار أن رجلا اشترى دارا وفيها مطامير لم يذكرها صاحب الدار ولا المكتري عند بداية عقد الكراء، وأراد صاحب الدار بعد مدة أن يطمر فيها طعامه، غير أن المكتري أبى عليه، واحتج بأن له حرية التصرف في المطمر كونه تابع للدار التي اكتراها فأجاب أهل العلم أن المكتري إن عرف بوجود المطامير قبل الكراء فليس لصاحب الدار فيها حق ما لم يشترطها عند الكراء وإن كان لم يعرف أن في الدار مطامير فإنما له ما ظهر عند الكراء ولا يحق له الاختلاف إلا بما يرضي المكتري وذلك لحرمة المنزل⁴.

¹ -محمد رابح فيسة، المرجع السابق، ص 187.

² - الونشريسي، ج8، المصدر السابق، ص-ص 456 457.

³ -بن حمو محمد، العمران، المرجع نفسه، ص 57.

⁴ - الونشريسي، ج8، المصدر السابق، ص 268.

الإسطبل:

الإسطبل بالسّين أو الإسطبل بالصّاد وجمعه إسطبلات أو إسطبلات وهي مأوى الخيل والأنعام ويقصد به في المصطلح الأثري المعماري للدلالة على المكان المخصّص لرعاية الخيول و الدوابّ وتأمين مبيتها¹ فقد سخرها الله تعالى للإنسان وجعل له فيها مآرب عدّة كما ورد عن المولى عزّ وجلّ في قوله تعالى: {وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَاكُلُونَ} (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ²، فكانت رمزا للفروسية وتستعمل في الحروب والتّنقل ، لذلك كان تخصيص مكان لها لإيوائها ضروريا باعتبار منفعتها الكبيرة وكان كُبراء القوم يُخصّصون لها رواء³.

وللإسطبل أهميّة كبيرة حيث كانت لاتخلو المساكن من هذا العنصر في الفترة المرابطية خاصّة وأنّهم أهل بدواة وامتلكوا مختلف الدوابّ واستعملوها في تنقلهم وحروبهم فلا غرابة أن يخصّصوا أقساما من منازلهم لرعاية الأنعام وحفظها وسلامتها وقت الحرّ والبرد ولم تشر الدّراسات إلى هذا العنصر المعماري وذلك لتهدّمه واندثاره إلّا أنّه قد شكّل جزءا من أقسام المنزل وكان قريبا من المدخل الرّئيسي له⁴.

وكانت أحيانا تتسبّب في أضرار للجيران فقد نقل الونشريسي نازلة وردت على أحد القضاة بإزالة الرّواء بسبب الضّرر الذي لحق بالجار، لكنّ صاحب الدّابة قدّم تبريرا أنّه لا غنى عنه لدابّته لحاجته لها في معاشه، فبحث القاضي عن حلّ عند عرفاء البنّان فأشاروا عليه بأنّ يُحفر في الأرض أساسا وينزل قدر قامة الدّابة وبهذا يكون تحت الأرض، وبينى من تحت الأرض بناءً يصل به إلى منتهى السّقف، فلمّا فعل صاحب الدّابة ذلك انقطع الضّرر على الجيران⁵، وهو نفس الرّأي الذي أبداه ابن الرّامي في قضية مشابهة غير أنّه أمر بحفر أساس

¹- محمد عاصم رزق، المرجع السّابق، ص 15.

²- القرآن الكريم، سورة النّحل، الآية 5-6.

³- الرّواء: حبل من الحبال الغليظة، يروى به على البعير لمسك المتاع كما تشدّ به الدّوابّ، وقد تعارف النّاس في المغرب الإسلامي أنّه المكان المخصّص للدّوابّ، ينظر: ابن منظور، ج14، المصدر السّابق، ص 348. -

الونشريسي، ج9، المصدر السّابق، ص 8.

⁴- محمد رابح فيسة، المرجع السّابق، ص 185-186.

⁵- الونشريسي، ج9، المصدر السّابق، ص 8.

على قدر القامة خلف الحائط وأن تكون الجدران أبعد عن بعضها، كما أمر أن يكون عرض الحائط خمسة أشبار، وعرض الحائط شبرين، ويجعل بينه وبين الحائط الذي هو صدر البين نصف شبر للترويح¹.

-الماجل-

وهو خزان مائي تواجد في أغلب المنازل وكان يُملأ من ماء المطر، وموضعه يكون تحت الأرض أو يُبنى في الطابق الأرضي حيث ينزل عليه ماء المطر عبر الطابق العلوي عن طريق مجار خاصة، وكان له دورا مهماً في تخزين المياه واستعمالها أوقات الجفاف أو من طرف المسافرين لذلك كان بناؤه في المدن والقرى والمساجد وقد وردت عديد النوازل توضّح ماء المطر المتواجد بالماجل الدور المكترة لمن هو وكان أهل العلم يجيبون بما جرت عليه العادة².

- الكوى³

عبارة عن فتحات أو نوافذ صغيرة تمّ استخدامها في المنازل لعدّة أمور منها التهوية والإضاءة خاصة إذا كان المنزل صغيرا وليس به ساحة فتصبح حينئذ ضرورية، أمّا عن أماكن وضعها فنجدها في أعلى الحائط لإبعاد الضرر المتعلق بالكشف، كما وضعت في وسط الحائط وبالتالي نتج عنها ضررا ممّا جعل الجيران يلجؤون إلى الفقهاء لإظهار الحكم فيها، ومنها ما كان يوضع في جدار السطح وبالتالي نتج عنها ضررا أكبر كونها تقابل ساحة الجيران مباشرة، كما استخدمت بشكل واسع في المساجد لتوفير الإضاءة الطبيعية⁴.

هـ: الأسواق

¹-ابن الرامي، الإعلان بأحكام البنيان، تح فريد بن سليمان، مركز النشر الجامعي، 1999، ص 65.
²- ابن الرامي، المصدر السابق، 140، ينظر أيضا: 140الونشريسي، ج8، المصدر السابق، ص 429-430.
³-الكوى: مفرد كوة وكوى الثياب أي نظمها، والمكوجي مهنة للتكسب بتبييض الثياب عن طريق تنظيفها وصقلها، أمّا ما يُقصد بها في الناحية العمرانية فهي ما يتقّب في البيت قصد دخول الضوء والهواء، ينظر: أحمد تيمور باشا، ج5، المصدر السابق، ص 268. - أيضا: بن حمو محمد، العمران المرجع السابق، ص 50.
⁴-بن حمو محمد، العمران، المرجع السابق، ص 50.

تُعَدُّ الأسواق¹ من المنشآت العمرانية المهمّة ومركزا فعالا في المعاملات التجاريّة، فهي بمثابة القلب النّابض للمدينة وغالبا ما كانت قريبة من المساجد، فكانت مكانا يجتمع فيه العامّة من مختلف الفئات للتّبادل التجاري واقتناء احتياجاتهم كما تُنْطِجُ للسلطة فرصة الإشراف على عمليات التّبادل التجاري والاستفادة منها خاصّة في المدن، وبحكم هذه الأهميّة فقد انتشرت الأسواق في كافّة أنحاء بلاد المغرب في المدن والأرياف والقرى والحصون وعرفت تنظيما جيّدا حيث كانت تخضع للرّقابة والتنّظيم، ولا تكاد تخلو مدينة من سوق يلبي حاجيات سكّانها.

تشابهت الأسواق في معظم أمكنة بلاد المغرب الإسلامي الوسيط، فنجد ما يُسمّى بالقيسارية التي كانت تختصّ في بيع الملابس والمصنوعات والمصوّغات الذهبية والفضيّة وهناك أسواق أخرى تخصّصت في بيع ما تعلّق بالحبوب والزّيوت والعسل والزّبذّب وغيرها من موادّ الأّطعمة والأشربة².

وما يُهمّنا هو عمارة الأسواق التي يصعب تتبّعها نظرا لنقص المادّة الخبريّة المتعلّقة بذكر عمارتها، فجّلّ ما تمّ ذكره عنها أنّها أسواق عامرة وناققة وغيرها من الأوصاف التي تذكر حال ما بها من سلع³، ونفس الأمر ينطبق على بداية ظهور النمط العمراني فليس هناك دلائل ثابتة ببداية هذا العمل، فقد ذكر ابن عذاري أنّ يزيد بن حاتم لما افتتح إفريقية عمل على إصلاح أسوارها وترتيبها عن طريق تنظيم أماكن الصّناعة والبيع في أماكن مخصّصة ولاشكّ في أنّها الأسواق، ونستشفّ من ذلك أنّها لم تكن منظّمة قبل وصول المسلمين إلى القيروان، أو أنّها انتقلت مع وصول المسلمين إلى بلاد المغرب حيث أصبحت أكثر تنظيما في العهد الرّسّمي والعلوي⁴.

¹ -الأسواق: هي المكان التي تُساق إليها الأشياء قصد البيع والشّراء في المدينة وإليه تقصد التّجارات من مختلف الأماكن فهي مركز لتجمّع أصحاب التّجارة والصّناعة وأرباب الحرف ويرجع بعض الباحثين أنّها أصل لظهور بعض المدن واستقرار العمران ينظر: الصّاحب بن عباد، المحيط في اللّغة، ج5، تح محمد حسن آل ياسين، ط1، بيروت، عالم الكتب، 1994، ص 447. - محمود ولد عمر، المرجع السّابق، ص 167.

² -مسعود كربوع، النّظام المالي في المغرب الإسلامي، (2-8/9-15م) دراسة سياسيّة اقتصاديّة اجتماعيّة، دار أجيال الرّقمي، الجزائر، 2023، ص 650-651.

³ - المقدسي، المصدر السّابق، ص 278. -ينظر أيضا: البكري، المصدر السّابق، ج2، ص 736. - الإدريسي، ج2، المصدر السّابق، ص 858.

⁴ - ابن عذاري، المصدر السّابق، ج1، ص 78. - ينظر أيضا: البلاذري، المصدر السّابق، ص 230.

وبمرور الزمن أصبحت أكثر تنظيماً فمع بداية القرن الثالث الهجري أصبح لها مكان خاص بها وقار عبر بنائه وتشييده، والحرص على نظافته وتهيئته وهي الفترة التي بلغت التأثيرات المشرقية المغربية مداها وقمتها، فأصبحت الأسواق جزءاً مهماً من التخطيط العمراني للمدينة الإسلامية¹، وفي القرن الخامس الهجري أضحت الأسواق أكثر تنظيماً وترتيباً حيث قامت الدولة المرابطية بضبط الأسواق وجعل أهل الصنائع في حي واحد، فأصبحت لكل صناعة سوق أو حي خاص بها يسمى باسمها مثل سوق الطوابين والعطارين والفخارين والصباغيين والزجاجيين وغيرها من الصناعات، وكُلّف المحتسب بالتدخل في رقابتها وفق ما حدده الفقهاء، فكانت تحت خضوعه لذلك تم وضع مجموعة من الشروط لمنصب المحتسب منها درايته وحذقه في مهنته، كما وضع المرابطون نظاماً لتنظيم الصناعات فنجد على كل رأس مهنة رئيساً أو مقدماً أو أميناً أو عريفاً²، ولا يستبعد أن يكون هناك عرفاء البناء الذين اختصوا بمتابعة ومراقبه البنائين.

و: الفنادق:

تعددت الأسماء التي أطلقت على هذه المنشئة التي كانت تُعدّ خصيصاً لاستقبال المسافرين والتجار والغرباء³، وجمع الفندق الفنادق ويطلق عليه أيضاً الفندق للتصغير ويحتمل أن عدد غرفه قليلة، وقد ورد في الأبيات المشهورة في القرية وعظمها يا صاح سكن الفنادق⁴، والفندق بضم الفاء وسكون النون وفتح الدال وهو تعبير خطأ إنما هو فندق بضم الفاء والدال والفندق بلغة أهل الشام الخان وجمعه خانات فهو المكان الذي ينزل به الناس والتجار والمسافرون وغيرهم سواء أكان مكانه في الطرق أم المدن⁵، وهو كلمة فارسية الأصل تعني المنزل المؤثث أو النزل المفروش الذي أُعدّ لاستقبال المسافرين من تجار وحجاج وغيرهم وتكون الإقامة فيه

¹ -عمر بلوط، المرجع السابق، ص 88.

² -هناء محمد عبد الحميد الفقي، المرجع السابق، ص 93-94.

³ -أحمد بن إسماعيل بن محمد تيمور، ج3، المرجع السابق، ص155.

⁴ -محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج 26، د ط، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2001، ص316.

⁵ -أبو علي القالي، البارغ في اللغة، تحقيق هشام الطعان، ط1، بيروت، دار الحضارة العربية، 1975، ص 557.

للاستراحة نظير أجر معلوم¹ ويطلق مصطلح الفندق على نوعين من المنشآت يختلفان في الموقع ويتشابهان في تكوينهما المعماري.

النوع الأول: يسمّى بخان الزّيف يكون موقعه خارج المدن في الأرباض والضواحي، وغالبا ما يتمّ بناؤه قرب الطرق الرئيسية المهمّة تكون المسافة بينه وبين خان آخر حوالي مسافة سير يوم واحد وُجدت هذه الخانات كنتيجة حتمية لتوفير المياه والغذاء والأمن بصفة عامّة، وكان التّكوين المعماري لهذا الخان يضمّ مستودعات لحفظ البضائع التجاريّة كما يتوفّر به أمكنة مخصّصة للحيوانات وعدّة مرافق لراحة المسافرين كالحمامات وغيرها².

أمّا النوع الثاني: شكّل جزءاً مهماً للنسيج العمراني ويتواجد عادة داخل المدن وفي وسطها لذلك تمّت تسميته بخان المدينة وغالبا ما يتكوّن من طابقين إلى ثلاثة، يُخصّص الأعلى لدوره الرئيسيّ المُتمثّل في مبيت المسافرين بينما الطّابق الأرضي كان به مخازن لحفظ سلع التّجار وأمكنة للحيوانات، ونظرا لموقعه في قلب المدن وقُرب الأسواق فقد لعب دورا مهماً في التّرويج لسلع التّجار وقد عرف تطوّرا كبيرا بعد القرن (7هـ/13م)³، وحسب ما ورد في نوازل ابن رشد الذي كان معاصرا لدولة المرابطين أنّ الفنادق التي تتكوّن من طابقين كانت أكثر انتشارا في هذه الفترة⁴.

أمّا فيما يخصّ مسألة العدد يصعب معرفة وحصر أرقام الفنادق في الفترة المدروسة بالرّغم من وجود إشارات عديدة في المصادر التاريخية للفنادق التي تعود نشأتها إلى الفترة المرابطية، ومنها فندق لبيب بمراكش أشار إليه صاحب الإحاطة عند حديثه عن الكتّاب والشّعراء في هذه الفترة وذكر أنّ الفتح ابن علي ابن أحمد ابن عبيد الله المعروف بابن خاقان⁵ توفي

¹ -زين الدين الرّازي، مختار الصّاح، ط5، بيروت، الدّار النّمونجية، 1420هـ/1999م، ص 308.

² -عمر بلوط، المرجع السّابق، ص ص70-71.

³ -محمد بن ساعو، العمارة التجاريّة في المغرب الأوسط خلال العهد الزّيّاني من خلال مصنّفات النّوازل والحسبة (07-09هـ/13-15م)، المجلة المغربية للمخطوطات، العدد 01، ج11، (ص-ص 07-42)، 2015، ص 28.

⁴ -ابن رشد، ج2، المصدر السّابق، ص 1143.

⁵ -الفتح بن محمد بين عبيد الله، الإشبيلي، كاتب فصيح وبارع عرف عنه قوّته في قرض الشّعر وله عدّة مصنّفات أشهرها قلاند العقيان، ومطمح الأنفس وحديقة المآثر، ينظر:الفتح بن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التّائس في

بمراكش ليلة الأحد لثمان بقين من محرّم من عام تسعة وعشرين وخمسائة حيث وجد قتيلا ببيت من بيوت فندق لبيب¹.

-وظائف الفندق:

من المعلوم أنّ وظيفة الفندق تتمثّل في الإيواء لكن يبدو أنّها لم تؤدّ هذه الوظيفة فقط بناءً على ما ورد عند عبد الواحد المراكشي بأنّ مجموعة من الأسرى جيء بهم إلى مدينة مراكش "فأمّا النّساء فدخل بهنّ ليلاً فجعلن في بعض الخانات إلى أن نفذ الأمر بالمنّ عليهنّ وإطلاقهنّ وتزويج من تحتاج إلى التّزويج منهنّ وتجهيزها بمال، وأمّا الرّجال فلم يزلوا في الحبس"²، يفهم من وضع النّساء الأسيرات في بعض فنادق المدينة أنّ بعضها أدّى مهام السّجن الخاصّ بالنّساء وهي مسألة لا يُمكن الجزم بها هل كانت هذه المهمة دائمة أم ظرفية، وقد رجّح بعض الباحثين بظرفيتها لأنّ نفس الوظيفة الأمنية أدتها وحدات معمارية بالمدينة لا علاقة لها بذلك مثل المسجد³.

بالإضافة إلى أنّ الفنادق قد استخدمت في الدّور التجاري ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط، فكانت كوحدات تجارية تستقبل وتخزّن السلع حيث ارتبط العديد منها بوظائف اقتصادية مهمّة، فأصبحت هذه الفنادق جزءاً من الوحدات المعمارية المخصّصة للتّجارة في المدينة الإسلامية، كما أنّ مبيت التّجار الغرباء فيها يزيد من احتمال أنّها كانت تستقبل بضائعهم القادمة من مختلف المدن وفيها تتمّ عمليّة المبادلات والتّخزين، وهو ما أكّده الرّحالة ابن حوقل بأنّ الفنادق يسكنها التّجار بالتّجارات للبيع والشّراء فيقصد كلّ فندق بما يعلم أنّه يغلب على أهله التّجارة كما قدّم لنا إشارة تفيد بوجود صنفين من الفنادق، أحدها يسكنه الأغنياء أصحاب الأموال والأرزاق الكبيرة وتقع عموماً في الطّرق الرئيسيّة من التّجارة تمرّ من خلالها البضائع الكبار

ملح أهل الأندلس، تح محمد علي شوابكة، ط1، دار عمار، مؤسّسة الرّسالة، 1983م، ص 1-464. ابن عبد الملك المراكشي، الذّيل والتّكملة لكتّابي الموصول والصّلة، ج2، ط1، تونس، دار الغرب الإسلامي، 2012، ص 444. ابن خلكان، ج2، المصدر السّابق، ص 429.

¹ لسان الدّين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ط1، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1424هـ، ص 208-212.

² عبد الواحد المراكشي، المصدر السّابق، ص 231.

³ محمد رابطة الدّين، ج1، المرجع السّابق، ص 253-254.

والأموال نظرا لكونها أكثر أمانا، والصَّنَف الثاني لغير الميسير يقصدها أصحاب الحِرَف وأرباب الصَّنَاع بالدكاكين المعمورة والحجر المسكونة والحوانيت المشحونة بالصَّنَاع كالأساكفة والخرازين والحبَّالين وغيرها من أصحاب الحرف وعامة النَّاس¹.

كما أنَّ عبد الواحد المراكشي صاحب كتاب المعجب الذي ألفه في الشَّرق كان على دراية تامّة بالوظائف التي كانت تُؤدَّى في الخان، ولو كان هناك في مراكش ما يخالف ذلك لأشار إليه نظرا لما عُرف عنه من شِدَّة ودقَّة في الملاحظة²، بناءً على ذلك فمن المحتمل أن تكون الفنادق قد جمعت بين وظيفتي الإيواء والتَّجارة، والأمن كون معظمها كان يُبنى داخل سور المدينة ممَّا وقَّـر بيئة آمنة ومُربحة للتَّجَار.

وفي هذا المنحى فإنَّ ازدهار العلاقات التَّجارية أسهم في حركية العمران والتَّوسُّع في المبادلات التَّجارية خلال العهد المرابطي، ممَّا استدعى زيادة الاهتمام بهذه المؤسَّسات كونها مكانا لالتقاء أكابر التَّجَار وتحفظ سلعهم، وهو ما وقع في مدينة مراكش حيث بُنيت بها عديد الفنادق³، ونفس الأمر يُلاحظ على مدينة فاس في نفس الفترة إذ أنَّ معظم الفنادق التي بُنيت فيها كانت في أماكن تجارية وكانت هذه الفنادق قريبة من بعضها وتحيط بالمدينة، ممَّا زاد من قوَّة الحركة التَّجارية والاقتصادية ومن أشهر هذه الفنادق فندق الشَّمَاع بمدينة فاس وتحديدا في الشَّمال الغربي لمسجد القرويين، بالقرب من باب الشَّمال، ويُعدّ من أشهر الفنادق التي بناها المرابطون وتمَّت تسميته بهذا الاسم لكثرة ممارسة حرفة صناعة الشَّمع بالقرب منه⁴، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّها كانت عاملاً مهمًّا في تحقيق الثَّراء والرِّخاء الاقتصادي ممَّا جعلها محلَّ اهتمام الحكَّام وأكابر التَّجَار.

كما نوهت المصادر إلى ضرورة بناء الفنادق داخل سور المدن لتوفير الحماية والأمن مع وجوب التَّأكيد على أن يكون الجدار سميكا وأن تكون موادَّ بنائه من الموادَّ الجيِّدة كالحجر والآجر، وغالبًا ما كان له باب واحد يتميَّز بالصَّلابة ويؤدِّي مدخل هذا الباب إلى ساحة كبيرة بها

¹ - ابن حوقل، ج2، المصدر السَّابق، ص 432.

² - محمد رابطة الدِّين، ج1، المرجع السَّابق، ص254.

³ - مسعود كربوع، المرجع السَّابق، ص642.

⁴ - عمر بلوط، المرجع السَّابق، ص 91-92.

عديد الممرّات تضمّ مجموعة من الغرف والمحلات الخاصة بالتّجار، ونظرا لكون السّور ضرورة أساسية لبناء الفنادق، نجد إشارات ذلك في بعض الاتّفاقيات مثل اتّفاقية مملكة أرغون مع تونس حيث جاء في بند الاتّفاقية أن تكون الأسوار في فنادق تونس وتحديدًا فندق الصّقليين، حيث لا يمكن الدّخول إليه إلّا من البوابة الرئيسيّة، كما أنّ ما تضمّنته الوثائق الأرشيفية للعلاقات بين ضفّتي البحر المتوسّط قد بيّنت مدى تأثير المعاهدات التجاريّة المبرمة بين دول المغرب الإسلامي والممالك المسيحية على التّصاميم المعمارية للفنادق رغم أنّ الشّكل الهندسي لهذه المؤسّسة العمرانية غير معروف بدقّة في هذه الفترة ولكن من خلال رصد بعض المؤشّرات التي وردت في المصادر التاريخيّة المتداولة يمكن تثبت أنّ الفنادق كبنائيات ذات تصاميم عمرانية لم تختلف عن بعضها كثيرا، وغالبا ما كانت تأخذ شكل بناء دائري أو مستطيل له باب رئيسي للدّخول والخروج ويبدو أنّه كان لكلّ جالية وجماعة مقيمة فندق خاص، وكنتيجة لذلك نصّت بعض المعاهدات على امتلاك كلّ جالية مسيحية لفندق خاصّ بها¹.

وقد كانت الفنادق ضرورية في المدن الإسلاميّة لكنّها في بعض الأحيان كانت تتسبّب في إزعاج وأضرار للجيران ومن ذلك ما ورد في نوازل الونشريسي حول مسألة في ثلاثة جيران بنى اثنان منهما في منزليهما فندقين للمسافرين فوق ضرر للجار الثالث جرّاء ذلك كون المنازل الثلاثة تقع في زنقة ضيقة وليس بين أبواب الفندقين والمنزل إلّا نحو ثلاثة أذرع²، نظرا لكثرة الوارد، فأجاب أهل العلم أنّ له القيام إذا كان الضّرر بشرط إذا لم يمض من ذلك من الأمد ما تكون فيه الحيّزة إلى مثله وهو ساكت لا يغيّر فيلزم بذلك ولاقيام له بعد هذا إذا لم يكن لذلك الأمد اليسير³.

يتبيّن إذن من خلال ما سبق ذكره أنّ مؤسّسة الفندق قد أدّت عدّة وظائف، ممّا جعل نمطها العمراني مميّزا يعكس الفهم العميق لحاجات المجتمع الاجتماعيّة والاقتصاديّة وقد أدّى ذلك إلى ظهور نمط عمراني خاصّ ببلاد المغرب وفقا لمتطلّبات المجتمع.

¹ - مسعود كربوع، المرجع السّابق، ص 645-648.

² - الذّراع، جمعها أذرع وهي ما بين طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطي، ينظر: ابن منظور، ج8، المصدر السّابق، ص 93.

³ - الونشريسي، ج9، المصدر السّابق، ص 41-42.

و: القناطر والسدود:

شكّل بناء القناطر والسدود المائية أهميّة بالغة في بلاد المغرب الإسلامي منذ القدم نظرا لكون هذه المنشآت من المرافق الحيوية المشتركة بين أفراد المجتمع، كونها جسورا تسهم في تسهيل الحركة كما أسهمت السدود في التخزين والحفاظ على المياه وللحاجة الماسة إليها في الزراعة خاصّة وأنّ بلاد المغرب الإسلامي تُعرف بتذبذب عملية تساقط الأمطار وعدم انتظامها لعدّة اعتبارات، ولم يقتصر دور هذه المنشآت في الوظائف العملية بل عكست التطوّر العمراني الذي بلغه المغرب الإسلامي خلال الفترة المدروسة.

كما لا يمكن فصل موضوع المياه عن المناخ وعن العمران بالمغرب الإسلامي فالمياه تقلّ في المناطق الجافّة ممّا يسبّب الخصومة والمشاكل التي تتعلّق بتوزيعه بين العامّة في البوادي والمدن، فأهل البوادي حاجتهم له في السقي بينما أهل المدن استعمالهم له في الشرب والصناعة لذلك وقرّ تشييد هذه المنشآت حلّ عديد المشاكل الاجتماعية، والمألوف منذ القدم أنّ البناء والتعمير يتوسّع حيث تتوفر المياه لذلك كان بناء المنشآت المائية يسهم في التحكم في المياه وتخزينها واستغلالها حسب الحاجة وقد اكتسب المرابطون خبرة كبيرة في تشييد هذه المنشآت دفعت بها حاجتهم إلى المياه ودرء أخطار الفيضانات¹، ونظير أهميّة هذه المنشآت في الحفاظ على العمران من الخراب وتسهيل حركة المرور بين العامّة، كما تسهم في تنشيط الحركة الاقتصادية لذلك عمد المرابطون لتشييد مجموعة من القناطر بالمغرب الإسلامي أبرزها قنطرة وادي تانسيفت على بعد أربعة أميال من مراكش وصفها صاحب المعجب بالقنطرة العظيمة²، وذلك ربما لشدة تماسكها وقوة تدفق المياه الجارية تحت القنطرة ممّا يعكس استقرارها ودورها في الربط بين ضفتي النهر.

¹ - سامي محمد نوار، المنشآت المائية بمصر منذ الفتح الإسلامي وحتى نهاية العصر المملوكي دراسة أثرية معمارية، الإسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 1999، ص 8. - ينظر أيضا: محمد السيد أبو رحاب، العماير الدينية والجنائزية بالمغرب في عصر الأشراف السعديين دراسة أثرية معمارية، ط1، القاهرة، دار الأزهر، 2008، ص 218-219.

² - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 262.

والجدير بالذكر أنّ فترة بنائها كان في عهد علي بن يوسف حيث بلغ طولها 400 متر ترتكز على واحد وعشرين قوسا مبنية بمادة الآجر والجير ولم تتمكّن من الصمود لفيضان النّهر حيث تهدّمت وأُعيد تجديدها في العهد الموحّدي وتحديدا سنة (566 هـ - 1170م) في فترة حكم يعقوب المنصور¹.

ثانيا: العمارة المدنيّة في عهد الموحّدين

أ: بناء المدن:

قام الموحّدون بتأسيس عديد المدن المستحدثة وتطوير بعض المدن القائمة وخاصّة المدن التي لعبت دورا حضاريا مهمّا في الفترة المرابطية، وكان ذلك تماشيا مع زيادة عدد السّكّان أو لتخليد أسماء السّلاطين في التّاريخ ومن المدن التي بناها واعتنى بها الموحّدون نذكر:

-مراكش:

حافظ الموحّدون على العاصمة المرابطية مراكش كعاصمة لهم بعد حصارهم لها سنة (541هـ/1146م) حيث تمكّنوا من دخولها، وقاموا بإضافة بعض البنى التّحتية التي لم تُعرف في الفترة المرابطية فقد استولى عبد المؤمن بن علي بجيشه على جبل إيجليز الواقع غرب مراكش وبنى في أعلاه قبة حمراء بنيت حولها مدينة كبيرة، فقد كان مولعا بتشييد المباني الجديدة حيث أتمّ أشغال جلب الماء وصنع السّقايات بقرب دار الحجر²، وما يلاحظ أنّ عملية التّخطيط تمّت على عجل عقب دخول العاصمة مباشرة كما تمّ إعادة تشكيل الإطار البشري بوتيرة سريعة وتشجيع العناصر البشرية للاستقرار بالمدينة حيث وفدت مجموعات من المغرب الأوسط تتمثّل تحديدا في وصول قبيلة كومية إلى مراكش واستوطنتها عام (557هـ/1162م)، وقُدّر عدد عناصرها بأربعين ألف نسمة استدعاهم عبد المؤمن وأمرهم أن يركبوا كلّ من بلغ الحلم منهم

¹ -إبراهيم حركات، ج1، المرجع السّابق، ص 225.

² -ابن قنفذ، الفارسية في مبادئ الدّولة الحفصية، تح محمد الشّاذلي النيفر و عبد المجيد التّركي، تونس، الدّار التّونسية، 1968، ص 102. ينظر أيضا: محمد عبد الله عنان، ج3، المرجع السّابق، ص ص 260-267، - روجر لي تورنو، المرجع السّابق، ص 64-65.

ويأتونه في أحسن زيٍّ وأكمل عدّة¹، وهو رقم كبير لاشكَّ أنه أسهم في الدّفع بحركة التّعمير في المدينة والتي وفدت إليها أيضًا قبائل المصامدة من الجنوب ومجموعة من المغرب الأدنى وأسر معروفة من المجال كأُسرة ابن دافال الوردميّشي وأُسرة اللّخمي من تلمسان والهمذاني من مدينة وهران².

وقد عنى الموحّدون بمدينة مراكش وشيّدوا بها عديد المباني كالقصور والبلاطات التي خصّصت للأمراء وخُدّام الدّولة، كما وصف الإدريسي أزقتها بالاتّساع ومبانيها بالسّموّ وكثرة أسواقها³، فقد بنى الموحّدون عديد المرافق ممّا جعلها تُلقّب ببغداد المغرب⁴ نظير تفرّد بناياتها وقصورها وتصميم بساطينها الحسنة الموزّعة على أرجاء المدينة زيادة على جودة موادّ البناء المستعملة فيها والمجلوبة من جبل إيجليز⁵، وقد ساعد على ذلك الطّروف الاقتصادية الجيدة والتي دفعت الموحّدين بعدم الاكتفاء بتوسعة مراكش بل قاموا بتأسيس عديد المدن⁶، وخاصّة في فترة ثالث خلفاء الموحّدين أبي يوسف يعقوب المنصور فبالرّغم من قضاء معظم سنوات حكمه في الحروب إلّا أنّه ترك بصمة عمرانية عكست جهود الدّولة في الاهتمام بالعمارة⁷.

وقد قدّم لنا الجغرافي الحميري مقارنة بين مراكش المرابطين ومراكش زمن الموحّدين بقوله وعظمت في الدّولتين وتنافس فيها السّاكنة في البناء وبنيت فيها الفنادق والحمامات وهي أكبر مدن بلاد المغرب في الجنان والبساتين وقد استخرجت المياه في العهد المرابطي وأتمّ الموحّدون جلبه وصنعوا منه سقايات ممّا دفع الناس للاهتمام بغرس الأشجار والبساتين وأكثرها الزّيتون

¹- النّاصري، ج2، المرجع السّابق، ص 142.

²- محمد رابطة الدّين، ج1، المرجع السّابق، ص 54-55.

³- الإدريسي، ج1، المصدر السّابق، ص 234.

⁴- مجهول، الحل، المصدر السّابق، ص 4.

⁵- إبراهيم القادري بوتشيش، دور المصادر الدّفينة في كشف الجوانب الحضارية المنسية للمدينة المغربية- دراسة تطبيقية حول مدينة مراكش من التّأسيس حتّى أواخر عصر الموحّدين، المدينة في تاريخ المغرب العربي، الدّار البيضاء، منشورات كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة، أشغال النّدوة المنظّمة من 24-26 نوفمبر، 1988، ص 38.

⁶- عزّ الدّين عمر موسى، الموحّدون في الغرب الإسلامي تنظيّماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 44.

⁷- روجر لي تورنو، المرجع السّابق، ص 76-77.

فاستغنت عنه لكثرتة، حتّى صارت حاضرة المغرب وقاعدة البلاد ولا زالت تزيد ضخامتها إلا أن اختلّت أحوالها وفشا فيها الظلم والفجور بمقتل آخر ملوك الموحّدين إدريس بن محمد بن عمر بن عبد المؤمن المدعو بأبي دبوس سنة (666هـ/1267م)¹.

-مدينة جبل طارق:

كان موقع جبل طارق منطلق القائد طارق بن زياد نحو فتح الأندلس سنة (92هـ/711م) وهو عند الجزيرة الخضراء وسمّيت المنطقة باسمه،² وفي العهد الموحدّي أمر عبد المؤمن بن علي وهو بالمغرب الأدنى ببناء مدينة بجبل الفتح وتحصينها وكان ابتداء البناء في التّاسع من ربيع الأول (555هـ/1161م) وتمّ الانتهاء من البناء في ذي القعدة من نفس السّنة³، وكان الهدف من بنائها حسب مؤرّخ الموحّدين ابن صاحب الصّلاة أن تكون منزلاً للأمراء عند جواز الجيوش والعساكر ومقرّاً عند تقدّم الرّايات المظفّرة نحو بلاد الرّوم⁴، والموقع له أهمّية حربية كبرى أدركها الموحّدون ومكّنهم من الاحتفاظ ببلاد الأندلس لفترات طويلة.

خُصّصت مبالغ مالية كبيرة للبناء فتّم انتداب خيرة البنّائين والنّجارين والمختصّين بتقطيع الحجارة⁵، وقد أشرف أبو سعيد عثمان ابن الخليفة بنفسه على العملية حيث سافر من غرناطة إلى جبل طارق مع عساكره وطلبة إشبيلية، كما تمّ استشارة الشّيخ أبي حفص وإسحاق بن بزار والحاج يعيش المالقي والقائد عبد الله بن خيار عن مكان البناء⁶، وما يستنتج هو سرعة الاستعداد والاستنفار في عملية الإعداد لبدأ التّشييد، فقد تضافرت الجهود في إحكام البناء من قصور مشيّدّة والدّور والأسوار العجيبة المرصّعة بالأبواب وأشهرها باب الفتوح، استمرّت عملية البناء شهوراً بهيماً مضاعفة حتّى كملت عملية البناء على أحسن وجه ولم تنقطع المراسلات أثناء عملية البناء بين السيّد أبي يعقوب والخليفة وتمّ الاتفاق على موعد قدوم الخليفة إلى المدينة وكان ذلك في

¹-الحميري، الرّوض المعطار، المصدر السّابق، ص ص 540-541.

²-الحميري عبد المنعم، صفة جزيرة الأندلس، تع ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت، 1988، ص 121.

³ السلاوي، ج2، المرجع السّابق، ص 140.

⁴ ابن صاحب الصّلاة، المن بالإمامة تاريخ المغرب والأندلس في عهد الموحّدين، تح عبد الهادي التازي، ط3، دار الغرب الإسلامي، 1987، ص 84.

⁵ الحميري، صفة جزيرة الأندلس، المصدر السّابق، ص 121.

⁶ ابن صاحب الصّلاة، المصدر السّابق، ص 85.

شهر ذي القعدة من سنة (556/1161م)¹، حيث كان يوماً مشهوداً احتشد فيه الناس لرؤية الخليفة وظهر فيه من فخامة الملك² وقد استحسن الخليفة ما رآه من تمام البناء وأمر بالاحتفال والإنعام علي البنائين والصّناع، كما وفد على الخليفة القضاة والخطباء والشّعراء مُبايعين ومهنتّين بهذا الإنجاز³.

-مدينة البطحاء:

تمّ بناء هذه المدينة من طرف عبد المؤمن بعد عودته من فتح المهدية سنة (555هـ/1159م)، وهي مدينة عظيمة ببلاد المغرب الأوسط بنواحي مدينة الشلف حالياً في وطأة من الأرض ويُطلق عليها مدينة السّدر⁴، ويعود سبب بنائها إلى أنّ الموحّدين لمّا طالت مدة إقامتهم بالمشرق والتّغرب عن أوطانهم عزمت مجموعة منهم علي النّيل من عبد المؤمن وقتله في خبائه أثناء نومه فأطلع أحد الأشياخ عبد المؤمن بما دُبّر له وطلب منه أن يفتيه وأن يتركه ينام في فراشه، فإن فعلوا ما اتّفقوا عليه يكون قد فداه بنفسه فلمّا أصبح الصّبح وُجد الرّجل مقتولاً، فأراد عبد المؤمن تكريمه لصنّيع فعلته وحمله على ناقة لا يقودها أحد حتّى بركت وحدها، وتمّ دفن الرّجل في هذا المكان وبُنيت عليه قبة وبني بجوار القبة مسجداً ثمّ أمر عبد المؤمن ببناء مدينة حول المسجد وترك بها عشرة أهل بيت من كلّ قبيلة من قبائل المغرب⁵.

-مدينة تازة:

يعود تأسيس المدينة إلى سنة (529هـ/1135م) على يد عبد المؤمن بن علي وهي من أوائل المُدن التي بناها الموحّدون في الممرّ الواصل بين مدينة فاس والجانب الشّرقى للمغرب الأقصى وبها عديد الآثار التي مازالت إلى اليوم⁶.

¹-الحميري، صفة جزيرة الأندلس، المصدر السّابق، ص 121. ينظر أيضاً: عيد الله عنان، ج3، المرجع السّابق، ص 381.

² ابن صاحب الصّلاة، المصدر السّابق، ص 92.

³ عبد الله عنان، ج3، المرجع السّابق، ص 382.

⁴ مبارك الميلي، ج2، المرجع السّابق، ص 335.

⁵ السلاوي، ج2، المرجع السّابق، ص 140.

⁶ عثمان عثمان إسماعيل، ج3، المرجع السّابق، ص 151.

-مدينة المهدية:

بنى الموحّدون مدينة المهدية رباط الفتح في بداية دولتهم، وأتقنوا فيها البناء وجلبوا إليها الماء و تمّ بناء عديد القناطر بها ربطت بينها وبين مدينة سلا، وقد لاحظ عبد المؤمن تراجع أهميّة رباط شالة بعد تمكّنه من القضاء على قبائل برغواطة، في حين استعاد رباط سلا أهميّته كونه مكانا مهماً لحشد جنود نحو عدوة الأندلس فأقام في هذا الرّباط مدينة المهدية التي كانت عبارة عن معسكر للجنود وتحولت منذ سنة (545هـ/1150م) إلى مدينة نظرا لموقعها الاستراتيجي¹.

-مدينة رباط الفتح:

بنى الموحّدون مدينة رباط الفتح وقد كانت في الأصل عبارة عن رباط غير بعيد عن مدينة سلا التي كان يُعرف بها²، ويعود سبب تأسيس المدينة لرغبة الموحّدين في تأسيس قاعدة للجيش المارة نحو الأندلس شمالا أو إفريقية شرقا فوق الاختيار على رباط الفتح الذي يمتاز بموضع استراتيجي مهم يُحقّق هذا الهدف بالإضافة إلى توسّطها بين مراكش والأندلس³.

والجدير بالذكر أنّ عبد المؤمن قال لأتباعه يوما أنّكم ستبنون مدينة عظيمة ثمّ يضطرب أمركم ولا يبقى بين أيديكم إلا هذه المدينة التي تكون رباطا وفتحا للمصامدة⁴، وقد قام يوسف بن عبد المؤمن بتخطيط المدينة ووضع نواتها الأولى سنة (545هـ/1150م) وأمر بتعميرها ولكنّه لم يكمل تخطيطها، ولمّا تولّى الخليفة يعقوب المنصور (593هـ/1197م) الحكم أمر بتسويرها وأنفق الأموال العظيمة على تعميرها حتّى أصبحت تشبه الإسكندرية في اتساعها وحُسن عمارتها⁵.

¹ عثمان عثمان إسماعيل، ج3، المرجع السابق، ص 150-151.

² السلاوي، ج2، المرجع السابق، ص 119.

³ عثمان عثمان إسماعيل، ج3، المرجع السابق، ص 171.

⁴ عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 257.

⁵ السلاوي، ج2، المرجع السابق، ص 195.

يمكن القول إنّ حُكّام الموحّدين اهتمّوا بشكل واضح بتشديد المدن وجعلوا ذلك أداة لتثبيت سلطانهم، حيث اتّبعوا نهجا يجمع بين التوسّع الحضري والوظيفة السّياسية والعسكرية وقد أكّد ذلك الباحثان الإسبانيان توريس بلباس وباسيليو بابون مالدونادو حيث أبديا إعجابهما بإنجازات حُكّام الموحّدين الذين كانوا رعاة حقيقيين لثقافة العمارة¹ ومن أهمّ إنجازاتهم القصور

ب: القصور:

يُعدّ بناء القصور في عهد الموحّدين وتجهيزها من المعالم المهمّة حيث عُنيّت باهتمام خاصّ من طرف الحُكّام كونها كانت تعكس قوّة الدّولة وعظمتها²، ويبدو أنّ الموحّدين قد اقتدوا بملوك الطّوائف في العناية بالقصور والدّور، فقد أورد ابن صاحب الصّلاة حول بنائهم للقصور أنّه لم يسبقهم في ذلك ملك من الطّوائف أو من الخلائف، منها قصور البحيرة خارج باب جوهر بمدينة إشبيلية³، ولم تكن قصور الأندلس أقلّ شأنًا من قصور مراكش وفاس وغرناطة⁴.

ويُعدّ عبد المؤمن أوّل من شرع في الاهتمام ببناء القصور بمراكش لتكون مقرّا للحكّام والأمراء، وفي عهد أبي يوسف يعقوب زاد الاهتمام بالبناء والتّشديد، وفي هذا الصّدّد يشير صاحب المعجب أنّه بعد انتصاره على الرّوم في مدينة شلب أمر أن يُبنى له حصن على نهر إشبيلية يكون به عديد القصور والقباب، وطوال فترة حكمه لم يخل من قصر يستجده أو مدينة يأمر بعمارته، وقد قام بزيادة عمران مدينة مراكش زيادة معتبرة فنمت له القصور على ما أراد وزيادة⁵.

وعن تصميمها المعماري فقد تأثّرت بالطّابع الأندلسي الذي يميل إلى التّرف والاهتمام بالتّفاصيل حيث نجد بها الحدائق والبرك المزخرفة، أيضا ينتشر نظام البرطلات⁶ المطّلة على البرك، ونظام

¹باسيليو بابون مالدونادو، عمارة المساجد في الأندلس غرناطة وباقي شبه الجزيرة الإيبيرية، تر، خالد بسطي، ط1، المسيلة، الجزائر، دار فيريرو للنشر والتّوزيع، 2015م، ص34.

²حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السّياسي والدّيني والثّقافي والاجتماعي، ج4، ط14، دار الجبل بيروت، مكتبة النّهضة المصرية القاهرة، 1416هـ/1996م، ص 399-400.

³ابن صاحب الصلاة، المصدر السّابق، ص 272.

⁴كمال الدّين سامح، المرجع السّابق، ص152.

⁵عبد الواحد المراكشي، المصدر السّابق، ص153، 212.

⁶البرطل: القلنسوة والبرطلة المظلة الصّيفية وبرطل جعل أمام الحوض برطيلًا وبرطيل بالكسر حجر أو حديد والمقصود به هنا عبارة عن سقف يوضع أمام برك المياه. ينظر: الفيروزآبادي، المصدر السّابق، ص 966.

القاعات المطلّة على البحيرات مثل قصر البحيرة الذي بني في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بإشبيلية سنة (567هـ-1171م)¹، وما يلاحظ في الطراز المغربي كثرة الزخرفة حدّ الإسراف، وتغطية المساحات بها، بشكل فني دقيق يجلب الانتباه والإعجاب لاسيما تلك الزخارف المحفورة في الجصّ والمصنوعة منه، كما كان للمقرنصات أهميّة كبيرة في هذا الطراز²، وقد اندثرت قصور المرابطين مثل قصر دار الأئمة الذي بناه يوسف بن تاشفين، ودار الحجر الذي بناه علي بن يوسف، وكذلك لم تبق قصور الموحّدين واختفت مثل قصر الخلافة وقصر أبي الرّبيع بمراكش وقصر عبد المؤمن بالرباط³.

ج: الدّور:

تُعتبر الدّور النّواة الأولى في بناء المدن، وعلى عكس المساجد التي تمّ هدمها ولم تُنم الصّلاة فيها فقد سكن الموحّدون ديار المرابطين وأمر عبد المؤمن بتوزيعها بعد سقوط مراكش⁴ وبُنيت أخرى وقد اختلفت طريقة بنائها من مكان لآخر حسب الإمكانيات الماديّة والبشريّة والاقتصاديّة، فخلال فترة حكم الخليفة أبي يعقوب عرفت المنازل أهميّة متزايدة في مدينة مراكش العاصمة بلغت حدّ التّشبع، وهو ما عبّر عنه ابن عذاري بقوله: "فضاقت بالنّاس فلم يجدوا موضعا للبناء ولا محلاّ للسّكنى"⁵، ممّا يُظهر أنّ المدينة أصبحت محلّ جذب لمختلف القبائل وأصحاب الأموال الذين تفاخروا في سكناها "وابتنوا بمراكش الدّيار العتيقة"⁶، أمّا في مدينة فاس فقد اشتهرت بكثرة تشييدها للمباني السّامية والدّور التي لاقت اهتماما كبيرا من طرف أهلها⁷.

أمّا في ما يخصّ العناصر المعماريّة للدّور، نجد أنّها تمثّلت في الباب الذي كان يمثّل نقطة الفصل بين داخل الدّار وخارجها والدّهليز، وهو مدخل الدّار ويُعرف أيضا بالأسطوان ويصل بين الباب الخارجي للدّار وبابها الدّاخلي الذي يؤدي مباشرة إلى السّاحة أو مربّعة الدّار،

¹-السّيد عبد العزيز سالم، المرجع السّابق، ص 102.

²كمال الدّين سامح، المرجع السّابق، ص 165.

³عثمان عثمان إسماعيل، ج3، المرجع السّابق، ص 173.

⁴-مجهول، الحلّ الموشية، ص 143.

⁵ابن عذاري، المصدر السّابق، ص 153.

⁶ابن صاحب الصّلاة، المصدر السّابق، ص 266.

⁷الإدريسي، ج1، المصدر السّابق، ص 42.

وهي عبارة فناء مفتوح تشكّل مركزا للدّار وهي في الغالب ذو شكل مربع أو مستطيل من أهم وظائفها الوظيفة الصحيّة حيث تنزود الدّار بالقدر الكافي من الهواء والضوء وأشعة الشمس وكان اتّساع مساحة فناء الدّار ميزة للسكن الرّاقى بالعاصمة الموحّدية¹، فقد كان في دار ابن جامع وهو أحد وزراء الموحّدين ساحة تلعب فيها خمس مئة جارية²، وهو عدد كبير يعكس مدى اتّساع هذه الدّار وعدد الغرف المحتمل وجودها فإن كانت الغرفة تسعُ لعشر جوار فإن عدد الغرف سيفوق الخمسين غرفة وهو رقم كبير يعكس مدى التّنافس في بناء الدّور والتّفاخر بها.

وما يُلاحظ أنّ معظم الدّور كانت تتوفّر على المرافق الأساسيّة التي تتطلّبها مستلزمات الحياة وبالأخصّ وجود بئر والمطبخ والمرحاض والمخازن، أمّا المرافق الثّانويّة كالحمّام والمكتبة والخزانة والبساتين فكانت محصورة في فئة الأغنياء والموسرين³.

د: الأسواق:

كانت الأسواق قبل العهد الموحّدي تتخذ أشكال دكاكين متلاصقة مكوّنة شوارع يفصل بين الشّارع والآخر ممرّ، وفي الفترة الموحّدية تحوّلت إلى إنجازات معماريّة أكثر تنظيما في شكل أحياء أطلق عليها القيسارية⁴، والتي كانت عبارة عن مركز تجاري أكثر تخصيصا وتنظيما وقد انعكس ذلك على مظهره العمراني فقد كانت أسواق مدينة مراكش تجتمع في ترتيب متناسق مشكلة مظهرًا عمرانيا حسنا، وكان بناؤها بالآجر الفخاري تكون غالبا مغطّاة بالقصب والأخشاب،

¹ محمد رابطة الدّين، ج2، المرجع السّابق، ص 22-24.

² العمري، ج4، مسالك الأبصار، ص 201.

³ - مجمد رابطة الدّين، ج2، المرجع السّابق، ص 25.

⁴ -القيسارية: كلمة من أصل يوناني أو لاتيني وجمعها قياسر، ويُشير المصطلح إلى معنى السّوق، وهي مُستمدّة من مصطلح القيصرية بمعنى سوق القيصر فهي بالتّالي خاضعة للحاكم، ويفسّرها البعض بأنّها السّوق ذات الطّابع التّجاري، وهي مؤسسة تجارية عامّة تتكوّن من فناء تقام فيه الحوانيت والمصانع، توجد في وسط المدينة يوجد حولها سور، وأقدم القيساريات الإسلاميّة هي تلك التي بناها الخليفة عبد العزيز ابن مروان بالفسطاط مثل قيسارية العسل وقيسارية البز والقناديل وأصبحت في العهد الفاطمي من أهمّ عناصر التّخطيط للمدينة الإسلاميّة. ينظر: الحسن الوزان، المصدر السّابق، ص 242. -عمر بلوط، المرجع السّابق، ص 79.

وهو ما شهدته أسواق مدينة فاس حيث أشار الوزان إلى أنّ سوق العطّارين كان مغلقا من طرفيه ببابين جميلين لا تقلّ متانتها عن فخامتها¹.

واعتمادا على ما ورد في جزئيات المصادر يتّضح أنّها كانت أسواقا متخصصة وقد تعدّدت واتّسعت خريطة توزيعها مقارنة بما كان عليه الحال في زمن حكم المرابطين، ممّا يُجسّد رؤية الدولة الموحّدية وتشجيعها لهذه المنشآت، وهو ما نوّهت المصادر التاريخية به فقد كانت قيسارية مراكش من أعظم القيساريات، حيث قام الخليفة أبو يوسف المنصور ببناء الأسواق واستقدم التّجار إلى قيسارية عظيمة لم يبق في عمارة الأرض أعظم منها، وأمر بتشبيدها مع بداية سنة (585هـ/1189م)².

ويبدو أنّ بناءها قد استغرق وقتا كبيرا نظرا لِكبرها وتعدّد مكوّناتها المعمارية ومن ضمنها الأسواق، التي لم تحدّد المصادر عددها أو اختصاصاتها وباستحضار أسواق قيسارية مدينة فاس المرينية الخمسة عشرة يبدو أنّ أسواق قيسارية مراكش كانت قريبة من هذا العدد³، ممّا جعلتها قيسارية عظيمة وفقا لابن عذاري بقوله: "كانت كالمرآة في وجه القصر تضيء به من أكنافه"⁴.

كما أنّ قيمتها الاقتصادية كوحدة تجارية عكسه إحراقها عام (607هـ/1211م)⁵، حيث يقول ابن عذاري واصفا كيف آلت الأوضاع بعد إحراقها: "وافترق فيها أمة من ذوي اليسار، وأصبحوا يتكفّفون الناس حيارى على الأقطار"⁶، فضلا عن ذلك اهتمام الحكّام بها والسّعي إلى تنشيطها عن طريق استقدام التّجار إليها أو الإشراف على معالجة مشاكلها كما وقع في فترة النّاصر حين احترقت دفع بالتّجار إلى التّنافس على الحصول على مكان فيها لإيداع الأموال فيها وتخزينها، ورغم تعرّضها لحريق عام (607هـ-1211م) فقد أُعيد بناؤها بأمر من الخليفة النّاصر، ومن

¹ - الحسن الوزان، المصدر السّابق، ص242.

² - مجهول، الاستبصار، المصدر السّابق، ص 210.

³ - ابن عذاري، المصدر السّابق، قسم الموحّدين، ص258. ينظر أيضا: محمد رابطة الدّين، ج1، المرجع السّابق، ص257.

⁴ - ابن عذاري، المصدر السّابق، ص 258

⁵ - محمد رابطة الدّين، ج1، المرجع السّابق، ص257،

⁶ - ابن عذاري، المصدر السّابق، ص258.

غير المستبعد أنَّها واصلت نشاطها بعد ذلك، حيث تمَّ نهبها سنة (664هـ-1211م) من قبل قبائل هسكورة واستولوا على أغلى ما فيها وقاموا بحرقها وبذلك تمَّ نهبها وتخريبها¹.

ويُمكن تصنيف هذه القيسارية ضمن المنشآت التجارية التي أقامها الموحِّدون، وقد أرجع الباحث محمد رابطة الدين أنَّ موقعها كان في شمال شرق تامراكشت عند مكان التقاء تامراكشت بجهة باب الصَّالحة، وهو موقع جغرافي يوفِّر جملة من الامتيازات للنشاط التجاري للقيسارية، من ذلك قربها من منفذين خارجيين لتسهيل التبادل مع خارج مدينة مراكش هما باب الصَّالحة وباب الرِّبِّ، إضافة إلى توفِّر الأمن بالمنطقة التي بُنيت بها، كما أنَّ موقعها كان وسط ثلاثة تجمّعات بشرية مهمّة بمدينة مراكش العاصمة وهي تامراكشت وحومة أكادير والمدينة المرابطية وهذا مازاد من قيمتها سواء ما تعلّق بتوفّر اليد العاملة أم الاستهلاك².

وقد وفّر التّجار مكاسب كبيرة وراء هذه المؤسّسات العمرانية ذات الطابع التجاري كما وضعت لها شروط للكرّاء والانتفاع بها، يتبيّن أنَّها كانت في مصلحة المالك أكثر من التاجر والصّانع، فكان مالكا يشترط على الصّانع بناء ما يحتاجه المحلّ، فعلى سبيل المثال كان بناء الرّحى أو الحمام أو الفرن أو تصليح ما هو قائم من مُهمّة المُكثري، كما اشترط في بعض الأحيان عدم المساس بالبناء القديم وتركه على حاله التي كان عليها عند بداية العقد وبهذا كان المالك يشترط شروطا وفق ما يخدم مصلحته³.

وقد خصّص الموحِّدون مؤسّسة إدارية⁴ يقوم عليها مشرفون⁵ لمتابعة ومراقبة الخلافات التي تقع بين الطّرفين، فنجد لقب رئيس الصّناعة عريفا أو أمينا، والذي كان من مهامّه أيضا جمع

¹ -محمد رابطة الدين، ج1، المرجع السّابق، ص258.

² - المرجع نفسه، ص 256-257..

³ هناء محمد عبد الحميد الفقي، المرجع السّابق، ص91.

⁴ - ونقصد بها إدارة الحسبة وهي من الاختبار فيقال احتسبت فلانا أي اختبرته واحتسب فلان أي أنكر ما قام به والنساء يحتسبن الرّجال أي يختبروهن ومنه كان المحتسب يراقب ويختبر التّجار. ينظر: ابن منظور، ج1، المصدر السّابق، ص 317.

⁵ - أطلق على من يتولّى جهاز الحسبة المُحتسب قبل فترة الموحِّدين الذين أطلقوا عليه لقب أمين السّوق، وأصل الحسبة شرعا هو الاحتساب وطلب الأجر عن طريق الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والنّظر في المظالم والوقوف ضدّ الغشّاشين والمدلسين فيما يباع ويشترى، ورفع الصّرر عن الطّرق بإزالة ما يعيق المازين وتنظيف

الضرائب ثم يصل إلى مرتبة عريف العرفاء أو شيخ العرفاء، وقد لُقّب بها البَنَاءُ الماهر شيخ عرفاء البنّائين الذي برع في صناعة البناء وكذلك العريف علي الغماري¹.

والجدير بالذكر أنّ المحتسب قد أسندت إليه مهام كثيرة إضافة إلى مراقبة الأسواق، فكان يشرف على الصّناع والحرفيين كما تمّ توكيله بتحكيم قانون العرض والطلب في المعاملات التجارية ومراقبة جودة الصّناعة، فولاية الحسبة ولاية عامّة كولاية القضاء²، وقد فصّل فيها الفقيه السقطي المالقي المعاصر للفترة المدروسة وألّف فيها كتاباً خاصاً بها، وقد ذكر في بداية كتابه أنّ ما دفعه لتأليف كتابه هو فساد الباعة والصّناع في الأسواق ويبدو جلياً دور المحتسب في مجال العمارة، حيث ذكر أنّ محتسبا في الكوفة لم يترك مؤذناً يؤدّي الأذان في منار المسجد إلّا وهو معصوب العينين، من أجل حرمة ديار النّاس وعدم اطلاعهم على خصوصيات المنازل، كما ذكر واقعة غريبة وقعت بمراكش سببها أنّ مؤذناً رأى عند أذانه جوّاري أحد البيوت في الصّحن يطفنّ على مالكمهم، فنادى غُدرتم يا مسلمين فتسابق النّاس إلى الدّار ووقعت رجّة وهيشة عظيمة في المدينة بسبب اطلاع المؤذن الذي مكر بصاحب الدّار³.

-أنواع الأسواق في الفترة الموحّدية:

عرفت دولة الموحّدين تنوعاً في الأسواق حيث أدّت دوراً مهماً في حركة الاقتصاد يمكن تصنيفها حسب طبيعة النّشاط الذي أدّته والتّخصّص الذي عرفت به:

الشّوارع والأزقة ومنع البنّان الذي فيه ضرر فالمحتسب كان له دور في تنظيم العمارة والكثير منهم كان متضلّعاً في أحكام وفقه البنّان، وقد جعل جهاز الحسبة لما رقه عنه القضاة ولذلك كانت رتبة الحسبة أقلّ من رتبة رفع المظالم التي يتولّاها جهاز القضاء ينظر: النويري، ج 6، المصدر السّابق، ص 291-295، - عبد الواحد المراكشي، المصدر السّابق، ص 208.

¹ هناء محمد عبد الحميد الفقي، المرجع السّابق، ص 95.

² محمد الطّاهر بن عاشور، مقاصد الشّريعة الإسلامية، ج2، تح محمد الحبيب ابن الخوجة، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2004، ص 420.

³ السقطي المالقي، آداب الحسبة، تح ليفي بروفنسال وكولان، باريس، إرنستلورو، 1931، ص 1-8.

- أسواق ذات تجارة زراعية: سيطرت عليها مجموعة من الشروط أهمها القرب من مراكز الإنتاج¹، وهي بدورها يمكن تمييز نوعين منها هما²:

- أسواق خارج أسوار المدينة، مثل سوق العوادين وسوق البقر والغنم.

- أسواق داخل سور المدينة مثل سوق الحبوب المعروف بالرحبة وسوق القشاشين.

- أسواق ذات تجارة حرفية: من مميّزاتها أنّ موقعها كان داخل سور المدينة وأغلبها كان في وسط المدينة ولعلّ مردّ ذلك إلى الجانب الأمني، وأيضاً فالحرفة تكون غالباً في المدينة لتوفير ما تحتاجه الرعية، كما تميّزت عن غيرها من الأسواق بالتخصّص في الإنتاج مثل العطارين و الصّباغين لبيع الحليّ وبيع الدروع ومختلف الأسلحة كالسّهام والقسي وبيع مختلف الصّناديق الخشبية و الحرير والأواني النحاسية وكان فيها مكان للكعكيين لبيع الحلوى وغيرها من مجمل الحرف³.

- أسواق الحومات: وسمّيت أيضاً بالسويقة وهي تصغير لكلمة سوق، ومنها سويقة لبيب، عنصر من مكونات الحومة، وظيفتها اقتصادية، تهدف إلى تلبية حاجيات استهلاك الساكنة للحومة، من مميّزاتها عدم التخصّص ووجود أشياء متعدّدة بها⁴.

هـ- الفنادق:

شهد تخطيط الفنادق في بداية العهد الموحدّي تشابهاً كبيراً من حيث تصميمها المعماري لفترة المرابطين وهي الفترة التي سبقت تأثّر هذه المباني بالنمط المعماري للفنادق الأوروبية حيث كان لاستقرار التّجار المسيحيين بالمدن الساحلية للمغرب الإسلامي، واستثمارهم للأموال في تجارة المغرب والتي أكّدها المعاهدات والاتفاقيات المبرمة بين السّلطة الموحدية والممالك المسيحية دوراً في هذا التّغيير، ففي فترة ما قبل الموحدّين، لم يتأثّر الفندق بشكل كبير بالنمط الأوروبي، حيث لم يختلف تصميمه المعماري عن فنادق بلاد المشرق، فقد كان شكله مشابهاً لها

¹ محمد رابطة الدين، ج1، المرجع السابق، ص 254-255.

² ابن عذاري، المصدر السابق، ص 320-326.

³ عاصم محمد رزق، المرجع السابق، ص 155-156.

⁴ محمد رابطة الدين، ج1، المرجع السابق، ص 256.

إذ يتكوّن من مبنى مربّع الشكل كبير الحجم يتألّف غالبا من ثلاثة طوابق، تُخصّص الأرضية للدكاكين وتخزين السلع والحمامات، إضافة إلى أماكن تواجد الحيوانات، كما وُجد بها الأفران، أمّا الطابقان الثاني والثالث فيُخصّص للنوم وراحة التّجار حيث كان عدد الغرف يزيد عن مائة وعشرين غرفة وفي كل فندق صهريج وميضأة للاغتسال تستقرغ مياهها بطريقة حسنة عبر بالوعات متقنة الصّنع¹، وهذا يعكس تقاليد العمارة المحليّة في منطقة المغرب الإسلامي خلال الفترة المدروسة.

وخلال عهد الموحّدين، ارتبط بناء الفنادق بتطوّر العلاقات التجاريّة بين الموحّدين والممالك المسيحية، فأصبحت الفنادق مؤسسات تُمثّل القنصلية للممالك المسيحية التي كانت تربطها علاقات تجارية مستمرة ببلاد المغرب، ولهذا جاءت معظم الاتّفاقيات والمعاهدات التي عقدت بين الطرفين على توفير مكان الإقامة لفترة محدّدة في المواسم التجاريّة والتمثيل القنصلي لتباشر منها إدارة شؤونها السياسيّة والاقتصاديّة، كما أنّ هذه الاتّفاقيات والمعاهدات التجاريّة أسهمت في تنظيم شؤون الجالية المسيحية، وهو ما قد يكون سببا في دخول النمط العمراني الأوروبي ببلاد المغرب في فترته الوسيطية حيث عُرف بداية انتشار للتّصاميم المعمارية الفندقية الأوربية في أهمّ المدن السّاحلية ببلاد المغرب منذ بداية القرن السادس الهجري، فالفندق المرتبط بالجالية المسيحية يعتبر مجالا مشتركا للسّكن وقد بني خارج المدن السّاحلية وله مواصفات عمرانية مختلفة عن فنادق المدن الدّاخلية، إذ ينفّث على المدينة الإسلاميّة بباب وحيد منخفض، وهو بهذا التّصميم المعماري يعتبر حصنا يلجأ إليه التّجار المسيحيون في فترات الاضطراب الأمني².

كما نصّت معظم الاتّفاقيات والمعاهدات التجاريّة المنظّمة لحياة التّجار على ضرورة التّمتع بالحرية التّامة حيث نجد فيها فرن ومقبرة لدفن الموتى بالقرب من الفندق، حتّى لا يضطّروا للتّقلّ بعيدا عن هذه المؤسّسة، كما أوجّبت هذه الاتّفاقيات على إلزامية بناء كنيسة لا تبعد عن الفندق كثيرا، كذلك ضمّت أماكن مُخصّصة لتنفيذ العقوبات التي كان يصدرها القنصل من حين لآخر بحقّ بعض التّجار أو أعوانهم في حال ارتكابهم مخالفة ضدّ التّنظيمات المعمول

¹الحسن الوزان، المصدر السّابق، ص 231.

²مسعود كربوع، المرجع السّابق، ص 644-649.

بها آنذاك، وبناءً على ما حملته المصادر في شقّها الوظيفي فإنّ الفنادق مثّلت دورا سياسيا ودبلوماسيا حيث كانت بعض الفنادق مقرّا للقنصل وإدارته لعلاقات دولته ومصالحها وعليه حملت تصاميمها المعمارية مقرّ سكن القنصل ومكان مباشرة أعماله، وبهذا يمكن القول إنّ هذه المؤسسة كانت بناء متكاملًا، يوجد بالقرب منه كلّ المرافق الضرورية للحياة في حدود ما نصّت عليه الشريعة الإسلامية¹.

ونتيجة لممارسة الفنادق النشاط المالي والتجاري، أدّى ذلك إلى زيادة الأرباح والمداخيل مما أسهم في انتشارها بشكل واسع، هذا الانتشار ساعد بشكل كبير في التطوّر العمراني، حيث بلغ عدد الفنادق في مدينة فاس وحدها في العهد الموحدّي أربع مائة وسبعة وستين فندقًا وهو عدد كبير ومؤشّر على عدم اقتصار هذه المؤسسات على الإيواء فقط كما أنّ ارتباطها بقوة النشاط التجاري وضعفه يظهر من خلال تقلّص أعدادها خلال ضعف النشاط التجاري وهو ما أكّده الوزان حيث ذكر أنّ بمدينة فاس مئتي فندق².

الجدول رقم 02 : أهمّ الفنادق المشهورة في العهد الموحدّي

الفندق	الموقع	الفترة الزمنية
فندق السكر	مراكش	الفترة الموحدية
فنادق	مراكش	الخليفة الموحدّي المنصور يعقوب بن يوسف
الفنادق	مراكش	الفترة المرابطية والموحّدية

عن: المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عيّاض، تح مصطفى السّقا، ط 1، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1939م، ج 2، ص 373 و الحميري، الروض المعطار، المصدر السابق، ص 541، بتصرّف

و-القناطر:

أدت القناطر دورا حيويا في فترة الموحّدين، فقد أولى حُكّام هذه الدولة إهتمامًا كبيرا بتشييدها وترميمها حيث تمّ ترميم قنطرة تانسيفت التي بناها المرابطون لكنها لم تُعمر طويلا بسبب قوة سيول النّهر، ولم يكتفوا بإصلاح ما أنجزه المرابطون بل قاموا ببناء عديد القناطر من بينها قنطرة

¹ -محمد بن ساعو، المرجع السابق، ص 29.

² الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 231.

في سلا مركبة على ثلاث وعشرين معدية فُرشت بالخشب، ودُعِمَت بالألواح حتى لا تتأثر بمرور الناس والدواب عليها، كما استخدمت في اصطیاد أنواع السمك منها الشابل وغيره¹، كانت هذه القنطرة تصل بين مدينتي سلا ومدينة السّيد مخلوف وقد دُعِمَت مراكب الخشب ببناء وثيق محكم، كان عرضها حينئذ يبلغ عشرة أمتار في عهد يعقوب المنصور وامتدت إلى الجانب الجنوبي لسور سلا حيث تم فتح باب جديد أطلق عليه باب الرّيح²، بالإضافة إلى عديد القناطر التي شيّدها في بلاد الأندلس أبرزها القنطرة العظيمة بطريانة التي شيّدت في عهد أبي يعقوب³ كذلك ذكر صاحب كتاب الاستبصار قناطر مدينة فاس ووصفها بالكثرة ويبدو أنه تم تشييد عديد القناطر فيها كون أنّ المدينة بها مدينتان كبيرتان يشقّهما وادي فاس فتم ربط المدينتين بالقناطر لتسهيل حركة مرور الناس⁴.

ثالثا: المرافق العامة في المغرب الإسلامي في عهدي المرابطين والموحدين

تنوّعت المرافق العامة في حواضر المغرب الإسلامي خلال عهدي المرابطين والموحدين، وكانت تحت رعاية السلطة التي أوكلت كلّاً من المحتسب وصاحب المدينة للإشراف عليها، كما أسهمت بعض الأسر الغنيّة في تشييدها وقد تمثّلت في السّقايات والحمامات والبيمارستانات وكذلك السّجون وشبكة المياه ومرافق أخرى تشترك فيها العامة وقد نصّ الشارع الحكيم على وجوب المحافظة عليها والحرص على حرمتها وشراعتها بين الناس مثل الطّرق والحمامات والبساتين، وما يميّزها جميعاً أنّ ملكيتها تعود للسلطة وقد تكون ذات طابع خاصّ ففي هذه الحالة تكون ملكيتها خاصّة ولا تشترك فيها العامة ونسعى إلى إبراز مدى اهتمام كلّ من المرابطين والموحدين بهذه المنشآت.

أ- السّقايات والبساتين:

¹ الحميري، الرّوض المعطار، المصدر السابق، ص 319.

² إبراهيم حركات، ج1، المرجع السابق، ص 347-348.

³ محمد عبد الله عنان، ج4، المرجع السابق، ص 72.

⁴ مجهول، ج1، الاستبصار، المصدر السابق، ص 180.

بُنيت السّقايات والتي تُعتبر من المنشآت المائية لتوفير مياه الشّرب وسقي الحيوانات والبساتين وتخزين الماء الطّاهر للشّرب والاغتسال في الطّرق العامّة والدّور والمساجد والمدارس، وقد برع المرابطون في إنشائها وأطلق عليها اسم "الخطاطير"¹، بالمقابل أبدع الموحّدون في استخراج المياه وإيصالها إلى المراكز العمرانية، فكان تزويد المدن بالمياه من القضايا المهمّة التي حرص حكام دولة الموحّدين على إيجاد حلول لها²، ففي العهد الموحّدي كان في مدينة فاس لوحدها ما يزيد عن ثمانين سقاية³، وصفت إحداها والتي تقع في منطقة الجوف بالقرب من الوادي بالإنّتان في البناء وكانت تملأ من الوادي كما تمّ جلب مائها المعروف بشدّة البرودة صيفا والدّافئ في أيّام البرودة، كما عرف في العهد الموحّدي كثرة السّقايات بالقرب من المساجد مثل سقاية جامع القرويين التي عرفت بالإنّتان⁴، وقد كان وجودها بالقرب من المساجد يُسهم في الحفاظ على نظافة المسجد وتلبية حاجات المصلّين من وضوء وشرب المياه في الأيّام الحارّة.

وإلى جانب هذه السّقايات كانت تتواجد البساتين لسقيها والاعتناء بها ففي فترة الموحّدين قام الخليفة عبد المؤمن بغرس بستان في مخرج مدينة مراكش طوله وعرضه ثلاثة أميال فيه من كلّ أنواع الفواكه والأشجار وقام باستخراج عيون كثيرة لكن لكثرة أشجار البستان يبدو أنّها لم تف بالحاجة ممّا جعل عبد المؤمن يأمر ببناء سقايات لجلب الماء من مدينة أغمات⁵

ب: الحمامات

¹-الخطاطير: عبارة عن آلية وتقنية لرفع وإيصال المياه إلى البساتين والدّور تصنع من الخشب وتُشدّ بالحبال وقد أشادت المصادر بتقوى المرابطين في هذا المجال منها ما ذكره الإدريسي بقوله "وماؤها مستخرج بصنعة هندسية حسنة"، وأكّد ذلك ابن سعيد المغربي بقوله "وجلب إليها الماء وأكثر النّاس فيها من البساتين" ويقصد يوسف بن تاشفين ينظر: القاضي عياض، التّنبّهات المُستنبّطه على الكُتب المُدوّنة والمُختلّطة، ج2، تح، محمد الوثيق، الدّكتور عبد النعيم حميتي، ط1، بيروت، دار ابن حزم، 2011، ص 415. الإدريسي، ج1، المصدر السّابق، ص 233، ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تح، إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، 1970، ص 125.

²-إبراهيم حركات، ج1، المرجع السّابق، ص 349.

³-الجزنائي، المصدر السّابق، ص 44.

⁴-مجهول، الاستبصار، ج1، المصدر السّابق، ص 181.

⁵-مجهول، الحل، المصدر السّابق، ص 145.

تُعَدّ الحمامات¹ من المنشآت المعمارية العمومية التي تقصدها مختلف شرائح المجتمع لذلك إهتمّ بها المسلمون في مدن بلاد المغرب الإسلامي ولحاجتها الوظيفية المرتبطة بدعوة الإسلام الذي دعي إلى الاهتمام بالنظافة الشخصية والتطهر ولعدم استطاعة العامة جميعا على تضمين منازلهم حمامات خاصة ولما تدرّ به من أموال على مُنشئها لشدة الطلب عليها، وقد كان هذا سبباً في زيادة عددها ممّا استدعى تدخّل السلطة لتنظيمها والحرص على تزويدها بالمياه وقنوات الصرف²، غير أنّ المصادر التاريخية لا تقيدنا كثيرا عن الحمامات في العصر المرابطي سواء من حيث العدد أم الوضع المعماري مع عدم وجود بقايا أثرية لهذا النوع من المنشآت ويبدو أنّها كانت خاصة بالملوك والأمراء، فقد أمر يوسف بن تاشفين ببناء الحمامات عندما دخل مدينة فاس³، كما أرجع بعض الباحثين أنّ الحمام البالي (الملحق رقم 16) الواقع بالجهة الجنوبية للمسجد الجامع بمدينة ندرومة قد بني في عهد الدولة المرابطية في الفترة ما بين (488هـ - 542هـ - 1095م - 1147م)⁴، خاصّة وأنّ التقنية التي بني الحمام وهندسته وتيجان أعمدته ومكان بنائه المحاذي و المقابل لمسجد ندرومة لا يستبعد أنّه ملحق من ملاحق المسجد وبني في نفس الفترة مع المسجد⁵.

على عكس فترة المرابطين انتشرت الحمامات العامة في الفترة الموحدية انتشارا كبيرا في المدن والضواحي فقد بلغت بناياتها في عهد الناصر الموحدي (595هـ/1198م) ثلاثا وتسعين وثلاثمائة وهو رقم كبير لا يخلو من المبالغة، وفي مدينة مكناسة كان عدد الحمامات في عهد الموحدين ثلاثة حمامات⁶، يبدو أنّها كانت تؤدّي وظيفة اجتماعية حيث كانت أماكن التقاء شرائح المجتمع

¹ - الحمامات: من المؤسسات العامة التي ظهرت مبكرا في الحضارة الإسلامية نظرا لحث الإسلام على الغسل والوضوء والنظافة فقد بنيت في عهد الصحابة في العراق رغم أنّ هذه المنشأة لم تُعرف عند العرب في الجاهلية وربما ذلك راجع لقلة المياه في بلاد الحجاز ذي المناخ الصحراوي، ينظر: أنس ابن عادل اليتامي، منية الساجد بشرح بداية العابد وكفاية الزاهد، ط1، الكويت، دار ركائز للنشر والتوزيع، 2018، ص 62.

² - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 221.

³ - حسن علي حسن، المرجع السابق، ص 402 - 404.

⁴ - محمد رابح فيسة، المرجع السابق، ص 203.

⁵ - لوحة إرشادات وزارة الثقافة الجزائرية عند مدخل الحمام بمدينة ندرومة يوم 2 شوال 1446 الموافق ل 01 أبريل 2025، وهو من الآثار المصنفة وطنيا منذ سنة 1992.

⁶ - حسن علي حسن، المرجع السابق، ص 402 - 404.

إذ يلتقي فيها العلماء والقضاة والأميون على السواء، حيث إن قاضي المرية أبا الحسن مختار ابن عبد الرحمان ابن سهر الرعيني دخل حمّاما فضايقه شخص من الجهال وأساء الأدب فأنشد يقول¹:

ألا لعن الحمّام دار فإنّه...سواء به ذو الجهل والعلم في القدر

تضع به الآداب حتّى كأنها ... مصابيح لم تتفق على طلعة الفجر .

وعن التّخطيط المعماري فقد اتّبع بُناة الحمّامات نمطا معماريا كان في الغالب يحتوي على رواق يؤدّي إلى ثلاث حجرات، حجرة المدخل لخلع الملابس وحفظها وحجرة ثانية تسمّى بالحجرة الباردة مزوّدة بأحواض الماء والهواء الساخن الذي يَمُرُّ عبر أنابيب الفخّار وحجرة ثالثة هي بيت الحرارة أو الحجرة الساخنة يبلغ فيها الماء أقصى درجة حرارة يمكن تحمّلها، كانت الأرضية غالبا ما تُقرش بالرخام ليسهل تنظيفها أمّا السّقف ففيه فتحات تتغشّاها قطع الرّجاج الّتي تسمح بمرور الضّوء، كذلك استخدم كلّ من الآجر والحجر والرّخام في بناء حيطان الحمّامات نظرا لتحملها للمياه².

على غرار ذلك كان هناك نظاما مُتّبعا في تنظيم الغرف حيث نجد في الغرفة الأولى مبرّدا رطبا وفي الثّانية مسخّن للاسترخاء وفي الثّالثة يوجد مسخّن مجفّف ويكون الانتقال بينهما بالتدرّج وقد ضمن ذلك الاستحمام الآمن للأفراد حيث تمنع المستحمّ من التّعرّض للبرد عند خروجه من غرفة الّتي درجة حرارتها مرتفعة، وهذا دليل على ما وصلت إليه درجة الرقيّ في المجتمعين المرابطي والموحدي، والجدير بالذّكر أنّ بناءها كان في وسط المدينة بالقرب من المساجد والأسواق كما لجأ العامّة إلى بنائها في الدّور والمنازل الخاصّة، إلّا أنّ هذا لم يتوقّر للجميع وذلك لكلفتها وعدم توقّر المياه للجميع³.

ج: السّجون:

¹-ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج2، تح، شوقي ضيف، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1955، ص 207-208.

²محمد عبد السّتار عثمان، المرجع السّابق، ص ص 221-222.

³محمّدو ولد عمر، المرجع السّابق، ص 180.

بُنيت السجون في الفترة المرابطية والموحدية كمؤسسات عقابية لِحَبْسِ المُخالفين والمعارضين، وقد أُحجبت المصادر التاريخية عن الحديث عنها رغم وجود إشارات عديدة إلى تعرّض أشخاص للسجن لفترات طويلة، ومن أشهر السجون في الفترة المرابطية سجن قرقيدن بمراكش كان به أطباق مسقّفه، ولم تذكر المصادر أيّ معلومات عنه هل حافظ عليه الموحّدون أم لا¹.

أوكل الموحّدون الأمور التنظيمية للسجون لقاضي الجماعة، حيث كان الخليفة المنصور يؤكّد على القاضي محمد ابن علي ابن مروان ابن جبل الهمذاني على تفقّد السّجناء والنّظر في أحوالهم وتعاهدتهم بالصدقات المخصّصة لهم، غير أنّه قصّر في ذلك فلمّا وصل الأمر إلى الخليفة باحتجاج السّجناء وطلبهم منه إنصافهم أمر بسجن القاضي في بيته وإعفائه من مهامّه وذلك في سنة (592هـ/1196م) وقدم بدله القاضي أبو القاسم ابن بقي².

وإلى جانب السجون استعمل المرابطون والموحّدون أحيانا أماكن أخرى لسجن النّاس أو لفرض حصار عليهم كما وقع مع العالم أبي يعزي يلنور بصومعة جامع مراكش لفترة ثمّ تمّ العفو عنه، وكان بعض العلماء يُمنعون من مغادرة بيوتهم ولو إلى المساجد³.

د: البيمارستانات:

ظهرت هذه المنشآت العلاجية في وقت مُبكر في العالم الإسلامي مُتماشية مع التّطوّر الذي شهدته المدينة الإسلامية، حيث ظهرت في المشرق الإسلامي منذ القرن الأوّل الهجري عندما قام الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة (88هـ-706م) ببناء بيمارستان⁴ بهدف تقديم خدمات

¹ محمد المغراوي، المرجع السّابق، ص 86.

² ابن عبد الملك المراكشي، ج5، المصدر السّابق، ص 237.

³ محمد المغراوي، المرجع السّابق، ص 87.

⁴ البيمارستان: بفتح الزّاء والعامّة تكسرهما وهي كلمة فارسية دخيلة تتكوّن من كلمتين بيمار بمعنى المريض وستان بمعنى دار فيكون المعنى دار المرضى أو مكان معالجتهم ينظر: صلاح الدّين الصفدي، تصحيح التّصحيح وتحرير التّحريف، ط1، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1987، ص 461. - أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط2، بيروت، دار الزّائد العربي، 1981، ص 4.

علاجية وطبية لسكان المدينة، ويبدو أنه تم تخصيص أقسام وأجنحة خاصة للعلاج حيث كان هناك أمكنة للمجذومين والعميان وغيرها من الأمراض¹.

أما في المغرب الإسلامي فلم تظهر البيمارستانات مُبكرًا فقد قام إبراهيم ابن الأغلب ببناء بيمارستان في طرف القيروان وأولى عناية خاصة للمرضى بجلب الأطباء والكتب وأطلق عليه الدمنة أو دار الجذامى²، وفي فترة المرابطين برز أطباء مشهورون منهم أبو مروان عبد الملك ابن أبي العلاء ابن زهر الذي لم يكن في زمانه أعلم منه في مجال الطب وقد خدم المرابطين³ سوى ذلك لم نجد ذكرا لأسماء بيمارستانات حسب ما إطلعنا عليه تم بناؤها في بلاد المغرب الإسلامي في عهدهم.

على العكس من ذلك أولت الدولة الموحدية اهتماما كبيرا بها⁴، إذ ارتبط تاريخ البيمارستانات بحكام هذه الدولة فقد أنشأ الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور (580هـ-590هـ/1184-1199م) بيمارستانا مُميزًا في مراكش أجرى فيه المياه وغرس فيه الأشجار وقام بتزيينه بزخارف جميلة، كما خصص له ميزانية للأدوية قدرت ب ثلاثين دينارًا وجعل يوم الجمعة يومًا يُزار فيه المرضى وكان يتفقد أحوالهم بنفسه⁵، وصفه صاحب المعجب بأنه لا نظير له في الدنيا نظرا لحسن اختيار موضع بنائه ووجود ساحة فسيحة به، ومما زاد في جماله إتقان المشيدين وحرصهم على إحكام بنائه حيث زخرف بالنقوش البديعة المحكمة مع كثرة المغروسات من الأشجار والمشمومات ووفرة المياه التي ساعدت في بناء أربع برك بالرخام الأبيض، كما تم تفرش أرضيته بأجود أنواع الصوف والكتان والحريز، وكان يُعدّ للمرضى ثيابا خاصة تُستبدل بالليل والنهار⁶، من خلال هذا الوصف يتبين بوضوح أنّ بيمارستان أبي يوسف يُعدّ من أهم المنشآت الصحية

¹مجمد عبد الستار، المرجع السابق، ص 224.

²محمّدو ولد عمر، المرجع السابق، ص 187.

³ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح نزار رضا، دار مكتبة الحياة بيروت، دت، ص 519-520.

⁴ إبراهيم حركات، ج2، المرجع السابق، ص 246.

⁵الصّفيدي، الوافي بالوفيات، ج28، تح أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى بيروت، دارالإحياء، 2000م، ص 98.

⁶ينظر: عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 209. - ليوبولد توريس بالباس، المرجع السابق، ص 34.

التي شُيّدت في بلاد المغرب الإسلامي، مما يعكس مدى الاهتمام الذي أولته السلطة الموحدية للبُنى ذات الطابع الصّحي من حيث تجهيزها وجلب الأطباء لها.

وفي حصاد هذا المبحث يستنتج قيمة تلك المدن المستحدثة سواء في الفترة المرابطية أمالموحّدية والتي رافقتها منشآت ومرافق ضرورية كان بناؤها غالبا يتمّ كتعبير عن انتصارات عسكرية¹، كما يفهم من ذلك العلاقة الوثيقة بين السلطة السياسية والعمران وهي علاقة تأثير وتأثر كلّما ارتفع خطّأحدهما أثر في الآخر إيجابا، وكلّما مال أحدهما إلى الانحدار مال ونزل الآخر ولاشكّ أنّ تطوّر العمران يكون بالاستقرار السياسي فالاستقرار عامل مهمّ لنموّ العمران حيث تسعى السلطة لتأكيد وجودها وتثبيت الانتصارات العسكرية².

رابعا: دراسة مقارنة

أسهمت العمارة المدنيّة في توفير الاستقرار والمأوى للمجتمع وكانت العنصر الأوّل في التّشيد، فكان تخطيط المدن وبناء الدّور والقصور يتمّ قبل بناء المساجد والمرافق الأخرى، كما كانت أكثر ارتباطا بالحياة اليومية للعامة وفيما يلي مقارنة حول أوجه التّشابه والاختلاف بين العهدين المرابطي والموحّدي.

1/أوجه التّشابه :

مما سبق ذكره يتبيّن بأنّ كلّا من المرابطين والموحّدين أولوا جانبا كبيرا في الاعتناء بالبناء وتشيد المآثر العمرانية المدنيّة والتي تنوّعت بين بناء المدن والقصور والدّور وتدعيمها بالمرافق والمنشآت المستلزمة للحياة اليومية كتوفير المياه وشقّ الطّرق وبناء المستشفيات.

اهتمّ المرابطون ببناء المدن حيث تمّ تأسيس مدينة أرتنني وموقع أزوكي ومدينة تلبالة والعاصمة مراكش بالمغرب الأقصى في حين تمّ تأسيس مدينة تاقربت ومدينة القصر ومشتى غانم بالمغرب الأوسط .

¹عبد الهادي التّازي، تصميم المدينة من خلال المصادر العربية والأجنبية، المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات كلّية الآداب الدّار البيضاء، 1988، ص 18.

²سناء عطابي، المرجع السابق، ص ص 129-130.

أمّا في ما يخصّ الموحّدين فكان لهم دورا كبيرا في تخطيط وبناء المدن المستحدثة واقتصرت في أغلبها على بلاد المغرب الأقصى مثل مدينة رباط الفتح ومدينة البطحاء والمنصورة كما حافظوا على العاصمة المرابطية مراكش كعاصمة لهم لتوفّر مجالها على مؤهلات أمنية واقتصادية ومؤهلات طبيعية مناسبة، فعلى عكس التجارب السّياسة التي سبقت الموحّدين في المغرب الإسلامي والتي حرصت على تأسيس عواصم لها استقرّ الموحّدون على كرسي ملكهم الذي كان عاصمة للدولة التي سبقتهم.

وبمجرّد نزول جيش الموحّدين على مراكش في شهر محرم سنة (541هـ-1146م) احتلّ عبد المؤمن بقوّاته جبل إبلّيز الواقع غرب مراكش، وجعل في أعلاه قبة حمراء، بنيت من حولها مدينة كبيرة يتوسّطها مسجد وصومعة عالية، تشرف على المدينة، نزلت بها عديد القبائل، كلّ قبيلة حدّد لها موضع خاصّ بها، ويفهم من إسكان كلّ قبيلة على حدة تجنباً للصّراعات التي قد تحدث، ومعرفة كلّ قبيلة لعناصرها.

تتجلى سياسة المرابطين والموحّدين في بناء المدن المستحدثة أو التوسّع فيها من خلال الزّیادات في المرافق العامّة التي تحتاجها المدن، مثل ما لاحظناه في مدينة مراكش سواء في الفترة المرابطية أما الموحّدية من بناء القصور والدّور والصّهاريج، ووجود الأسواق والفنادق التي كانت منتشرة في المدن الكبرى مثل مراكش وتلمسان وفاس، كما انتشرت الحّمّات والفنادق لخدمة العامّة.

ارتبط بناء المدن في العهد المرابطي والموحّدي بهمة الحاكم، وكان للظّروف الاقتصادية ووفرة الأموال والثروة دافع كبير نحو كثرة الإعمار ونشاط البناء، حيث كان للمرابطين والموحّدين خزائن مالية معتبرة أسهمت في الدّفع بحركة التّوسّع والعمران وكان ذلك تحديدا في فترة حكم يوسف بن تاشفين وابنه علي بالنّسبة للمرابطين، أمّا الموحّدون فكان ذلك خلال فترة خلافة عبد المؤمن ويوسف ويعقوب المنصور وأكثر خلافة النّاصر¹، فقد وظّف الموحّدون عائدات وغنائم الانتصارات العسكرية في مجال بناء وتشيد المباني الضّخمة فأبو يوسف يعقوب قد قضى كلّ سنوات حكمه في ساحات الوغى إلّا أنّ هذا لم يمنعه أن يكون رجلا مثقفا وراعيا للأمور الفكرية

¹-مجهول، الحلّ الموشية، المصدر السّابق، ص 144.

والعمرانية فقد قام بتشديد المباني الضخمة ففي مراكش بنى مدينة خاصة لإيواء بلاطه عرفت باسم القصبة وبنى بها مسجدا عظيماً وأمر بتسوير حصن مدينة الرباط وغيرها من الأعمال العمرانية التي اتسمت بالجلال والروعة والضخامة وخروجاً عن المألوف.

وقد أشار عبد الرحمن بن خلدون إلى أهمية المال في ازدهار العمران بقوله: "ولا قوام للشريعة إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل"¹ فالثراء والغنى سواء في العهد المرابطي أم الموحدى انعكس إيجاباً على النشاط العمراني، بالمقابل نجد أن تراجع التعمير واتساع دائرة التخريب أثناء اضطراب الأوضاع الأمنية كان مفارقة ثابتة أثناء العهد المرابطي والموحدى أو غيرهما من الدول الإسلامية المتعاقبة على المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، وبالتالي فاستقرار الأوضاع وازدياد حياة الترف انعكس على التطور الحضاري والعمراني الذي صاحب دولة المرابطين وأكملته دولة الموحدين فاتسع نطاق العمران في المغرب الإسلامي.

-القصور:

تأثر المرابطون بتوجههم الديني وقد أثر ذلك في نمط عمرانهم ورغم ذلك بنوا بعض القصور كمراكز لحكمهم في مدينتهم الكبرى كمراكش وفاس كما ورثوا قصوراً فخمة عن ملوك الطوائف أثناء مرورهم للأندلس، وكانت هذه القصور تتوفر على جميع المرافق الضرورية للحياة مثل قصر الحجر بمراكش، وكذلك أظهر الموحدون اهتماماً كبيراً بالقصور وجعلوها رمزا لقوتهم السياسية وهيبتهم السلطانية بدءاً بعبد المؤمن الذي كان أول من شرع في بنائها بالعاصمة مراكش.

-المنازل:

تشابهت الأسس العامة للدور المرابطية والموحدية حيث كانت متشابهة في التصاميم وتتكون غالباً من طابق أو طابقين كما توفرت على مكونات متشابهة مثل السطوح والدّهليز والمراحيض والمطامير لتخزين المؤونة كما يستنتج توفر بعض الدور على الآبار.

¹-ابن خلدون، العبر، ج1، المصدر السابق، ص354.

-الفنادق:

يمكن تصنيفها ضمن المراكز التجارية للمدن في عهدي المرابطين والموحدين وقد أدى تزايد النشاط التجاري في العهد المرابطي والموحدي إلى بناء عدد كبير من الفنادق، فمن خلال تتبع ما أمكن الوقوف عليه في المصادر التاريخية يصعب تحديد عدد الفنادق سواء في الفترة المرابطية أو الموحّدية، كما يلاحظ غلبة صيغة الجمع في الإخبار عن الفنادق في الفترتين باستثناء بعض الإشارات في بعض المصادر مثل ما ذكره الإدريسي عن فنادق مدينة ألمرية في العهد المرابطي، فبعد ذكره للصناعات الغريبة بالمدينة من طرز الحرير الذي كان به ثمان مائة طراز والصناعات النحاسية والحديد وغيرها من الصناعات وبها أسواق عامرة يقصدها التجار والمسافرون حدّد عدد فنادقها بـ 970 فندقاً بقوله " أخذها عند الديوان في التعنّب ألف فندق إلا ثلاثين فندقاً "¹

ومنه كان إهتمام حُكّام بلاد المغرب عموماً وحكّام المرابطين والموحدين خصوصاً بالفنادق لارتباطها بمختلف التطوّرات المالية للدولة من معاملات وأنشطة تجارية فهي مكان تجمع التجار وأصحاب الأموال علاوة أنّها استخدمت كمخازن لمختلف السلع التي تحتاجها العامة والخاصة.

2/أوجه الاختلاف بين سياسة المرابطين والموحدين العمرانية في بلاد المغرب الإسلامي:

أ-سياسة المرابطين العمرانية وجهودها في البناء والتعمير:

ليس من السهل الحكم على وجود خطة عمرانية متّبعة أو عدم وجودها، سواء في الفترة المرابطية أوالموحّدية، لكن من خلال تتبع الجزئيات المتناثرة في المصادر التاريخية، يمكن لنا رصد مجموعة من المؤشرات منها:

أنّ السّلطة السّياسية في بلاد المغرب الإسلامي عرفت باهتمامها بالبناء والعمران منذ القديم وكان العمران سواء المدني أم الدّيني أم الثّقافي أم العسكري وسيلة للسّلطان لتوسيع الملك وهو ما أشار إليه ابن خلدون عن عدم إمكانية تطوّر أحدهما دون الآخر إذ يقول في هذا الصّدّد

¹الإدريسي، ج2، المصدر السابق، ص ص 562-563.

فالدولة دون العمران لا تتطوّر والعمران دون الدولة والملك متعذّر فهما لا ينفصلان واختلال أحدهما مؤثّر في اختلال الآخر¹.

فالعلاقة بين السلطة السياسية والعمران علاقة وثيقة فالسلطة هي من توقّر الأمن الذي بدوره له تأثير مباشر في العمران، كما أنّ السلطة السياسية هي من تخطّط وتنظّم المجال العمراني وتسعى لتأكيد وجودها وتثبيت الانتصارات العسكرية، كما أنّه نتيجة لثمرات الملك في تحصيل المباني والمساكن وقد أخضع الباحث مصطفى أحمد بن حموش ثنائية العمران والسلطان ويرى أن هناك تلازم اطرادي بينهما²، فالسلطان يسعى للبناء والتشييد فيزدهر العمران بعدله وعلى العكس من ذلك فإنّ نشوب الحروب أو وجود تهديدات أو ظلم السلطان وتعرّفه مؤدّن بخراب العمران، وقلة الإنتاج في المجال الفنّي وخاصة المعماري³، وما يمكن ملاحظته بالنسبة لحكام المرابطين أنّهم أرادوا إثبات هيبتهم وسلطتهم من خلال الاهتمام بالعمارة والتشييد، غير أنّهم كانوا أداة للتنفيذ دون مبادرة أو تعديل للاقتراحات المقدّمة وذلك لحضور الطّرف المرابطي والطّرف الثاني العنصر الأجنبي عن صنهاجة، والذي كان دائماً مصدر الاجتهاد والاقتراح فعلى سبيل المثال كان اختيار موقع بناء مدينة مراكش من طرف أشياخ أوريكّة وهيلانة، وبناء سور المدينة من طرف ابن رشد الجدّ وإدخال الخطارات كان من صنع عبيد الله ابن يونس، على عكس أعدائهم الموحّدين الذين كانت لهم المبادرة في التنفيذ فالمصادر التي أرخت للتعمير في عهدهم أوضحت أنّ الطّرف الموحّدي كان صاحب الاجتهاد والمسعى معاً ولا وجود لطرف آخر وإن وُجد فدوره ثانوي ومن مؤشّرات ذلك ما ورد في بعض النصوص التي أرخت لعملية البناء والتعمير منها ما أشار إليه صاحب كتاب الاستبصار " زاد فيها الخليفة الإمام وخليفته " و " بنى فيها " و " ثمّ زاد فيه مثله أو أكثر " و جلب الخليفة الإمام المياه⁴.

¹ ابن خلدون، المقدّمة، ج1، المصدر السابق، ص 471.

² مصطفى أحمد بن حموش، المدينة والسلطة في الإسلام نموذج الجزائر في العهد العثماني، ط1، دبي، مركز جمعية الماجد للثقافة والتراث، 1999، ص 21.

³ ابن خلدون، المقدّمة، ج1، المصدر السابق، ص 353.

⁴ مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص 209.

كان تخطيط المدن المرابطية أقلّ تنظيماً من المدن الموحّدية خاصّة فيما تعلّق بالمرافق العامّة التي لم نجد معلومات دقيقة حولها في الفترة المرابطية عكس عهد الموحّدين أين أشارت المصادر إلى التّطوّر الكبير في مجال تخطيط المدن وحضور المرافق العامّة مثل السّاحات الواسعة والبيمارستانات والحدائق والبساتين.

تميّزت الأسواق الموحّدية عن الأسواق المرابطية بالتنظيم المحكم مع تقسيم الأنشطة الاقتصادية.

ب- سياسة الموحّدين العمرانية وجهودها في البناء والتّعمير:

اهتمّ الأمراء الموحّدين بال عمران وأولوه شأنًا كبيراً ويظهر ذلك من خلال ما أمكن الوقوف عليه من النّصوص التي أرّخت للأخبار المتعلّقة بذلك فعبد المؤمن بن علي كان مولعاً بتشييد المباني الجديدة كالمدن والقصور في تازة وتتمل ومراكش، فلم يكن مجرد سياسي عظيم بل كان مبدعاً وموحياً لطرز معماري أصيل.

وقد سار خلفاء بني عبد المؤمن على نهجه في مجال العمران عندما تولّوا الحكم حيث كانت لهم رعاية خاصّة ببناء المدن والقصور سواء في المغرب الإسلامي أم الأندلس، فقد ذكر صاحب الاستبصار بعض الأعمال التي قاموا بها من ذلك على سبيل المثال هذا النّص: "ومدينة مراكش اليوم من أعظم مدن الدّنيا بهجة وجمالاً بما زاد فيها الخليفة الإمام وخليفته أمير المؤمنين أبو يعقوب وخليفتهما أبو يوسف"¹.

وتتجلّى مؤشّرات السّياسة العمرانية للخلفاء الموحّدين من خلال الإشارات التي وردت في المصادر منها ما أورده صاحب كتاب الاستبصار بقوله: "بما زاد فيها الخليفة الإمام" ثمّ يضيف أنّ هذا: "الخليفة بنى جامعاً فريداً من خلال زياداته لمساحته التي بلغت حجمه أو أكثر من ذلك ورفع فيه مناراً لم يشيّد في تاريخ المسلمين مثله، ليكمل هذا المنار الابن والخليفة أبو يعقوب، كما بنى فيها صهرجين عظيمين كان النّاس يسبحون فيهما فلا يكاد الرّجل القويّ يقطع الصّهرج"². وهذا دليل على كبر مساحة هذا الصّهرج، كما قام بزيادة حصن للمدينة، أكمله ابنه

¹ الاستبصار، المصدر السّابق، ج1، ص 209.

² مجهول، الاستبصار، المصدر السّابق، ص 209-210.

أبو يوسف كما زاد عليه مدينة أخرى بها من القصور والجوامع والأسواق والفنادق جعل من مراكش مركز جذب للتجار والسكان لما بها من المرافق العمرانية، والازدهار الاقتصادي، فتحوّلت المدينة من رمضاء يكاد الطائر يسقط حولها إلى أكثر المدن عمارة وبناءً بها من الجنّات والبساتين ما تستغني بها عن غيرها.

يُفهم ممّا سبق أهميّة المنجزات المعمارية سواء تلك المتعلقة بالزيادات في توسيع مساحات المدن، وامتداد مجال السكن بها أو المنشآت المعمارية الفلاحية الضخمة كالصهاريج لتخزين المياه ومالها من أهميّة في زيادة الإنتاج الفلاحي، وهو ما جعل عبد الرحمان بن خلدون يثني عليهم ثناءً عظيماً وبرّر ذلك بما أنجزوه من معالم عمرانية اصطبغت بالصيغة الدّولية.

ومن هذه الأعمال تلك المدن المستحدثة والمستبحرة في العمران والتي رافقتها منشآت ومرافق عامّة مثل البيمارستانات والحدائق والقصور والتي كان بناؤها في غالب الأحيان يتمّ بعد الانتصارات العسكرية كتعبير عن التفوّق الحضاري للدّولة.

وهو ما أكّده الباحثان الإسبانيان ليوبولدو توريس بلباس وباسيليو بابون مالدونادو حيث أكّدا على أنّ الحكّام الموحّدين كانوا رعاة حقيقيين لثقافة العمارة وسخّروا كل جهودهم وقوّتهم لهذه الثّقافة، وقد نالوا من خلال ذلك أن أتتهم الأيادي العاملة من كلّ الاتجاهات والإثنيات، وهذه الأيدي حملت جمالا تراثيا فنّيا تجسّد في العمارة الموحّدية في المغرب الإسلامي والأندلس، وهو ما أكّده معظم المصادر التي اهتمّت بشأن العمارة في العهد الموحّدي.

فقد كان الخليفة أبو يعقوب يكلف نفسه بتشديد المشاريع العمرانية العظيمة والصّروح الجليلة التي أرخت لها عديد النّصوص وجعلته أحد أبرز خلفاء الموحّدين الذين اهتمّوا بالعمارة، ومن أبرز ما قام به إنشاء عديد القناطر في سلا و طرّيانة وفي فترة حكمه توافد عليه العرفاء والبنّائون من أهل إشبيلية ومن كلّ مكان من قواعد الأندلس، ولاسيما من مراكش وفاس، واجتمع أمهر العمّال من مختلف الحرف المطلوبة، كما قام بإمداد إشبيلية بالماء وجدّد أسوارها وأنشأ قصبة بطليوس الشهيرة وقام بتوسعة مدينة مراكش وتزيينها، وما يستنتج من ذلك قدرة الحكّام الموحّدين على جلب الأيدي العاملة الماهرة وتوفير الظروف الملائمة لها ما مكّن للإبداع العمراني والفنّي والذي أصبح عمراننا عالميا.

- القصور:

يتضح ممّا سبق ذكره عناية كلّ من المرابطين و الموحّدين ببناء القصور غير أنّ قصور الموحّدين جمعت بين الفخامة والرّوعة أين عكست اهتمامهم أكثر من المباني الأخرى كونها تخلّد ذكراهم ومجدهم، فعلى عكس المرابطين الذين لم يهتموا بزخرفة القصور وكانوا أكثر تقشّفا فإنّ الموحّدين بالغوا في الاهتمام بتصاميمها حتّى فاقت قصور ملوك الطوائف وكانت أهمّ المراكز الفنّية قصور مراكش وفاس، وإشبيلية وغرناطة، غير أنّ ما يؤسف له أنّه لم يبق منها في المغرب الإسلامي إلاّ أثارا قليلة¹.

-الدّور: كانت الدّور في العهدين تتّبع نمطا متشابها غير أنّ المنازل الموحّدية شهدت تحسينات في التّخطيط والبناء، فكانت أكثر اتّساعا مثل ما رأينا مع منزل الوزير ابن جامع فضلا عن بعض الموادّ المستعملة.

- الحمامات:

ممّا سبق ذكره حول عناية الدّولتين ببناء الحمامات فقد كانت عنصرا أساسيا في النّسيج العمراني غير أنّ الموحّدين كانوا أكثر اهتماما من المرابطين بهذه المرافق والعناية باختيار أماكنها الملائمة والإشراف عليها وتخصيص ميزانية خاصّة لها.

-البيمارستانات:

أولى الموحّدون عناية خاصّة لهذه المؤسّسات الاستشفائية عكس المرابطين الذين لم تصلنا معلومات عن اهتمامهم بالبيمارستان، وتمثّل أهمّ بيمارستان في بلاد المغرب الإسلامي ذلك الذي بُني في عهد المنصور الموحّدي.

¹ من هذه الآثار ماتمّ اكتشافه خلال التّنقيبات التي تمّت قرب مسجد الكتبيين بمراكش حيث تمّ العثور على بعض بقايا الجناح العائلي من قصر علي بن يوسف الذي شرع في بنائه سنة (526-531هـ/1132م) بينما لم يتم العثور على بقايا قصور الموحّدين نهائيا رغم كثرتها **ينظر**: تورييس بالباس، المرجع السّابق، ص 30-31.

عرفت العمارة المدنية في العهدين المرابطي والموحدي تطوّرات ملحوظة بالمغرب الإسلامي، وتميّز كل عهد بأسلوبه المعماري الخاصّ مع تطوّر ملحوظ في المرافق العامّة من العهد المرابطي إلى العهد الموحدي.

خلاصة:

يستنتج من هذا الفصل أنّ العمارة المدنيّة مثّلت انعكاسا للمجتمع المرابطي والموحّدي من النّاحية الحضارية والثّقافية، وقد اشتركت الدّولتين في بعض الأمور كالاهتمام ببناء المدن والقصور والدّور، غير أنّهما اختلفا في خصوصية التّعبير المعماري حيث تميّزت العمارة المرابطية بالبساطة والوظيفية، بينما كانت العمارة الموحّدية أكثر انفتاحا وحضورا واهتمّت بالجانب الجمالي خاصّة ماتعلّق بالقصور والدّور والمدارس والفنادق والحمامات.

الفصل الرابع: العمارة الحربية في المغرب الإسلامي في عهدي المرابطين والموحدين

أولاً: العمارة الحربية في عهد المرابطين

ثانياً: العمارة الحربية في عهد الموحدين

ثالثاً: التأثيرات الأندلسية في العمارة المرابطية والموحدية

رابعاً: دراسة مقارنة

تمهيد:

كَانَ لِمَوْقِعِ الْمَغْرِبِ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِي يُشْرِفُ عَلَى الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمَتَوَسِّطِ بِمَسَاحَةِ مَعْتَبَرَةٍ دَوْرًا كَبِيرًا فِي انْتِشَارِ الْعِمَارَةِ الْحَرْبِيَّةِ مِنْذُ الْقَدَمِ، وَلَمْ تَكُنْ فِتْرَةُ دَوْلَتِي الْمُرَابِطِينَ وَالْمَوْحِدِينَ اسْتِثْنَاءً مِنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ، حَيْثُ أُولَّتْ كُلُّتَا الدَّوْلَتَيْنِ اهْتِمَامًا بِالْعَا بِقَضَايَا الْجِهَادِ، مِمَّا أَدَّى إِلَى التَّرْكِيزِ عَلَى تَحْصِينِ الثَّغُورِ السَّاحِلِيَّةِ وَالْدَّاخِلِيَّةِ وَحِمَايَتِهَا مِنَ الْمَعْتَدِينَ، وَهَنَاكَ الْعَدِيدُ مِنْ أَشْكَالِ الْعِمَائِرِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَهِيَ فِي الْغَالِبِ الْحِصُونُ¹ وَالْقِصَابُ² وَالْأَسْوَارُ الْمَدْعَمَةُ بِالْأَبْرَاجِ لِحِمَايَةِ الْمَدَنِ وَالْقُصُورِ وَالْمَحَارِسِ، أَمَّا الْأَبْوَابُ فَتَعَدَّ جِزْءًا أَسَاسِيًّا مِنَ الْأَسْوَارِ تُسْتَخْدَمُ فِي الدِّفَاعِ وَالْهَجُومِ نَظَرًا لَوْجُودِ فِتُوحَاتِ لِرْمِي السَّوَائِلِ وَمِزَاجِ لِرْمِي السَّهَامِ عَلَى الْمَعْتَدِينَ، بِالإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ هَنَاكَ الْأَبْرَاجُ³ الَّتِي تَعَدُّ مَبَانٍ حَرْبِيَّةٍ قَدْ تَكُونُ مَرَبَّعَةً أَوْ مَسْتَدِيرَةً، وَتَكُونُ فِي مَوَاضِعٍ بَارِزَةٍ فَوْقَ الْأَسْوَارِ وَغَيْرِهَا مِنْ الْمُنْشَآتِ الْحَرْبِيَّةِ الَّتِي تُسَهِّمُ فِي الْحِفَافِ عَلَى الْأَمْنِ وَصَدِّ الْخَطَرِ الْخَارِجِيِّ.

وَقَدْ عِتَبَرِ الْإِسْلَامُ بِنَاءَ الْأَسْوَارِ وَالْأَبْرَاجِ وَالْحِصُونِ وَالْقِلَاعِ مِنَ الْوَسَائِلِ الَّتِي تُسَاعِدُ فِي حِفْظِ النَّفْسِ وَالْمَالِ وَالْعَرَضِ، وَهِيَ مِنْ مَقَاصِدِ الْإِسْلَامِ، وَلِهَذَا السَّبَبِ صَنَّفَهَا الْفُقَهَاءُ ضَمْنَ الْبِنَاءِ الْوَاجِبِ، خَاصَّةً إِذَا كَانَتْ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا مُلْحَةً لَاسْتِعْمَالِهَا فِي الدِّفَاعِ عَنْ حُرْمَاتِ الْمُسْلِمِينَ⁴، لِذَلِكَ عَرَفَتْ اهْتِمَامًا كَبِيرًا مِنْ قِبَلِ الْأُمَرَاءِ وَكَافَّةِ أَفْرَادِ الْمَجْتَمَعِ.

وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ تَشْيِيدَ الْحِصُونِ وَالْمَحَارِسِ عَلَى حُدُودِ الدَّوْلَتَيْنِ الْمُرَابِطِيَّةِ وَالْمَوْحِدِيَّةِ إِرْتَبَطَ بِمَفْهُومِ الْجِهَادِ وَالْمُرَابِطَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَوَاءً فِي الْمَنَاطِقِ السَّاحِلِيَّةِ أَمْ الدَّاخِلِيَّةِ، لِذَلِكَ نُلَاحِظُ

¹الحصون: مفرد حصن، وحصن المكان أي صار حصينًا والحصن كل موضع محمي ومنيع لا يوصل إلى ما بجوفه إلا بقتال يحتمي به الناس لمناعته وعلوه يقال حصن حصين تعبيرًا عن المبالغة في الحصانة والصياصي الحصون، والجوسق شبه الحصن ينظر: ابن منظور، ج3، المصدر السابق، ص 119. -أحمد مختار عمر، ج1، المرجع السابق، ص 510. -كراع النمل، المنتخب من كلام العرب، تح محمد بن أحمد العمري، ط1، جامعة أم القرى، 1979، ص 406.

²القصاب: مفرد قصبه وهي جوف الحصن وقصبه البلاد مدينتها الوسطى التي توسعت منها وقصبه القرية أوسطها والقصبه في بلاد المغرب الحصن المنيع المرتفع ينظر: مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ج4، ص 43.

³البرج: بناء مرتفع يعتبر عنصرا دفاعيا ملحق بسور المدينة كما يستخدم لدعم البناء الذي يقام فيه ينظر: محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 124.

⁴محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 121.

تداخلاً في استخدام المصطلحات التي تشير إلى تلك المباني والمعالم المنشأة لهذا الغرض، ومن بين هذه المصطلحات: الرّباط، الحصن، القلعة، القصر، المنظر، السّور وغيرها من المصطلحات التي لم تفرّق المصادر التاريخية غالباً بينها.

فالبركي يُسمّي المحارس رباطاً وحصوناً وقلاعاً¹، والفرق بينهما أنّ الرّباط عادة ما يكون في الثّغور بينما الحصن نجده في أماكن قرب المدن وبعيدا عنها، وأحيانا يتطوّر موقع الحصن إلى مدينة²، كما ذكر الفيروز آبادي أنّ القصور هي البروج³، وهو اختلاف تتوّع أي إنّ كلّ واحد عبّر عن المراد بتعبير مغاير للذي سبقه وإن كان المعنيان متغايران فهما لا يتنافيان⁴، وإن كانت الحصون عموماً تبنى في أماكن خالية لا يتواجد بها العامّة بل قد يلجؤون إليها وقت الخطر عكس القلعة التي يسكنها الناس، كما أنّ الحصن هو أكبر العماير الحربية استحكاماً، وقد عرفت أسوار المدن بالحصانة مثل أسوار القيروان وفاس وقرطبة وتلمسان وغيرها من المدن في المغرب الإسلامي⁵.

وعلى الرّغم من عدم معرفتنا الدّقيقة بعدد المنشآت العسكرية الدّفاعية التي أقيمت في المغرب الإسلامي خلال فترتي المرابطين والموحّدين، سواءً في المناطق الخاضعة لسيطرتهم بصفة خاصّة أم بشكل عامّ لإعراض المصادر عن ذكرها سوى بعض الإشارات غير الدّقيقة مثل: بنى المرابطون أو الموحّدون حصناً أو قلعة أو سورا ، فإنّنا سنحاول تتبّع هذه المنشآت كما ذكرتها المصادر التاريخية مع التّنبية إلى ندرة الإحصائيات والأرقام في المصادر الوسيطية المتعلّقة بالعمران خلال هذه الفترة، وذلك لعدّة أسباب من بينها: الأضرار الكبيرة التي لحقت بالبّنية العمرانية نتيجة عمليات الهدم والتّخريب التي طالتها في الفترات اللاحقة، فكلّما جاءت أمة إلّا ولعنّت أختها، بالإضافة إلى العوامل الطّبيعية.

¹ البركي، ج2، المصدر السّابق، ص 691، ينظر أيضاً: محمد عاصم محمد رزق، المرجع السّابق، ص 81.

² محمد عبد السّتار عثمان، المرجع السّابق، ص 106-109.

³ الفيروز آبادي، بصائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز، ج2، تح، محمد علي النّجار، القاهرة، المجلس الأعلى للشّؤون الإسلامية، 1996، ص 234.

⁴ مساعد الطّيّار، فصول في أصول التّفسير، ط2، دار ابن الجوزي، 1423هـ، ص 80.

⁵ رزق عاصم محمد، المرجع السّابق، ص 81.

أولاً: العمارة الحربية في عهد المرابطين:

تُعتبر العمارة الحربية من العناصر المهمة لقيام الدول في الفترة الوسيطية، حيث مثّلت إحدى العوامل التي ساعدت على حفظ الأمن والاستقرار، فكان بناؤها لعدة اعتبارات منها: الأمنية والدينية فلها دور كبير في استمرار وجود الدولة، كما تعكس مكانة وهيبة السلطة الحاكمة.

وقد كان المرابطون على بَيِّنَةٍ بهذا الدور نظراً لاقتتران قيام هذه الدولة بالغزو والجهاد، وهو ما جعلها عرضة للأخطار، ولعلّ هذا ما دفعهم للحرص منذ بداية عهدهم على توفير الأمن لدولتهم بتشديد هذه المنشآت والتي تمثّلت في: العمارة الحربية المتشكّلة من القلاع والحصون والأسوار وغيرها.

أ: القلاع والحصون في المغربين الأقصى والأوسط

كان لقيام دولة المرابطين أثر كبير في النظام الحربي، لقيامها على بنية عسكرية فرضها المعطى الديني المتمثّل في الجهاد¹، بالإضافة إلى ما عُرف من بأس وشدة القبائل الملتئمين كونهم شعباً محارباً من الدرجة الأولى، وهذا ما انعكس على تشييد وبناء المنشآت الحربية التي لعبت دوراً في الحفاظ على الأمن والاستقرار.

لكن تجدر الإشارة أنّ المرابطين في بداية تشكّل دولتهم لم تكن لهم دراية بفنون الحصار، نظراً لطبيعتهم البدوية وبيئتهم الصحراوية، وكانوا يعتمدون على الإبل كحصون ويسوقونها معهم في حروبهم²، لذلك تخلّوا أوّل الأمر عن بناء الحصون والأسوار، وقد أرجع بعض الباحثين سبب ذلك للاستقرار الداخلي الذي عرفته الدولة قبل ظهور دولة الموحّدين، لكن سرعان ما تداركوا الأمر عندما وجدوا مراكز القوى بالأندلس عبارة عن قلاع وحصون³، فقد تمكّنوا من بناء هذه المنشآت في أماكن متفرّقة في بلاد المغرب الإسلامي بهدف المراقبة والدفاع، وكنتيجة لذلك فقد

¹ إبراهيم القادري بوتشيش، حلقات، المرجع السابق، ص 16.

² يوسف زغروت، الجيوش الإسلامية وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين المغرب والاندلس، ط1، القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، 2005، ص 181.

³ عثمان عثمان إسماعيل، ج2، المرجع السابق، ص 115، ينظر أيضاً: إبراهيم حركات، ج1، المرجع السابق، ص 225.

بلغ عدد الحصون في جبل درن¹ أكثر من سبعين حصنا بهدف مراقبة المصامدة الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى للسكان².

بالإضافة إلى ذلك تجنّب أيّ خطر قد تشكّله بقية القبائل المعارضة للدولة كقبائل: بني مراسن³ وزناتة⁴ ومصمودة⁵ وبرغواطة⁶، فهذه القبائل جعلت مهمة المرابطين صعبة في تحقيق السيطرة وفرض الأمن، ممّا استدعى زيادة حاجة المرابطين إلى هذه الحصون والقلاع، حيث أقام يوسف

¹درن: جبل عظيم متّصل العمارة ومبذؤه من البحر المحيط في أقصى السّوس وصولاً إلى جبل نفوسة وسَمّي بها أيضاً حيث يطلق عليه هناك جبل نفوسة، ويتّصل بعدها بجبال طرابلس، وفيها ينقطع أثره، وفيه كلّ طريفة من الثّمار وغرائب النّباتات لوفرة المياه فيه وبجانبه لكثرة تساقط الثّلوج عليه، ممّا جعل النّبات دائم الخضرة ينظر، ينظر: الإدريسي، ج1، المصدر السّابق، ص 235، - عبد الواحد المراكشي، المصدر السّابق، ص 113، - عبد الرحمن بن خلدون، ج1، المصدر السّابق، ص 76، - مبارك الملي، ج2، المرجع السّابق، ص 238. ²محمود مقديش، كتاب نزهة الأنظار في عجائب التّواريخ والأخبار، ج1، تح علي الزاوي، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988 ص 58.

³ بني مراسن: تمكّن يوسف بن تاشفين من فتح بلادهم والقضاء على أميرهم يعلى ابن يوسف سنة (456 هـ/1064م)، ينظر: ابن خلدون، ج6، المصدر السّابق، ص 246. - النّاصري، ج2، المرجع السّابق، ص 29. ⁴ زناتة : تعدّ أحد أعظم قبائل البربر وهم من ولد جانا ويذكر ابن خلدون في العبر أنّ بطونهم كثيرة وكلّها ترجع إلى ورسيك وفرني والديريت، كما تعتبر أكثر القبائل تعريباً لاحتكاكها بالعرب، ينظر، ابن خلدون، ج7، المصدر السّابق، ص 7-8.

⁵مصمودة: بفتح الميم وسكون الصّاد وضَمّ الميم وفتح الدّال وهو من فرع البرانس يتميّزون بوفرة العدد من بطونهم برغواطة وغامرة وبلادهم أقاصي بلاد المغرب اتّخذوا المعازل وبنوا الحصون وشيّدوا القصور والمباني وينتمي الموحدون إليهم، بنظر: القلقشندي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزّمان، تح إبراهيم الإبياري، ط2، دار الكتاب المصري، 1406-1986، ص 169.

⁶برغواطة، قبيلة بربرية وهم شعب من شعوب مصمودة ويفهم من الكلمة أنّها ليست لها دلالة سلالية وإنّما المقصود بها نحلة دينية أطلقت على القبائل التي اتّبعت مؤسسها صالح ابن طريف أو يونس مدّعي المهديّة ومؤسس فرقة برغواطة و ، ينظر: محمد سليمان الطيّب، ج3، المرجع السّابق، ص 820.

بن تاشفين سلسلة من الحصون لتطويق قبائل مَصمودة جنوبا وبلاد غمارة¹ شمالا وزناتة بالمغرب الأوسط وذلك لرصد تحرّكاتهم ومنع زعزعة الأمن².

يبدو إذا أنّ بناء هذه الحصون كان نظاما متّبعًا في الدّولة، إبتدأه يوسف بن تاشفين الذي بنى العديد منها في بلاد المغرب وحتّى الأندلس، وذلك في إطار عمليات الفتح والجهاد التي كان يقوم بها والتي أشادت بها مختلف المصادر، وأجمعت على أنّ الجهاد كان أساسا مهماً في قيام دولة المرابطين، وخير مثال على ذلك الرّسالة التي حملها والد أبي بكر ابن العربي إلى الخليفة المستظهر بالله والتي تُشيد بيوسف بن تاشفين وماحقّقه من انتصارات ضد النّصارى³.

وقد قام يوسف بن تاشفين ببناء عدّة حصون من أهمّها: حصن المدينة الجديدة بتلمسان في المغرب الأوسط وُسّمت بتكرارات وتعني في لغة البربر المَحلة أو المُعسكر، ونفس الأمر قام به بمدينة مكناس حيث تمّ بناء حصن تآكرارت، كما قام ببناء حصن في مدينة مراكش يلجأ إليه عند ظهور أيّ خطر، بل إنّ بناء مدينة مراكش كان لتحقيق أغراض حربية فكانت كالقبروان بُنيت لتكون معسكراً للقوّات الزاحفة ونقطة مراقبة أمامية على مشارف جبال الأطلس⁴.

بشكل عامّ حرص يوسف بن تاشفين على حشد إمكانيات كبيرة من الجند والمؤن في خدمة الحصون، ممّا شكّل أرضية قويّة للمنشآت الدّفاعية، نظرا لحسن اختيار مواقعها فقد روعي فيها عديد الشّروط منها: الجانب الأمني حيث تمّ تشييدها قرب الجبال الممتنعة، كما كانت سواحل البحار والجزر مكانا مناسباً مثل ما قام به عبد الله بن ياسين أثناء بنائه لرباطه المشهور إلى جانب مدينة أزوكي التي وصفها البكري بالحصن وأنّ حَوْلها عشرين ألف نخلة⁵، وهو رقم مبالغ

¹ -بلاد غمارة، جبال متّصلة ببعضها تنتهي قرب مدينة فاس تقطنها إحدى أشهر قبائل البربر وهم مَصمودة الشّمال وتسمو باسم والدهم غمار ابن مَصمود ويُقال غمار ابن اصاد ابن مَصمود. ينظر: الإدريسي، ج2، المصدر السابق، ص 532. - محمد سليمان الطيّب، ج3، المرجع السابق، ص 832.

² -حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، ط2، القاهرة، دار الفكر العربي، 1996، ص ص 346-348.

³ - إبراهيم القادري بوتشيش، حلقات، ص ص 14-15.

⁴ حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 346، ينظر أيضا: إبراهيم حركات، ج1، المرجع السابق، ص 225.

⁵ البكري، ج2، المصدر السابق، ص 861.

فيه وإن أثبتت التّفتّيبات الأثرية على وجود المياه ووجود بقايا أثرية على مبان سكنية ودفاعية تعود لعصر المرابطين الذين أمضوا فيه مدّة قصيرة¹.

كما يُلاحظ أنّ يوسف بن تاشفين لم يجد صعوبة كبيرة في فتح حصون مدينة فاس، حيث تَقَصّ منازلها وأقام في بعضها أيّاما يَسْتَعْلَم عنها²، ليتمكّن بعدها من إخضاع حصون وطاط³، وهذا دليل على براعته وقدرته على استغلال نقاط الضّعف الموجودة بهذه الحصون.

وقد زادت حاجة المرابطين إلى هذا النوع من المنشآت مع بداية ظهور دعوة المهدي بن تومرت وذلك لتواجد عدد كبير من القوّات المرابطية للجهاد في الأندلس، فتزايد بناء هذا النوع من هذه المنشآت وذلك بشهادة أعدائهم من الموحّدين، فقد أحصى البيهقي ما يزيد عن عشرين حصنا منتشرة في المناطق الجبلية في الجنوب والشّمال في المغرب الأقصى والأوسط، كما لا حظ علي بن يوسف أنّ الحصون التي ابتناها أبوه لم تعد تكفي لتحقيق الغرض المنشود، وأنّها من القلّة بحيث لم تُحلّ دون وثوب الفتنة فاستعان ببعض الأندلسيين في إقامة سلسلة أخرى من هذه القلاع الحصينة⁴.

وقد ورد ذكر حصني أزكي ومدينة أودغشت⁵ اللّذين اتّخذهما الملثمون كقاعدة تنطلق منها الجيوش لنشر الإسلام وتأديب القبائل المعارضة، فحصد أزكي بناء المرابطون لإخضاع بعض

¹ - محمدو ولد عمر، المرجع السابق، ص 244.

² - ابن خلدون، ج 6، المصدر السابق، ص 246.

³ - حصون وطاط: حصون بنيت في الجبال المُطلّة على وادي ملوية من جهة القبلة مابين مدينة تازي وفاس ويعود أصل بين وطاط إلى بني يرنيان وهم إخوة مغراوة وبني يفرن، ينظر: ابن خلدون، ج 7، المصدر السابق، ص 66.

⁴ - البيهقي، المصدر السابق، ص 90-93. ينظر أيضا: حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 348.

⁵ - أودغشت: محطة رئيسية لقوافل الصّحراء ومدينة تجارية مهمّة للقبائل الصّنهاجية نظرا لموقعها في وسط الصّحراء فهي تربط بين شمال الصّحراء وجنوبها اتّخذها الملك تيولوتانابن تلاكاكين عاصمة له بعدما كانت تابعة لملك غانة الوثني وجعلها حاضرة لنشر الإسلام بين القبائل الرّنجية بالسّودان الغربي لكن مملكة غانة استطاعت أن تستعيدّها بعد وفاة تيولوتان سنة (222هـ - 836م) واحتفظت المدينة بقوّتها كأعظم مملكة في السّودان الغربي حتّى قيام الحلف الصّنهاجي الثّاني سنة (426هـ - 1035م) بقيادة أبي عبد الله ابن يتقاوت، وبها مبان حسنة ورفيعة وأهلها أخلاط من جميع الأمصار ينظر: الحميري، الرّوض المعطار، المصدر السابق، ص 64، - عبّاس إبراهيم حمادي و عبد الحسن كاظم عناد، مملكة أودغشت الإسلامية دراسة في أحوالها العامّة (62-

قبائل جدالة التي خالفت أوامر الجهاد لاسترداد مدينة سجماسة التي تمرّد سكّانها ممّا دفع بالمرابطين وعلى رأسهم قبيلة لمتونة وأميرها يحيى للتّحصّن بالجبل المعروف بغزارة لما يتمتع به من مميّزات دفاعية منها سهولة رصد تحرّكات هذه القبائل وصعوبة الوصول إليها¹.

والجدير بالذكر أنّ الأمير تاشفين ابن علي عندما تمّ تعيينه من طرف أبيه قام ببناء حصن في مدينة وهران واهتمّ بشؤون الأندلس²، فعُنّي بإصلاح الحصون وتحصين الثّغور، وقد غزا عدّة غزوات تُوجت معظمها بالظّفر على النّصارى، وافتتح عديد الحصون جعلت عديد المصادر تخلّد ذكره³.

وهكذا قام المرابطون بتشبيد العديد من الحصون التي استخدمت مراكز دفاعية في كلّ من المغرب أو الأندلس، وقد بنوا سلسلة من الحصون في المناطق الجبلية المرتفعة لمراقبة أيّ تهديد وخطر قد تشكّله قبائل المصامدة ومن أبرز هذه الحصون حصن أمرجو⁴ على واد ورغة وقصبة النّصراني على جبل زرهون وحصن تاسغيموت⁵ عند الأطلس الكبير، وقد استغلّ

446/673-1054م)، مجلة العلوم الإنسانية، كلية التربية للعلوم الإنسانية، مجلد 23، العدد 1، 2012، ص 205-207.

¹ شوقي ضيف، ج10، المرجع السابق، ص 544، ينظر أيضا: عبدوني حسينة، المرجع السابق، ص 165.
² هناك تضارب في الآراء حول تاريخ توليته فهناك من يرى أنّها في سنة (520هـ/1126م) وهو تاريخ عزل عمّه تميم، وهناك من يقول أنّها في سنة (522هـ/1128م)، لقيامه بعدة غزوات ضد النّصارى في هذا التّاريخ، وهناك من يرى أنّه وُلّي في سنة (526هـ/1132م)، ينظر: مجهول، الحل، المصدر السابق، ص 132-133-عبد الله عنان، ج3، المرجع السابق، ص 132.

³ -مجهول، الحل، المصدر السابق، ص ص 121-134.

⁴ أمرجو: حصن يقع في مكان مرتفع بالقرب من وادي ورغة الذي يتفرّع من واد سبو جنوب قلعة بني تاودا، وهو من أروع ما بناه المرابطون فيما يخصّ العمارة الحربية في بلاد المغرب الإسلامي تراوحت فيه التّقاليد المحليّة مع التّأثيرات الوافدة من الأندلس، وكان بناؤه في عهد علي بن يوسف، ويبدو أنّه كانت فيه لمسة لأسرى نصارى الأندلس وذلك لظهور الأبراج المستديرة الشّكل في الأسوار الأمامية، ينظر: حمدي عبد المنعم محمد حسن، المرجع السابق، ص 378.

⁵ حصن تاسغيموت، من أعظم الحصون التي بناها المرابطون قام ببنائه ميمون ابن ياسين في عهد علي بن يوسف وقد أشرف على بنائه فلكيون أندلسيون، منهم شخص يعرف بالفلكي، عرف بمناعته لوقوعه في هضبة وعرة وأبوابه الكبيرة التي تمّ تركيبها في تينملل وتعرف بباب الفخارين، شهد هذا الحصن معركة من خلالها تمكّن الموحّدون من الدّخول إليه سنة (517هـ-1123م) وقتل واليه المرابطي أبا بكر ابن واصلو للمطي بعد خيانة من داخل الحصن والتي لولاها لما تمكّن الموحّدون من اقتحامه نظرا لصعوبة تضاريسه وبسالة الحامية الموجودة به في الدّفاع عنه،

المرابطون خبرة وتقنيات أسارى النَّصارى في البناء ممّا أسهم في جعل جدران الحصون تتميز بالقوة والعلو كما تحتوي على أبراج نصف دائرية للمراقبة¹.

والملاحظ أنّ بناء الحصون لم يقتصر على المناطق السّاحلية والجبلية فقط، بل قام المرابطون ببناء البعض منها في المناطق الصّحراوية، مثل حصن أودغشت. وعموما كانت هذه الحصون تحتوي على حاميات قوية مزوّدة بمختلف المؤن والأسلحة والخيول، يتراوح عدد جنودها بين مائة وخمسمائة وأحيانا تحاط بخندق².

وقد علّل البيدق بناء المرابطين للحصون لضعفهم وقلة قوتهم وعدم مقدرتهم على مواجهة الموحّدين، وقد ذكر هذه الحصون في كتابه تحت عنوان: "الحصون التي بناها المُجسّمون ليجعلوا فيها خيلهم ورجالهم ويتحصّنوا فيها فلم تتقدّم من أمر الله من شيء"، ويقصد بالمُجسّمين المرابطين كما ذكر مجموعة كبيرة من هذه الحصون، أولها هو حصن تاسغيموت، وحصن انسا بني إيماديدن³، حصن تافر ككونت في كيك غيغرة⁴، الحصن المتواجد في ويركان وفيه كان المرابطون⁵، وكذلك الحصن الموجود بأسكابو⁶، حصن متاع تاسنولت⁷، أصكا، كمات⁸،

ينظر: البيدق، المصدر السابق، ص 45- مجد عبد الله عنان، ج 2، المرجع السابق، ص 225-226.

ليوبولد توريس بالباس، المرجع السابق، ص 36.

¹ توريس بالباس، المرجع السابق، ص 26.

² إبراهيم حركات، ج1، المرجع السابق، ص 225.

³ وقعت في هذا الحصن معركة دارت بين القوات المرابطية بقيادة عمر ابن ديان والقوّات الموحّدية بزعامة المهدي، انتصر فيها الموحّدون وكانت في حوالي سنة 518هـ. ينظر: البيدق، المصدر السابق، ص 91.

⁴ شهد هذا الحصن معركة بين المرابطين وأعدائهم الموحّدين، وانهزم المرابطون بقيادة عمر بن يندوك ينظر: البيدق، المصدر السابق، ص 91- عبدوني حسينة، المرجع السابق، 167.

⁵ البيدق، المصدر السابق، ص 91.

⁶ يقع في جبل تينغرم أو تينلفيق، وفيه التقى جمع المرابطين مع الموحّدين ودارت معركة لمدة ثلاثة أيام انتصر فيها الموحّدون وغنموا غنائم كبيرة منها الأموال والأسرى وألف وخمسمئة امرأة، ينظر: المصدر نفسه، ص 91.

⁷ لا تزال بعض آثار هذا الحصن موجودة عند مصبّ وادي سوس في المحيط الأطلسي، ولّى رئاسته معاذ ابن موسى، وكان حصنا يتواجد به الكثير من الرّجال والخيول، ينظر: المصدر نفسه، ص 92.

⁸ كان تحت إمرة القائد المرابطي إسحاق ابن ينتان الذي أبلى بلاءً حسنا عند حصار الموحّدين لمراكش، ينظر: المصدر نفسه، ص 92- عبدوني حسينة، المرجع السابق، ص 167.

تارولنت ، يكدميون¹، لجاغة²، نفيس³، هيلانة، هسكورة متاع أشبور، تادلة وتاكزورت⁴، داي، تاكرارت، آصرو متاع ابن عبدالله، القلعة⁵، تاسغمارت⁶، الفلاج⁷، كرناط⁸، تونكطايان⁹، الولجة¹⁰ والحصن الأخير الذي ذكره البيدق هو حصن تازغردا متاع لجاية¹¹.

بشكل عامّ يؤكّد البيدق أنّه دخل بعض هذه الحصون وشارك في عملية اقتحامها من طرف الموحّدين، وبعض المصادر التاريخية كابن القطان الذي يؤكد وجود هذه الحصون وبالتالي كانت تابعة للقوات المرابطية¹²، وبعد اقتحامها من قبل الموحّدين أصبحت تحت سيطرتهم بحكم الغلبة للأقوى، وما يلاحظ أنّ معظمها قد بني في مواقع جبلية يصعب على العدو الوصول إليها، لذلك كانت عملية اقتحامها صعبة رغم وجود عدد قليل من الرجال فيها.

كما نلاحظ الجهد الكبير الذي بذله المرابطون في بناء هذه المنشآت العسكرية كونها دولة قائمة على قوى حربية وسياستها الاقتصادية معتمدة على الغزو والجهاد،¹³ أكثر من القوى الاقتصادية الثابتة والمتمثلة في الزراعة والصناعة والتجارة، لذلك كان لزاما عليهم إعداد هذه المنشآت والتي

¹ أوكل هذا الحصن إلى القائد المرابطي أبي بكر ابن عمر ابن ينتان. ينظر: البيدق، المصدر السابق، ص 92.

² تولى إدارته أبو بكر بن عمر اللّمطي ينظر: المصدر نفسه، ص 92.

³ كان يحرسه معاذ ابن ترونكا ويقع هذا الحصن فوق جبل نفيسة جنوب تملل ينظر: المصدر نفسه، ص 92.

⁴ يقعان بالقرب من قسبة تادلة الحالية وكان يشرف عليه يداليم في فترة علي بن يوسف، ينظر: المصدر نفسه، ص 92.

⁵ وتعرف أيضا بقلعة المهدي وكان يشرف على هذا الحصن القائد يحيى ابن يسير، ينظر، البيدق، المصدر نفسه، ص 93.

⁶ كان يتزعمه القائد المرابطي ميمون ابن صارة، البيدق، المصدر نفسه، ص 93.

⁷ من الحصون التي ابتناها المرابطون بجنوب فاس وكان يشرف عليه مظكود ابن سلمان من بني واريث ينظر البيدق، المصدر نفسه، ص 93.

⁸ حصن مرابطي وكان فيه القائد المرابطي عبد الله ابن عاصمت، ينظر، البيدق، المصدر نفسه، ص 93.

⁹ ربما يكون الحصن الذي يحمل اسم قسبة النصراني في جبل زرهون ولا تزال فيه بعض الآثار ماثلة للعيان وكان تحت قيادة علي بن حيان ورجاله، ينظر: المصدر نفسه، ص 93.

¹⁰ وكان فيه القائد المرابطي محمد أكوناط، ينظر: المصدر نفسه، ص 93.

¹¹ من الحصون المرابطية وكان يشرف عليه القائدان الزنابير ابن عائشة ودافال ابن حوا، ينظر: المصدر نفسه، ص 93.

¹² ابن القطان، نظم الجمان لترتيب ماسلف من أخبار الزّمان، تح محمد علي مكي، ط2، دت، ص 224.

¹³ إبراهيم القادري بوتشيش، حلقات، المرجع السابق، ص 29.

تميّزت في الغالب بتعقيدات عمرانية وسرعة في الإنجاز، جعل الموحّدين وقادتهم في كثير من المواجهات يندهشون من قوّة المرابطين وصمود دفاعاتهم وهو ما حدث أثناء حصار الموحّدين لمدينة فاس وانتزاعها من لُدُن المرابطين، وكذلك أثناء حصار مدينة مكناسة جعل بعض قادة الموحّدين يصيحون بكلمة "ذأمطيريا" وهي كلمة أمازيغية تعني الاندهاش من قوّة تنظيم الخصم ودقّته¹، و الملاحظة نفسها نستشفّها من رواية غازي في كتابه "الرّوض الهتون في أخبار مكناسة الرّيتون"، في أنّ المرابطين قاموا ببناء حصن في مدينة مكناسة عندما رأوا اقتراب الموحّدين منهم وأطلقوا عليه اسم تآكرارت، وكان استخدامه في التّحصين وقد ساعد هذا الحصن في عملية الدّفاع حيث أبدى أصحابه جرأة وشجاعة منعدمة النّظير بزعامة يدر بن ولكوط، جعل الموحّدين في حيرة من أمرهم وقاموا بحفر عدّة خنادق ليتحصّنوا بها خوفا من معرّة الهزيمة².

من جهة أخرى هناك جوانب يجب التّركيز عليها وهي مدّة بناء هذا الحصن فحسب هذه الرّواية أنّه شرع في بنائه عندما شعر المرابطون بدُنوّ الخطر الموحّدي وقد تمّ الإنتهاء منه وإستخدامه في عملة الدّفاع، وهذا يدلّ على مدى سرعة تأقلم المرابطين مع الظّرف الطّارئ الذي داهمهم كما يبدو أنّ لهم دراية ببناء هذه المنشآت الدّفاعية، علاوة على ذلك فقد تمّ وضع مجموعة من الشّروط لبناء الحصون من بينها حسن إختيار المكان وإمكانية تزويده بالمؤونة وما يحتاجه من إمدادات في حالة تعرّضه للحصار.

كما تمّ وضع شروط خاصّة للإشراف على هذه الحصون وقيادتها، منها إنشاء جيش ثابت فيها، بالإضافة إلى أن تكون القيادة العليا تحت زعامة أحد أفراد قبيلة لمتونة أو جدالة³، تجنّبا لوقوع

¹ إبراهيم القادري بوتشيش، المرجع السّابق، ص 68.

² محمد ابن غازي العثماني، الرّوض الهتون في أخبار مكناسة الرّيتون، ط2، الرّباط، المطبعة الملكية، 1988، ص 18-20. - إبراهيم القادري بوتشيش، حلقات، المرجع السّابق، ص 69.

³ كانت المناصب العليا في الدّولة المرابطية عموما تُسند إلى القادة العسكريين وخير مثال على ذلك ما قام به يوسف بن تاشفين عندما اتّخذ من صهره القائد سير أبي بكر وزيرا له، كما أنّ جُلّ عُمال الأقاليم كانوا من القادة العسكريين، وقد وُظّف القائد العسكري أبا محمد مزدلي نائب يوسف بن تاشفين على الأندلس بأنّه ظبة حسامه وسلك نظامه ولا شكّ في أنّ ذلك قد انعكس على قوّة الحصون المرابطية لخبرة القادة العسكريين وإطلاعهم بمسؤوليات القيادة في المواقع التي أسندت اليهم. ينظر: ابن بسلام الشنتريني، الدّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج5، تح إحسان عباس، ط1، ليبيا، تونس لدار العربية للكتاب، 1981، ص 101. - إبراهيم القادري بوتشيش، حلقات، المرجع السّابق، ص ص 16-17.

الخيانة وتسليم الحصون إلى الأعداء، وهو ما اشترطه يوسف على ولده علي فيما يخص المنشآت المتواجدة في الأندلس¹، كما أنّ أمير المسلمين علي بن يوسف، لما ولى ابنه تاشفين على الأندلس سنة ثلاثة وعشرين وخمسمائة (523هـ/1129م) سرعان ما أمره بتقوية الحصون وسدّ الثغور وإذكاء العيون على أعدائه²، وأن يكون يقظاً وحازماً مستعداً لأيّ طارئ.

وعلي بن يوسف سرعان ما استجاب لقاضي قرطبة أبي الوليد ابن رشد، الذي انتقل إليه خصيصاً إلى مراكش ليحثّه على تجديد الحصون المحيطة بالمدن الأندلسية الكبرى، فأمر أمير المسلمين عمّاله بتعجيل إصلاح مراكز الدفاع، وقام بعزل الوالي تميم لتقصيره وقلة خبرته وعين بدله عينلو على غرناطة وسرعان ما أصلح الأسوار³.

-**القلاع:** أقام المرابطون سلسلة من القلاع في مواضع الجبال كجزء من استراتيجياتهم الدفاعية ومن أبرز هذه القلاع نذكر:

-قلعة أمرجو: وهي قلعة حصينة تحيط بها الجبال، تشرف على وادي ورغة جنوب قلعة بني تاودا ولها عديد الأضلاع تميل إلى الشكل المستطيل، يحتوي سورها على اثني عشر برجاً نصف دائرية ولها ثلاثة أبواب وفي الجهة الأمامية وضع برجان بينهما سور أمامي والقصبة الأصلية بها مستطيلة لها أيضاً أبراج نصف دائرية⁴.

-قلعة بني تاودا: وقد بناها المرابطون وبينها وبين فاس مرحلتان وجبل غمارة ليس ببعيد عنها وكانت بمثابة ثغراً وسداً منيعاً لقبائل غمارة ويشقّها واد يسمى بواد سبو ولم يبق من آثارها شيئاً لتخريب المصامدة لأسوارها وتهديم ما كان قائماً بها وتركوه أرضاً ولم يبق منها إلا مكانها⁵.

¹ محمد عبد الله عنان، ج3، المرجع السابق، ص 46.

² ابن الخطيب، ج1، الإحاطة، المصدر السابق، ص 250.

³ إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ط1، بيروت، دار الثقافة، 1962، ص 30.

⁴ - ابن القطّان، المصدر السابق، ص 224. ينظر أيضاً: عثمان عثمان إسماعيل، ج2، المرجع السابق، ص

121.

⁵ - الإدريسي، ج2، المصدر السابق، ص 249.

-قلعة تاسغيموت: بُنيت جنوب شرق مراكش من طرف ميمون ابن ياسين¹، فوق هضبة عالية فاندمجت أساسات الأسوار مع حجارة الهضبة ممّا زاد من حصانتها، كما تشرف على واد أغمات وقد كانت سبب بنائها حماية العاصمة مراكش، كما تمّ تجهيزها بخزان كبير للمياه والمؤن ومتطلبات الحياة في حالة التّعرّض للحصار، تمكّن الموحّدون من الإستيلاء عليها سنة (526هـ/1132م) بعد تواطئ حامية هزرجة المتواجدة داخل الحصن معهم عبر فتح الباب الحديدي ليلا فوق ذلك ونقلت صفائح الحديد منها نحو تينملل².

- قصبة النّصراني: كان بناؤها لتحقيق أهداف عسكرية، تقع فوق حافة صخرية في شرق جبل زرهون تحديدا شمال مدينة مكناس وبها أسوار ذات شكل مربع بنيت بحجارة الدّبش meollons، وكان للقصبة بابان فقط تؤدّيان إلى الدّاخل وتعلوها أبراج مربّعة موزّعة على أركان الأسوار³.

لقد تأثّر بناء القلاع والحصون بالظّروف السياسية والعسكرية التي عاشتها المنطقة، حيث كان اضطراب الأوضاع الأمنية وانعدام الاستقرار بسبب الحروب المستمرّة⁴، بالإضافة إلى الطّبيعة العسكرية للدولة المرابطية نتيجة توجّيه جُلّ طاقاتها نحو الجهاد دافعا نحو إنشاء الحصون والقلاع، التي استخدمت في الحراسة والدّفاع وأماكن لتخزين الأسلحة والأطعمة⁵.

إلى جانب الظّروف السياسية والعسكرية لعب الوضع الاقتصادي دورا محوريّا في بناء هذه المنشآت الحربية، حيث سعت الدولة إلى تموين بناء هذه المنشآت عن طريق تخصيص

¹-الببيدق، المصدر السّابق، ص 45.

²-عبد الله عنان، ج3، المرجع السّابق، ص 226.

³-عثمان عثمان إسماعيل، ج2، المرجع السّابق، ص 122.

⁴-نقصد بها سلسلة المعارك بين الجانب المرابطي والموحّدي ورغم صعوبة جرد وحصر كلّ هذه العمليات العسكرية المتعلّقة بالمواجهات بين الطّرفين خلال الفترة الأخيرة للدولة المرابطية، إلّا أنّ دراسة الأحداث تسمح بالخروج بانطباع يشير إلى كثافة تلك المواجهات، من خلال ملاحظة تكرار المبادرة الهجومية من الجانبين كليهما، وحجم القوى المشاركة وأهمّية القيادات ووزنها وشدّة الهجمات وسرعتها حيث في أقلّ من عشر سنوات وصلت إلى العاصمة مراكش. ينظر: محمد رابطة الدّين، ج1، المرجع السّابق، ص ص45-46.

⁵إبراهيم القادري بوتشيش، حلقات، المرجع السّابق، ص 17.

مصادر تموينية وتحويل الاقتصاد من مدني إلى حربي وذلك بتعطيل بعض الخطط الاقتصادية المدنية وتوجيه الجانب المالي لخدمة السياسة الحربية¹.

والجدير بالذكر أنّ النمط الاقتصادي الذي اعتمدته دولة المرابطين، كان قائماً على اقتصاد المغازي الذي يستند إلى ثلاثة موارد أساسية وهي الغنائم والضرائب والمصادرات وكلها موارد تعتمد على الحروب وغنائمها، وما يلاحظ على هذه الموارد هو عدم الاستمرارية حيث إنّها تركز على أسس هشة لا تسهم بشكل فعال في اقتصاد مستقر، حيث لا تكون فيه ركائز الاقتصاد الثابتة (الزراعة-الصناعة-تجارة) دوراً أساسياً في بناء الاقتصاد.

ولاشكّ أنّ ذلك قد أثر في بناء هذه المنشآت، ففي المرحلة الأولى لدولة المرابطين كانت هناك ثروات اقتصادية جاهزة سهّلت من عملية البناء، أمّا في المرحلة الثانية حيث تمّ تأسيس الدولة واجه المرابطون مشكلة ارتفاع التّفاقات المالية بشكل كبير لقمع الثّورات الداخلية والتمرد ضد السّلطة بالإضافة إلى تفوق القوى المسيحية ممّا أسهم في مشكلة تزايد نضوب هذه الموارد، وجعل عملية تمويل بناء هذه المنشآت أكثر تعقيداً²، حيث كانت ترتفع الأسعار ارتفاعاً مهولاً نتيجة الحصار من طرف القوى النّصرانية مثل ما وقع في مدينة بلنسية سنة (487هـ/1094م)، وقد انعكس ذلك على أسعار العقار التي عرفت أسعارها تزايداً مستمراً³.

من جهة أخرى يدلّ سقوط القلاع والحصون المرابطية في أيدي الموحّدين على رغبتهم الشّديدة في تدمير المرابطين، خاصّة بعد مغادرة عبد المؤمن لتتملّ بعد سنة (535هـ/1142م)، واتباعه لإستراتيجية حربية مُحكمة تتمثّل في السّيطرة على معظم هذه الحصون وإخضاعها له، خاصّة بعد تزايد أتباعه حيث كان قبل ذلك يتحصّن في الجبال تجنّباً لملاقاة المرابطين في مواجهات مباشرة مخافة محاصرته في السّهول كون قوّاته كانت قليلة مقارنة مع فرسان المرابطين⁴.

¹ لخميسي بولعراس، المرجع السّابق، ص 67.

² إبراهيم القادري بوتشش، حلقات، المرجع السّابق، ص ص 21-30.

³ لخميسي بولعراس، المرجع السّابق، ص 73- إبراهيم القادري بوتشش، مباحث، المرجع السّابق، ص 212.

⁴ غرداين مغنية، نظام الحكم في بلاد المغرب في عهدي المرابطين والموحّدين دراسة مقارنة (5-7هـ/11-13م)

أطروحة دكتوراه، إشراف لخضر عبدلي، جامعة تلمسان، (2015-2016)، ص 107.

وقد أتت هذه الاستراتيجية أكلها بترك عبد المؤمن الجبل والنزول بجموع الموحدين إلى السهول والمدن، حيث وجّهوا ضربات زعزعت أنقاض الدولة المرابطية وعجلت بسقوطها، وكان من ذلك عام النواظر حيث كان تاشفين يمشي بجيشه في الصحراء قبل عبد المؤمن الذي اختار جبل مزروح، وتاشفين في الوطأة وكان المرابطون يطاردون الموحدين دون قتال وقد انتظر عبد المؤمن سقوط الأمطار لكونه في أرض صلبة وتاشفين وجنده في أرض الوطأة، فلما تالت الأمطار صارت الأرض تغوص فيها الخيل وعجر المرابطون عن الحركة وانقطعت الطرق، فهلك عدد كبير من المرابطين بردًا وجوعًا وعبد المؤمن وأصحابه في مأمن¹.

وفي إحدى المعارك التي وقعت بالقرب من مراكش، قام عبد المؤمن ببناء حائط في موقع ضيق في أحد المضائق ليمنع المرابطين من المرور ويهلكوا في الهضاب، فتفطن تاشفين لذلك وفرّ نحو مراكش غير أنّ الموحدين رصدوا لهم الكمائن في الطريق فقتل عدد كبير من المرابطين، كما غنم الموحدون ثلاثة آلاف فارس وفرّ تاشفين إلى مراكش، مما جعل بعض القبائل تتخلى عن دعم المرابطين وتنضمّ إلى الموحدين ومنها قبيلة جزولة². وبهذا فبناء السور كان جزءا من التخطيط العمراني العسكري رجّح الفوز في المعركة لصالح الموحدين.

كان تفوق الموحدين العسكري واضح و بالأخصّ في فترة حكم عبد المؤمن الذي لم يترك تاشفين ابن أمير المسلمين علي بن يوسف يسترجع أنفاسه، فلم يقر له قرار وعاش أيام حكمه التي لم تتجاوز السنتين وشهرين مقهورا، وفرّ في آخرها إلى مدينة تلمسان فلم يرده أهلها فقصد مدينة وهران كونها مدينة حصينة فلققه عبد المؤمن وحاصره وألحق بجموع المرابطين هزيمة نكراء، وحاول تاشفين الفرار إلّا أنّه لقي حتفه بعد سقوطه من فرسه وكان ذلك في سنة (540هـ/1145م)³.

¹ ابن القطّان، المصدر السابق، ص ص 263-243. ينظر أيضا: غسان محمد خلف الجبوري، التدابير الأمنية في عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (668-1038م)، ط1، سوريا، صفحات للدراسات والنشر، 2024، ص 138.

² ابن القطّان، المصدر السابق، ص ص 264-265.

³ عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 151. ينظر أيضا: شمس الدين الذهبي، ج 11، المصدر السابق، ص 703، ينظر مبارك الملي، ج2، المرجع السابق، ص ص 289-290.

كما تفوق الموحّدون في استخدام الخطط الحربية لاقتحام المدن والقلاع والحصون، مثل ما حدث في حصار مدينة فاس، فبعد تسعة أشهر من الحصار وصمود المرابطين لم يستسلم الموحّدون، بل لجأوا إلى عملية حربية استراتيجية تتمثّل في قطع مجرى النهر الذي يمرّ على المدينة، وأقاموا عليه سدًا منيعًا من الأشجار والحطب، ورفع التراب على السدّ فارتفع منسوب المياه وتعالى حتّى صار واديا تجري فيه السفن، ممّا أدّى إلى انهيار أقسام كبيرة من الأسوار الدفاعية وسقوط أحد الأبواب الرئيسيّة وهو باب الفتوح، وهذا دليل على المهارة الحربية للدولة الموحّدية وقدرتها على الصمود واقتحام المدن المحصّنة¹، كما أنّه في سنة (543هـ/1148م) فرّ المرابطون إلى دكالة وتحصّنوا بها، وأغاروا على ضواحي مراكش فلحقهم عبد المؤمن فانحازت دكالة إلى موضع كثير الحجر من جهة المحيط وقاموا ببناء أسوار وكمّنوا فيها، غير أنّ عبد المؤمن قصدهم من جهة غير الكمين فاختلّ جيشهم ودخلوا البحر فقتلوا وأسروا².

أمّا عن الأسوار فقد عرفت هي الأخرى اهتماما كبيرا واعتبرت كعنصر ثان لا يقلّ أهميّة عن الحصون كونها عنصرا مهمّا في المنشآت الحربية.

ب: الأسوار والأبراج في المغربين الأقصى والأوسط

-الأسوار:

تُعتبر الأسوار عنصرا مهمّا في بناء المنشآت الدفاعية للدول، كونها العنصر الأوّل للدّفاع حيث توقّر الأمن والاستقرار وقد أدرك المرابطون ذلك بمجرد خروجهم من الصّحراء وتوجّههم نحو الشّمال، حيث أسّسوا عاصمتهم مراكش وقاموا بتسويرها، ولتأسيس مؤسسات دولتهم الاقتصادية والاجتماعية استوجب الأمر تأمين حدودهم وبالطّبع كان ذلك ببناء الأسوار، والتي كان بناؤها أمرا مألّوفا عند البربر وقد انعكس ذلك على عمارتهم التي كان لها طابع دفاعي

¹ -مجهول، الحل، المصدر السابق، ص136. ينظر أيضا: عبد الله عنان، ج3، المرجع السابق، ص 257.

² غسان محمد حسن الجبوري، المرجع السابق، ص 138

حيث نجد أنّ أثر ذلك يتجلّى بوضوح في ما يُعرف باسم تيغمرت أو إيغرم، أمّا تغمرت فهي عبارة عن مسكن مربّع في كلّ سور منه برج للمراقبة وتتكوّن من طابقين الأوّل مخصّص للأنعام وتخزين المؤونة، أمّا الطّابق الثّاني فتَمّ تخصيصه للسّكن والحراسة، وإيغرم فهو قلعة مرتفعة بها أجنحة لتخزين الأسلحة والمؤونة، وتستخدم كملاجئ في أيّام الحروب¹.

وقد تأخّر بناء الأسوار في دولة المرابطين بسبب الظروف البيئية الصحراوية المفتوحة التي عاشوا فيها، ومعاناتهم من الجفاف والغزوات المتتالية من طرف قبائل بلاد السودان والقبائل المجاورة لهم، فلم تخطر على بال قائد الحركة المرابطية، يوسف بن تاشفين، فكرة تسوير المدن، وذلك بسبب السيطرة العسكرية التي مارستها دولة المرابطين في المنطقة سواء في الصحراء مع أهل السودان، أو من النّاحية الدّاخلية والشّمالية للمغرب الإسلامي، في حين فسّر أحد الباحثين ذلك بسبب الاستقرار الدّخلي الذي عرفته الدّولة قبل ظهور خطر الموحّدين².

ولعلّ ذلك يعتبر ثقة في النّفس بالنّسبة لقائد دولة المرابطين، بالإضافة إلى قوّة الجيوش المرابطية من جهة أخرى، حيث إنّ يوسف لمّا اختط مدينة مراكش سنة أربع وخمسين وأربعمائة (454هـ/1062م) لم يخط بها السّور حيث اكتفى بإقامة سور صغير يحيط بالمسجد الجامع الذي كان يعمل فيه بنفسه مع البنّائين، وتشييد قصبة صغيرة لحفظ أمواله وسلاحه وسمّي هذا الحصن بحصن قصر الحجر ويعرف اليوم بالسّجينة³.

ظلت المدينة بدون أسوار حتّى تولّى الحكم علي بن يوسف، فشرع في بناء سور حولها واختلفت الآراء حول السّنة التي بني فيها السّور تحديداً فيرجعه صاحب الاستبصار إلى سنة (514هـ/1120م)⁴، بينما يذكر صاحب الحل الموشية أنّه كان في سنة عشرين وخمسمائة (520/1126م) وأنّه أنفق في بناء السّور سبعين ألف دينار من الذهب⁵، أما ابن عذاري فيذكر

¹ عبدوني حسينة، المرجع السابق، ص 170.

² إبراهيم حركات، ج1، المرجع السابق، ص ص 222-223.

³ ابن خلدون، ج6، المصدر السابق، ص 245، ينظر أيضاً: النّاصري، ج2، المرجع السابق، ص 25، - مجهول، الحل الموشية، المصدر السابق، ص 16، - محمد عبد الله عنان، ج2، المرجع السابق، ص 310.

⁴ -مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص 209.

⁵ - مجهول، الحل الموشية، ص 90.

أنّ بناء سور مراكش كان في سنة (523هـ/1129م) بتأشير من الفقيه القاضي أبي الوليد ابن رشد¹ في حين يرجعه ابن خلدون إلى سنة (526هـ/1132م)² ويتفق معه ابن أبي زرع إذ يرى أنّ العملية دامت ثمانية أشهر وذلك في سنة سنة وعشرين وخمسة³

كما رجّح بعض الباحثين سنة (520هـ/1126م) كبداية لانطلاق العملية وكان الانتهاء منها سنة (522هـ/1128م)، وذلك أنّ ابن رشد قدم إلى المغرب من الأندلس ما بين سنة (519/520هـ)، ثمّ رجع إلى الأندلس بعد لقاءه للأمير المرابطين، وكانت وفاته سنة (520/1126م) فمن الطبيعي أنّه شرع في بناء السور بعد عودة ابن رشد⁴، ونظرا لأنّ العملية استغرقت مدّة زمنيّة طويلة قرّر الأمير علي ابن يوسف تخصيص مبلغ كبير للقيام بها وطلب من القاضي أبي الوليد الإشراف عليها كما استقدم لها العمّال المهرة والمهندسين المتميّزين والبنّائين المتخصّصين لإتمام هذا المشروع⁵.

لمّا فتح يوسف بن تاشفين مدينة فاس يوم الخميس من جمادى الآخر سنة (462هـ/1080م)، أمر بتحسينها وهدم الأسوار التي تفصل بين المدينتين لتوسيعها ثمّ الشروع في بناء سور حولها⁶، كما أنّ أول ما قام به عند مروره إلى الأندلس وتحديدًا بالجزيرة الخضراء هو بناء الأسوار وترميم الأبراج⁷ وهنا يبرز التوجّه الجديد الذي سار عليه المرابطون في مجال اهتمامهم بالأسوار والقيام بترميمها لما وفّرت لهم من حماية وأمن داخل المدن.

أمّا عن توسّع الحركة المرابطية نحو الشرق فقد ميّزها بناء العديد من العمارات الحربية، وكان أولها في العاصمة الإقليمية للمرابطين تلمسان، حيث أصبحت رباطا عسكريا بفضل

¹- ابن عذاري، ج1، المصدر السابق، ص 310

²- ابن خلدون، ج6، المصدر السابق، ص 245.

³- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 139.

⁴- ينظر: حمدي عبد المنعم محمد حسن، المرجع السابق، ص 374. - عبد الله عنان، ج3، المرجع السابق، ص 115.

⁵- الناصري، ج2، المرجع السابق، ص 25.

⁶- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 141.

⁷- مجهول، الحل، المصدر السابق، ص 51.

الطبيعة المحصنة لمكان تاجرات المدينة الجديدة التي بناها المرابطون¹، وعندما وصل المرابطون إلى هذه المدينة، نصبوا خيامهم وسردقاتهم، وسرعان ما تبدلت هذه المشاهد، حيث تحولت الخيام إلى منازل ودور، وتحفظ المدينة ببعض آثار المرابطين الحربية مثل باب العقبة الذي وضع في حائط مبني من مادة الدّبش بعقد من الآجر على هيئة حدوة الفرس المنكسر، ويستند على حجارة تعود للفترة الرومانية².

كما شيّدوا فيها قصرا أقام فيه أمراؤهم، وقد إستخدمه الموحّدون من بعدهم وبقي شامخا حتى عصر بني زيّان، الذين أطلقوا عليه اسم القصر القديم، تميزا له عن القصر الجديد الذي بناه بنو زيّان والذي أطلق عليه اسم المشور، كما أنّ يوسف بن تاشفين بنى سورا للمدينة عند باب القرمدين، وقد أكّد الباحث محمد الطّمّار أنّ مدينة تآكرارت كانت محصنة ومُسوّرة، حيث كانت مأهولة بالجنود وأصحاب السّلطان فلا يُعقل أن لا يتمّ بناء السّور خاصّة وأنّ لهم بها أعداء، وهُدمت من قِبَلِ الموحّدين، وقد استعملت تقنية الطّابية في بناء هذه الأسوار كما هو حال سائر الأسوار المرابطية، وقد أكّدت الأعمال التّقييبية التي قام بها الباحث هنري تيراس حيث عثر على آثار لأسوار المدينة أرجع تاريخ بنائها إلى العصر المرابطي³.

وبعد أن تمّ طرد المرابطين من تآكرارت من طرف الموحّدين إستطاعوا البقاء في أغادير لمُدّة تقارب أربع سنوات، حيث أبدت أسوار المدينة مقاومة بفضل أبراجها ومنشأتها⁴، وهذا يدلّ على مدى تحصين المدينة خلال الفترة المرابطية.

كما أشادت بعض المصادر التّاريخية بما قام به الأمراء المرابطون وبالأخصّ علي بن يوسف وتاشفين ابن علي، حيث عملا على تقوية المدن والحصون وسدّ الثّغور ببناء الأسوار، وعليه تمّ فرض ضريبة خصّصت لبناء وإصلاح أسوار المدن الرّئيسية، وكان ذلك في سنة (519هـ/1125م)، وسمّيت هذه الضريبة بضريبة النّعتيب خصّصت لبناء أسوار المدن

¹ ابن خلدون، ج1، المصدر السابق، ص 62.

² عثمان عثمان إسماعيل، ج2، المرجع السابق، ص 122.

³ محمد بن عمرو الطّمّار، المرجع السابق، ص 43-44.

⁴ جورج ووليم مارسلي، المرجع السابق، ص 137. ينظر أيضا: سميح موهوبي، شلوق فتحة، المرجع السابق، ص 140.

الكبرى¹، وهذا دليل على إدراك المرابطين لأهمية الأسوار كونه معلما عمرانيا أساسيا في المدينة يسهم في تعزيز هيبتها وإظهار قوة السلطة أمام الخصوم.

كما قام علي بن يوسف ببناء قلعة تسجيوت التي أسهم في بنائها الفلكي الأندلسي وحرص على بناء سور حولها، كما أمر سنة (526هـ-1122م) بإحاطة مراكش بالأسوار، وإليه تنسب أسوار إشبيلية وليلة وشريش وربض قرطبة، وكانت مادة البناء في معظمها الطابية²، كما قام ببناء حصن بالقرب من وهران على شاطئ البحر وقام بتسويره وجعله ملجأ له، بعدما شعر باستفحال خطر الموحدين وتزايد أتباعهم وما حققوه من انتصارات متتالية، فكان هذا الحصن بمثابة منفذ للأمير المرابطي الذي طلب من قائد أسطوله بالميرية عشرة أجفان حربية تعسكر بهذا الحصن، في انتظار تحيينه لفرصة مرور إلى الأندلس³.

وقد تمكّن المرابطون من إدخال تحسينات كثيرة على النظام المعماري لبناء الأسوار وخاصة في عهد علي بن يوسف، نتيجة الاحتكاك الحضاري في الأندلس وحتمية الظروف السياسية التي كانت تحيط بهم، كما ابتكروا نظاما جديدة في تخطيط الأسوار، تمثلت في الإكثار من الزوايا الداخلية والخارجية للأسوار، حيث تكون على شكل خطوط متعرجة ومنكسرة تسمح لجنود الأعداء بالتقدم داخل هذه الزوايا ثم يتمكّن المدافعون من الانقضاض عليهم من جهات وزوايا مختلفة، وكان في أعلى السور درب يسير عليه المحاربون ويسمى بممشى السور، وبه أيضا شرفات تقذف منها السهام وزوايا يحتّمون بها وفتحات تساعد المحارب إلى النظر إلى ما في أسفل الحصن دون إصابته⁴، غير أنّه لم يتبقّ من أسوار المرابطين إلّا بقايا وأجزاء قليلة بمدينة تلمسان في المغرب الأوسط، وقلعة بني تاودافي المغرب الأقصى⁵.

- مواد وتقنيات بناء الأسوار:

¹ حمدي عبد المنعم محمد حسن، المرجع السابق، ص 375.

² ليوبولد تورس بالباس، المرجع السابق، ص 26-27.

³ مجهول، الحل الموشية، ص 132-133.

⁴ السيّد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1986، ص 159.

⁵ ينظر أيضا: حمدي عبد المنعم محمد حسن، المرجع السابق، ص 374.

⁵ عثمان عثمان إسماعيل، ج2، المرجع السابق، ص 122.

أسهمت المصادر الجغرافية في ذكر المدن المسورة إلا أننا نجد فراغا كبيرا في ما يخص الإشارات المتعلقة بتقنيات البناء فكثيرا ما يُذكر سور المدن أو الحصن دون التفصيل في المادّة التي بُني بها أو طول السور¹، غير أنّ تأمل الجزئيات المتناثرة في المصادر يسمح برصد مجموعة من المؤشّرات التي تدلّ على مادّة البناء، وتُظهر أنّ طبيعة الأرض التي يُبنى فيها تسهم في التّحكّم في هذه الموادّ، حيث نجد مادّة الطّابية والتي هي خليط من التّراب والرّمْل المصلب والمدكوك، والتي تتكوّن من لوحين من الخشب تربطهما مجموعة من العوارض جدّ منشرة في الفترة المرابطية²، فالطّابية كان يُعتمد عليها في بناء الأسوار خاصّة في المناطق التي لا تتوفّر على الحجارة ولاسيما المناطق الصّحراوية أو المجاورة لها، فقد ذكر الإدريسي أنّ مدينة مراكش لما اختطّها الملتّمون كانت وطاء من الأرض ليس حوالها الجبال باستثناء جبل صغير يسمّى إيجليز، وليس في موضع المدينة حجر البتّة وبالتالي كان بناؤها بالطّين والطّوب التي تُقام من التّراب وسبب ذلك انعدام الحجارة وقليتها، فقد ذكر أنّ بجبل إيجليز الحجارة ومنها اقتطع علي بن يوسف المرابطي الحجر لبناء قصره وأسواره³ ما يجعل من احتمال نفاذ الحجارة بعد بناء القصر وارداً، وبهذا نرى أنّ اللّجوء إلى الطّابية بسبب عدم توفّر الحجارة وصعوبة نقلها.

-الأبواب :

من الطّبيعي أن تحتوي الأسوار على أبواب تفصل داخل المدينة وخارجها، وكان النّظام المتّبع في صنع هذه الأبواب هو النّظام البيزنطي وهو عقدان متقابلان يفتح أحدهما إلى الجهة الدّاخلية والآخر إلى الخارجية، وقد تمكّن المرابطون من استحداث أساليب وابتكارات معمارية كاستخدام المداخل المنكسرة وسُمّيت عند المرابطين بالباطورة كما نجد أنّ من مميّزات الأبواب وجود الممرّ الواصل بين فتحتي الباب ينحني بزاوية قائمة على شكل مرفق، كما أنّ من خصائصها أيضا وضع عقبات وراء انحناء الممرّ أمام المهاجمين، ومن الأبواب التي اتّخذت

¹ على سبيل المثال حديث البكري والإدريسي عن مدن القيروان وصفاقص والمهدية وتلمسان ومدينة بني تاودا التي ابتناها الملتّمون لم يذكر كلّ منهما المادّة التي بنيت بها مدن هذه الأسوار. ينظر: البكري، ج2، المصدر السابق، ص 703. ينظر أيضا: الإدريسي، ج1، المصدر السابق، ص 248.

² رينهاردتوزي، ج9، المرجع السابق، ص 284.

³ الإدريسي، ج1، المصدر السابق، ص 233.

هذا الشكل أبواب قصبة الأردية بالرباط وباب بثلاثة مرافق بمراكش كما وجدت أيضا بالأندلس مثل أبواب مدينة غرناطة¹.

-الأبراج:

تمكّن المرابطون من تدعيم تحصيناتهم الدفاعية بمنشئة الأبراج والتي تعتبر من العناصر المعمارية الحربية فقد كانت تُشكّل جزءاً من الأسوار الدفاعية للمدن والحصون فقد دَعَمُوا الأسوار بأبراج تتوزّع على السور، كما كان يحيط بالسور سور آخر أمامي وبالأخصّ في الزوايا غير مكشوفة مما يُسهّل عملية المراقبة وهي نوع من أنواع الفنون المعمارية البيزنطية التي تأثّر بها المرابطون وكان شكلها مستديراً كأبراج قلعة أمرجو كما استخدم المرابطون الأبراج السداسية كالبرج المسدّس المنعزل في حصن العقاب وأبراج قنطرة القاضي بغرناطة².

ويبدو أنّ الأبراج المستديرة كانت أفضل من الأبراج السداسية وذلك لسهولة بنائها، حيث لا تعتمد على الزوايا عكس الأبراج الأخرى لذلك نجدها أكثر حضوراً حيث تمّ بناؤها في أسوار مدن مراكش وقلعة أمرجو وغيرها من الأسوار.

وبناءً على ما سبق، نستنتج أنّ حركة بناء الأسوار والأبراج وإن تأخّر في بداية الدولة إلا أنّ المرابطين تداركوا الأمر وأصبحت هذه المنشآت ضرورة حتمية تتّبع اتّساع نفوذ الملتّمين، حيث قام بتشبيدها جُلّ حكام الدولة نظراً لِمَا توفّره من أمن وحماية، كما كانت رمزا للقوّة رغم قلّة ما بقي من هذه المنشآت.

ثانياً: العمارة الحربية في عهد الموحّدين:

حرص ابن تومرت منذ بداية نشأة دولته على حمايتها عبر الاحتماء بقبائل مضمودة الأكثر عدداً وحضوراً، عن طريق تنظيم الجهاز الحربي الذي يحمي جماعته الناشئة، ويضمن لها النّمّ والاستمرار، وفي هذا الصّدّد يذكر النّاصري ما قام به من توزيع المهامّ فجعل أهل الجماعة للتّفاوض والتّشاور وأهل السّاقة للاعتداد وأهل السّبعين والخمسين لحمل راية العلم وسائر

¹ مغنية غرداين، المرجع السّابق، ص 180. ينظر أيضاً: لخميسي بولعراس، المرجع السّابق، ص 89.

² فتحي زغروت، المرجع السّابق، ص ص 191-192.

القبائل للحرب ومُجابهة العدو¹، كما إهتمّ بالعمارة الحربية التي شملت المعادل والحصون والأبراج والأسوار، والتي نالت حظًا كبيرًا من طرف حُكّام الموحّدين، حيث ساعدتهم في ذلك أنّ قبائل المصامدة وهم مؤسّسو الدولة الموحّدية قد كانت لهم دراية وخبرة كبيرة بهذه المنشآت وبالأخصّ الحصون، وكان ذلك واضحًا فيما تمّ بناؤه في موطن سكنهم بجبل درن حيث وقعت فيه العديد من الملاحم²، قبل بداية ظهور الدّعوة الموحّدية بزمان طويل، إضافة إلى جانب حرصهم الشّديد على تأمين دولتهم الناشئة من خطر تهديدات الأعداء وخاصّة المرابطين ونصارى الأندلس، وتمثّلت هذه العمارة في الحصون والأسوار والأبراج.

أ: القلاع والحصون في المغرب الإسلامي من التّخلّي إلى الإحياء -جدلية هدم الأسوار وإعادة بنائها-.

تمكّن الموحّدون من السّيطرة على العديد من الحصون والقلاع المرابطية، وقاموا بتهديم العديد منها³ خلال فترة بسط نفوذهم على بلاد المغرب، فأثناء فتح مدينة فاس من قبل عبد المؤمن سنة أربعين وخمسائة (540هـ/1146م) وقد تحصّن بها يحيى ابن أبي بكر الصّحراوي المرابطي الملقّب بابن الصّحراوية، عمّد عبد المؤمن إلى قطع الماء عن المدينة عبر سدّه وتحويل مجراه نحو أسوار المدينة فوق بسيط الأرض ممّا أدّى إلى تخریبها، كما هُدمت المباني التي زاد عددها عن ألفي دار ثمّ أمر عبد المؤمن بهدم سور المدينة فهدم، وقال إنّنا لا نحتاج إلى سور في إشارة إلى عدم جدوى ما بناه المرابطون للدّفاع عن أنفسهم، بقوله إنّما أسوارنا سيوفنا وعدلنا، فلم يبن سور فاس إلّا في عهد حفيده يعقوب المنصور الذي ابتدأ ببناءه غير أنّ الموت عاجله فأتمّه ابنه النّاصر سنة ستّمائة (600هـ/1204م)⁴.

¹ النّاصري، ج2، المرجع السّابق، ص 96.

² ابن خلدون، ج6، المصدر السابق، ص ص 281-298.

³ في هذا السّياق وجب التّنبية أنّ المرابطين أيضًا قاموا بعملية الهدم والتّخريب للعمران فعلى سبيل المثال أصبحت برغواطة منطقة مهجورة بعد دخول المرابطين إليها، وبقيت كذلك حتى فترة الخليفة الموحّدي يعقوب المنصور الذي أعاد تعميرها وبناءها. ينظر: إبراهيم القادري بوتشيش، حلقات، المرجع السّابق، ص 74.

⁴ النّاصري، ج2، المرجع، السّابق، ص 107، ينظر أيضًا: عبد الله عنان، ج3، المرجع السّابق، ص 272.

وقد أشار الإدريسي إلى عملية الاستئصال والهدم التي قام بها المصامدة لمدينة بني تاودا التي تقع شمال مدينة فاس¹، وما نزل بها من الخراب والتغير لهدم أسوارها وتراجع مكانها فاندرست المدينة وبقيت أثرا بعد عين، إلا أن الموحدين قد غيروا هذه السياسة بعد أن تم لهم الاستقرار فشرعوا في بناء مختلف التحصينات العسكرية من القلاع والحصون والأسوار، كما استفادوا من أسلوب المرابطين في بناء الحصون، وجددوا وأصلحوا بعض الحصون والأسوار التي خلفها المرابطون لعدد من المدن، من أهمها تينمل وتازة وقصبة رباط الفتح وقصبة مراكش وقصبة الوادي بفاس، كما تم تجديد عديد الحصون نذكر منها على سبيل المثال حصون رباط الفتح وتازة وتينمل والقصر الصغير وحصن وادي آبكم، كما أعيد بناء عددا من الأسوار وترميمها مثل أسوار مدن فاس ومراكش ووجدة وسلا والرباط².

وكانت هذه المنشآت الحربية هي العمود الفقري التي مكنت لدولة الموحدين من توسيع نفوذها وإحكام سيطرتها العسكرية بالإضافة إلى أنها لم تعد مجرد هياكل للدفاع بل كانت تعكس أيضا هيبة الدولة وقوتها، حتى أصبحت جزءا أساسيا لا غنى عنه في مختلف الأنشطة العمرانية.

فقد عمد الموحدون إلى تشييد العديد منها وفقا لما اقتضته متطلبات دولتهم المترامية الأطراف، ففي عهد المهدي بن تومرت تم بناء حصن عظيم في تينمل في جبل درن لا يبعد عن عاصمة المرابطين مراكش إلا بنحو مائة كيلومتر، وقد عرف عنه حصانته الفائقة فهو منيع صعب تسلقه فما من سبيل للوصول إليه لانقطاعه بالأجراف لا يتم الوصول إليه من جهة الغرب إلا عن طريق ضيق لا يتسع إلا لمرور رجل واحد ومن الشرق كذلك عبر المرور بجانب الجبل، والسير إليه فيه خطر لكثرة المهاوي كما عمد المهدي إلى زيادة تحصينه وتخزين أمواله وبه الآن قبره³، ومن البديهي أنه بنى هذا الحصن لأغراض دفاعية لانتقاء خطر دولة المرابطين وخطر القبائل المعارضة لدعوته وهي قريبة الشبه لقلعة "الموت"⁴، وبإمعان النظر في مجال التحصينات في

¹ - الإدريسي، ج1، المصدر السابق، ص 249.

² - محمد السيد أبو رحاب، المرجع السابق، ص 222.

³ ابن سعيد، الجغرافيا، المصدر السابق، ص 125. ينظر أيضا: الحميري، الزوض المعطار، المصدر السابق، ص 128. - محمد عبد الله عنان، ج 3، المرجع السابق، ص 182.

⁴ الموت: هي قلعة جبلية شاهقة تقع في إيران استولى عليها الحشاشون بقيادة حسن الصباح وجعلها مقرا لدعوته، وهي فرقة شيعية نزارية نشطت بالشام وبلاد فارس والمشرق عرف عنها التنظيم والانضباط واعتقال الخصوم من حكام

بداية الدولة الموحّدية، يمكن ملاحظة الدقّة في اختبار الموقع وتفاصيل الجوانب الهندسية والمعمارية، وهو ما تجلّى في حصن تينمل الذي عكس استراتيجيّة دفاعية محصّنة طبيعياً، بالإضافة إلى وجوده وسط قبيلة بني تينمل وهم شيعة وأهله¹، ونفس الأمر ينطبق على مدينة هُنين² فالزائر اليوم للمدينة يلاحظ الدقّة في اختيار الحصن المنتصب إلى اليوم كشاهد من شواهد التاريخ وتعرف بدار السّلاطان التي تقع في الجهة الجنوبية الغربية للمدينة ويعود بناؤها إلى الموحّدين³ كما أنّها تعكس فهمًا عميقًا لفنون الحرب التي تميّزوا بها فهي تقع على هضبة مرتفعة لا يمكن الوصول إليها إلّا من جهة وهي شديدة التّحصين (الملحق رقم 17).

بعد وفاة المهدي بن تومرت (515-524هـ/1121-1129م)، استمرّ عبد المؤمن في اتّباع سياسة دفاعية عكست قدرته في الحفاظ على استقرار دولته على الصّعيدين الداخلي والخارجي، فمع التّوسّع الجغرافي للإمبراطورية الموحّدية وتوحيد المغرب تحت سلطتها، كان لزاماً

وزراء وفقهاء، ويبدو أنّ المهدي وصلته أخبار عن قلعة حسن الصّباح لمّا كان في المشرق والزّاحج أنّه قد استفاد من تجربتهم، ينظر: مجهول، الحلّ الموشية، المصدر السّابق، ص 113، - شوقي ضيف، ج6، المرجع السّابق، ص 49.

¹تذكر بعض المصادر التاريخية أنّ سكّان تينمل كانوا على تواصل مع المهدي بن تومرت ودعوه للسّكن بينهم وقد قبل بدعوتهم بعدما رأى أنّ المكان له أبعاد سياسية وعسكرية فهو يشكّل حاجزاً طبيعياً منيعاً ضدّ أعدائه المرابطين، كما أنّه بين قبيلته وأهله، والغريب في الأمر أنّ ابن تومرت لم يشارك في الحروب التي قامت ضدّ أعدائه المرابطين، إلّا أنّه كان يخطب فيهم ويقوم بتحميسهم بأنّ الله إلى جانبهم، كما كان يشرف على وضع الخطط الحربية وتعيين القادة المحاربين بصفته القائد العام. ينظر: عبد الواحد المراكشي، المصدر السّابق، ص 112. - البيدق، المصدر السّابق، ص 34. - حيدر علي حول، المرجع السّابق، ص 143.

²هنين: يعود تأسيس المدينة إلى القرن 12 ق.م حيث كانت محطة تجارية للتّجار الفينقيين وعرفت باسم جيساريا، وهي مدينة ساحلية حسنة بينها وبين تلمسان أربعون ميلاً وكانت المرسى الطّبيعي لحاضرة تلمسان ومع وصول المسلمين إلى بلاد المغرب أصبحت المدينة متّصلة العمران ولها سور متقن البناء وأسوار وأسواق حسنة، ويعتبر عبد المؤمن المؤسّس الحقيقي لدولة الموحّدين ابن المنطقة حيث لا يبعد جبل تاجرة مسقط عبد المؤمن إلّا بمسافة يسيرة عن مدينة هنين وقد كان له الفضل في إعادة الحركة للمدينة التي دخلت ضمن الحضارة العالمية حيث جعل منها أيام فتوح تلمسان ووهران قاعدة خلفية تعطي السّند للدولة الموحّدية، ينظر: الإدريسي، ج2، المصدر السّابق، ص 534، لوحة إرشادات وزارة الثّقافة، مدينة هنين، تلمسان، الجزائر، 01 شوال 1446، الموافق 01 أفريل 2025.

³لوحة إرشادات وزارة الثّقافة الجزائرية بمدينة هنين، تلمسان، الجزائر، يوم 01 شوال 1446، الموافق ل 1 أفريل 2025.

الحفاظ على الأمن والاستقرار، وهو ما جسده عبد المؤمن لما تميّز به من قدرة على استيعاب العدد الهائل من الطّاقات البشرية التي أسهمت في الدّفع بحركة العمران، من خلال الأثر الواضح في عملية التّبادل الثقافي والتأثير والتأثر في المجال العمراني.

وقد إنعكس ذلك على عملية بناء الحصون والقلاع داخل حدود الدّولة، سواء في المغرب أم في الأندلس، ولعلّ ممّا ساعد على ذلك هو اتّساع حدود الدّولة وتعدّد ثغورها المواجهة للأعداء، بالإضافة إلى تزايد التّهديدات التي شكّلت خطراً على دولتهم، ومن بين تلك الحصون المهمّة ما بُني في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي الكومي (524-558هـ/1129-1162م)، يبرز حصن جبل الفتح، كأحد أبرز هذه الإنشاءات الدّفاعية، وبالرّغم من التّباين في الآراء حول مسألة بناء هذه القاعدة وتحديد الخليفة الذي أشرف على بنائها، فإنّ الرواية الأكثر قبولا تشير إلى أنّ ابتداء البناء به كان في التّاسع من ربيع الأول من سنة خمس وخمسين وخمسمائة (555هـ/1160م)، وكان بناءه بعد نزوله بجزيرة الأندلس بالقرب من جبل طارق الذي أطلق عليه جبل الفتح تيمّناً باستئناف عملية الفتوحات الموحّدية بالأندلس، وكمل البناء فيه في ذي القعدة من السّنة نفسها.

وقد أشرف على بنائه أحد أبرز المهندسين الحاج يعيش المالقي¹ وأبو سعيد عثمان ابن عبد المؤمن ابن الخليفة، وقد قدم من غرناطة مصطحبا معه أصحابه وجملته من عسكره وهيئة من الطّلبة والشّيوخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني وإسحاق بن براز بن محمد، إضافة على هؤلاء تمّ جلب عدد من المهندسين وأمهر البنّائين من الأندلس²، وفي هذا مثال واضح لاستفادة الموحّدين من الخبرات الأندلسية والاستعانة بها في تطوير بناء الحصون لديهم، بما في ذلك حصن تازا³.

¹ عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 156، ينظر أيضا: النّاصري، ج2، المرجع السابق، ص 140، ينظر، خير الدّين الزّركلي، ج8، المصدر السابق، ص 206.

² ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ص 84-85.

³ تازا: منطقة جبلية من بلاد المغرب وحدها ما بين بلاد المغرب الأوسط وبلاد المغرب في الطّول، وفي العرض البلاد السّاحلية مثل مدينة وهران ومليلية وغيرهما، وبنيت فيها مدينة الرّباط . ينظر: الحميري، الرّوض المعطار، المصدر السابق، ص 128

ومن المؤكّد أنّه قد استخدمت فيه نفس تلك المواصفات والخبرات التي استخدمت في بناء حصن جبل الفتّح، كما تمّ بناء عدة حصون بالمغرب الأدنى كحصن قابس¹ وحصن طرابلس، ومن أشهر الحصون التي أنشأها الموحّدون في عهد عبد المؤمن بن علي الكومي قصبة المهدي التي بُنيت سنة (545هـ/1150م) عند مصبّ واد أبي الرقراق، كذلك قام الموحّدون ببناء حصن قرب عاصمتهم الإقليمية تلمسان، ومن حصون الموحّدين المشهورة الحصن الذي بناه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالسّوس الأقصى للإشراف على معدن الفضة الذي اكتشف بالمنطقة وحمايته من السّرقَة² كما قام الموحّدون ببناء عديد الحصون على ثغور بلاد الأندلس منها حصن شلب³ وحصن طليطلة⁴ وحصن قلّمرية⁵، وقلعة رباح⁶.

¹ قابس: من مدن المغرب الأدنى قريبة من القيروان بينهما أربع مراحل وبينها وبين طرابلس ثمانية أيّام، وهي مدينة جليّة مسوّرة بالصّخر الجليل من البنيان الأوّل بها حصن وأرباض وأسواق وفنادق وحمّامات كثيرة ملكها الموحّدون ينظر: البكري، ج2، المصدر السّابق، ص 665. - الحميري، الرّوض المعطار، المصدر السّابق، ص ص 450-451.

² حسن علي حسن، المرجع السّابق، ص 394.

³ شلب، من بلاد الأندلس وهي قاعدة بلاد أكشونية تقابل مدينة باجة في المغرب الأدنى، كما تعرف شلب بجبلها العظيم، وهي بديعة البناء وعليها سور حصين وبينها وبين بطليوس ثلاث مراحل. ينظر: الحميري، المصدر السّابق، ص 342.

⁴ طليطلة، مدينة بالأندلس تقع في المركز بينها وبين قرطبة وبلنسية وألمرية تسع مراحل، وهي مدينة أزلية تعرف بحصانة موضعها وعليها سور حسن، وقلّ ما يرى مثلها إتقاناً في البناء ولها قنطرة من عجائب البنايات، اتّخذها القوط قاعدة لهم، ينظر: المصدر نفسه، ص 134.

⁵ قلّمرية، مدينة صغيرة متحصّنة من مدن الأندلس، تقع على جبل بينها وبين البحر اثنا عشر ميلاً بها نهر يصبّ في البحر وعليه حصن منيع جدّاً يسمّى منت ميور وهو نحر البحر. ينظر: الإدريسي، ج2، المصدر السّابق، ص 726، ينظر، الحميري، المصدر السّابق، ص 164.

⁶ قلعة رباح، تقع بالأندلس بالقرب من ضفّة نهر يانة غير بعيدة عن موقعة الأرك الشهيرة بينها وبين طليطلة مرحلة ومنها إلى حصن البلاط مرحلتان، فهي تقع وسط قرطبة وطليطلة تعرف بحصونها الحصينة وهي من المدن المحدثة في عهد بني أمية، وقد عمّرت بعد خراب أوريط ملكها النّصاري ما يقارب إحدى وخمسين سنة وعشرة أشهر وفي عهد المنصور يعقوب ابن يوسف الموحّدي استعادها وأمر بالصّلاة فيها وعيّن عليها يوسف بن قادن. ينظر: الإدريسي، ج2، المصدر نفسه، ص 550. - الحميري، المصدر نفسه، ص 163.

وقد سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن على نهج أبيه في عملية تشييد الحصون حيث قام ببناء حصن يطلّ على البحر في مدينة سلا¹، كما كان راغبا في العمارة والتشييد فقد أمر بتمصير إشبيلية وبناء سور لها، وعقد جسرا على واديها بالقنطرة العظيمة².

وأما في عهد يعقوب المنصور بن يوسف (558-562هـ/1162-1176م) فقد تمّ بناء عديد الحصون أشهرها حصن الفرج الذي قام بإنشائه خارج مدينة إشبيلية بقرب نهرها العظيم والذي أثار مكانه إعجابه لمنعته وحسن روائه³، وكان بناؤه سنة (589هـ-1192م) بعد الظفر بغزوة شلب حيث أمر ببناء القصور والقباب جاريا على عادته في حبّ البناء و إثارة التشييد، وكان هذا الحصن مكانا لمجالسة الوفود المهيئة بالنصر وقد أمر باستدعاء المشرف على بنائه ليقوم بتكريمه في حضرته بنفسه، وفي طول فترة حكمه لم يخل من قصر يستجده أو مدينة يعمرها مثل ما فعل في مدينة مراكش فتّمت له الحصون والقصور على ما أراد وزيادة⁴.

وخلال فترة حكم محمد الناصر (595هـ-610هـ/1198-1213م)، نلاحظ استمرار عملية بناء الحصون سواء في بلاد المغرب الإسلامي أم الأندلس نظرا لأنّ البلاد محاطة بالأعداء⁵، ومن أبرز الأعمال التي قام بها تحصينه لمدينة فاس حيث أتمّ بناء سورها الذي هدمه عبد المؤمن⁶، هذا وقد تمّ إنشاء حصون عديدة في آخر فترة نهاية الدولة الموحّدية حيث ازدادت الأخطار في الدّاخل والخارج، فكان لزاما على خلفائها الدّفاع عمّا تبقى من تخوم دولتهم، وهذا ما استدعى وجود هذه المنشآت التي ساعدت في تأخير سقوط الدولة⁷.

¹ سلا: مدينة أزلية بينها وبين مراكش تسع مراحل متّصلة العمارة اهتمّ بها ملوك بني عبد المؤمن، وخاصة يوسف بن عبد المؤمن الذي قام ببناء مدينة كبيرة متّصلة بقصبتها، وبها قيسارية عظيمة وحمام وفنادق وديار كثيرة وقنطرة عديبة وهي حصينة من جهة البحر. ينظر: الحميري، المصدر السابق، ص 319.

² ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ص 165-166.

³ محمد عبد الله عنان، ج4، ص 199.

⁴ عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 212، ينظر أيضا: محمد عبد الله عنان، ج4، المرجع السابق، ص 192.

⁵ محمد عبد الله عنان، ج4، المرجع السابق، ص 283.

⁶ النّاصري، ج4، المرجع السابق، ص 214.

⁷ النّاصري، ج2، المرجع السابق، ص ص 107.

وهكذا نلاحظ أنّ الموحّدين إهتمّوا ببناء القلاع و الحصون مع مراعاة شروط الأمن والسّلامة ، وتمّ تشييد هذه الحصون في مناطق جبلية وعلى الأنهار والأودية، واستخدموا في بنائها موادّا عالية الجودة مثل الحجارة، كما استعانوا في ذلك بخبرات البنّائين الأندلسيين ، وقد بقي العديد من هذه الحصون والأسوار قائمة في بلاد المغرب الأقصى لتجديد المرينيين لها وبناء أخرى بالقرب منها، فقد بنيت قصبة مدينة مكناسة وبلد جديد بمدينة فاس بساحة الوادي سنة (674هـ / 1275م)، وقد اجتمعت الأيادي من كلّ حذب وصوب والصّناع والفعلة كما تمّ جلب البنّائين والمعدّلين والعارفين بحركات الكواكب وأبرزهم ابن الحباك وأبو الحسن بن القطّان¹.

والجدير بالذّكر إختفاء العديد من المنشآت الحربية التي تعود للفترة المرابطية والموحّدية خلال الزّمن السّعودي، وهذا راجع للمشاكل الأمنية والسياسة المالية التي اعتمدتها هذه الدّولة والقائمة على تسليح الجيش دون الاهتمام بترميم وتجديد هذه المنشآت الحربية، فبعد قرون من تاريخ التّشييد والاستعمال كان لزاما ترميمها أو تجديدها، ذلك أنّ العمران يحتاج دائما إلى الاهتمام والترميم، وهو ما لم يتوفّر للدّولة السّعدية لقلة وسائلها وضيق رقعة مساحتها².

ب: الأبراج والأسوار في المغرب الإسلامي:

كانت الأبراج جزءا أساسيا من البنية الدّفاعية وتكون غالبا مربّعة الشّكل أو مستديرة ذات ثمانية أضلاع، وقد حرص الموحّدون على تشييدها لتؤدّي أدوارا دفاعية وعسكرية حيث استخدمت لحماية المدن والقلاع، وعادةً ما كانت تُقام فوق الأسوار والأبواب لكي تستخدم في مراقبة الأراضي المحيطة بها وتأمين التّواصل بين مختلف المناطق ومراقبة الأعداء وصّدّ المهاجمين، وكان تصميم هندسة بنائها يتناسب مع هندسة بناء السّور، وقد تنتهي بتصميم يشبه الأسنان والأفاريز، ممّا يسمح للمدافعين بإصابة المهاجمين بما عندهم من موادّ مؤذية وبالتالي منعهم من اقتحام السّور³، وقد أقيمت الأبراج عند الموحّدين في أماكن مرتفعة لتشكّل نقاط حراسة

¹ ابن خلدون، ج7، المصدر السّابق، ص 258. ينظر أيضا: سالم أبو القاسم غومة، تطوّر المؤسسة العسكرية في دولتي المرابطين والموحّدين في الفترة (451-668هـ/1059-1269م) رسالة ماجستير، إشراف، د نجاح صلاح الدّين القاسمي، جامعة الفاتح، 2004/2003، ص 108.

² محمد أبو رحاب، المرجع السّابق، ص 223.

³ جواد علي، ج8، المرجع السّابق، ص 19.

خاصة في الأسوار والحصون، وكان الهدف منها رصد خطر العدو المفاجئ، ولقد بنيت الأبراج منذ بداية الدولة الموحّدية، أي منذ عهد المهدي بن تومرت حيث سعى إلى بناء عديد الأبراج وأبرزها برج تيطاف الذي ابتناه بتتمل¹، كما قام عبد المؤمن ببناء قصبة ذات أبراج مثلثة الزوايا عند نزوله بمدينة تونس أمامها فصيل يحول بينها وبين الساكنة المتواجدين بالقرب منها²

ويمكن تقسيم الأبراج إلى نوعين النوع الأول يكون متصلا بالأسوار الدفاعية والنوع الثاني يكون منفصلا عن الأسوار و لا تزال بعض آثار هذه الأنواع قائمة إلى اليوم في مدينة هنين حيث قدر الباحث عيد الرحمان خليفة عدد الأبراج المتصلة بالأسوار الدفاعية مايزيد عن اثنين وعشرين برجا مع احتساب أبراج القصبة³ في حين ذهب الباحث ابن حمو محمد أنّ عددها المتبقّي هو 17 برجا⁴، في حين نجد عديد الأبراج المنفصلة عن سور مدينة هنين كونها مدينة ساحلية فقد دعت حصونها بأبراج مراقبة لرصد الخطر الخارجي القادم من البحر⁵ ومن بين هذه الأبراج، برج نونة الذي يقع في الجهة الجنوبية الشرقية للحصن (الملحق رقم 18) ، وبرج البحر الذي اندثرت معالمه ولم يعد له وجود⁶ وحسب ما أخبرنا به السّكان المحليون في زيارتنا الميدانية فإنّ مكانه اليوم يعرف بالديوانية.

ومن الأبراج البارزة في المدينة برج سيدي إبراهيم ويعرف كذلك ببرج إسبانيول وهو في منطقة مرتفعة لا تزال آثاره إلى يومنا هذا ويمكن من خلاله رصد التّحرّكات القادمة من البحر

¹ البديق، المصدر السابق، ص 41.

² -مجهول، الحل، المصدر السابق، ص 153.

³ عبد الرحمان خليفة ينظر:

Abderrahmane khelifa.honainea travers ses monuments .colloque national sur.honaine passe et present.universited oran. février .1985.op. cit.p 29.

⁴ محمد بن حمو، التّحصينات العسكرية لمدينة هنين، دراسات تاريخية، العدد 1، م 08، (من ص 48-74)، ص 64.

⁵ -بن يحي مصطفى، مدينة هنين في العهدين الموحدي والزّياني (541-962هـ/1146-1545م)، المجلة

الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطة، العدد 10، م 01، (ص ص 74-97)، ص 87.

⁶ - بن يحي مصطفى، المرجع السابق، ص 87.

بسهولة لارتفاعه الشَّاهق¹ كما أنَّه مقابل لدار السُّلطان وبجانبه ضريح العالم الجليل إبراهيم الأبلبي (الملحق رقم 19).

ولقد اتَّبَعَ الخلفاء الموحِّدون السِّياسة نفسها فقد شَيِّدُوا سلسلة من الحصون، وعملوا على تعزيز سيادتهم من خلال تنظيم عسكري دقيق، باعتبار أنَّ التَّنْظِيمَ العسكري السَّليم هو أساس الدَّولة، وهنا يجب أن نشير إلى ظاهرة ابتكار المربَّع القتالي لعبد المؤمن بن علي صاحب هذه الفكرة، والتي لم تقتصر على استخدام التَّربيع في السَّكَّة فحسب بل امتدَّت إلى مجال التَّحصينات خاصَّة الأبراج الخارجية ذات الشَّكل المربَّع ويعود استعمالها خصوصا في الأبراج التي تحاط بالأبواب لسهولة بنائها ومتانتها²، كما تميَّزت بالتَّنوع والتَّعدُّد والتي يمكن تصنيفها حسب الباحث الإسباني ليوولد بالباس إلى:

الأبراج البرانية:

تكون خارج السَّور وهي ليست ابتكارا أندلسيا خالصا، لكنَّها انتشرت في شبه الجزيرة في فترة الموحِّدين بشكل لم يسبق له مثيل في أيِّ مكان آخر، وتصل أعالي هذه الأبراج بأعالي الأسوار عبر دروب وممرَّات تمتدُّ على الجدران، تسمح بالمرور بينهما، والهدف من بنائها حماية نقاط الضَّعف في الأسوار عبر ستارة يُطلق عليها القورجة تساعد في غلق الطَّريق أثناء إغارات العدو وكان شكلها مربَّعا أو مُثَمَّنا، أمَّا الأبراج المضلَّعة فقد كانت منتشرة في العمارة الحربية خلال القرن السَّادس الهجري الثَّاني عشر الميلادي (6هـ/12م)، لكنَّها طُغِت على أغلب أسوار الموحِّدين خاصَّة في بلاد الأندلس وبدرجة أقلَّ في بلاد المغرب³.

الأبراج المتحرَّكة:

وكانت غالبا من أربعة طوابق الطَّابق الأوَّل مصنوع من الخشب، الثَّاني من الرِّصاص، والثَّالث من الحديد والأخير من النِّحاس الأصفر، وكانت هذه الأبراج تتحرَّك على عجلات، ويصعد

¹ Rene basset.nedromah et les traras.ernestleroux editour.paris.1901.p103.

² مصطفى سالم، "جهود خلفاء الموحِّدين في تطوير محالهم الدِّفاعي"، مجلَّة الإحياء، مجلَّد 22 العدد 30، جانفي 2022، (ص ص 933-942)، ص 936. ينظر أيضا: مبارك الملي، ج2، المرجع السَّابق، ص 290

³ ليوولدو توريس بالباس، المرجع السَّابق، ص 39.

الجنود عبر طوابقها لنقب الحصون وتسلق الأسوار¹، بالإضافة إلى ذلك استخدمت الأبراج للمراقبة وتقديم الإشارة كما هو الحال في مدينة هنين وأحواز مراكش وفجيج وحاحا وقد بنيت بالحجر والطابية التي ورثها الموحدون عن المرابطين.

وقد عرفت أبراج الإشارات بالمنار وهي أبراج للإشارة مزودة بمرآة يمكن من خلالها الاتصال في النهار وعن طريق إشعال النار في الليل، وقد كانت هذه الأبراج كثيرة بالساحل الشمالي من الإسكندرية إلى طنجة، وقد كان منار قلعة بني حماد بالمغرب الأوسط نموذجا لهذه الأبراج التي شيدت في المغرب الإسلامي بعد القرن الخامس بتخطيط مربع يبلغ طول ضلعه 22 مترا.

لقد بقيت العديد من الأبراج الموحدية في الأندلس مثل برج فوق أسوار مدينة قاشرش وأبراج قصبة بطليوس، وبرج الذهب الذي يقع على وادي إشبيلية²، وهذا يشير إلى مدى اهتمام الموحدين ببناء الأبراج لدورها الكبير الذي كانت تؤديه في الدفاع والتحصين، والتي تميزت بالتمازج الفني المغربي الأندلسي، وكان الموحدون سباقون إلى الاهتمام ببناء الأبراج في بلاد المغرب، ويعود الفضل إليهم في إدخال هذا الفن المتبع في بلاد المغرب والأندلس.

-الأسوار عند الموحدين:

قامت الدولة الموحدية في خضم الحروب، وكان لزاما على حكام الدولة أن يصمدوا للدفاع عن المغرب الإسلامي، وفي هذا الإطار كانت الحماية والأمن هدفين دائمين للموحدين، وقد استدعى ذلك تحصين المدن بأسوار دفاعية منيعة خاصة المدن ذات الوظائف السياسية والتجارية، وقد اهتم جميع أمراء الموحدين ببناء الأسوار ورأوا فيها وسيلة لصدّ الخطر الخارجي، وقد كانت أسوار الموحدين على نفس أسلوب المرابطين من حيث البناء بقطع الحجر الكبيرة غير المنتظمة تتخللها بعض القطع من حين لآخر لتنظيم السطح وهو ما قام به المرابطون في أسوار قلاعهم³.

¹ مصطفى سالم، المرجع السابق، ص 936.

² ليولودو توريس بالباس، المرجع السابق، ص 39.

³ عثمان عثمان إسماعيل، ج3، المرجع السابق، ص 120.

وفي هذا المنحى أشار صاحب كتاب "الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية" إلى ما قام به المهدي محمد بن تومرت ببناء العديد من الأسوار، وكان أهمها ذلك السور الذي بُني حول المدينة التي يقع فيها حصن تينملل، حيث أحاط السور بالمدينة من جميع الجوانب، وكان بناؤه على رأس الجبل وما ميّز المدينة وجود حصن به سور ليكشف على ما وراء الجبل حيث أصبح الوصول إلى هذه المدينة صعبا إلا عبر طريقين أحدهما غربي وهو من جهة مدينة مراكش والثاني شرقي، وهذان الطريقان ضيقان جدًا، حيث يستحيل على فارسين عبورهما جنبًا إلى جنب خشية السقوط من أعلى الجبل، وقد صنع الطريقان في نفس جهة الجبل، ونظرا لضيق الطريق وما تميّز به من سفوح شديدة الانحدار تمّ تدعيم بعض المواضع بالخشب، إذا أزيلت خشبة واحدة يصبح المرور مستحيلا لم يمر عليها أحد، ومِمَّا زاد من صعوبة الوصول أنّ طول الطريق يعادل مسافة سير يوم كامل¹.

ونلاحظ هنا حُسن اختيار المهدي لمكان انطلاق الدولة الموحّدية بعدما لاحظ من مناعة الوصول إلى مدينة تينمل لما تميّزت به من قوّة في التّحصين والذي جاء نتيجة التّمازج بين الطريقين ممّا زاد في قوّته، فوجود مسلك واحد وما تميّز به من منعرجات جعله بمثابة سورٍ طبيعي يحمي المدينة من تهديدات المرابطين، بالإضافة إلى ذلك، أسهم بناء سور الحصن لمراقبة المناطق الواقعة خلف الجبل في جعل أهل المدينة على دراية بما يجري خارج أسوار مدينتهم.

وبعد وفاة المهدي بن تومرت تولّى أمر الموحّدين عبد المؤمن ابن علي الكومي، وفي بداية عهده لم يواجه أخطارا كبيرة باستثناء خطر المرابطين، غير أنّ هذا الخطر بدأ يضعف ويتلاشى شيئا فشيئا، وربما لهذا السبب لم يولّ عبد المؤمن اهتماما كبيرا لبناء الأسوار معتبرا الأسوار الحقيقية للموحّدين هي السيوف والعدل، بل قام بتهديم الأسوار التي كانت موجودة مثل ما حدث أثناء فتحه لمدينة فاس، وقال إنّ الموحّدين لا يحتاجون للأسوار فلم تبّن أسوار المدينة إلا في فترة حكم حفيده المنصور².

¹ مجهول، الحلل الموشية، المصدر السابق، ص 112.

² ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 189، ينظر أيضا: السلاوي، ج2، المرجع السابق، ص 107، الجزنائي، المصدر السابق، ص 43.

وسرعان ما غيّر وجهه نظره عندما أدرك أهميّة الأسوار خاصّة بعد توسّع الرّقعة الجغرافية للدولة وتزايد الأخطار المحيطة بها ومن هنا قرّر بناء الأسوار ومن ذلك بناء سور حول مدينة تاجرة بتلمسان¹، كما قام عبد المؤمن ببناء القلعة الحصينة في جبل طارق سنة (556هـ/1160م) وجعلها مركزا لانطلاق عمليات الجهاد في شبه الجزيرة، وقد حرص الموحّدون على إقامة الأسوار الأمامية في مراكش ورباط الفتح²، لأنّها كانت تصدّ الهجومات المباشرة على الأسوار الرئيسيّة وتعرقل تقدّم العدو، ولا تمكّنه من إيجاد ثغرات في الأسوار الرئيسيّة التي تؤدّي إلى مداخل المدينة وكانت المسافة بين الأسوار الأمامية والرئيسية حوالي أربعة أمتار يُحفر بينهما الخنادق وتوضع فيها الكمائن³.

وعلى سبيل المثال فقد كانت مدينة تاكرارت بعد دخول الموحّدين إليها مسوّرة وزادت عنايتهم بها، خاصّة بعد محنة بني غانية، حيث عمد الموحّدون إلى ترميم وإصلاح الأسوار وكان ذلك تحديدا في فترة حكم عبد المؤمن والمنصور والنّاصر، على يد الولاة من الأسرة الموحّدية: أبي عمران موسى وأبي الحسن أبي حفصن⁴ وهو ما أكّده ابن خلدون بقوله: " وندب النّاس إلى عمرانها، وجمع الأيدي على رمّ ما تتلّم من أسوارها... وصرف ولاّة الموحّدين بتلمسان من السّادة نظرهم واهتمامهم بشأنها إلى تحصينها وتشديد أسوارها، وحشد النّاس إلى عمرانها والتّناغي في تمصيرها واتّخاذ الصّروح والقصور بها، والاحتفال في مقاصر الملك واتّساع خطّة الدّور ... واتّصلت أيّام ولايته فيها، فشيدّ بناءها وأوسع خطّتها وأدار سياج الأسوار عليها..."⁵.

ومن الأسوار التي بناها الموحّدون وهي باقية إلى اليوم أسوار مدينة هنين والتي يزيد عرضها عن مترين (صورة رقم 20)⁶ تتخلّل هذه الأسوار خمسة أبراج باحتساب الأبراج الرّكنية

¹ ابن أبي زرع، المصدر السّابق، ص 189.

² ليوبولدو توريس بالباس، المرجع السّابق، ص 28

³ عياد المبروك عمار الرّحبي، العمارة الإسلاميّة في الأندلس خلال العهد الموحّدي، مجلّة الجامعة المغاربية، ص 195.

⁴ عبد العزيز لعرج وآخرون، المرجع السّابق، ص 29.

⁵ ابن خلدون، ج 7، المصدر السّابق، ص 104.

⁶ -ينظر الصّورة رقم 20، ص 277.

وبه فتحات المداخل التي تزال تشهد على أصالة الإبداع الموحدي، كما أنّ هناك أسوار مبنية في جهة الجبل وهي على امتداد يزيد عن ثمانين مترا ترتبط بأبراج حراسة¹.

أمّا في فترة يوسف بن عبد المؤمن بن علي فلقد تمّ تحصين العديد من المدن في المغرب والأندلس، ففي بلاد المغرب كان أهمّ الأسوار التي بنيت في فترة حكمه أسوار العاصمة الإقليمية تلمسان حيث أقام بتعميرها وشيّد بنيانها وأدار سياج الأسوار حولها، وهو ما أشار إليه ابن خلدون بأنّ ولّاة الموحّدين صرفوا نظرهم بالاهتمام بشأنها وتشديد أسوارها واتّخاذ الصّروح، وكان أعظمهم اهتماما بذلك أبا عمران موسى ابن أمير المؤمنين يوسف العشري².

أمّا في فترة حكم يعقوب المنصور ابن عبد المؤمن، فلم يكن اهتمامه ببناء الأسوار أقلّ من سابقه من أمراء الموحّدين فقد اختطّ مدينة الرّباط ورسم حدودها وأكمل بناء سورها وأبوابها³، كما أنّه سعى إلى بناء أسوار مدينة فاس وإصلاح ما تمّ تهديمه من قبل عبد المؤمن بن علي لولا أنّ وفاته حالت دون ما أراد⁴، وأوصى بنيه وأشياخ الموحّدين بعديد الوصايا قبل مماته، منها مواصلة سياسة بناء الأسوار وخصوصا تلك المدن الواقعة على الثّغور بما فيها الأيتام وقصد بهم أهل الأندلس واليتيمة وهي الأندلس وأن لا يغفلوا عن إصلاحها وتشديد الأسوار بها⁵، ولعلّ هذا ما دفع خليفته محمد النّاصر بن يعقوب إلى إعادة بناء مدينة فاس من خلال استكمال بناء أسوارها وتحسين تحصيناتها⁶.

ولم تكن للأسوار غايات دفاعية فقط فقد كانت تحمل دلالات سياسية وعسكرية ونفسية حيث كانت تُعلّق بها الرّؤوس وفي ذلك جزء من سياسة الدّولة في فرض الهيبة وإحكام السّيطرة وإهانة الخصوم وهو ما فعله الخليفة الموحّدي المأمون أبو العلاء إدريس سنة (627هـ/1229) حيث قتل بمزّاكش من مخالفه الممتنعين عن بيعته أعدادا لا تُحصى واختار منها أربعة عشر

¹ محمد بن حمو، التّحصينات العسكرية، المرجع السابق، ص 60.

² ابن خلدون، ج7، المصدر السّابق، ص 104.

³ عبد الواحد المراكشي، المصدر السّابق، ص 266.

⁴ الجزنائي، المصدر السّابق، ص 42.

⁵ مجهول، الحلل الموشية، المصدر السّابق، ص 160.

⁶ الجزنائي، المصدر السّابق، ص 43.

ألف رأس مقطوعة وأمر بتعليقها في أسوار مُراكش في زمان الحرّ، فلمّا طُلب منه إزالتها خشية الأمراض ونظرا لتفشّي الرّوائح الكريهة في المدينة رفض ذلك وقال بأنّ هذه الرّؤوس حرز للموحّدين وروائحها عطر للمحبّين مُستندرة عند المُبغضين¹.

-الأبواب:

تخلّلت أسوار الموحّدين أبواب تميّزت بالدقّة استعملت فيها الحجارة المنجورة ممّا زاد في روعة هندستها وضخامتها، وتدعو إلى الإعجاب كباب الرّواح الذي عرف بقيمته الدّفاعية وصموده أمام عوامل الزّمن، وقد بني على قطع حجرية متوسّطة الحجم مكّونا نظاما دفاعيا يعلوه برجان مربّعان يحميان مداخله وممرّاته، وهو تصميم معقّد جاء به المرابطون غير أنّ الموحّدين ضاعفوا هذه الظّاهرة لزيادة حجم العراقيل والعقبات في طريق المهاجمين حيث تمكّنوا من ابتكار طريقة التّخطيط ذي المنعطفات المرفقية المزدوجة²، حيث يؤدّي مدخله إلى ساحة بها دهليز مربّع الشكل تعلوه قبة مضلّعة قائمة على حافات مقبّبة بأنصاف قُبوات متعارضة، ويصل هذا الدّهليز إلى ممرّ يؤدّي إلى دهليز ثالث مكشوف من الأعلى يتعرّض عنده المهاجمون للنبال والرّيوت الحارقة من الأعلى، ويؤدّي هو بدوره إلى دهليز رابع تعلوه قبة تؤدّي إلى مدخل المدينة³.

وباب الودايا بالرباط الذي يُعتبر أحد أبرز إبداعات القرن السّادس في مجال عمارة الأبواب، لما اشتمل عليه من تركيب هندسي وتعقيد معماري متطور وتفنّن في وسائل الدّفاع وأسلوب التّغطية الذي يكسوه فضلا عمّا اشتمل عليه من زخارف، وأيضا باب رباط الفتح وباب أجانا بمراكش، والتي مازالت تحتفظ بجلالها وهيبته وألوانها الجميلة، ممّا يعكس التّنوع والثراء في تصميمها ويظهر عظمة الدولة، كما عُرفت بتعقيداتها، حيث أنشأوا أبوابا بمرافق ثنائية وأخرى ثلاثية المرافق، ولم تسقف الممرّات بل تركت مكشوفة في أغلب الحالات، ممّا أتاح الفرصة للجنود

¹ -مجهول، الحل، المصدر السابق، ص 165.

² عثمان عثمان إسماعيل، ج3، المرجع السابق، ص 123.

³ فتحي زغروت، المرجع السابق، ص 194.

للإشراف من الأعلى على المهاجمين والقذف بالنبال والمياه المغلاة، وكلّ هذا يبرز شخصية وعبقريّة التّصميم المعماري في هذه الفترة، كذلك من الأبواب التي أبدع فيها الموحّدون، باب الأحد بمدخله البارز الذي يميّز بفكرة شظف الأركان في بدنتي الباب بتحويل تخطيطه من التّربيع إلى التّثمين¹.

ومن الأبواب الموحّدية التي لاتزال إلى اليوم بمدينة هنين باب الشّمال ويُعرف عند سكّان المدينة بباب السّانية بسبب الطّاحونات المائية الموجودة على ضفاف الوادي، وباب الشّرق ويسمّى بباب السّنون وموقعه شرق المدينة وبجانبه برج ذات أشكال مربّعة هذا عن الأبواب التي صمدت أمام تقلّبات الزّمن وهناك أبواب اندثرت وانهارت منها باب البحر الذي كان يشكّل ممراً لقناة تصل الميناء بالبحر وباب الخراجة الذي لم يبق له أثر².

وقد أدّى تقدّم المعمار الحربي في ظلّ حكم الموحّدين إلى تأثيره في المعمار الحربي الأوربي، فأفادوا منه ونقلوا عنه الأشكال والأوضاع بشهادة المستشرقين³، أمّا عن الأسوار الخاصّة بالمدن فقد تركها الموحّدون كما هي دون أن يضيفوا لها أيّ شيء يذكر باستثناء أسوار تونس وبالأخصّ قفصة ومهدية وصفاقس حيث تمّ إضافة لها أسوار متقدّمة⁴.

من حصاد هذا المبحث يتّضح أنّ أغلب المدن الموحّدية كانت مُحاطة بأسوار قويّة وضخمة ذات ارتفاع معتبر، ممّا أضفى عليها طابعا عسكريا دفاعيا ووفّر لها الحماية والأمن، وبالطّبع هذا دليل واضح على مدى التّطوّر الكبير الذي بلغه الموحّدون في مجال بناء الأسوار وما وفّرت من حماية.

ثالثا: التأثيرات الأندلسية في العمارة المرابطية والموحّدية:

عرفت بلاد المغرب وصول جماعات مختلفة من عرب وأندلسيين وأوروبيين في فترات زمنية مختلفة، إضافة إلى تنوّع العلاقات التجاريّة الخارجيّة التي أدّت إلى تنوّع مصادر التأثيرات

¹ عثمان عثمان إسماعيل، ج3، المرجع السابق، ص ص 127، 136.

² بن يحيى مصطفى، المرجع السابق، ص 80.

³ ليوبولدو توريس بالباس، المرجع السابق، ص 40.

⁴ باسيليو بابون مالدونادو، المرجع السابق، ص 52.

المعمارية والفنية الوافدة، وقد أدى ذلك إلى تنوع المشارب أو الأصول ومن ثم كان لكلّ وطن طابع يميّزه في كلّ فترة.

وقد كان لضمّ المرابطين الأندلس بعد معركة الزلاقة (479هـ/1086م)، أثر كبير في انتشار الطراز الأندلسي الذي كان له انعكاس كبير على فنون عمائر المغرب الإسلامي خاصة بعد قيام الدول الكبرى دولتي المرابطين والموحدين، حيث تبادل الجانبان التأثيرات العمرانية، ممّا جعل بعض الباحثين يرون أنّه طراز معماري واحد وهو الذي يطلق عليه بالإسباني المغربي- hispano mauresque¹.

أ-التأثيرات المعمارية الأندلسية في الفترة المرابطية:

اتّسمت عمائر المرابطين الأولى وفي عهد يوسف بن تاشفين تحديدا بالخشونة وخلوها من الزخرفة التي كان يرى فيها المرابطون أنّها مخالفة لتعاليم الدين، وانعكاسا لروح المجتمع التي رافقت قيام هذه الدولة، وبضمّ المرابطين الأندلس بدأت ملامح الخشونة تزول تدريجيا، وكان لمظاهر الحضارة والتّرف أثره البالغ في نفوس أمراء المرابطين، فأدّت معاشرتهم المجتمع الأندلسي إلى تغيير نظرتهم اتّجاه المظاهر الفنية التي كانت منبوذة أوّل الأمر، وأصبح الفنّان المغربي يأخذ منها شيئا فشيئا ويوظّفها في المباني المغربية².

ومع أنّ الفنون المعمارية قبل المرابطين امتازت بصيغة ذات طابع بربري، إلّا أنّ المرابطين وبعد ضمّهم الأندلس تأثّروا بالفنّ الأندلسي خاصّة من حيث الأسلوب وطابع البناء الذي يميل إلى الزخرفة³، عكس ما كان عليه المرابطون قبل مرورهم إلى الأندلس، وقد تمّ هذا بعد استقدام العمال المهرة والبنّائين من الأندلس إلى المغرب، وهو ما تجسّد في عهد يوسف بن تاشفين حيث استعملهم في حركة البناء في الحصون والقلاع والمدن⁴.

¹ حسين مؤنس، المساجد، المرجع السابق، ص 186.

² مبارك بوطارن، المرجع السابق، ص 298.

³ إبراهيم حركات، ج 1، المرجع السابق، ص 340.

⁴ حسن علي حسن، المرجع السابق، ص 374-375.

وتمثّل فترة حكم "الأمير علي بن يوسف بن تاشفين" (500-537هـ/1106-1143م)، أزهى الفترات التي عرف فيها المغرب ازدهارا عمرانيا وفنيا، حيث سادت الفنون الأندلسية على المغرب، وذلك يرجع لعدّة أسباب واعتبارات من بينها، مرور جيوش المرابطين إلى الأندلس بهدف الدّفاع عنها ضد النّصارى، وبعد استقرار المرابطين في المنطقة نتج عنه تأثّر كبير انعكس على الجانب العمراني الذي كان يسود الأندلس، فتغيّرت نظرة المرابطين للفنون وأقبلوا على تشجيع مظاهر الفنّ، أيضا فإنّ علي بن يوسف قد عاش فترات طويلة في الأندلس، ممّا جعله شديد التّأثّر بالعمارة الأندلسية وكثيرا ما كان يستعين بالخبرات الأندلسية للإشراف على بعض مشاريع البناء، بل كانوا يستدعون حتّى لبلاطه فكان مجلسه لا يخلو من رجال الفنّ من أصحاب الأندلس¹.

وهنا نلاحظ تغيّر نظرة المرابطين التي صاحبت قيام دولتهم، حيث لم يكن يُسمح بالزّخرفة تماشيا مع النّظرة الفقهية المالكية، إلّا أنّ هذه النّظرة قد تغيّرت بعد الاحتكاك بالأندلس ممّا أكسب المباني المرابطية مسحة أندلسية، تجلّت في مختلف العماائر الحربية أو المدنيّة والدينيّة، بالإضافة إلى معالمهم العمرانية في المغرب الأوسط التي مازالت قائمة شاهدة على هذه الرّوائع المعماريّة ذات الأبعاد الفنّية المغربية الأندلسية.

ففي المغرب الأوسط كانت تلمسان في عهد المرابطين عاصمة إقليمية، وحاضرة للدراسات الفقهية والكلامية والنّبوغ العلمي للعلماء، ولا شك أنّ ذلك لم يكن لولا وجود مؤسسات تحتوي هذه الأطر الفكرية من مختلف امتداداتها ويأتي في مقدّمتها النّخب الأندلسية والتي كان لها أثر في الدّفع بالحركة العمرانية².

¹ مبارك بوطارن، المرجع السابق، ص296. - السيّد ع العزيز سالم، "الفردوس المفقود، الفنّ الأندلسي"، مجلّة الدّارة، عدد4، 1983، ص10. ينظر أيضا: ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، تر السيّد محمود عبد العزيز سالم و محمد صالح الديم حلمي، الإسكندرية، مؤسّسة شباب الجامعة، 1990، ص46 47.

² عادل محمد زيادة، التّراث المعماري الدّيني بتلمسان منذ عصر المرابطين ودوره في التّواصل الحضاري بين شرق العالم الإسلامي وغربيّه، تلمسان الإسلامية، بين التّراث العمراني والمعماري والميراث الفنّي، تلمسان، منشورات وزارة الشّؤون الدّينية والأوقاف، تلمسان، 2011، ص213.

وفي هذا المنحى فقد أشرف مهندس أندلسي يدعى الفلكي على بناء قنطرة وادي تنسيفت في عهد علي بن يوسف، كما ذكرت المصادر وجود أندلسيين في عملية بناء حصن تاسغيموت سنة (519هـ/1125م)، وأنَّ عملية البناء كانت تحت إشراف مهندس يحمل نفس اسم الشَّخص الَّذي قام ببناء قنطرة تانسيفت¹، ممَّا يجعلنا نرجَّح أنَّ الفلكي كان مهندساً معمارياً ذا شأن كبير لإشرافه على هذه العمليات المعمارية المهمَّة.

ونظراً لقوَّة التأثيرات العمرانية الأندلسية في بلاد المغرب الإسلامي جعل بعض الباحثين يَعمِّزون ذلك لغياب النِّقَالِيد الفنِّية في الفترة المرابطية والموحِّدية، وهو ما فسَّح المجال للفنون الأندلسية الَّتِي كانت أكثر انتشاراً وحضوراً في مختلف البنايات العمرانية خلال هذه الفترة²، وفي اعتقادنا أنَّ هذا تحامل كبير لوجود عمليَّة تأثير وتأثُّر بين المنطقتين، فالأندلس كانت تحت حكم المغرب الإسلامي في الفترة المرابطية والموحِّدية ومع مرور الزَّمن أصبح المغرب الإسلامي مؤثِّراً بعد أن كان متأثِّراً فقط.

وقد كانت التأثيرات الأندلسية في عمارة المغرب الإسلامي على مستوى جانبيين، الجانب الأوَّل كان مباشراً خلال فترة حكم المرابطين، أمَّا الجانب الثَّاني فقد انتقل عن الموحِّدين من المغرب الأقصى وتجلَّى أكثر في فترة دول ما بعد الموحِّدين³، فقد نتجَّ عن التَّواصل الحضاري بين مسلمي المغرب الإسلامي ومسلمي الأندلس تطوُّرات ملحوظة على النِّواحِي المعمارية بسبب الابتكارات الجديدة على فنون العمارة والزَّخرفة، حيث أسَّهم الفنَّانون المعمارِيُّون الَّذين استقدموا من قرطبة إلى بلاد المغرب وأسَّهموا في تجسيد روائع معمارية مُبهرة.

ويرى الباحث مبارك بوطارن أنَّ التأثيرات الأندلسية في بلاد المغرب الأوسط في فترة المرابطين لم تكن في جانب واحد، بل شملت تأثيرها جميع الجوانب، وهذا دليل على مدى تأثُّر بلاد المغرب بالحضارة الأندلسية، ممَّا جعل جميع الفنون تجد طريقها نحو بلاد المغرب

¹ عبدوني حسينة، المرجع السَّابق، ص 173.

² ليوبولدو توريس بالباس، المرجع السَّابق، ص 1.

³ مبارك بوطارن، المرجع السَّابق، ص 297.

الإسلامي، بالرغم من أن الدولة المرابطية لم تُعمر كثيرا، إلا أن هذا يوضح مدى انفتاح المجتمع المرابطي لتقبل مظاهر الحضارة وبالأخص الأندلسية¹.

ب- التأثيرات المعمارية الأندلسية في العهد الموحدي

تواصل أثر المعماريين الأندلسيين وبصماتهم في العمارة في الفترة الموحدية الذين اقتفوا سياسة المرابطين وهي الاستعانة بخبرة أهل الأندلس، وكان لسيطرة الموحدين على الأندلس أثر كبير على فقه المعماري واصطبغت العمارة الموحدية بطابع خاص حَقّق التّجانس، وبدأت روائحه المعمارية والفنية في مختلف العمائر الموحدية بمراكش والرباط²، وقد نتج عن ذلك زيادة قيمة بنائي الأندلس نتيجة الطلب والحاجة المتزايدة عليهم، حيث برعوا في صنع أدوات الترف المختلفة الخاصة بفن العمارة والزخرفة الأندلسية، وكننتيجة لهذه التأثيرات المتواصلة بين الخبرات الأندلسية والمغربية مكّنت من ظهور خبرات صناعية مغربية، ودليل ذلك أن الموحدين عندما أرادوا تشييد المباني في الأندلس استعانوا بعرفاء البنّائين من مراكش وفاس وبقية المدن المغربية³، ويستنتج من ذلك أن بلاد المغرب لم تُعدم من هذه الفئة.

ومن أهم الصّناع الذين لاقوا حظوة عند سلاطين الموحدين والذين قدّموا إفادة عظيمة في مجال العمران نذكر المهندسين الآتية أسماؤهم: "أبا الحسن علي ابن يوسف ابن عبد المؤمن" "الحاج يعيش المالقي"، الذي تمكّن من صنع مقصورة هندسية بالمسجد الجامع بمراكش للخليفة الموحدي عبد المؤمن والذي استقدمه سنة (523هـ/1091م)، حيث كانت تعمل ميكانيكيا ترتفع عند خروج الخليفة وتعود لمكانها عند دخوله، إلى جانب المهندس "أحمد بن باسة"، والليث الصقلي و"أبي الحسن ابن محمد الأزرق" و"أبي شامة الجبائي"⁴ وغيرهم كثير ممّن لم يرد ذكرهم في المصادر التاريخية، وقد أثمرت الخبرة الأندلسية بشكل كبير في الفترة الموحدية

¹ المرجع نفسه، ص 303-304.

² حسن علي حسن، المرجع السابق، 375. ينظر أيضا: عادل محمد زيادة، المرجع السابق، ص 216.

³ هناء محمد عبد الحميد الفقّي، المرجع السابق، ص 83.

⁴ هناء محمد عبد الحميد الفقّي، المرجع السابق، ص 86.

وخضعت لمؤثرات وروافد جديدة جاءت من القيروان وقلعة بني حمّاد التي يلاحظ عليها تأثرها بالعمارة المشرقية¹.

صفوة القول إنّ دولتي المرابطين و الموحّدين قد تأثّرتا بالعمارة الأندلسية التي عرفت ازدهارا كبيرا في تلك المرحلة وتمكّنتا من الاستفادة من الأساليب الأندلسية في مجال التّحصينات الدّفاعية و البناء والزّخرفة ومختلف النّصاميم، ممّا يدلّ على قدرة الدّولتين على تطوير وتكييف هذه العناصر حسب احتياجاتهم وكان ذلك أكثر عند دولة الموحّدين ممّا منح طابعا عالميا ومميّزا للعمارة في عهدها.

رابعا: دراسة مقارنة

اهتمّ كلّ من المرابطين والموحّدين بالعمارة الحربية وفيما يلي أهمّ أوجه التّوافق والاختلاف بينهما.

أ / أوجه التّشابه:

1/ الحصون والقلاع

عُرفت الدولتان المرابطية والموحّدية بالطّابع العسكري، ففي الدّولة المرابطية تجلّى هذا الطّابع من خلال كون معظم حكام الولايات والوزراء ذوي مظهر عسكري وعلى دراية كبيرة بقوانين الحرب وفي الغالب كانوا من عصابة لمتونة وصنهاجة، ومن أشهر قادة الجيش البارزين سير ابن أبي بكر اللّمتوني²، وقد بلغ مكانة كبيرة عند يوسف بن تاشفين، ينتان ابن عمر، وكان من أبرز رجال الحرب عند المرابطين ومحمد ابن الحاج، ومزديلي ابن تيولتكان، ويحيى ابن غانية، وغيرهم من القادة البارزين³، وقد انعكس ذلك على العمارة العسكرية بكثرة تشييد الحصون

¹ محمد السيد أبو رحاب، العمارة الإسلامية، المرجع السّابق، ص 10.

² سير ابن أبي بكر: أحد أعظم قادة جيوش المرابطين، وصهر يوسف بن تاشفين، وكان حاضرا معه عندما دخل إلى جزيرة الأندلس، قام بفتح إشبيلية وتولّى ولايتها، حارب المعتمد ابن عباد وحاصره أشهرًا ثم دخل المدينة قهرا وقام بأسره ونقله إلى مدينة أغمات. ينظر: النويري، ج24، المصدر السّابق، ص 269. - ابن خلكان، ج7، المصدر السّابق، ص 123. - محمود مقدّيش، ج1، المرجع السّابق، ص 445.

³ - محمد عبد الله عنان، ج4، المرجع السّابق، ص 640.

والقلاع لتأمين الدولة حيث بلغت حصون المرابطين حوالي سبعين حصنا في جبل درن فقط، كما كان اختيار المقرات الأصلية للمرابطين من مسؤوليات القادة، ومن أبرز هذه المقرات جبل لمتونة الذي يتصل بسلسلة جبال تمتد حتى البحر المحيط.

-الرباط:

كان منطلق الدعوة المرابطية رباط السنغال، وهو عبارة عن بناء تجتمع فيه الصفة الحربية والدينية، فهو من المراقبة أي ملازمة الثغور والاستعداد للعدو، كما اتخذ المرابطون رباط أغمات التي تقع شمال جبل درن مقراً للدعوة والمجاهدة¹، فانتشرت الربط أيام المرابطين ببلاد المغرب وكان الرباط الديني²، كرباط آكلو مكانا للتعبّد والتعلّم واعتكاف المتصوّفة، أمّا الرباط الحربي فكان بناؤه في المكان الاستراتيجي، كما يتمّ تسويره وتجهيزه بوسائل الدفاع والهجوم وحجراته مزودة بمخازن القوات والأسلحة، كما شملت بعض الأربطة على الوظيفة الحربية والدينية في نفس الوقت³، فلا يمكن أن يكون العامل الديني سببا وحيدا في تأسيس الربط أو الحصون ما لم توجد سلطة سياسية تدعمه بالجنود والمؤونة، فالتأسك والمتعبّد في كثير من الأحيان لم تكن لهم القدرة على الدفاع لعدم تمكّنهم من فنون القتال، لذلك جاءت بعض الفتاوى من الفقهاء بعدم جواز المراقبة لمن ليس له القدرة على الحرب⁴، فدوافع بناء الربط كانت متعدّدة أهمّها الجانب الأمني والديني فرباط عبد الله بن ياسين الذي يُعدّ من أهمّ الربط التي بناها الملتّمون كان الدافع وراء بنائه أمنا قبل أن يكون دينيا ولم تختلف دوافع بناء الربط في الفترة المرابطية عن دوافع تشييدها في الفترة الموحّدية أو دول ما بعد الموحّدين.

¹- غسان خلف الجبوري، المرجع السابق، ص ص 132-133.

²-المقصود به التفريق بينه وبين الرباط الحربي المخصّص للجهاد والدفاع عن الثغور.

³-لم تتجز أي دراسة تطبيقية حسب ما اطلّعنا عليه حول الربط في عصر المرابطين رغم أنّ دراسة محمد الأمين بلغيث الموسومة بـ " الربط في المغرب الإسلامي في عصر المرابطين والموحّدين من الدراسات الجادة التي تناولت الربط في هذه الفترة غير أنّها ليست تطبيقية فلم تعتمد على التحليل الأثري وذلك ربما راجع لاندثار الآثار وصعوبة تتبعها ينظر: عثمان عثمان إسماعيل، ج2، المرجع السابق، ص ص 117-118. - محمد الأمين بلغيث، الربط، المرجع السابق، ص ص 1-200.

⁴-محمّدو ولد عمر، المرجع السابق، ص 240.

أما في الدولة الموحّدية فيتجلّى الطّابع العسكري في اختيار مقرّات الدّعوة الّتي لم تختلف كثيرا عن أسلوب اختيار المرابطين، فقد اختار ابن تومرت تينمل والّتي هي عبارة عن حصن في أعلى الجبل مقرّا لانطلاق الدّعوة نظرا لما تمتّعت به من حصانة طبيعّية ومنعة مقارنة بغيرها من مدن السّوس الأقصى.

-جبل درن: كما أطلق عليه أيضا جبل المصامدة وجبل جزولة وجبل أوراس، ويبدأ من بحر الظّلمات- المحيط الأطلسي- في أقصى السّوس ويمرّ من الشّرق حتّى جبل نفوسة ليتّصل بعدها بجبال طرابلس، وهو متّصل العمارة به قلاع وحصون أشهرها حصن تينمل الّذي انطلق منه محمد بن تومرت وهو الّذي زاد في تشييده وتحصينه¹.

كما اهتمّ معظم خلفاء الدّولة بالبناء الحربي وأبرزهم عبد المؤمن بن علي الّذي قام بتشييد سور تآكرارت بتلمسان سنة(540هـ/1146م) وحصون الفتح سنة (555هـ/1160م)، وأبو يعقوب يوسف، والمنصور والنّاصر الّذي بنى سور مدينة فاس.

انتشرت القلاع والحصون في بلاد المغرب، واعتبرت كثرة بناء الحصون والقلاع ظاهرة واضحة لوجود صراع لم ينقطع في بلاد المغرب سواء في العهد المرابطي أم حتّى الموحّدي، حيث قام المرابطون بتشييد القلاع والحصون والأسوار بالمغرب الإسلامي والأندلس خاصّة في أواخر عصر الدّولة المرابطية لأسباب عديدة، منها التّوسّع العسكري والسّياسي الكبير حيث قامت الدّولة المرابطية بتوسيع أراضيها بشكل كبير، استدعى الحاجة إلى بناء قلاع وحصون لحماية المناطق الجديدة وتأمين الحدود، وأيضا لصدّ التّهدّيات الدّاخلية والمتمثّلة في القبائل المعارضة والخطر الموحّدي والحروب بالأندلس ضد النّصارى.

ساعدت القلاع والحصون في الحفاظ على الأمن الاقتصادي للدّولة المرابطية والموحّدية نظير ما وفّرت من حركة في التّمدّن وحماية للطّرق التّجارية والمراكز الاقتصادية المهمّة، وممّا زاد من حاجتها أنّ هذه الدّول اعتمدت على عملية الغزو والجهاد كمورد مفيدة لاقتصادها، لذلك

¹ محمود مقدّيش، ج1، المرجع السّابق، ص 59.

أطلق عليه بعض الباحثين اقتصاد المغازي¹، كما كانت مراكز لتخزين الحبوب والمعادن الثمينة، وبالتالي كانت تمثل أكثر من مجرد مواقع عسكرية تلجأ إليها العامة وقت الحرب والخوف.

من خلال دراسة الأمثلة السابقة يتبين أن القلاع والحصون المرابطية والموحدية تم بناؤها في مواقع استراتيجية، حيث بُنيت الحصون في المغرب الإسلامي على طول جبال الأطلس الكبير وحدود جبال الأطلس الشمالية في مناطق مثل تادلة ودرن، كما حملت أسماء بربرية مثل تاجرار وتاسغيموت وتاكزورت وتاسغمارت، وسميت في المدن بالقصبة بينما في الأندلس عرفت بالقلاع، وكان هدفها واحد وهو الحماية من الغزوات والهجمات وتأمين إمكانية شنّ العدو لهجمات معاكسة، وعادة ما كانت القيادة تسند إلى أحد القادة المتمرسين من قبيلة لمتونة تساعده قوة تتألف من 200 فارس و500 جندي بدون فرس².

تأثرت كل من العمارة المرابطية والموحدية بالمؤثرات الأندلسية، التي شملت كل مجالات الفنون والعمارة إبان هذه الفترة، فقد استعان المرابطون بالخبرات الأجنبية الدخيلة كالأسرى والأندلسيين في بناء المنشآت الدفاعية - الفلكي الذي بنى قصر تسغيموت-، كما أن الموحدين تأثروا بالأسلوب الأندلسي، وتمت الاستفادة من الخبرات الأندلسية في بناء الحصون والقلاع، عبر جلب أمهر البنائين والمهندسين من مدن الأندلس لاستخدامهم في عمليات البناء، لدرجة أن بعض الباحثين في سياق حديثه عن الفن في عصري المرابطين والموحدين أوضح أنهما فنّان أندلسيان³، وقد أشار ابن خلدون لاتخاذ ملوك المغرب للإفرنج في الجند للضرورة، وأمّا الجهاد فلا يُستعان بهم خوف مكرهم وخدعهم⁴، وبهذا فلا يُستبعد الاستعانة بهم في مجال البناء.

كما استفاد الموحّدون من تجارب المرابطين في هذا الجانب وزادت خبرتهم وتوسّعوا في بناء الحصون والقلاع، فتميّزت حصونهم بأمنها العالي نتيجة لمواقعها العالية الإستراتيجية، سواء كانت في مرتفعات أم بجانب الأنهار، حيث كانت تستخدم لأغراض دفاعية وحماية الأراضي خاصة الواقعة على الثغور، كما كانت هذه المنشآت جزءا من إستراتيجية الموحدين لما تعكسه

¹ إبراهيم القادري بوتشيش، حلقات، المرجع السابق، ص 21.

² عبدوني حسينة، المرجع السابق، ص 178.

³ ليويلدو توريس بالباس، المرجع السابق، ص 13.

⁴ ابن خلدون، ج1، المصدر السابق، ص 338.

من قوّة الدّولة وهيبّتها، لإحكام سيطرتهم وتأكيد قوّتهم سواء السّياسية أم العسكرية، لدورها المهمّ في ترسيخ نفوذ الموحّدين في المناطق التي كانت تحت حكمهم.

أمّا في ما تعلّق بمرامي السّهام فقد استخدمت في كلّ من القلاع والأبراج المرابطية والموحّدية حيث توجد ضمن الأبراج ولكن بحجم صغير.

أمّا في ما يخص التخطيط والتصميم نجد أن المرابطين اعتمدوا على التخطيط البسيط فكانت أشكال البنايات في الأغلب مربعة وفي بعض الأحيان مستطيلة في حين عمد الموحدون إلى استخدام تخطيطات أكثر تعقيدا كالزوايا والأبراج والأبواب الضخمة فالمرابطون ضمنوا الحماية بوسائل بسيطة وغير مكلفة في حين أن الموحدين كان لهم هدف مزدوج بين الحماية والجانب السياسي والرمزي.

2/ الأسوار:

قام المرابطون ببناء الأسوار حول المدن في بلاد المغرب والأندلس، وكان ذلك بتكاثف الأمراء وإرشادات الفقهاء، مثل ما قام به علي بن يوسف والفقهاء ابن رشد، كما كانت تخصّص أموال معتبرة من ميزانية الدّولة في بناء هذه المنشآت.

اتّبع المرابطون نظاما دفاعيا يعتمد على الأسوار المتعدّدة ذات الزّوايا المنكسرة الدّاخلية والخارجية، داخل السّور يوجد ممّر يسهّل حركة المقاتلين، كانت الشّرفات تعلو هذه الأسوار لتوفير حماية إضافية من الأعداء، كما تميّزت دفاعاتهم بوجود سور خارجي مواز للسّور الدّخلي يبلغ ارتفاعه حوالي مترين وعرضه أيضا حوالي مترين، أمّا السّور الدّخلي فقد تراوح ارتفاعه بين خمسة إلى عشرة أمتار وعرضه مترين، واستعملت هذه الطّريقة عند الموحّدين وكانت من السّمات البارزة في العمارة العسكرية الموحّدية.

تأخّر بناء الأسوار في الدّولتين المرابطية والموحّدية كليهما لعدّة اعتبارات منها أنّ المرابطين كانوا أهل بدو ولم يألفوا هذه التّحصينات، أمّا عن الموحّدين كانت أولويّتهم للهجوم وليس الدّفاع لكن سرعان ما تغيّرت نظرتهم لهذه المنشأة خصوصا بعد بناء المرابطين المدن

وبالأخص مدينة مراكش، كما كان عبورهم للأندلس سببا وجيها في اهتمامهم بهذه المنشأة، وكذلك أدرك الموحّدون أهميّة هذه التّحصينات لترسيخ ملكهم بسبب التّهديدات التي واجهت دولتهم وبالأخصّ تهديدات النّصارى.

ب / أوجه الاختلاف

1- الحصون والقلاع:

من نقاط الاختلاف التي وقفنا عليها في العمارة الحربية للمرابطين والموحدين، أنّ المرابطين في بداية تكوين دولتهم لم يكونوا على دراية كبيرة بفنون الحصار وأساليبه، ولعلّ ذلك راجع لقلة الحصون والقلاع في المناطق التي انطلقوا منها لكن نظرتهم تغيّرت خاصّة بعد وصولهم للأندلس حيث أصبحت المنشآت الدفاعية ضرورة حتمية، أمّا بالنسبة لدولة الموحّدين فقد آلت إليهم منشآت المرابطين التي أضافوا إليها عديد التّحصينات، ممّا جعل منشآتهم المعمارية الحربية تصمد إلى وقتنا الحالي خاصّة في المغرب الأقصى والأندلس في حين غابت هذه المنشآت عن المغرب الأوسط والمغرب الأدنى.

لابدّ من الإشارة أنّ عمران الحصون في العهد المرابطي قد طالته أيدي الخراب على أيدي القبائل الهلالية خاصّة في المغرب الأوسط، كما أنّ المصادر التاريخية قد أحجمت على تفاصيل هذه الحصون في بلاد المغرب الإسلامي عكس بلاد الأندلس، فلا نجد حصونا معروفة قرب مدينة مراكش العاصمة وإنّما قلاع في أماكن جبلية كقلعة تسغيموت¹، فقد تأخّر المرابطون في بناء الحصون وعلى الرّغم من تداركهم للأمر وإدراكهم لأهميّة هذه التّحصينات، إلّا أنّها لم ترق حسب نظرنا إلى ما وصلت إليه في الفترة الموحّدية، بدليل أنّ بعض الحصون في الفترة الموحّدية تحوّلت إلى حواضر عمرانية كبرى مثل ما حدث لمدينتي تازا والمهدية، وهو ما لم يحدث في فترة المرابطين.

¹ عثمان عثمان إسماعيل، ج2، المرجع السّابق، ص 121.

تميّز الموحّدون عن المرابطين في مجال بناء الحصون والقلاع أنّ هذه المنشآت كانت تحت إشراف هيئات عليا تمثلت في الحكّام والسّادة والأشياخ¹، كما تمّ الاستعانة بالطّلبة والعنصر الأجنبي، وبالتالي فإنّ الحصون عرفت اهتماما كبيرا من طرف الموحّدين حيث شكّلت عنصرا مهما من المنشآت الحربية، عكس المرابطين الذين أوكلوا المهمّة للقادة العسكريين دون تأثير كبير للفئات الاجتماعية الأخرى.

يمكن التّمييز بوضوح أنّ المرابطين في أواخر عهد علي بن يوسف التزموا بخطط الدّفاع نظرا لظروفهم السّياسية التي كانوا يمرّون بها، لذا أكثروا من تشييد القلاع والحصون وبناء الأسوار، كما يلاحظ قدرتهم على الدّفاع كونهم يجيدون الامتناع بالقلاع ويرهقون محاصريهم، لكن إذا ما قارنّا قدرتهم على الدّفاع بالهجوم لا يتّضح أنّهم كانوا على حظّ كبير بفنون الدّفاع والهجوم، وقد أرجع أحد الباحثين سبب ذلك كون دعامة جيشهم تركز على الفرسان أكثر من المشاة وهم أقلّ خبرة في فنون الحصار².

أمّا في ما يخصّ الموحّدين فإنّهم امتازوا بالمهارة في فنّ الحصار وتّفوّقوا على المرابطين في هذا الجانب، وكانت أمنع الحصون والأسوار تتهاوى أمام ضرباتهم لامتلاكهم أدوات وأساليب الحصار، وقد اتّضح ذلك في حصارهم الثّاني لمراكش حيث أمر عبد المؤمن بصنع سلاالم للأسوار، وجعل كل قبيلة على جهة فتمكّنوا من دخول المدينة والتّنكيل بالمرابطين، وهو ما حدث أيضا أثناء حصار مدينة فاس والمهدية³، كما عرف عنهم تنويع أساليب الحصار، فأحيانا يستعملون المجانيق وأحيانا الحرّاقات والدّبّابات وسلاالم الحصار، كما استعملوا في أحيان كثيرة المياه كالسّلاح لتهديم الأسوار مثل ما فعل عبد المؤمن في حصاره لمدينة فاس حيث عمد إلى سدّ المياه ثمّ توجيهها دفعة واحدة على الأسوار.

¹ الشّيخ: رتبة وطبقة عليا في جيش الموحّدين وقد استخدم أيضا للدّلالة على وظيفة عسكرية مهمّة تُعرف بشيخ الغزاة وتعني القائد العام، كما كانت هذه الرّتبة لقب لموظّف مهمّ في دولة الموحّدين، وكان لقب الشّيخ المعظم من كبار موظّفي الدّولة ووجد في دولة الموحّدين رتبتان من الأشياخ هما الأشياخ الكبار، وهم الطّبقّة الأولى، والأشياخ الصّغار، وهم أقلّ مرتبة من الطّبقّة الأولى، حيث يُشكّلون الطّبقّة الثّانية من الجند، ينظر: فتحي زغروت، المرجع السابق، ص 126.

² فتحي زغروت، المرجع السابق، ص 182.

³ غسان محمد حسن خلف الجبوري، المرجع السابق، ص ص 122-124.

كما يلاحظ أنّ عبد المؤمن نفسه كان على دراية كبيرة بفنون الحصار، حيث أتت الحيل التي استخدمها في إسقاط عديد المدن مثل ما فعل في مدينة وهران، حيث عمد إلى إحراق أبواب المدينة وكذلك فعل في مدينة المهدية ومراكش التي لم تقف أسوارها الحصينة عقبه أمام دهائه.

2- الأسوار والأبراج:

-الأسوار

أخذ الموحّدون عن المرابطين أسلوب بناء الأسوار غير أنّهم سرعان ما طوّروا تقنياتهم وفقا لما تطلّبه الحاجة، فقد أضافوا نسبة الجير وكسرات الفخّار والحجارة الصّغيرة في تقنية الطّابية ممّا جعلها أكبر صلابة وقوّة ممّا كانت عليه في العهد المرابطي، وقد قدّمت هذه الإضافات خصوصية للمعمار المغربي وكلّ ما جاء به التطوّر الحديث في التّقنية المعمارية لا يتجاوز استبدال الحَمَرِي بِالزَّمْل والجير بالإسمنت بالإضافة إلى استخدام الحديد¹.

-الأبراج:

نالت الأبراج اهتماما كبيرا من الموحّدين على عكس ما حظيت به عند المرابطين وربّما يرجع ذلك إلى إدراك الموحّدين للدور العسكري المهمّ للأبراج، لذلك قاموا بابتكار عدّة بناءات عسكرية كالأبراج البرانية والمثمنة والأبراج المكوّنة من اثني عشر ضلعا، والأسوار المتفرّعة ممّا يعدّ تطوّرا في هذا الجانب، فقد أقيمت الأبراج في عهد الموحّدين في نقاط الحراسة فوق الأسوار والحصون كما تميّزت بالتّنوّع وهو ما لم نلاحظه عند المرابطين، فقد كان الموحّدون سبّاقين في الاهتمام بهذه المنشآت الدفاعية في بلاد المغرب والأندلس²، بالإضافة إلى تداخل التّأثيرات المغربية الأندلسية في بناء الأبراج في الفترة الموحّدية.

-موادّ البناء :

اعتمد الموحّدون في بداية دولتهم على نفس موادّ البناء التي استخدمها المرابطون مثل الحجر غير المنظّم والطّابية، غير أنّهم قاموا بتطوير تقنيات بنائهم وبحثوا عن أساليب جديدة لتقوية

¹عثمان عثمان إسماعيل، ج3، المرجع السّابق، ص ص 120-123.

²فتحي زغروت، المرجع السّابق ص ص 190-191.

صلابة الطّابية، وهو ما يكشف عن نواياهم العمرانية وعدم الاكتفاء بالأساليب الموروثة فتميّزت منشآتهم بالسرعة في الإنجاز والاقتصاد في النّفقة مع تحسّن كبير في الصّلاية التي قاومت الزّمن فيما تمّ تشييده في عهدهم، فبالإضافة إلى الطّابية نجد موادّ الجصّ المخلوط بالحجارة الصّغيرة والطّين الخزفي والفخّاري والموادّ الصّلبة كالحجارة والحديد ممّا جعل استخدام تقنياتهم وأساليبهم في عمليّة البناء طوال العصر الذي تلى عهدهم¹.

وعلى وجه المقارنة يمكن القول إنّ الدّولتين كلتيهما أبدعتا في مجال العمارة الحربية لكنّ الموحدين تفوّقوا على المرابطين في مجال الفنون الدّفاعية، ويتجلّى ذلك منذ بداية ظهورهم، فقد اختاروا المواقع الاستراتيجية مثل جبل درن الذي كان مقرّاً لثورتهم نظرا لحصانته، ومدينة تينمل مهد الدّولة ومنشأ ابن تومرت، كما قاموا بتأمين مواقعهم من خلال بناء الأسوار و الأبراج والتي كانت أكثر تطوّرا وإبداعا من الأسوار المرابطية فبالإضافة إلى الجانب الدّفاعي لهذه المنشآت التي وفّرت لهم شروط الدّفاع، بناء على ما أكّده ابن خلدون في ما يجب مراعاته عند تأسيس المدن²، كانت أكثر تعقيدا ممّا عكس قوّة الدّولة الموحّدية وتأثير طابعها العمراني على العمارة اللاحقة.

¹ عثمان عثمان إسماعيل، ج3، المرجع السّابق، ص 123.

² عبد الرحمان ابن خلدون، ج1، المصدر السّابق، ص 432.

خلاصة:

جسّدت العمارة الحربية في العهدين المرابطي والموحّدي تجسيدا للواقع السّياسي والعسكري الّذي ساد في عهديهما في بلاد المغرب الإسلامي وكان للصّراعات الدّاخلية والخارجية دورا في تطوير الجانب الدّفاعي.

المرابطون اهتمّوا بالطّابع الدّفاعي العملي من خلال بناء القلاع والأسوار القويّة حول المدن مع التّركيز على المواقع الجغرافية الصعبة وكانت منشآتهم تتركّز على الصّلابة والقوّة، في حين نجد العمارة الحربية الموحّدية عرفت طابعا عمرانيا أكثر تطوّرا حيث امتزج الجانب الدّفاعي بالجانب الجمالي ولاحظنا ذلك في الأبراج والأبواب والتّقنيات المعمارية الّتي تمّ استحداثها في عهدهم.

خاتمة

يَتَّضِحُ مِمَّا نَقَدَّمُ عَرْضُهُ وَتَحْلِيلُهُ فِي فُصُولِ هَذِهِ الْأَطْرُوحَةِ، أَهْمِيَّةُ دِرَاسَةِ الْعِمَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْمَغْرِبِ الْإِسْلَامِيِّ فِي عَهْدِي الْمُرَابِطِينَ وَالْمُوَحِّدِينَ، وَيُمْكِنُ اسْتِخْلَاصُ أَجْزَلِ النَّتَاجِ الَّتِي تَوَصَّلَتْ إِلَيْهَا الدِّرَاسَةُ فِيمَا يَلِي:

وَرِثَ الْمَغْرِبُ الْإِسْلَامِيُّ إِرْثًا عِمْرَانِيًّا زَاخِرًا عَنِ الْحَضَارَاتِ السَّابِقَةِ لِفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ وَقَدْ تَأَثَّرَ هَذَا الْإِرْثُ بِعَوَامِلٍ مُتَدَاخِلَةٍ كَالِامْتِدَادِ الْجُغْرَافِيِّ وَالتَّفَاعُلِ بَيْنَ الْحَضَارَاتِ وَالشُّعُوبِ وَقَدْ أَسْهَمَ فِي تَشْكِيلِ هَوِيَّةٍ عِمْرَانِيَّةٍ خَاصَّةٍ بِبِلَادِ الْمَغْرِبِ الْإِسْلَامِيِّ.

-كَانَتْ هِجْرَةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَتَأْسِيسُ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِدَايَةِ بَرُوزِ التَّخْطِيطِ الْعِمْرَانِيِّ لِلْمُسْلِمِينَ حَيْثُ أَصْبَحَ الْمَسْجِدُ نَوَاةً لِلْمَدِينَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَعَلَيْهِ تَدَوَّرَ الْمَدِينَةُ وَمَعَ مَرُورِ الْوَقْتِ تَجَلَّتِ التَّوَجُّهَاتُ الْمَبْدِئِيَّةُ لِلطَّرْحِ الْإِسْلَامِيِّ فِيمَا تَعَلَّقَ بِبِنَاءِ الْمَدَن.

انْتَشَرَتْ الْمَدَنُ الْإِسْلَامِيَّةُ زَمَنَ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ وَالْأُمَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ فِي كَامِلِ الْمَنَاطِقِ الْمَفْتُوحَةِ وَأُنْشِئَتْ مَدَنُ الْمَوَانِي فِي السَّاحِلِ وَالْمَنَاطِقِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالْوَاخَاتِ عَلَى طَرِيقِ الْقَوَافِلِ، بَعْدَ وَصُولِ حَرَكَةِ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ عَرَفَتْ الْعِمَارَةُ نَمُوًّا مَلْحُوظًا وَتَمَّ إِنْشَاءُ الْمَدَنِ كَمَدِينَةِ الْقَيْرَوَانِ وَتَاهَرْتِ وَفَاسَ وَالْمَسَاجِدَ وَالْقُصُورَ دُونَ إِغْفَالِ الْمُرَافِقِ الْمَهْمَّةِ الَّتِي كَانَتْ مَوْجُودَةً سَابِقًا حَيْثُ اسْتِفَادَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ تَجَارِبِ الْأُمَمِ الَّتِي سَبَقَتْهُمْ، مَعَ تَمَكُّنِهِمْ مِنْ إِدْخَالِ خُصُوصِيَّاتٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ.

شَهِدَتْ بِلَادُ الْمَغْرِبِ الْإِسْلَامِيِّ ظُهُورَ مَدَنٍ وَحَوَاضِرٍ كَبْرَى لَعَبَتْ دَوْرًا مَفِيدًا فِي تَطَوُّرِ الْعِمَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ حَيْثُ أَسْهَمَتْ هَذِهِ الْمَدَنُ وَالَّتِي أَخَذْنَا مِنْهَا نَمَازِجَ كَالْقَيْرَوَانِ فِي الْمَغْرِبِ الْأَدْنَى وَتَاهَرْتِ وَالْقَلْعَةُ فِي الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ وَفَاسَ فِي الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى فِي نَشْأَةِ نَمَطٍ مَعْمَارِيٍّ يَجْمَعُ بَيْنَ التَّأَثُّرَاتِ الْمَشْرِقِيَّةِ وَالْأَنْدَلُسِيَّةِ وَالتَّأَثُّرَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ.

اهْتَمَّتِ الْعِدِيدُ مِنَ الدِّرَاسَاتِ الْأَكَادِيمِيَّةِ بِالْعِمَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ الْإِسْلَامِيِّ مِنْ كُلِّ جَوَانِبِهَا، حَيْثُ تَنَاوَلَتْ الْعِمَارَةَ الدِّينِيَّةَ كَالْمَسَاجِدَ وَالْأَضْرَحَةَ وَالْمَدِينَةَ كَالْقُصُورَ وَالْمَنَازِلَ وَالْعَسْكَرِيَّةَ كَالْأَرْبُطَةَ وَرَغْمَ الْأَهْمِيَّةِ الْبَالِغَةِ الَّتِي تُمَثِّلُهَا فَتْرَةُ الْمُرَابِطِينَ وَالْمُوَحِّدِينَ إِلَّا أَنَّ الْجَانِبَ الْعِمْرَانِيَّ خِلَالَ هَذِهِ الْفَتْرَةِ لَا يَزَالُ يَعْرِفُ نَقْصًا وَاهْتِمَامًا مِنْ قِبَلِ الْبَاحِثِينَ.

تنوّعت العمائر الدينية المرابطية والموحّدية من مساجد ومدارس وكتاتيب و بقايا المساجد والتي تعدّ شاهد عيان على ما بلغته دولة المرابطين والموحّدين من ازدهار وتطوّر عمراني وقد عرفت زيادات في المساحة في كلا الفترتين تبعا لزيادة الكثافة السكانية حيث تمّ توسعة مسجد القرويين في العهد المرابطي ومسجد الكتبية في العهد الموحّدي، ويحقّ لأهل الجزائر الافتخار ببقاء المعالم الدينية للدولة المرابطية والتي تحمل رسائل إنسانية تبين اهتمام المرابطين بالفنّ المعماري وتردّ على الصّورة النمطية الوحيدة التي تنشرها مراجع المستشرقين مردّها النّقل من شأن هذه الدولة ومسيرتها التاريخية.

تميّزت العمائر الدينية المرابطية بالنّشأ والبساطة فشيّدوا مساجد تعتمد على الأقواس مع اهتمام خاصّ بالمحاريب والمنابر ودليل ذلك صمود منبر المسجد الكبير للجزائر إلى اليوم وهو في صورة جيّدة، أمّا الموحّدون فقد سعوا إلى إضفاء طابع الضخامة والاتّساع واعتمدوا على الرّخاف ذات الطابع الهندسي ممّا جعل مساجدهم أكبر حجما وجمالا من مساجد المرابطين، إضافة إلى وجود مرافق معمارية لم تكن في الفترة المرابطية كالمئذنة والأعمدة الحجرية والرّخامية التي يغطّي بها السّقف.

كانت المساجد أحد الأدوات التي استخدمت في الصّراع الفكري الإيديولوجي بين المرابطين والموحّدين ودليلنا على ذلك ما كان يقوم به المهدي بن تومرت عند مروره بالمساجد المرابطية حيث كان يوجّه انتقاداته لحكّام المرابطين وسياساتهم، وكانت نتيجة هذا الصّراع عمليات التّخريب التي طالت المنشآت الدينية المرابطية كما رأينا ذلك في مسجد مراكش الذي تمّ غلقه وهدمه من قبل الموحّدين.

أمّا في مجال العمارة المدنيّة فقد أدّت السّلطة السياسية المتمثّلة في الجانب المرابطي وكذا الموحّدي دورا كبيرا في الدّفع بالحركة العمرانية واعتبرته وسيلة لتوسيع الملك وهيبة الدولة.

-تمكّن المرابطون من بناء عديد المدن كمدينة مراكش في المغرب الأقصى والتي تُعتبر من أهمّ منجزاتهم العمرانية حيث أصبحت مركزا للحضارة في المغرب الإسلامي ممّا جعل أعدائهم الموحّدين يحافظون عليها كقاعدة لهم كما كان لبناء المدن نصيب في المغرب الأوسط حيث تمّ تشييد مدينة تاقراوت.

كان لبيئة المرابطين الصحراوية تأثير في بناء المدن الصحراوية والمراكز التجارية كمدينة تلمبالة وأرتينيوأزوكي ومدينة بني تاودا.

-استطاع الموحدون بناء مدن وتطوير البعض مما تركه المرابطون و أظهرت المقارنة أن الموحدين كانوا أكثر نشاطا ومبادرة من المرابطين حيث تركوا بصماتهم العمرانية في بلاد المغرب والأندلس وقد شملت المنشآت المدنية المدن كمدينة رباط الفتح وتطوير العاصمة مراكش ومدينة جبل طارق، إضافة إلى الدور والحمامات والأسواق والفنادق.

سعى المرابطون إلى حد كبير للاكتفاء بالمنشآت الضرورية كالأسواق والدور مراعاة لحياة الزهد والتقشف وتجنب التبذير، بينما عرف العصر الموحي انفتاحا كبيرا على مختلف المرافق حيث بُنيت القصور الواسعة والحدائق والبيمارستانات انعكاسا لرغبة الدولة في تثبيت السلطة وتحقيق الرفاه في العمران.

سكن المرابطون القصور والتي توفرت على جميع المرافق الحياتية وكانت أكثر تحصينا بسبب طبيعة النظام العسكري غير أن قصور الموحدون عكست اهتمامهم الكبير بالأبهة والزخرفة كونها تعكس قوة الدولة وكانت أكثر انفتاحا على الطابع المدني وذلك راجع كما رأينا لتأثرهم بقصور ملوك الطوائف.

أما في جانب العمارة الحربية، اتضح من خلال المقارنة أن كلا من المرابطين والموحدين اهتمّا بتحصين وتسوير المدن، فقد اتّسمت التحصينات المرابطية بالقوة والمتانة والتركيز على الجانب الوظيفي، بينما ركّز الموحدون على تشييد الأسوار والأبراج وفق هندسة أكثر تطورا شملت الجمع بين الجانب الوظيفي والتقني في الجانب الجمالي والزخرفي.

اتّضح لنا من خلال هذه الدراسة أن العمارة ليست مجرد مبان وهياكل صامتة بل هي انعكاس لصورة للمجتمع لأنه غالبا ماتصف حقيقة العلاقات التي كان يعيشها الأفراد سواء من الناحية السياسية أم الاجتماعية أم الاقتصادية، فمن خلال القصور يمكننا تحديد مستوى معيشة حكام الدولة ومن خلال المنشآت العامة وخاصة الدور والأرقة يمكننا تحديد الوضعية التقريبية للفرد وأهم المشاكل الاجتماعية المتعلقة بالأحياء السكنية في تلك الفترة وأهم الحلول التي قدمها كل من

القضاة وأصحاب الحسبة، إلى جانب دراسة المنشآت الحربية كالحصون والأسوار يمكن للمؤرخ معرفة الحالة الأمنية للدول.

وصلتنا معلومات معتبرة فيما تعلق بدولة المرابطين خاصة ما تعلق بالجانب السياسي كالحروب وأخبار حكام الدولة خاصة يوسف بن تاشفين وابنه علي، أما ما تعلق بالجانب الحضاري بمختلف أنواعه الديني والمدني أو الحربي، فنجد أنّ أغلب المؤرخين والباحثين أغفلوا هذا الجانب ومردّد هذا النقص مجموعة من الإعتبارات تمّ ذكر بعضها في متن الأطروحة على عكس دولة الموحّدين أين كانت النصوص أكثر حضوراً.

كان للتطوّر الاقتصادي واستقرار الأوضاع أو اضطرابها أثر كبير على العمران في العهدين كليهما فصاحب حياة الترف تطوّر حضاري وعمراني وكان لاضطراب الأوضاع السياسية أثره في تراجع العمران وخرابه.

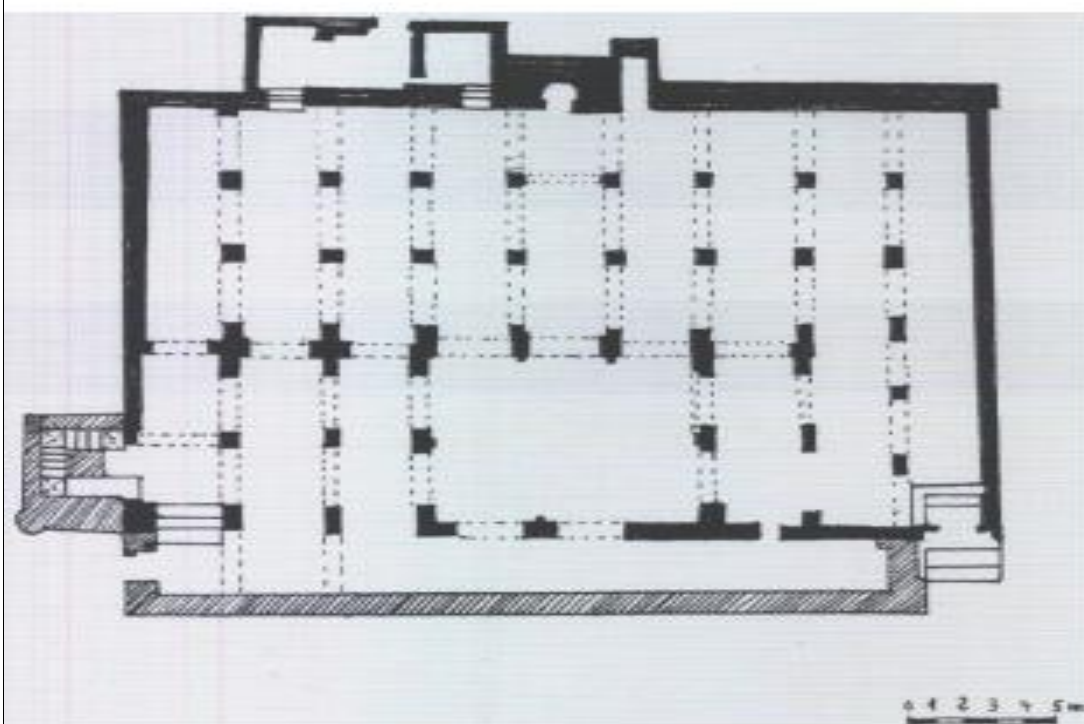
عموماً يمكن القول إنّ التطوّر الحضاري صاحب دولة المرابطين وأكملته دولة الموحّدين وهذا أمر طبيعي كون قيام الدولتين لم يكن في نفس الفترة حيث إنّ الموحّدين استقادوا من خبرات سابقهم مع تحسّن في الموارد الاقتصادية والتحوّلات السياسية والدينية.

يتّضح ممّا سبق أنّ المغرب الإسلامي شهد في عصر المرابطين ثمّ عهد الموحّدين نشاطاً معمارياً وازدهاراً عمرانياً نشطاً حيث ازدانت البلاد في عهدهم بمختلف المنشآت العمرانية الدينية والمدنية الحربية وأنّ هذا النشاط قد ورثته الدول الثلاثة التي خلفت الموحّدين الزيانيون والحفصيون والمرينيون.

في ضوء ما تقدّم نكون قد أوضحنا أبرز أوجه التشابه والاختلاف في مجال النشاط العمراني بالمغرب الإسلامي في فترتي المرابطين والموحّدين في ضوء ماسمحت لنا به المصادر التاريخية التي حصلنا عليها ولكن ميدان البحث مايزال مفتوحا لأنّ الشّواهد الأثرية لم تكشف عن كلّ أسرارها، ممّا يفتح مجالا لدراسات أكثر عمقا.

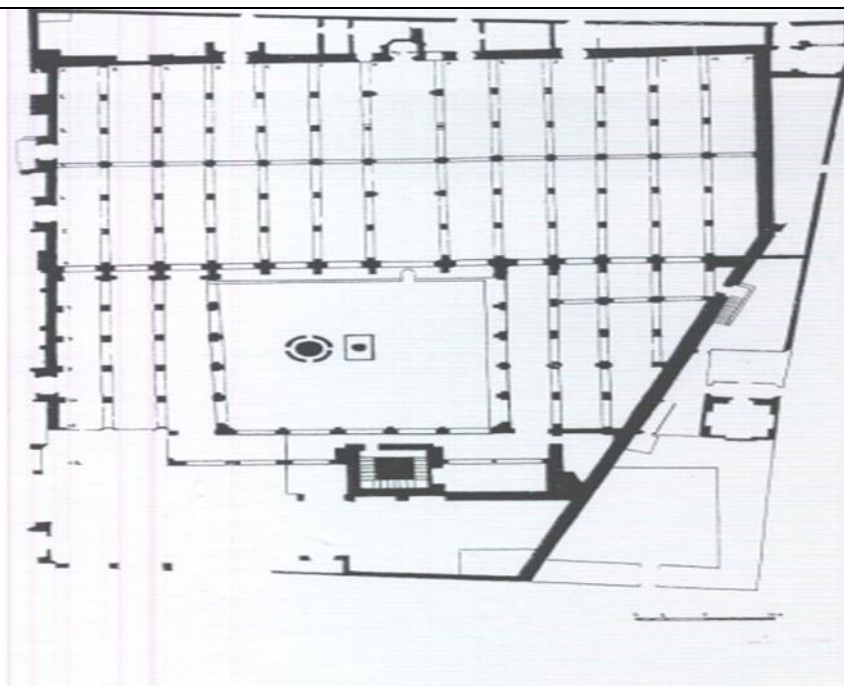
الملاحق

شكل رقم 01: مخطط مسجد ندرومة



نقلا عن: رابح فيسة، المنشآت المرابطية في مدينة ندرومة، ص 227.

الشكل رقم 02: مخطط المسجد الكبير المرابطي في تلمسان



نقلا عن محمد رابح فيسة، المنشآت المرابطية في مدينة ندرومة، ص 228

الملحق رقم 01: صورة لمئذنة جامع القيروان



نقلا عن بسمه حسام أبو المعاطي منصور، توسعات المساجد الجامعة الألفية، ص 536.

الملحق رقم 02: صورة لمنذنة قلعة بني حمّاد



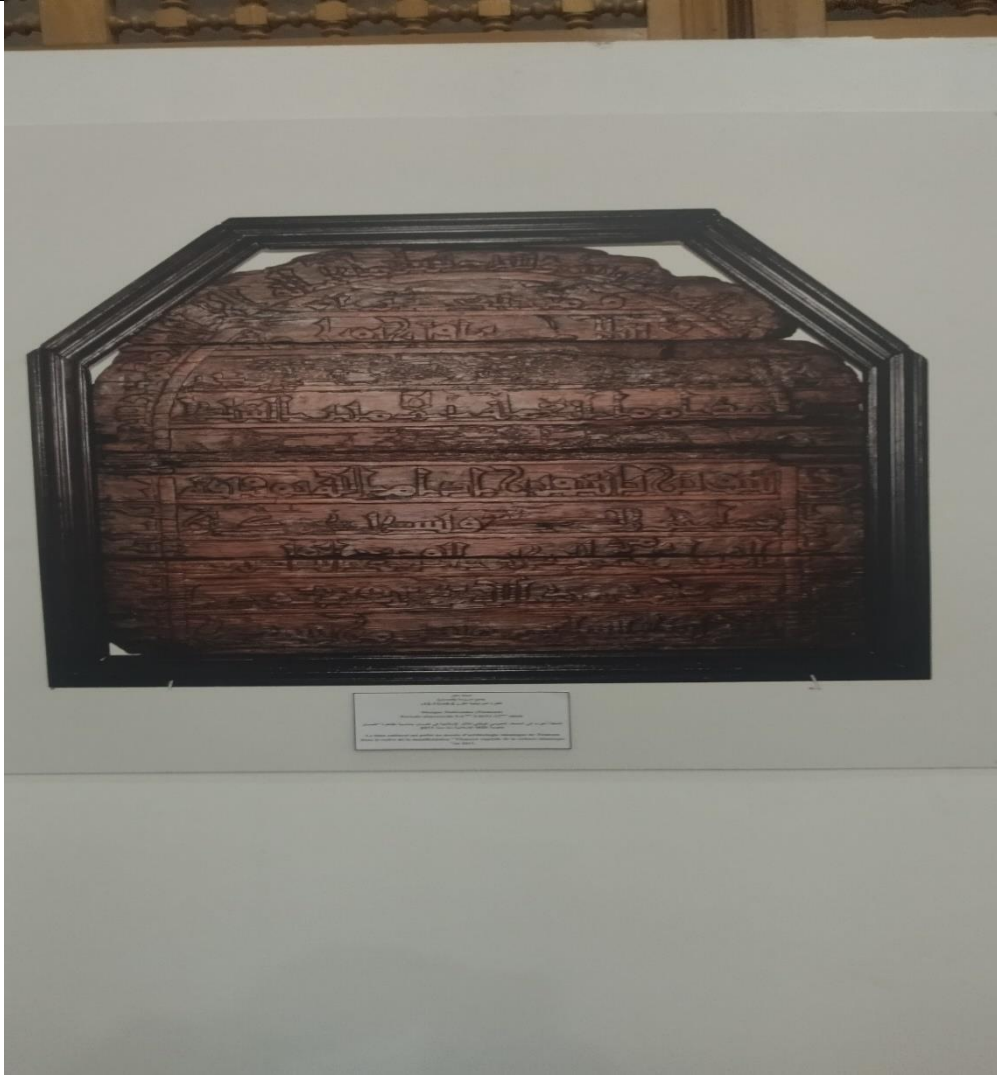
من تصوير الطالب المعاضيد - المسيلة - 13 أفريل 2022

الملحق رقم 03: صورة لواجهة مسجد ندرومة المرابطي



من تصوير الطالب بتاريخ : 01 أفريل 2025 في ندرومة- تلمسان - الجزائر .

الملحق رقم 04: صورة لوحة تشير إلى بناء المسجد المرابطي في ندرومة



تصوير الطّالب، المتحف الوطني للآثار القديمة والفنون الإسلامية - الجزائر العاصمة - بتاريخ 12-أفريل 2025.

الملحق رقم 05: صورة لصحن جامع تلمسان وواجهته



من تصوير الطالب بتاريخ 01 أفريل 2025 تلمسان الجزائر

الملحق رقم 06: صورة خارجية لجامع تلمسان



من تصوير الطالب، بتاريخ 01 أفريل 2025 في تلمسان الجزائر

الملحق رقم 07: صورة لواجهة مسجد الجزائر المرابطي



من تصوير الطالب بتاريخ 12 أفريل 2025-الجزائر العاصمة

الملحق رقم 08: صورة لمنبر الجامع الكبير المرابطي



من تصوير الطالب بتاريخ 12 أفريل 2025 متحف الآثار القديمة والفنون الإسلامية- باردو-
الجزائر العاصمة

الملحق رقم 09: صورة للعقود المفصّصة لجامع الجزائر المرابطي



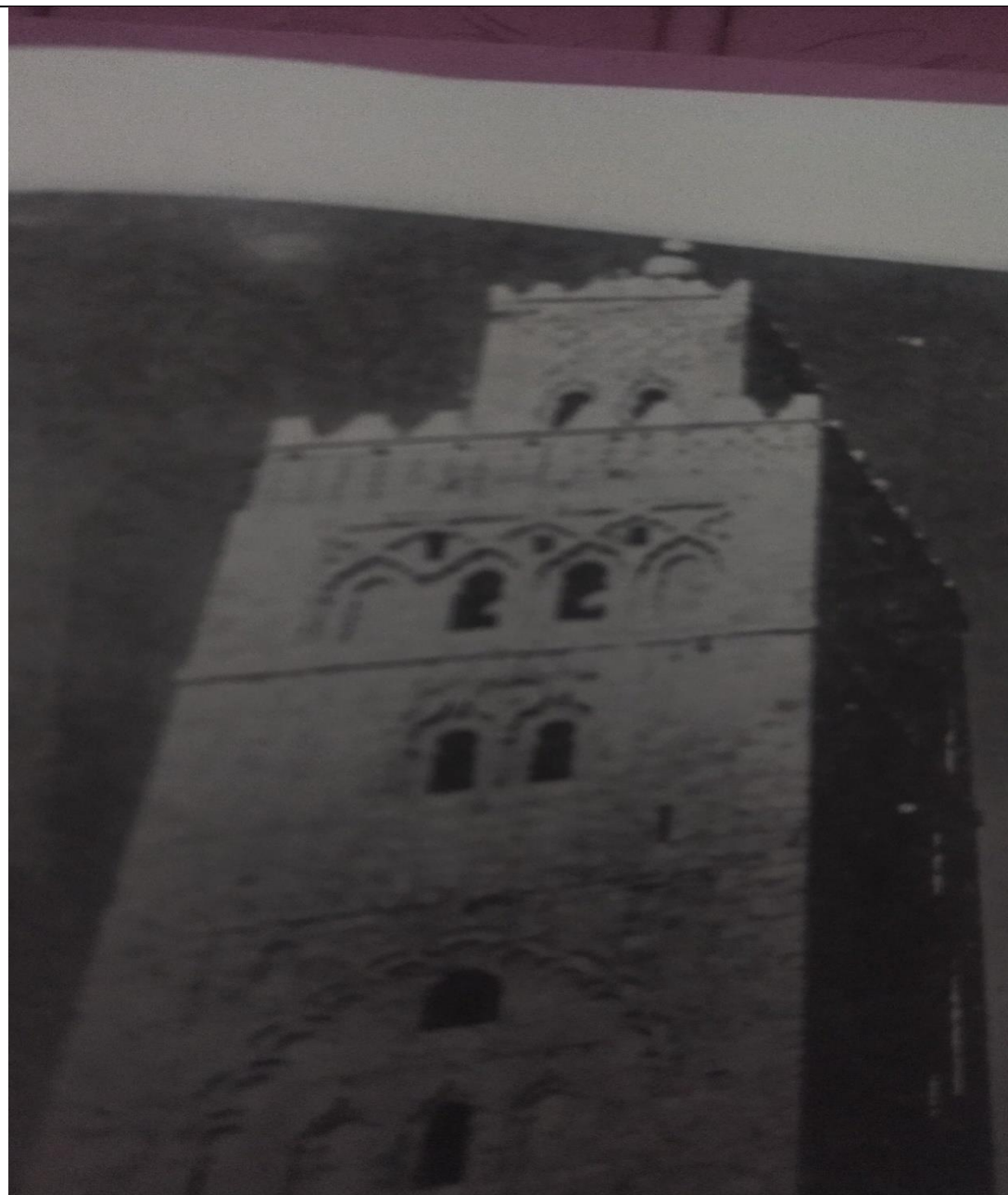
من تصوير الطالب بتاريخ 12 أفريل 2025، الجزائر العاصمة

الملحق رقم 10: صورة لمئذنة جامع الجزائر



من تصوير الطالب بتاريخ 12 أفريل 2025 الجزائر العاصمة

الملحق رقم 11: صورة لمئذنة جامع الكتبية بمراكش



نقلا عن صالح بن قربة، المرجع السابق، ص 158

الملحق رقم 12: صورة لمنذنة جامع حسان برباط الفتح



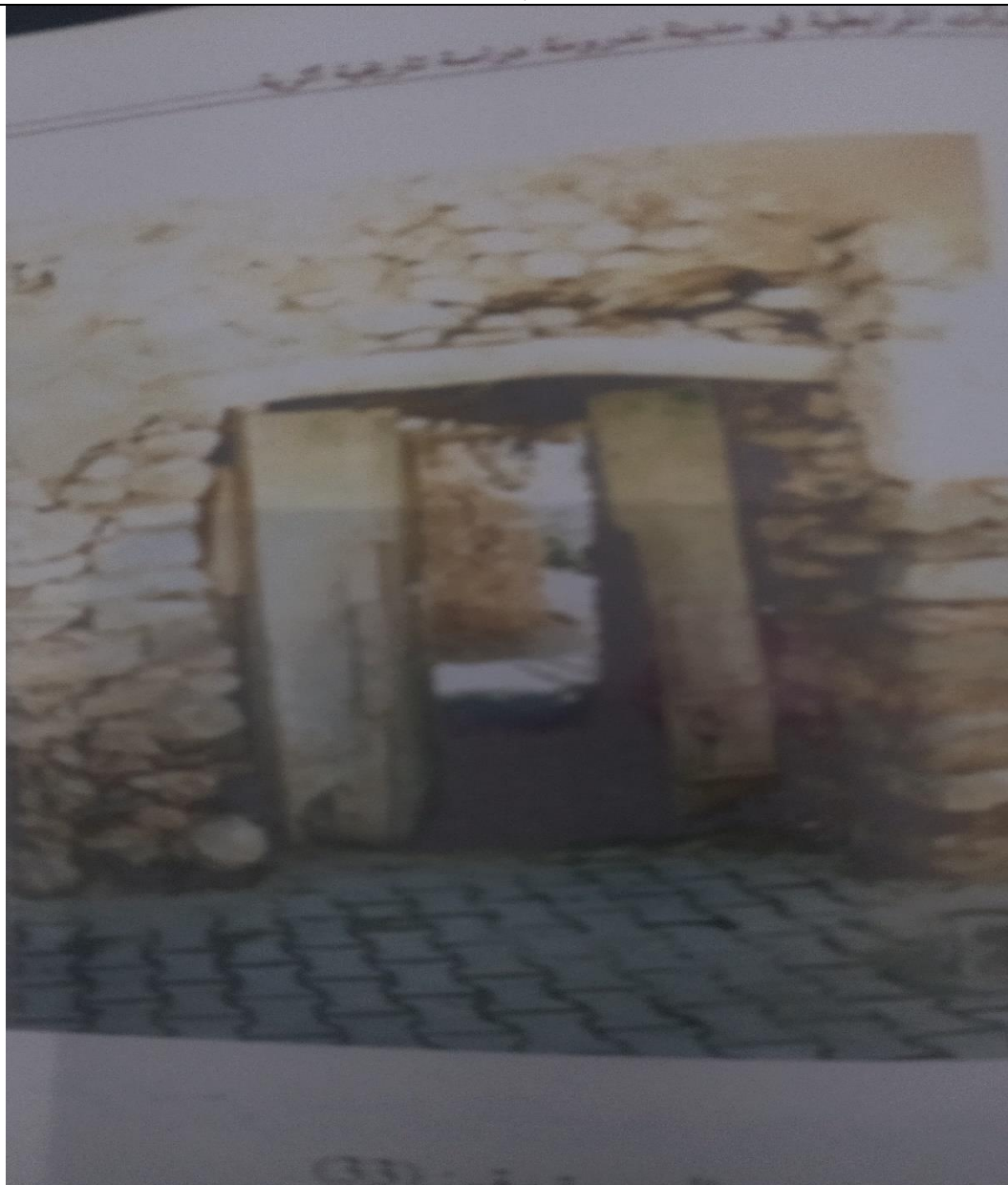
نقلا عن صالح بن قربة، المرجع السابق، ص 159.

الملحق رقم 13: صورة لنموذج قصر تمّ بناؤه في فترة المرابطين



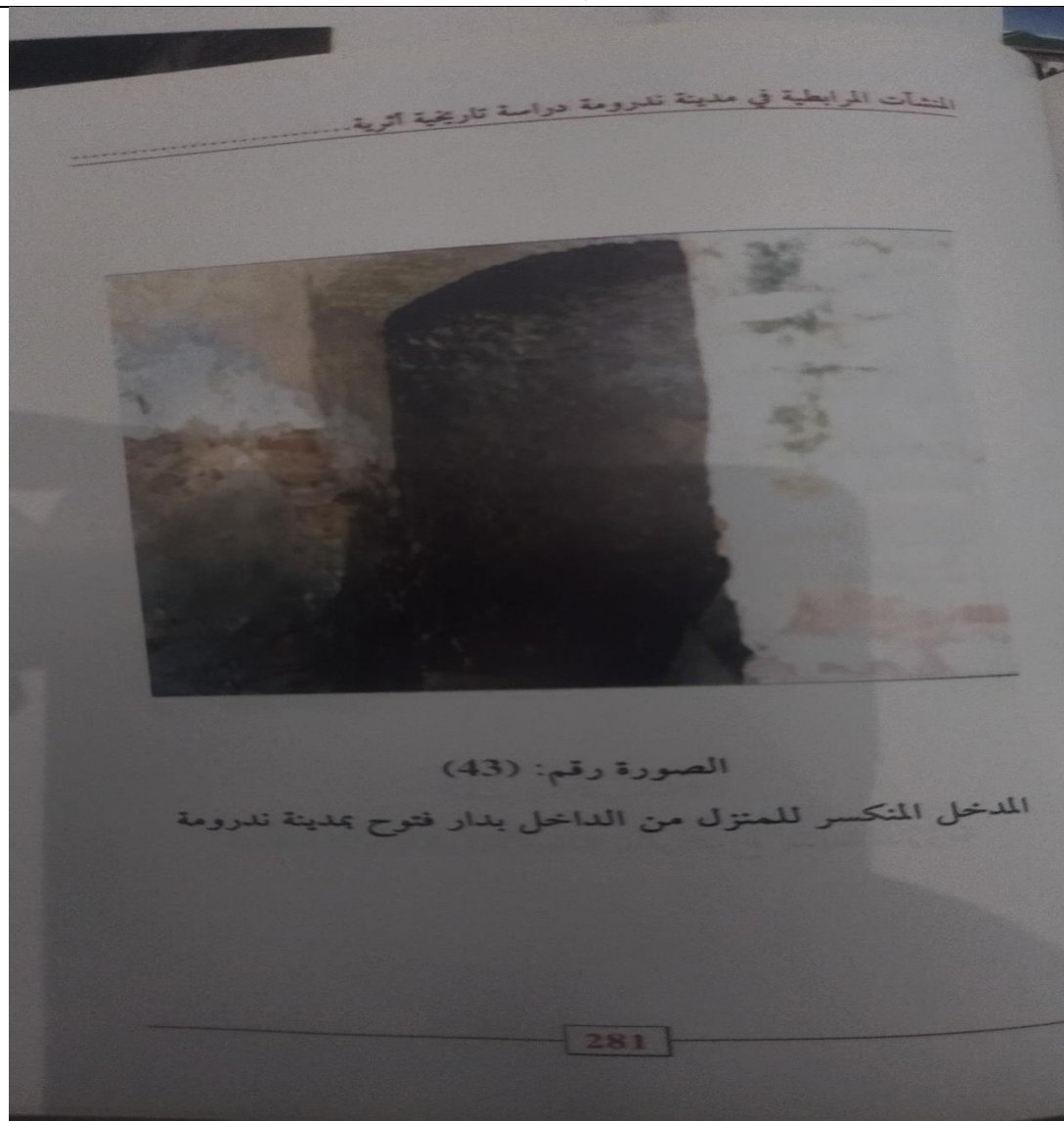
من تصوير الطالب، قصر مغرار، النعامة - الجزائر بتاريخ 04 أفريل 2025

الملحق رقم 14: صورة لواجهة منزل زرهوني يعود بناؤه لفترة المرابطين



نقلا عن محمد رابح فيسة، المرجع السابق، ص 271.

الملحق رقم 15: صورة لواجهة منزل الفتوح الذي يعود لفترة المرابطين



نقلا عن محمد رابح فيسة، المرجع السابق، ص 281

الملحق رقم 16: صورة لمدخل الحمام البالي الذي يرجّح أنّ بناءه يعود لفترة المرابطين وهو مقابل للجامع المرابطي



من تصوير الطّالب بتاريخ 01 أفريل 2025

الملحق رقم 17: صورة توضّح الموقع الاستراتيجي لدار السلطان الموحدى بمدينة هنين



من تصوير الطالب ندرومة تلمسان بتاريخ 01 أفريل 2025

الملحق رقم 18: صورة لبرج نونة الذي بناه الموحدون بمدينة هنين



من تصوير الطالب ندرومة تلمسان بتاريخ 01 أفريل 2025.

الملحق رقم 19: صورة لبرج سيدي إبراهيم المعروف عند السّكان المحليين ببرج إسبانيول



من تصوير الطّالب هنين تلمسان بتاريخ 01 افريل 2025

الملحق رقم 20: صورة توضح حجم أسوار تعود لفترة الموحديين



من تصوير الطالب مدينة هنين - تلمسان - الجزائر بتاريخ 01 أفريل 2025.

قائمة المصادر والمراجع

القران الكريم برواية ورش عن نافع

1. المصادر:

1. ابن الأبار أبو عبد الله (ت 658هـ/1260م)، **تحفة القادِم**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
2. -----، **الحلّة السيرة**، تح، حسين مؤنس، ج2، ط2، دار المعارف، 1985م، القاهرة.
3. ابن الأثير أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الجزري (ت 630هـ/1233م) **الكامل في التاريخ**، تح، عمر عبد السلام التدمري، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1997م، ج8.
4. آبا ديا فيروز، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، ج2، تح، محمد علي النجار، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1996.
5. ابن الأحمر أبو الوليد إسماعيل، (ت 807هـ/1404م)، **بيوتات فاس الكبرى**، دار المنصور، الرباط، 1972.
6. الإدريسي أبو عبد الله محمد الشريف السبتي، (ت حوالي 560هـ/1164م)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ط1، بيروت، عالم الكتب، 1988م.
7. ابن أبي أصيبعة أبو العباس أحمد ابن القاسم الخرجي، (ت 668هـ/1269م)، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تح نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، دت.
8. ابن الأزرقي أبو عبد الله محمد الأندلسي، (ت 897هـ/1491م)، **بدائع السلك في طبائع الملك**، ج1، تحقيق، علي سامي النشار، ط1، وزارة الإعلام، العراق.
9. الاصطخري أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، (ت 340هـ/951م) **المسالك والممالك**، بيروت، دار صادر، 2004م.
10. الأصفهاني الزاغبي (ت 506هـ/1112م)، **المفردات في غريب القرآن**، تح صفوان عدنان الداودي، ط1، دمشق، دار القلم، 1412هـ.
11. ابن الرّامي، **الإعلان بأحكام البنّيان**، تح فريد بن سليمان، مركز النّشر الجامعي، 1999.
12. الأماسي محمد، (ت 940هـ/1533م)، **روض الأخيار المنتخب في ربيع الأبرار**، ط1، دار القلم العربي، حلب، 1423.

13. البخاري، أبو عبد الله محمد بن سماعيل، (ت256هـ/869م)، صحيح البخاري، ج1، دار طوق النجاة، بيروت.
14. بسام الشنتريتي أبو الحسن، (ت542هـ/1147م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج5، تح إحسان عباس، ط1، ليبيا، تونس الدار العربية للكتاب، 1981.
15. أبوبكر ابن العربي القاضي، (ت543هـ/1148م)، قانون التأويل، تح محمد السليمان، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، 1986م.
16. البكري أبو عبيد الله (ت1094/484م)، المسالك والممالك، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992.
17. البيهقي أبو بكر ابن علي (ت594هـ/1159م) أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تح عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973.
18. الترمذي محمد بن عيسى، (ت279هـ/892م) سنن الترمذي، ج5، تح محمد شاكر، وآخرون، ط2، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1975م.
19. التنبكي أحمد بابا، (ت1036هـ/1627م)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تح عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط2، ليبيا، دار الكاتب، 2000م.
20. التهانوي محمد ابن علي ابن القاضي (ت بعد 1158هـ/1745م) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج2، تحقيق علي دحروج، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1996م.
21. ابن تومرت (ت524هـ/1129م)، أعز ما يطلب، تح عمار طالبي، الجزائر، وزارة الثقافة، 2007.
22. التادلي، يوسف بن يعقوب الزيات (ت628هـ/1230م) الشؤف إلى رجال الشؤف وأخبار أبي العباس السبتي، تح أحمد التوفيق، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، 1984م.
23. التميمي أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وكتاب طبقات علماء تونس، دار الكتاب اللبناني، بيروت .
24. الجزنائي أبو الحسن علي، (ت807هـ/1404م)، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تح، عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1991.

25. الجويني أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف (ت 478هـ/1085م)، نهاية المطالب في دراية المذهب، ج2، ط1، تح، ركن الدين، دار المنهاج، 2008.
26. أبو جعفر الجذامي (ت 598هـ/1202م) الانتخاب في شرح أدب الكتاب، ج1، ط1، الجزائر مركز الامام الثعالبي للدراسات، 2009.
27. الحجوي محمد الفاسي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.
28. ابن حزم الأندلسي (ت 456هـ/1064م)، المحلى بالآثار، تح عبد الغفار البنداري، ج3، دار الفكر، بيروت، 1988.
29. الحموي ياقوت (ت 626هـ/1229م)، معجم البلدان، ط2، بيروت، دار صادر، 1995.
30. الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجي، (ت 900هـ/1494)، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، مؤسسة ناصر للثقافة، 1980.
31. -----، صفة جزيرة الأندلس، تع ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت، 1988.
32. الحميري نشوان بن سعيد (ت 573هـ/1177م) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تح حسين بن عبد الله العمري، ج 10، ط1، بيروت، دار الفكر المعاصر، 1999.
33. ابن حوقل أبو القاسم محمد ابن علي البغدادي (ت 380هـ/990م)، صورة الأرض، د ط، بيروت، دار صادر، 1938.
34. ابن الخطيب لسان الدين (ت 776هـ/1374م)، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1424هـ.
35. -----، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ط1، تونس، مطبعة النّقدّم الإسلامية، 1911.
36. -----، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تح أحمد المختار العبادي و محمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964.

37. ابن خلدون عبد الرحمن، (ت 808هـ/1406م) العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج1، مراجعة، سهيل زكار، ط1، بيروت، دار الفكر، 2004م.
38. ابن خلكان أبو العباس، (ت 681هـ/1282م)، وفيات الأعيان وأنباء الزمان تح إحصان عباس، بيروت، دار صادر، 1994.
39. خليل بن إسحاق الجندي المالكي المصري، (ت 776هـ/1374م)، التوضيح في شرح المختصر الفرعي لابن الحاجب، تح أحمد بن عبد الكريم نجيب، ج1، ط1، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، قطر، 2008.
40. خياط ابن خليفة، تاريخ خليفة بن خياط، ط2، بيروت، مؤسسة القلم، 1977م.
41. خير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي، (ت 1396هـ/1996م)، كتاب الأعلام، ج4، ط15، دار العلم للملايين، لبنان، 2002.
42. ابن دحية الكلبي، (ت 633هـ/1236م)، المطرب في أشعار أهل المغرب، تح إبراهيم الأبياري وآخرون، دار العلم للجميع، بيروت، دت.
43. الدرجيني أبي العباس أحمد بن سعيد، (ت 670هـ/1271م)، طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، تح إبراهيم طلاي، الجزائر، 1974.
44. الدمشقي ناصر الدين، (ت 842هـ/1438م)، توضيح المشتبه بضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تح، محمد نعيم العرقسوسي، ج7، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م.
45. ابن دقيق العيد، (ت 702هـ/1302م) شرح الأربعين النووية، ط6، مؤسسة الريان، لبنان، 2003م.
46. ابن أبي دينار أبو عبد الله الشيخ محمد ابن القاسم الرعيني القيرواني، (كان حيًا 1110هـ/1698م) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط3، بيروت، دار المسيرة، 1993.
47. الذهبي شمس الدين، (ت 748هـ/889م)، سير أعلام النبلاء، تح، حسين أسد وآخرون، ج12، ط3، دمشق، مؤسسة الرسالة، 1985.
48. -----، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح عمر عبد السلام التدمري، ج43، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1993.

49. ابن ربيع شهاب الدين أحمد ابن محمد، (ت 272هـ/887م)، سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق ناجي التكريتي، دار الأندلس، بيروت، 1981.
50. ابن رشد أبو الوليد القرطبي الجدّ، (ت 520هـ/1126م)، مسائل أبي الوليد ابن رشد، تح، محمد الحبيب التّجكاني، ج1، ط2، دار الجيل، بيروت 1993
51. الزّبيدي محمّد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، ج 26، د ط، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2001.
52. زين الدين الرّازي، (ت 666هـ/1267م)، مختار الصّحاح، ط5، بيروت، الدّار النموذجية، 1420هـ/1999م.
53. السّبكي تاج الدّين عبد الوهّاب (ت 771هـ/1369م)، طبقات الشّافعية الكبرى، تح محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، ط2، هجر للطباعة، 1992.
54. السّقطي المالقي، أبو عبد الله محمد ابن أبي محمد (ت 6هـ/12م) آداب الحسبة، تح ليفي بروفنسال وكولان، باريس، إرنستلورو، 1931.
55. ابن سهل أبو الإصبع عيسى ابن سهل ابن عبد الله الأسدي (ت 484هـ/1093م)، الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الأحكام، أو ديوان الأحكام الكبرى، القاهرة، دار الحديث، 2007.
56. -----، وثائق في شؤون العمران في الأندلس المساجد والدّور، تح محمد عبد الوهّاب خلاف، ط1، القاهرة، المركز العربي الدّولي للإعلام، 1983م.
57. ابن سيده المرسي، (ت 458هـ/1066م) المحكم والمحيط الأعظم، تح عبد الحميد هندائي، ج7، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2000م.
58. ابن سعيد أبو الحسن علي ابن موسى (ت 685/1286م)، بسط الأرض في الطول والعرض، تح حوان قرنيط، معهد مولاي، تطوان، 1958م.
59. -----، المغرب في حلى المغرب، ج2، تح، شوقي ضيف، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1955.
60. -----، كتاب الجغرافيا، تح إسماعيل العربي، المكتب التّجاري للطّباعة والنّشر، بيروت، 1970.

61. السملالي العباس ابن إبراهيم القاضي، (ت1378هـ/1958م)، تح عبد الوهاب ابن منصور، الإعلام بمن حل بمراكش وأغامت من الإعلام، ط2، الرباط، المطبعة الملكية، 1993م.
62. الشاطبي أبو إسحاق إبراهيم ابن موسى اللّخمي، (ت790هـ/1388م)، الموافقات، ج6، ط1، تح أبو عبيدة مشهور، دار ابن عفان، 1997.
63. الشماخي أحمد ابن سعيد (ت 928هـ/1522م)، كتاب السير، تح أحمد ابن سعود السيّابي، مسقط، وزارة التراث القومي والثقافة، 1992.
64. شمس الدين الذهبي، (ت748هـ/1347م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح عمر عبد السلام التدمري، ج43، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1993.
65. ابن الصّغير المالكي، أخبار الأئمة الرّسميين، تحقيق، إبراهيم بحاز ومحمد ناصر، جمعية التراث، دت، الجزائر.
66. الصّفدي صلاح الدّين، (ت 776هـ/1375م) الوافي بالوفيات، ج28، تح أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى بيروت، دار الإحياء، 2000م.
67. ابن الصّيرفي أبو بكر يحيى بن محمد ابن يوفى الأنصاري، (ت557هـ/1161م)، الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية، تح محمد علي دبور، دار النّابغة، مصر 2018م.
68. ابن عذاري أبو العباس أحمد ابن محمد المراكشي (كان حيا في 712هـ/1312م) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983م.
69. العربي أبو بكر الإشبيلي المالكي، (ت543هـ/1148م)، المسالك في شرح موطأ مالك، ج1، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2008.
70. العمري شهاب الدّين أحمد، (ت 749هـ/1348م) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج4، ط1، أبو ظبي، المجمع الثقافي، 1423هـ.
71. عيّاظ القاضي، أبو الفضل، (ت 844هـ/1401م)، التّنبّهات المُستنبطّة على الكُتب المدوّنة والمُختلطة، ج2، تح، محمد الوثيق، الدّكتور عبد النّعيم حميتي، ط1، بيروت، دار ابن حزم، 2011.
72. -----، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ج8، تحقيق أحمد أعراب، ط1، المغرب، مطبعة فضالة، 1983.

73. علي ابن الحسن الملقّب بـ كراع النمل، (ت بعد 309هـ/921م)، المنتخب من كلام العرب،
تح محمد بن أحمد العمري، ط1، جامعة أمّ القرى، 1979.
74. العيني بدر الدين (ت 755هـ/1354م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزّمان، ج4، تح،
محمود رزق محمود، القاهرة، دار الكتب والوثائق، 2010.
75. الغازي محمد أبو عبد الله محمد ابن أحمد، (ت 919هـ/1513م)، الرّوض الهتون في
أخبار مكناسة الرّيتون، تح عبد الوهّاب ابن منصور، ط2، الرّباط، المطبعة الملكية، 1988.
76. الفتح بن خاقان الوزير أبو نصر محمد القيسي الإشبيلي، (ت 529هـ/1134م) قلائد
العقيان ومحاسن الأعيان، تح حسين يوسف خرشوش، ط1، الأردن، مكتبة المنار للنشر والتّوزيع،
1989م.
77. -----، مطمح الأنفس ومسرح التّائس في ملح أهل الأندلس، ط1، تح
محمد علي شوابكة، دار عمار، مؤسّسة الرّسالة، 1983م.
78. الفاسي ابن أبي زرع علي (كان حيا سنة 726هـ/1326م) الأنيس المطرب بروض
القرطاس في ذكر ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرّباط،
1972.
79. أبو الفدا عماد الدّين إسماعيل ابن محمد ابن عمر، (ت 732هـ/1332م)، تقويم البلدان،
دار صادر، بيروت، دت.
80. قالي أبو علي ، البارع في اللّغة، تحقيق هشام الطعان، ط1، بيروت، دار الحضارة
العربية، 1975، ص 557.
81. الفرستائي أبو العبّاس ، (كان حيا في 504هـ/1110م)، القسمة و أصول الأرضين،
تح بكير بم محمد الشّيخ بلحاج و محمد صالح ناصر، ط2، القرارة، الجزائر، جمعية التّراث،
1997.
82. ابن القاضي المكناسي (ت 1025هـ/1616م)، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من
الأعلام بمدينة فاس، الرّباط، دار المنصور، 1973.
83. القطّان أبو الحسن علي بن محمد الكتامي الفاسي، (ت 628هـ/1230م) نظم الجمان
لترتيب ماسلف من أخبار الزّمان، تح محمد علي مكي، ط2، دت.

84. -----، إحكام النظر في أحكام النظر بحاسة البصر، تح إدريس الصّمدي، ط1، دار القلم، دمشق، 2012.
85. القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م)، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزّمان، تح إبراهيم الإبياري، ط2، دار الكتاب المصري، 1406-1986.
86. -----، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج5، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1987.
87. القيرواني ابن أبي زيد، (ت 386هـ/996م)، النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمّهات، تح، عبد الفتّاح محمد الحلو، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999.
88. القيسي أبو علي، (ت ق6هـ/12م) إيضاح شواهد الإيضاح، ج1، تح محمد بن محمود الدعجاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م.
89. ابن القنفذ أبو العبّاس أحمد ابن الحسين القسنطيني، (ت 810هـ/1407م)، الفارسية في مبادئ الدّولة الحفصية، تح محمد الشاذلي النيفر و عبد المجيد التّركي، تونس، الدّار التونسية، 1968م.
90. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تح سامي بن محمد السلامة، ج6، ط2، دار طيبة للنّشر والتّوزيع، الرياض، 1999.
91. ابن الكردبوس أبو مروان عبد الملك محمد بن القاسم، (ت 580هـ/1184م)، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تح صالح بن عبد الله الغامدي، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، 2008.
92. اللّخمي أبو الحسن (ت 478هـ/1085م)، التّبصرة، تح أحمد عبد الكريم نجيب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 2011م.
93. ابن ماجة أبو عبد الله محمد ابن يزيد القزويني، (ت 273هـ/886م)، سنن ابن ماجة، تح، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مصر، دت.
94. المالكي أبو بكر ابن عبد الله ابن محمد، (ت بعد 474هـ/1081م) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسآكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ج1، تح، بشير البكوش، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1994.

95. الماوردي أبو الحسن علي ابن محمد (ت 450هـ/1058م)، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.
96. محمد ابن القاسم السبتي، اختصار الأخبار عما كان يعرف بثغر سبته من سني الآثار، ط2، تح، عبد الوهاب بن منصور، 1983.
97. محمد ابن يوسف الزباني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1987.
98. المراكشي ابن عبد الملك، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ج2، ط1، تونس، دار الغرب الإسلامي، 2012.
99. المراكشي أبو عبد الملك (ت 647هـ/1250م) المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن الفتح الأندلس إلى آخر عهد الموحدين، تحقيق عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، ط1، بيروت، المكتبة العصرية، 2002.
100. المقدسي أبو عبد الله محمد ابن أحمد، (ت 387هـ/997م) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، دار صادر، بيروت، 1991.
101. المقرئ التلمساني أحمد، (ت 1041هـ/1631م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ج1، ط3، بيروت، دار صادر، 1998.
102. مكناسي ابن القاضي، أبو العباس أحمد لن محمد (ت 1025هـ/1616م)، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام بمدينة فاس، ج1، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973.
103. ابن منظور محمد بن مكرم، (ت 845هـ/1451م)، لسان العرب، ج2، ط1، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، 1993م.
104. مؤلف مجهول (عاش خلال القرن 6هـ/12م)، الاستبصار في عجائب الأمصار، ج1، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986.
105. مؤلف مجهول (عاش خلال القرن 8هـ/14م) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح سهيل زكار وعبد القادر زمانة، دار الرّشاد الحديثة، الدّار البيضاء، ط1، 1979م.
106. المازوني أبو زكريا (ت 883/1487م)، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تح، مختار حساني، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009م.

107. النَّسَائِي أَحْمَدُ بْنُ شُعَيْبٍ (ت 303هـ/915م)، **سنن النَّسَائِي**، تح محمد رضوان عرقسوسي وآخرون، ج2، ط1، دار الرسالة العالمية، سوريا، 2018.
108. النويري أحمد شهاب الدين، (ت 733هـ/1333م) **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ج24، ط1، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، 2002.
109. الوزان حسن، (كان حيا ق 10هـ/16م) **وصف إفريقيا**، تر، محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983.
110. الونشريسي أبو العباس أحمد ابن يحيى، (ت 914هـ/1508م)، **المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، إخراج جماعة من الفقهاء، إشراف محمد حجي، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف، المغرب، وزارة الأوقاف، 1981.
111. النَّاصِرِي أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ خَالِدٍ، (ت 1315هـ/1898م) **الاستقصاء لدول المغرب الأقصى**، ج2، تح، جعفر ومحمد النَّاصِرِي، المغرب، دار الكتاب، الدار البيضاء.
112. ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة تاريخ المغرب والأندلس في عهد الموحدين**، تح عبد الهادي التّازي، ط3، دار الغرب الإسلامي، 1987.
113. الزّركشي أبو عبد الله محمد ابن إبراهيم، (ت 382هـ/1477م)، **تاريخ الدولتين الموحّدية والحفصية**، تح محمد ماضود، ط 2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.
114. الزّركشي بدر الدّين الشّافعي أحمد ابن عبد الله (ت 794هـ/1392م)، **إعلام الساجد بأحكام المساجد**، تح، أبو الوفا مصطفى المراغي، ط5، القاهرة، 1999م.
115. الزّهري أبو عبد الله محمد ابن بكر، (ت ق 6هـ/12م)، **كتاب الجغرافية**، تح محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، دت.

II. المراجع:

أ. الكتب باللغة العربية:

1. أحمد رضا، **معجم متن اللغة**، ج4، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1379هـ-1960م
2. أحمد عيسى، **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**، ط2، بيروت، دار الزائد العربي، 1981

3. أزيد أحمد علي، حول العمارة والتشييد عند ابن خلدون، الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008
4. أشقر عمر سليمان، نحو ثقافة إسلامية أصيلة، ط4، عمان، دار النقّاس للنشر والتّوزيع، 1994.
5. أنس ابن عادل اليتامى، منية السّاجد بشرح بداية العابد وكفاية الزّاهد، ط1، الكويت، دار ركانز للنشر والتّوزيع، 2018.
6. أشياخ يوسف، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين، ج2، تر وتعم محمد عبد الله عنان، ط2، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1996.
7. إحسان عبّاس، تاريخ الأدب الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ط1، بيروت، دارالثّقافة، 1962.
8. برغوثي يوسف، العمارة الإسلامية فنّ وإبداع، ط1، عمان، دار أمجد للنشر والتّوزيع، 2016.
9. باسيليو بابون مالدونادو، عمارة المساجد في الأندلس غرناطة وباقي شبه الجزيرة الإيبيرية، تر، خالد بسطي، ط1، المسيلة، الجزائر، دار فيريرو للنشر والتّوزيع، 2015م
10. بروفنسال، ليفي الإسلام في المغرب والأندلس، تر السيّد محمود عبدالعزيز سالم ومحمد صالح الديم حلمي، الإسكندرية، مؤسّسة شباب الجامعة، 1990،
11. بسمة حسام أبو المعاطي منصور، توسّعات المساجد الجامعة الألفية بالمدن الإسلامية شبه الجزيرة العربية والعراق والشّام ومصر وبلاد المغرب والأندلس، ط 1، مصر دار الوفاء لدنيا الطّباعة، 2025.
12. بلباكي جمال وبوطي محمد نور الدّين، تأثير العمارة على السّلوّك الاجتماعي، تنسيق، بشير خلف، الإنسان والعمارة، ط20 دي13، الوادي مطبعة سخري
13. بلغيث محمد الأمين، الرّبط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحّدين، القافلة للنشر والتّوزيع، الجزائر، 2014.
14. بلوط عمر، فنادق مدينة تلمسان الرّيانية، ط1، الجزائر، مؤسّسة ضحى للنشر والتّوزيع، 2011.

15. ابن نبي مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1988.
16. البهنسي صلاح أحمد، عمارة بلاد المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، ط1، الإسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطباعة، 2023.
17. البهنسي عفيف، معجم العمارة والفن، ط1، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، 1995.
18. بوتشيش إبراهيم القادري، حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 2006.
19. -----، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1998.
20. -----، المهتمشون في تاريخ الغرب الإسلامي إشكاليات نظرية تطبيقية في التاريخ المنظور من أسفل، ط1، القاهرة، 2014، ص 230-231.
21. بورويبة رشيد، الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1979.
22. بورويبة رشيد وآخرون، التاريخ السياسي في عهد الرستميين، الجزائر في التاريخ العهد الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ج3.
23. -----، الحياة الفنية في عهد المرابطين والموحدين، الجزائر في التاريخ، ج3، تع محمد بلقراد، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.
24. بوطارن مبارك، العماير الدينية في المغرب الأوسط، تلمسان، دار كنوز، 2011.
25. بولعراس خميسي، فنّ الحرب بالغرب الإسلامي خلال عصر المرابطين والموحدين، الجزائر، النشر الجامعي الجديد، 2018.
26. التّازي عبد الهادي، جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس موسوعة لتاريخها المعماري والفكري، ج1، ط2، الرباط، دار نشر المعرفة، 2000.
27. تاوشخت لحسن، عمران سجل ماسة دراسة تاريخية وأثرية، ج1، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدّار البيضاء، 2008.
28. توفيق حمد عبد الجواد، العمارة الإسلامية، فكر وحضارة، مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، 1987.

29. تيمور أحمد باشا، معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، ج5، ط2، مصر، دار الكتب والوثائق القومية، 2002
30. الجابري محمد عابد، فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، ط6، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1994.
31. جبوري غسان محمد خلف، التدابير الأمنية في عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (668-1038/430-1229م)، ط1، سوريا، صفحات للدراسات والنشر، 2024.
32. جعيط هشام، الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية، ط1، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر 1947
33. جيلالي عبدالرحمان، تاريخ الجزائر العام، ج 1، ط2، الجزائر، مكتبة الشركة الجزائرية، 1965.
34. حجي عبد الرحمان، السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها، ط1، دمشق، دار ابن كثير، 1999م.
35. حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، ج1، الدار البيضاء، د ط، دار الرشاد الحديثة، 2000
36. حريري محمد عيسى، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس، ط3، الكويت، دار القلم للنشر والتوزيع، 1987، ص96
37. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج4، ط14، دارالجليل بيروت، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، 1416هـ/1996م.
38. حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، ط2، القاهرة، دار الفكر العربي، 1996،
39. حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية التي صلى فيها فريضة الجمعة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول، ج1، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1946
40. حسن محمد، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1999.

41. حسين عبد المنعم حمدي محمد، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، (د ط)، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1997.
42. حمدي عبد المنعم محمد حسين، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1997م.
43. بن حمو محمد، العمران والعمارة من خلال نوازل الونشريسي، دار الكنوز، الجزائر، 2011م.
44. حموش مصطفى، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني من خلال مخطوط ديفولكس، الوثائق العثمانية، الجزائر، دار الأمانة للطباعة والنشر والتوزيع، 2010.
45. -----، المدينة والسلطة في الإسلام نموذج الجزائر في العهد العثماني، ط1، دبي، مركز جمعية الماجد للثقافة والتراث، 1999.
46. خالدي أحمد أرشيد، المدن والآثار الإسلامية، ط2، دار المعتز للنشر والتوزيع، الأردن، 1436-2010م.
47. خضير إبراهيم، أحكام المساجد في الشريعة الإسلامية، ج2، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، 1419هـ.
48. خولي بسيوني محمد، العمران والمدينة زهرة الحضارة الإسلامية، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر، 2023.
49. دورزي رينهارت، تكملة المعاجم العربية، ج9، ط1، العراق، وزارة الثقافة والإعلام، 2000.
50. دوري عبد العزيز، أوراق في التاريخ والحضارة أوراق في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ط3، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2019.
51. ديو رانت ويليام جيمس، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود ومحمد بدران، دار الجيل، لبنان، 2002، ج12.
52. ديورانت ويل، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود وآخرون، بيروت، لبنان، 1423هـ-2002م.

53. داود عمر سلامة عبيدات، الموحدون في الأندلس والمغرب والأندلس ما بين سنتي (1268/1146هـ/667/541م)، دار الوضاح للنشر والتوزيع، الأردن، 2005.
54. ذنوب احمد عبد الواحد، تطوير عمارة المساجد دراسة لدور التّكْيِف في تطوير مساجد القرن الأوّل الهجري، ط2، 2014، عمان، دار اليازوري العلمية للنّشر والتّوزيع، 2013.
55. رابطة الدّين محمد، مَرَاكش زمن حكم الموحّدين جوانب من تاريخ المجال والإنسان، ج2، ط2، مراكش، مؤسّسة آفاق للدراسات والنّشر والاتّصال، 2016.
56. رحاب محمد السيّد ، العمائر الدّينية والجنازية بالمغرب في عصر الأشراف السّعديين دراسة آثارية معمارية، ط1، القاهرة، دارالأزهر، 2008.
57. زغروت يوسف، الجيوش الإسلامية وحركة التّغيير في دولتي المرابطين والموحّدين المغرب والاندلس، ط1، القاهرة، دارالتّوزيع والنّشر الإسلامية، 2005.
58. سالم السيّد عبد العزيز، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مصر، مؤسّسة شباب الجامعة للطّباعة والنّشر، 1999م.
59. سامح كمال الدّين، العمارة في صدر الإسلام، د. ط، مصر، المؤسّسة المصرية العامة، للتّأليف والترجمة والطّباعة والنّشر، د.ت.
60. شواكري منير، أسس قيام الدولة في المغرب الإسلامي وفق نظرية ابن خلدون، نشر الجامعي الجديد، تلمسان، 2016م.
61. صفوت أحمد زكي ، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزّاهرة، ج3، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.
62. ضيف شوقي ، تاريخ الأدب العربي، ج10، ط1، مصر، دار المعارف، 1990م.
63. طرشاوي بلحاج، العمارة الإسلامية أصولها الفكرية ودلالاتها التّقافية والبيئية، دار النّشر الجامعي الجديد، تلمسان، 2017.
64. الطمار محمد ابن عمرو، تلمسان عبر العصور دورها في سياسة وحضارة الجزائر، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
65. طيار مساعد، فصول في أصول التّفسير، ط2، دار ابن الجوزي، 1423هـ.

66. عابد أحلام وبوغواص زبيدة، فنّ العمران بين التأصيل والتغريب، تتسيق بشير خلف، الإنسان والعمارة، الوادي، مطبعة سخري، 2013.
67. عادل محمد زيادة، التراث المعماري الديني بتلمسان منذ عصر المرابطين ودوره في التواصل الحضاري بين شرق العالم الإسلامي وغربه، تلمسان الإسلامية، بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، تلمسان، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان، 2011 .
68. عاشور محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، ج2، تح محمد الحبيب ابن الخوجة، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2004.
69. عباد الصاحب، المحيط في اللغة، ج5، تح محمد حسن آل ياسين، ط1، بيروت، عالم الكتب، 1994..
70. عبد المجيد النّجار، المهدي بن تومرت أبو عبد الله محمد بن عبد الله المغربي السّوسي المتوفى سنة 1129/524 حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983م.
71. عبدة محمد، البداوة والحضارة، نصوص من مقدمة ابن خلدون، ط1، المنتدى الإسلامي، لندن، 1413هـ-1993م.
72. عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج1، ط1، سلسلة حضارة المغرب الإسلامي، 1992.
73. عثمان محمد عبد الستار ، المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، الكويت، 1988.
74. عربي إسماعيل، المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر
75. -----، دولة بني حمّاد ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م،
76. عزالدين عمر موسى، الموحّدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، دارالغرب الإسلامي، بيروت.
77. عزب خالد محمد مصطفى، فقه العمارة الإسلامية، ط1، دار النّشر للجامعات، مصر، 1997.

78. -----، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، كتاب الأمة، رقم 58، منشورات الفرقان، الدار البيضاء، 1997.
79. عزوق عبد الكريم ، تطوّر المآذن في الجزائر، ط2، الجزائر، شركة ابن باديس للكتاب، 2011،
80. علي حجيج سعيدة مفتاح، المسار التاريخي للتطوّر العمراني لمدينة الجزائر خلال الفترة 1251/1830، 1420/1999، مؤسّسة كنوز الحكمة، الجزائر، 2011
81. عمرو إسماعيل محمد، تخطيط المدن في العمارة الإسلامية فكر وفنون، مصر، دار الكتب المصرية، 2009م.
82. عميرة محمد دور زبارة في الحركة المذهبية، الجزائر، المؤسّسة الوطنية للكتاب، 1984
83. عميم محمد إشكالية أصل المدينة بشمال إفريقيا، المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات كلّية الآداب والعلوم الاجتماعية، الدار البيضاء، 1988.
84. عنان محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، ج3، ط2، القاهرة، مكتبة 1990.
85. عناني كمال إسماعيل، الآثار الإسلامية في المغرب، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2016.
86. فكري أحمد، المسجد الجامع القيروان مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر، 1355-1936.
87. -----، مساجد القاهرة ومدارسها المدخل، دار المعارف بمصر، 1961
88. فيسة محمد رابح ، المنشآت المرابطية في مدينة ندرومة دراسة تاريخية أثرية، دار السيل للنشر و التوزيع، الجزائر، دت..
89. كربوع مسعود، النّظام المالي في المغرب الإسلامي(2-9هـ/8-15م) دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية، دار أجيال الرقمي، الجزائر، 2023م.
90. فيلاي عبد العزيز ، تلمسان في العهد الزّيّاني دراسة سياسية عمرانية اجتماعية وثقافية، الجزائر، ج1، موفم للنشر والتوزيع، 2002.
91. كنون عبد الله، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ط2، مركز النّخب العلمية، الرياض، 1380هـ.

92. لعرج عبد العزيز وآخرون، مساهمة الجزائر في الحضارة العربية الإسلامية، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.
93. لوبون غوستاف ، حضارة العرب، ترجمة، عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة، القاهرة، 2012م.
94. لي تورنو روجر، حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تعريب أمين الطيبي، ط3، الدار البيضاء، شركة النشر والتوزيع، 1998.
95. ليوبلندو تورييس بالباس، الفن المرابطي والموحدي، مصر، دار المعارف، 1981.
96. مارتاين تيودور هوستما، توماس وولكر أرنولد، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج27، إشراف، حسن حبشي، ط1، مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1999.
97. مرسي محمد منير، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، ط1، عالم الكتب، الرياض، 2005.
98. مارسى وليم جورج ، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان، تر: مراد بلعيد، علي محمد بوربيبة، فلة عبد مزيا ط1، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، تلمسان، 2011.
99. مارسىيه جورج ، بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق في العصور الوسطى، تر، محمود عبد الصمد هيك، شبكة المعارف بالإسكندرية للنشر، مصر
100. مالكي قبيلة، تاريخ العمارة عبر العصور، عمان، دار المناهج للنشر والتوزيع، 2012.
101. محمد حمزة إسماعيل حداد، القباب في العمارة المصرية الإسلامية، ط1، مصر، مكتبة الثقافة الدينية، 1993
102. محمد سليمان الطيب، القبائل العربية، ج3، ط3، دار الفكر العربي، مصر، 2010
103. محمد عاصم رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ط1، مصر، مكتبة مدبولي، 2000
104. مختار عمر أحمد، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج3، ط1، عالم الكتب، 2008.
105. مقديش محمود، كتاب نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، ج1، تح علي الزاوي، ط1، بيروت، دارالغرب الإسلامي، 1988.
106. مؤنس حسين، المساجد، ج1، الكويت، عالم المعرفة، 1981.

107. ميلي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، 1986م، ج1.
108. ناجي عبد الجبار، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، ط2، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2009
109. نظيف عبد السلام أحمد، دراسات في العمارة الإسلامية، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1989،
110. نوار سامي محمد، المنشآت المائية بمصر منذ الفتح الإسلام وحتى نهاية العصر المملوكي دراسة أثرية معمارية، الإسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 1999
111. نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر-من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، بيروت، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، 1980.
112. هادية علي وآخرون، القاموس الجديد للطلاب، ط7، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1991،
113. هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في غربي شمال إفريقيا، ج1، ط1، الجزائر، دار الأمة للنشر والطباعة، 2008.
114. هراس المختار، القبيلة والدورة العصبية-قراءة في التحليل الخلدوني للمجتمع القروي المغربي، الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008.
115. هناء محمد عبد الحميد الفقي، التطور التاريخي والسياسي للصناعات في المغرب والأندلس خلال عهد المرابطين والموحدين (448-668هـ / 1056-1296م)، مصر، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، 2024م.
116. يشي طارق، أسوار وأبواب مدينة فاس خلال العصر الوسيط -مقاربة طبونيمية تاريخية دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، 2019.
- ب. الكتب باللغة الأجنبية:**

1. David Nicolle , The Great islamique conquêts ad 632-750.osprey .
Publicing.england.2009

2. Basset,R.nedrouma et les traras, Ernest leroux, Paris,1901
3. MarcaisG, lachaire de la grande mosquee de nedrouma, ALGER
4. Marcais.g,les arabes en berberie du xl au xlv siecles,constontine,paris,1913.
5. Basset.h.et terrasse.h ,sanctuaires et forteresses al mohadeshesperis,tom 12 ,librairie,paris,1927.
6. Belhamisi moulay, Histoir de mostaganem des origines a nos jour, 2 edition, s n e d ,Alger 1982.
7. Alfred GeorgesPaul.Martin, Quatre sièclesd’histoire marocaine au Sahara de 1504 à 1902 au Maroc de 1894 à 1912,paris,LibraireFelixalcan, 1923.
8. Abderrahmane khelifa.honaine a travers ses monuments .colloque national sur.honaine passe et present.universited oran. février .1985.
9. Rene basset.nedromah et les traras.ernestleroux editour.paris.1901.

III. المقالات العلمية:

1. تويجري فردوس محمد، فضيلة مصباح إسماعيل، العناصر المعمارية في العمارة الإسلامية -العمارة الدينية -مجلة المنتدى الجامعي للدراسات الإنسانية والتطبيقية، طرابلس، 2022.
2. جيلالي عبد الرحمن ، الجامع الكبير بمدينة الجزائر معماريا وتاريخيا، مجلة الأصالة، العدد 8، الجزائر، 1972.
3. حديدي الحسين، دور الثنائية الجغرافية والقبلية في تأجيج الصراع المرابطي الموحد، دورية كان التاريخية، 2020.
4. حمّادي عبّاس إبراهيم وعبد الحسن كاظم عناد، مملكة أودغست الإسلامية دراسة في أحوالها العامة (62-446هـ/673-1054م)،مجلة العلوم الإنسانية، كلية التربية للعلوم الإنسانية، مجلد 23، العدد 1، 2012.
5. ابن حمو محمد ، التّحصينات العسكرية لمدينة هنين، دراسات تاريخية، العدد1، م 08.2014.
6. خذير إبراهيم،"المنبر وتطوّره في الإسلام"، مجلة المداد، العدد4، المجلد 2، 2014.

7. رحاب محمد السيّد محمد ، ملامح تخطيط العمائر الدينية المرينية بالمغرب الأقصى ومدينة تلمسان بالمغرب الأوسط دراسة أثرية مقارنة، مجلة دراسات تراثية، الجزائر، العدد 1، 2011.
8. الرحبي عياد المبروك عمار، العمارة الإسلامية في الأندلس خلال العهد الموحدى، مجلة الجامعة المغاربية.
9. سالم السيّد ع العزيز، "الفردوس المفقود، الفنّ الأندلسي"، مجلة الدّارة، عدد4، 1983.
10. سالم السيّد عبد العزيز، "العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها"، ج8، دراسات في التّراث عالم الفكر، العدد01، جوان1988، وزارة الاعلام، الكويت.
11. سالم مصطفى، "جهود خلفاء الموحّدين في تطوير مجالهم الدّفاعي"، مجلة الإحياء، مجلد 22 العدد 30، جانفي 2022.
12. بن ساعو محمد ، العمارة التجارية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني من خلال مصنّفات النّوازل والحسبة (07-09هـ/13-15م)، المجلة المغاربية للمخطوطات، العدد 01، ج11، (ص-ص 07-42)، 2015.
13. غرابية خليف مصطفى ، "منهجية الفكر الإسلامي في تخطيط المدينة العربية الإسلامية (ابن ابي الربيع أنموذجاً)"، المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية، العدد، 1 المجلد 8، 2015م.
14. قاسمي هاشم العلوي ، مجتمع المغرب الأقصى حتّى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي، ج2، المحمدية، مطبعة فضالة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، 1995.
15. قربة صالح، "أهميّة تبلباله في تجارة المغرب وبلاد السودان خلال العصر الوسيط"، مجلة دراسات إنسانية، 2001.
16. موهوبي سميح، شلوق فتيحة، الحركة العمرانية ودلالاتها الحضارية بمدينة تلمسان خلال الفترة المرابطية (473-542هـ/1079-1048م)، العصور الجديدة، العدد 03، 2023.
17. بن يحي مصطفى، مدينة هنين في العهدين الموحدى والزياني، (541-962هـ/1146-1545م)، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسّطية، العدد 10، م01، 2024.
18. وارث أحمد، رباط تيط في دكالة تاريخ وعمارة، مجلة رواق، العدد 10، 2021.

19. هدوش صلاح الدين، وعطية عبد الكامل، قراءة تحليلية في تشييد القصر من خلال كتاب "القسمه وأصول الأرضين" لأبي العباس أحمد الفرستائي، مجلة العلوم الإنسانية الاجتماعية، العدد 01، 2021.

20. الرسائل الجامعية:

1. تسكورت يمينه، النافورات وأحواضها بالمغرب الأوسط من القرن 5هـ/11م إلى نهاية القرن 8هـ/14م دراسة فنية أثرية، أطروحة دكتوراه، إشراف عائشة حنفي، جامعة الجزائر 2، 2018-2019، (غير منشورة).

2. حميدي مصطفى، العلماء والسّجال العلمي في المغرب الأوسط ما بين القرنين 7-07-09هـ/13م-15م، أطروحة دكتوراه، إشراف، حميدي مليكة، جامعة لونيبي علي - البليدة -، 2024م. (غير منشورة)

3. الجندي علي محمود عبد اللطيف، مدينة فاس في عصر المرابطين والموحدين، أطروحة دكتوراه، إشراف، محمد عبد الوهاب فضل، جامعة الأزهر، قسم التاريخ والحضارات، 2004.

4. شلوق فتحة، مساهمة المواقع الأثرية والمعالم التاريخية في تطوير السياحة بمنطقة الزيان دراسة أثرية تنموية، أطروحة دكتوراه علوم في الآثار، إشراف صالح بن قربة، جامعة الجزائر 02، 2014/2015م.

5. عطابي سناء، الفقه وتنظيم المجال الحضري في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع الهجري/الثالث عشر - الخامس عشر الميلادي تلمسان نموذجا، أطروحة دكتوراه، إشراف علاوة عمارة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، 2017-2018.

6. عبدوني حسينة، الحياة العمرانية في عهد الدولة المرابطية خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، رسالة ماجستير، إشراف لقبال موسى، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، 2002/2003.

7. عيسى بن ذيب، المغرب والأندلس في عصر المرابطين دراسة اجتماعية اقتصادية 480هـ/540هـ-1056-1145م، رسالة دكتوراه، إشراف أحمد شريفي، جامعة الجزائر، 2008/2009.

8. غرداين مغنية، نظام الحكم في بلاد المغرب في عهدي المرابطين والموحدين دراسة مقارنة (5-7هـ/11-13م) أطروحة دكتوراه، إشراف لخضر عبدلي، (2015-2016).
 9. غومة سالم أبو القاسم، تطور المؤسسة العسكرية في دولتي المرابطين والموحدين في الفترة (451-668هـ/1059-1269م) رسالة ماجستير، إشراف، د نجاح صلاح الدين القاسمي، جامعة الفاتح، 2004/2003.
 10. محروق إسماعيل، العمارة الإسلامية في كتب رحالة المغرب الإسلامي من القرن 7هـ حتى القرن 10هـ/13م حتى 16م، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه علوم، إشراف، أد معروف بالحاج، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2018/2017م.
 11. ولد عمر محمد، العمران الوقفي في الغرب الإسلامي بين القرنين (5-9هـ/11-15م) دراسة من خلال النوازل والشواهد الأثرية، أطروحة دكتوراه، إشراف البشير غانية، جامعة حمة لخضر، الوادي، 2023.
 12. صديقي عبد الجبار ، سقوط الدولة الموحدية دراسة تحليلية في الأسباب والتداعيات رسالة ماجستير، إشراف مكيوي محمد ، جامعة تلمسان، 2014/2013، ص ص 74-84.
- الندوات العلمية:**
1. بوتشيش إبراهيم القادري، دور المصادر الدفينة في كشف الجوانب الحضارية المنسية للمدينة المغربية - دراسة تطبيقية حول مدينة مراكش من التأسيس حتى أواخر عصر الموحدين، المدينة في تاريخ المغرب العربي، الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أشغال الندوة المنظمة من 24-26 نوفمبر، 1988.

الفهارس:

- 1 . فهرس الآيات
- 2 . فهرس الأحاديث النبوية
- 3 . فهرس الشخصيات
- 4 . فهرس الأماكن
- 5 فهرس المحتويات

1. فهرس الآيات: هـ

الآية	السورة	الصفحة
"بسم الله الرحمن الرحيم" وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا	سورة الأعراف الآية 43	2
وقوله تعالى في سورة التوبة: "إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ"	التوبة الآية 18	16
"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"	الآية 200، سورة آل عمران	116
"وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَاكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ."	سورة النحل الآية 5-6.	159
"وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ".	سورة الإسراء 80	128

2. فهرس الأحاديث:

الحديث	مصدر الحديث	الصفحة
لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ	شرح الأربعين النووية	42
"خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا، وَشَرُّهَا آخِرُهَا"	سنن النسائي	75
وَحَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا"	سنن النسائي	75
"جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا"	صحيح البخاري	75
"إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ"	سنن الترمذي	16

فهرس بأهم الأعلام:

25.....	سعد بن أبي وقاص
35-34-25.....	عمرو بن العاص
90-25.....	عمر بن الخطّاب
32-31.....	كريسويل
32.....	كلود كاهن
33.....	موريس لمبارد
58-56-55-35.....	هشام بن عبد الملك
58.....	بشر بن صفوان
42.....	ابن عبد الحكم
297-43.....	ابن أبي الرّبيع
44-43.....	الماوردي
68-49.....	ابن حوقل
56.....	حسان بن النّعمان
158-57.....	يزيد بن حاتم
183-57-56.....	إبراهيم بن الأغلب
58-57.....	زيادة الله
61.....	ابن الصّغير المالكي
186.....	ابن مروان
78-62.....	زيري بن مناد

إدريس بن إدريس.....	65-66.
عبد الله بن ياسين.....	113-117-119-241--298.
الشّريف الإدريسي.....	23-66-146.
عبد الواحد المراكشي.....	86-81-83-85.
طارق يثي.....	66.
أبو يعقوب يوسف.....	69-220.
ابن رشد الجدّ.....	76-147-163-189.
يوسف بن تاشفين.....	65-79-80-85-88-101-123-125-128-129-138-140-
	141-144-145-146-147-186-199-204-211-230-247.
المهدي بن تومرت.....	81-82-83-103-118-129-133-216-217-222-226-245-
	279-291.
عبد المؤمن بن علي.....	81-82-83-84-100-101.
فاطمة الفهرية.....	87-88.
مريم الفهرية.....	87.
ابن أبي زرع.....	85-106-108.
عبد الحق بن معيشة.....	92-128.
ابن الحسن بن علي بن محمد	95.
عبد الرحمان الجيلالي.....	97-98.
ابن مرزوق الحفيد.....	98.

يعقوب المنصور.....	104-109-118-216-220-227.
ابن أبي زيد مخلص بن كيداد.....	61.
إسماعيل الأمغاري.....	117.
القاضي سحنون.....	76-121-131.
القابسي.....	119.
عبد الله بن يونس.....	143.
بختي من ولد يعلى.....	148.
الحاج يعيش المالقي.....	170-223-235.
أبو سعيد عثمان.....	170-223.

المدن والأماكن

البصرة.....	25-28-29-34-53.
الكوفة.....	25-26-34-53-178.
الفسطاط.....	25-26.
تلمسان.....	36-47-50-58-65-70-86-92-93-94-95-96-97-98-99.
	112-117-118-122-146-165-186-195-227-231-236.
مراكش.....	38-41-47-81-83-85-86-100-101-104-109-112-114-116.
	120-122-126-132-140-141-143-144-148-149-151-160-162.
	164-165-166-169-170-171-175-186-187-198-204-205-207-210.
	212-213-214-224-225-226-233.

فاس. 38-43-45-51-65-66-67-69-70-71-82-83-85-86-87-88-89-
 -162-151-150-149-144-130-122-121-120-117-112-101-98-91
 -208-207-205-202-199-195-191-187-186-179-178-172-170-168
 .236-233-228-227-211

قبة الصخرة..... 26-31-39-40

باجة..... 48-220

شرشال..... 48

مليلة..... 48

طنجة..... 48-224

وازيل..... 48

سلة..... 48

سبتة..... 48-112-113-118-121-123

طبنة..... 48-49-58

تيفاش..... 48

مليانة..... 48-61

نقاوس..... 48

طرابلس..... 48

ميلة..... 58

المدية..... 61

إبجيز..... 70-82-165-166-185-213

220-181187-82-91.....	المرية
181-180-154-130-122-7-94-93-92-86.....	ندرومة
116-115.....	تيط
117-88-61-49.....	بونة
236-219.....	السّوس الأقصى
136.....	تمبكتو
139.....	تمنطيط
246-198-185-128.....	أزوكي
246-185-140-139.....	تبلبالة
139.....	تغازي
235-205-141-140-138-116.....	أغمات
216-213-204-144.....	بني تاودا
146.....	بوماريا
146.....	مستغانم
145-60-48.....	الشلف
224-218-167-166.....	جبل طارق
185-167-145-60.....	البطحاء
226-178-127-117-115-100.....	تازة
226-228-216-127-118-115.....	رباط الفتح

تكرارت.....	246-226-212-211-98-94
وليلة.....	212
جبل الفتاح.....	218-166
القبائل والدول:	
مصمودة.....	220-198-197-144-143-84-51
صنهاجة.....	..59.78.79.117.118.144.192.234
لواتة.....	146-60
هواره.....	146-87-60
زواغة.....	60
مطماطة.....	60
هرغة.....	118-84-82
نفيسة.....	202-84-82
هزرجة.....	205-82
مصر.....	89-91-96-70-63-54-50-40-38-20
العراق.....	45-34-25-20
المغرب الأدنى.....	..219-166-165-146-127-119-51-47-40-30
المغرب الأوسط....	224-115-112-100-96-90-78-58-51-49-47-46-36
المرابطون.....	-122-117-116-115-110-99-98-97-96-95-91-90-85-65
	—157-149-146—144-143-.142-141-140-132-137-130-128-125

-217-215-212-211-210-205-202-210-190-192-191-190-185-183
.246

الموحدون...67-71-91-131-137-165-166-167-168-173-174-179-182-
-224-223-219-216-211-208-207-208-205-201-292-186-185-183
.246-245-240-239-238-237-229-228-227-226

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

الإهداء.....	5
شكر وعرفان	6
مقدمة.....	7-13
الفصل الأول: مدخل للعمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى بداية المرابطين. 13-72	
تمهيد	14
أولاً: تعريف العمارة:.....	15
ثانياً: العمارة الإسلامية نشأتها وخصائصها.....	21
ثالثاً: عناصر العمارة الإسلامية وطرزها.....	33
رابعاً: العمران في الفقه الإسلامي وشروط المدائن.....	41
خامساً: الإرث العمراني بالمغرب الإسلامي قبل القرن الخامس الهجري:	46
خلاصة:.....	72
الفصل الثاني: العمارة الدينية في المغرب الإسلامي في عهد المرابطين والموحدين	
.....	74-138
تمهيد	74
أولاً: الأوضاع العامة في عهدي المرابطين والموحدين.....	77
ثانياً: بناء المساجد وترميمها في عهد المرابطين:	86
ثالثاً: بناء المساجد وترميمها عند الموحدين.....	101
-خامساً: الربط والزوايا في عهدي المرابطين والموحدين.....	114
سادساً: الكتابات.....	120

122.....	-سابعاً: دراسة مقارنة.
137.....	خلاصة:
196-138.....	الفصل الثالث: العمارة المدنية في المغرب الإسلامي في عهدي
138.....	المرابطين والموحدين
139.....	تمهيد:
139.....	أولاً: العمارة المدنية في عهد المرابطين:
168.....	ثانياً: العمارة المدنية في عهد الموحدين
182..	ثالثاً: المرافق العامة في المغرب الإسلامي في عهدي المرابطين والموحدين
188.....	رابعاً: دراسة مقارنة
197.....	خلاصة:
	الفصل الرابع: العمارة الحربية في المغرب الإسلامي في عهدي المرابطين والموحدين
249-198.....	
199.....	تمهيد:
201.....	أولاً: العمارة الحربية في عهد المرابطين:
219.....	ثانياً: العمارة الحربية في عهد الموحدين:
234.....	ثالثاً: التأثيرات الأندلسية على العمارة المرابطية والموحدية:
239.....	رابعاً: دراسة مقارنة
248.....	خلاصة:
249.....	خاتمة
255.....	الملاحق
278.....	قائمة المصادر والمراجع

الفهارس:.....301-312.

الملخص:.....

.....313-314.

الملخص:

تهتم هذه الدراسة بتسليط الضوء على جانب العمارة في بلاد المغرب الإسلامي خلال عهدي المرابطين والموحدين والوقوف على نقاط التوافق والاختلاف بين النماطين المعماريين حيث تجلّى التوافق في الاهتمام بالبناء والتشييد والاعتماد على الطراز الأندلسي المغربي فازدهرت الحركة العمرانية بجوانبها المختلفة.

أما نقاط الاختلاف فقد تميّزت العمارة الموحدية بالفخامة والدقة والتركيز الفني واتّضح ذلك في بناء المساجد والمدارس في المقابل اتّجهت عمارة المرابطين نحو البساطة مركّزين على الجانب الوظيفي على جانب الزخرفة، وفي جانب العمارة المدنية تطوّرت بشكل ملحوظ نتيجة عدّة اعتبارات ممّا أسهم في ظهور المدن الكبرى والقصور والدور أمّا في الدولة المرابطية فظلّ الطابع المدني محدودا يغلب عليه الجانب الوظيفي والعملي، أمّا في جانب العمارة العسكرية ركّز الموحّدون على بناء القلاع والأسوار والأبراج في المقابل بنى المرابطون أسوارا متينة حول المدن ونظّموا تخطيطها بأسلوب دفاعي.

Abstract:

This study sheds light on architecture in the Islamic Maghreb during the Almoravid and Almohad eras, identifying points of agreement and disagreement between the two architectural styles. This agreement was evident in the emphasis on construction and building, and the reliance on the Andalusian-Moroccan style. This allowed the urban movement to flourish in its various aspects.

As for the points of difference, Almohad architecture was distinguished by luxury, precision and artistic focus, and this was evident in the construction of mosques and schools. In contrast, Almoravid architecture tended towards simplicity, focusing on the functional aspect rather than the decorative aspect. In the civil architecture aspect, it developed significantly as a result of several considerations, which contributed to the emergence of large cities, palaces and houses. In the Almoravid state, the civil character remained limited, dominated by the functional and practical aspects. As for military architecture, the Almohads focused on building castles, walls, and towers. In

contrast, the Almoravids built strong walls around the cities and organized their planning in a defensive manner.